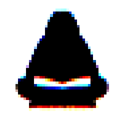


مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
رواية
ممدوح رزق
إثر حادث أليم
إبداعات قصصية
٨

إثر حادث أليم



الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلي الإدارة

د. هيثم الحاج على

رئيس الإدارة المركزية للنشر

د. سهير المصادفة

الإخراج الفنى

صلاح محمد عبد الحميد

تصحيح لغوى

إكرامي فتحي

متابعة

علاء محمد عادل

تصميم الغلاف

هند سمير

إثر حادث أليم

ممدوح رزق

طبعة أولى 2017

ص.ب 235 رمسيس

1194 كورنيش النيل - رملة بولاق القاهرة
الرمز البريدى : 11794

تليفون : 25775109 (202) داخلى 149
فاكس : 25764276 (202)
GENERL EGYPTION BOOK ORGANIZATION

P.O.: 235 RAMSES

1194 COrnich EL Nile - Boulac - Cairo

P.C.: 11794
Tel : +(202)25775109 Ext. 149

Fax : +(202) 25764276
Website: www.egyptianbook.org.eg

E-Mail : ketabgebo@gmail.com

www.gebo.gov.eg

الطباعة والتنفيذ

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

إثر حادث أليم

رواية

ممدوح رزق

إهداء

إلى (ماجدة)...

وإلى (بطوط) الذي كانت تأتي به إلى أحلامي.

(لكنني غالبًا ما أمضي وقتي الآن
واقفًا وراء النافذة
متأملاً ضوء ما بعد الظهر.
في ذلك الوقت
لم يكن الضوء يسقط موحشًا إلى هذا الحد)

بيلي كولينز
(حول بلوغ العاشرة)

غابة العزاء الحقيرة

فكرت أن أبدأ هذه المقدمة بعبارة: (مر وقت على غيابك).. لكن كلماتها حقيقة لم تكن سوى مخالب حادة من الهراء المتبجح، غُرزت في ذهني فور طيرانها بداخله.. ليس هناك زمن يفصل بين (الحادث الأليم) الذي أخرجك من العالم الذي لم تدخله، واللحظة التي أكتب فيها الآن.. الجدير بالذكر أن استخدام صفة (الأليم) هو دعابة مقصودة.. محاولة بائسة للتهكم، تستعمل سادية التعبير الشائع كعدم تصديق لما لا يمكن وصفه.. لديّ الشجاعة للكشف عن هذه الخدعة في السطور الأولى.. الموت جعل وجودك أقوى وأكثر رسوخًا، وذلك بالتأكيد لا علاقة له بكل الزهور السامة التي تعوّد البشر قطفها من غابة العزاء الحقيرة.. أنا لا أكتب نعيًا في (الأهرام) حتى يُفهم أنني أريد التوصّل إلى صياغة بديلة، فائقة الأناقة، تخفف من الابتذال الكامن في كليشيه مثل (أنت لا زلت تعيش بداخلي).. الوجود الذي أقصده، والذي صار أقوى وأكثر رسوخًا بعد الموت لا شأن له بحياتك، التي لن يجد الآخرون صعوبة في التحدث عنها بثقة.. إذا كان هناك وقت قد مر بالفعل وفقًا للساعات والأيام؛ فتأثير ذلك لا يتعدى أني أصبحت قادرًا على الكتابة، وهو ما لم يكن بوسعي قبل هذه اللحظة.. سيكون من العماء الفادح

إرجاع الأمر للخفوت المنطقي المعتاد للألم مع مضي الزمن.. هل كان هناك ألم أصلاً حتى يسهل قياس خفوته التدريجي؟!.. الألم في النهاية قنفذ أزلي تعيس، عالق داخل المصائد الكوميدية للغة.. لكن هناك في الموت ما ليس له علاقة بمرور الوقت.. الصمت الحتمي.. الظلام المغلق على ذاته، والمتناثر داخل جميع الفراغات.. الذي سيظل في حرب للأبد ضد الخنادق الصوتية التي تطارده للاختباء في وعودها.

أصدقائي الأعزاء...

كتب أبي مذكرات طفولته، وأعطاها لي؛ كي أحتفظ بها قبل (الحادث الأليم)، الذي أخرجه من تلك الفكرة السيئة التي تُسمى الحياة بفترة قصيرة.. مازلت أعتبر هذا تصرفًا عاديًا، غير مكلل برهبة الشعور التقليدي الغامض بدنو الأجل، أو بسحر الترتيب الغيبي المبهم للقدر، الفخور بمعجزات الحكمة المختبئة.. لقد حدث هذا وحسب، مثلما كان يمكن أن يحدث أي شيء آخر.. حاولت أن أكتب هذه السطور القليلة مثلما كتب أبي مذكراته.. أن أتقمّص روحه، وبشكل أعمق أن أتوحد بتلك النظرة التي كانت لعينيه في أثناء الكتابة.

في مقاله عن السيرة الذاتية (ذكريات تراني) لـ (توماس ترنسترومر)، والذي يحمل عنوان (خيال الذاكرة) كتب أبي هذه السطور التي يهمني استرجاعها قبل الاستمرار في الكتابة:

(يروق لي تأمل هذه الفقرة التي كتبها «ترنسترومر» في بداية السيرة، وتحديدًا في فصل «ذكريات»:

"تجاربنا المبكرة في معظمها يصعب الوصول إليها؛ فهي لا تزيد على كونها مرويات، وذكريات للذكريات، وإعادة تركيب مبنية على حالات مزاجية تتوهج بشكل مباغت في الحياة".

كيف تكون التجارب المبكرة "ذكريات للذكريات"؟

إنني أستطيع تحليل هذا التعريف في ضوء استدعائين ملهمين في

تصوري؛ الأول لـ "خابير ماریاس" من روايته "قلب ناصع البياض":
"حتى الأشياء التي لا تُمحى لها زمن معين. مثل تلك التي لا تترك أثرًا أو لم تحدث أصلاً. وإننا نتدخل وننتبه لها أو أن نسجلها أو نصورها، وأن نمتلئ بالذكريات، بل وأيضًا نحاول أن نستبدل بما حدث ما نملك من أحداث وأرشيف لما جرى، بطريقة ما، وكأن ما جرى في الحقيقة منذ البداية هو توقعنا أو تسجيلنا أو تصويرنا لها، هذا وحسب؛ والآن بهذا التمام الدقيق للإعادة نكون قد أضعنا الوقت بترتيب الأشياء كما وقعت فعلاً (حتى لو كان الزمن هو وقت الانتباه)، وبينما نلجأ لاستعادته أو إنتاجه من جديد، أو نعمل على منعه من أن يكون ماضيًا، فزمن آخر مختلف سيقع حتمًا".
الاستدعاء الثاني لـ "باسكال":
"الأفكار التي تهرب، أريد أن أكتبها، أكتب عوضًا عن ضياعها مني".
إذن يمكن الإجابة عن السؤال السابق: كيف تكون التجارب المبكرة "ذكريات للذكريات" بتعبير "توماس ترنسترومر" من خلال اقتراح أقرب إلى المعادلة التي تزاوج بين الاستدعائين السابقين؛ فإذا كان في استعادة التجارب المبكرة يكمن شكل من "الخلق المختلف للذكريات" الناجم عن تدخلنا وانتباهنا وتعديلنا لما يتم استرجاعه، وبما أننا عند كتابة هذه الأزمنة التي أُعيد إنتاجها نواجه ضياعها، فتتحول الكتابة إلى محاولات تعويض عن فقدانها، فإن الكتابة إذن ـ كما ينطبق على السيرة الذاتية لـ "توماس ترنسترومر"، هي اكتشاف العالم المخبوء داخل الاستدعاءات القاصرة لذكريات غير مضمونة.
هذه الذكريات هي التي تحتل موقف الفاعل المسيطر ـ لكونها غير مضمونة ـ وهي التي ترى؛ أي تراقب وتتفحص ذلك الذي لا يتوقف عن خلقها، أي أنها الماضي الذي يستعمل هذا الخالق كي يستمر في الحياة وفقًا لخيالاته المتغيرة. لنقرأ ما كتبه "ترنسترومر" في قصيدة

"أمسية ديسمبرية":
"هأنذا الرجل اللامرئي، الذي ربما تستخدمه / الذاكرة الكبيرة، حتى يعيش الآن").
كتب أبي هذه المذكرات كأنه يترجم أفكاره ومشاعره الطفولية إلى لغة أخرى.. الكلمات التي كان يمكن أن يستخدمها هذا الطفل للتحدث عن حياته لو امتلك قلبه معجمًا أكبر.. الكلمات التي كان يجب أن يستعملها.. تفسير لصمته.. استنطاق الفراغات الهائلة بين الألفاظ الصغيرة التي جرّبها.. استكمال العبارات التي تركها ناقصة.. كان أبي يفكر في أن ذلك يمثل تأكيدًا للخسارة المضمونة التي تلحق دائمًا بالأفكار والمشاعر الطفولية عند استرجاعها.. خيانة لحياة الطفل كما كانت بالضبط، وانتهاك الكمال المثالي لصمته وفراغاته ونقصانه.. لكنه أيضًا كان يفكر في أن الكتابة الآن ربما كانت ظلاً عظيمًا مخفيًا لجسده الضئيل في سنوات الثمانينيات.. كأنه كان يريد بواسطة هذه المذكرات أن يدبر نوعًا من التواطؤ بين وجوده الحاضر وذلك الماضي البعيد، ليس فقط لتوثيق ما ثبت كحقيقة، أو لتأكيد الاستسلام المطمئن للخيال كمتمم بارع للواقع القديم، ولكن أيضًا ـ وربما قبل أي رغبة أخرى ـ لخلق الذات الأصلية التي عاشت هذه الحياة مثلما ينبغي أن توجد خارج ما حصل فعلاً، وما يُحتمل أن يكون قد حدث.
سأوالي نشر المذكرات بدءًا من المسودة القادمة، وليس لي رجاء سوى التكرم بعدم كتابة عبارات المواساة، أو تمني الرحمة، أو الوقوف في صفوف منتظمة لتقبيل مؤخرة (الجنة) اللامعة.

المسودة الأولى

في نهاية المساء الشتائي الذي يسبق صباح أول أيام الدراسة أخرج إلى البلكونة.. أضع قدمي اليمنى داخل فتحة من فتحات السور المربعة، والمتجاورة ثم أصعد بجسدي الصغير مستندًا إلى الحافة العريضة واضعًا قدمي اليسرى داخل فتحة السور الملاصقة للأولى.. أقف ببيجامتي الكستور مرتفعًا عن الأرض سنتيمترات قليلة.. يمكنني هكذا أن أحصل على رؤية أفضل للشارع الخالي.. أضواء قليلة تتثائب تحت الستار الشفاف الهائل للضباب الليلي الذي يغطي العالم ليساعده على النوم.. عمود كهرباء أنهكه الوقوف الطويل أمام البلكونة، ويتمنى أن يغمض عينه الوحيدة التي تنظر دائمًا لأسفل، وينبعث من تثاقلها نور أصفر شاحب.. مصابيح نيون بيضاء وخضراء، يرتعش خفوت أضوائها فوق لافتة (مخبز الأمانة ـ إدارة «خلفاء بدير الشربيني»)، قبل أن تتمدد بوهن فوق الرصيف المنكمش.. ضوء أبيض ضعيف يتمطى من داخل الفرن عبر مدخله الضيق المفتوح، ومن خلال الثقوب الصغيرة المتشابكة لواجهته الحديدية ممتزجًا بثرثرة الفرانين، وصوت الراديو الذي يشاركهم الخَبْز في وردية الليل.. بابان خشبيان مواربان لدكان قديم، يحددان مساحة ضئيلة لشق ناعس يجلس وراءه (شيخ علي)

النجار العجوز برفقة أصدقائه، الذين ينتهي يومهم وسط أخشابه كل مساء.. تندمج ضحكاتهم وهي تصعد خفيفة إلى أذنيّ بسعال متقطّع لأفواههم التي تتبادل ضخ أمواج الدخان المتلاحقة نحو سقف الدكان، حيث يعوم ضوء النيون الأبيض الباهت مع غناء (أم كلثوم).. هي الأصوات التي سأظل أسمعها وأنا مغمض العينين في سريري، كتهويدة تنبعث من وراء الشيش داخل الظلام المخفف بضوء وناسة الصالة.. لا أحد يمشي في الشارع، ولا أحد يقف في نوافذ البيوت.. كأن الضباب الذي يملأ كل الفراغ بين السماء والأرض هو وسيط الحياة الذي يحمل من أجلي رسالتها الشخصية لتحثني على النوم.. أشم الرائحة الوردية للملابس المنشورة التي غُسلت بمسحوق (سافو) أو (رابسو) أو (أومو)، والمتناغمة مع الهواء البارد، والسكون، وغيوم الشتاء التي تتكاثف في روحي كلما اقترب موعد بداية الذهاب إلى المدرسة.. غدًا سأستيقظ في الصباح الباكر.. استحممت منذ قليل مستمتعًا برائحة صابون (لوكس) أو (بالموليف) أو (كامي) بالأنواع المختلفة.. أختي (ماجدة) تكوي مريلتي، والبنطلون البني الداكن في حجرتنا.. هدوء ليلي يحتضن رائحة شنطة الدراسة الجلدية، ذات اللون البني الفاتح، وكتب الابتدائي بداخلها.. كان عندي عدة بيجامات: بيضاء مع نقوش صغيرة لونها كحلي، تشبه الفراشات.. بيضاء أخرى مع نقوش خضراء صغيرة تشبه الفراشات أيضًا (ربما كانت نسخة خضراء مطابقة للأخرى ذات اللون الكحلي).. بيجامة لونها بيج تنتشر فيها دببة حمراء صغيرة مع أشكال هندسية حمراء أيضًا.. بيجامة أخرى لونها بيج كذلك مع خطوط حمراء بالطول.. مجموعة بيجامات مقلّمة (خضراء ـ زرقاء ـ أخضر في أزرق ـ أخضر في زيتي).. بيجامة على شكل بدلة كاراتيه كاروهات بألوان البيج والأسود والأبيض والبني الداكن، وكان لها حزام لونه بيج.. أكثر من بيجامة على شكل (ترنج) منها اللبني ذات الياقة

والأساور الكحلي، والأخرى ذات اللون البني الفاتح.. كانت جدتي هي التي تقوم بتفصيل هذه البيجامات.
مريلة (تيل نادية) لونها بيج ذات جيبين واسعين، مكوية ومفرودة فوق مسند الكرسي الخشبي بجوار البلكونة.. كانت المريلة تُغلق بأزرار خلفية، وكان لها حزام يمر عبر فتحتين كلٍ منها في جانب ثم يُربط من الظهر.. كان لديّ أيضًا بنطلون لونه أزرق فاتح، وحذاء أسود تنام فوق وجهه بالعرض سلسلة ذهبية ذات دوائر متشابكة.. كنت أرتدي كرافتة حمراء صغيرة تُلبس فوق المريلة، وفي إحدى السنوات استُبدلت بها كرافتة أخرى لونها كحلي.. سواء كانت حمراء أم كحلي كانت الكرافتة التي أرتديها دائمًا تفصيل على عكس ما كان يرتديه زملائي في الفصل بل في المدرسة كلها؛ إذ كان كل تلميذ يضع كرافتة جاهزة، صغيرة، قماشها خفيف، فاتحة اللون حينما تكون حمراء، ذات أستك عريض وأنيق، مخصص للكرافتات.. كانت هذه النوعية تُباع في السوق، وتحديدًا في مكتبة (عم أحمد) بجوار مطعم (المصري) في (ميت حدر)، أما الكرافتة التي كنت أرتديها في عنقي فكانت كبيرة وثقيلة، منسوجة من الصوف السميك المُضلّع، كما كان احمرارها غامقًا جدًا، ولها أستك رفيع من النوع الذي يُستخدم في الكلوتات.. بسبب إصرار أمي وأختي على تفصيل كل شيء مهما كان بسيطًا كنت أمشي بحرج هائل نتيجة إحساسي بأن جوربًا صوفيًا ثقيلاً يتدلى من رقبتي..
فوق الطاولة منبّه دائري بخلفية سوداء، وأرقام خضراء فوسفورية تلمع في الظلام.. كان لدينا منبّه آخر قديم لونه أخضر فاتح، يتكوّن من ساعة مستديرة، وقاعدة بيضاوية، وله مفاتيح في ظهره للضبط.
مع تعاقب أيام الدراسة، ومع اشتداد البرد الذي كان يجعل من الاستيقاظ في الصباح الباكر عذابًا يوميًا أتصوره سيستمر للأبد؛ كنت في العاشرة من مساء كل ليلة أنظر إلى ساعة الحائط المعلقة

فوق (الدلسوار) البني بلونها الذهبي، وأرقامها السوداء، وأقول في نفسي محاولاً تخفيف الهم الثقيل إنه لا يزال متبقيًا لي وقت طويل من النوم الدافئ تحت البطانيتين واللحاف حتى تصل الساعة إلى الحادية عشرة ثم إلى الثانية عشرة ثم الواحدة ثم الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة حتى أستيقظ.. هكذا كنت ألعب بالزمن؛ لأجبره على المرور في خيالي أبطأ من سرعته الفعلية في الواقع.

الصباح الباكر.. أنظر إلى أشياء المدرسة التي تركتها أمس فأشعر بها تستيقظ مثلي، وتنظر عبر زجاج البابين المغلقين للبلكونة، وشقوق الشيش الأخضر الداكن، وتتخيل البرد الأبيض الممتد من البيت حتى بوابة المدرسة.. أشعر بنعاسها يستكشف العالم الذي ينتظرني بعد تجاوز هذه البوابة.. (فتحية) بائعة اللبن.. الفلاحة ذات القوام الطويل التي ترن جرس الباب أحيانًا قبل أن نستيقظ، وأحيانًا والنوم ما زال يضغط عينيّ وخطواتي التي تعبر الصالة من حجرتي إلى الحمام، بينما أمي ـ التي ربما لم تغسل وجهها بعد ـ تفتح لها الباب.. تتسلل دفقةٌ ناعمة وخافتة من الضوء الأزرق الغائم لبرد الصباح داخل السكون المظلم للبيت من خلال الباب المفتوح لمسافة صغيرة.. تهمس (فتحية): (صباح الخير)، فترد أمي بنفس درجة الهمس (صباح النور)، ثم أسمع صوت الكوز في يد (فتحية) وهو يأخذ اللبن من السطل ثم يسكبه داخل الحَلّة التي تحملها أمي.. كان صوت اللبن حريريًا وهو ينساب داخل الحلة، متآلفًا مع نقاء الضوء الأزرق الغائم لبرد الصباح الذي يتسلل عبر الباب.. كأن صوت سكب اللبن هو نغمة مرور هذا الضوء أو إيقاع البرد الصباحي.. كانت (فتحية) تبدو حينئذ كأنها تسكب الضوء الأزرق الغائم إلى ظلام البيت بينما تسكب اللبن.. تتحدث أمي معها بكلمات مقتضبة، ملتزمة تمامًا بمستوى الهمس.. كلمات أدرك أنها لا

تتعلق باللبن، وإنما بشيء آخر، ربما بحياة (فتحية) أو بحياة (أمي) أو بحياة أخرى لا أعرفها.. يحدث هذا الحوار القصير يوميًا، كأنهما تكملان كل صباح ما لم تنجزه كلماتهما المقتضبة في الصباح السابق.. كأن الحيوات التي يتحدثن عنها لا تتطلب أكثر من هذه الحوارات القصيرة.. لكن الكلمات كانت تبدو كأنها تخص أمورًا لا يمكن التحدث فيها إلا خلال الصباح الباكر، وبهذا الصوت المنخفض.. أشياء لن يتم تبادل الكلمات عنها كما ينبغي في وقت آخر وبطريقة مختلفة.. ماذا لو أن أمي و(فتحية) كانتا تنتهزان في الحقيقة تلك الفرصة اليومية العابرة لاستدعاء كل ما تقدرا عليه من حكاياتهما لغمرها سريعًا باللذة التي تمزج لون اللبن وصوت انسكابه مع ضوء الصباح الباكر؟.. أسمع من داخل الحمام صوت غلق الباب، وخطوات أمي وهي تعود إلى المطبخ؛ فأعرف أن التمتمات المشتركة بينهما التي تحتفل بالبرد قد انتهت.

كانت (ماجدة) تُحضّر لي أحيانًا ساندويتشات المدرسة في الصباح، وتملأ الزمزمية الخضراء، وتغلق لي أزرار المريلة، وتربط حزامها من الخلف.. كانت الساندويتشات لا تخرج عن: بيض مسلوق.. بيض مقلي.. بيض مسلوق بالجبنة البيضاء أو الجبنة الصفراء.. جبنة رومي.. جبنة فلمنك.. لانشون.. مربى تين أو فراولة من نوع (فيتراك).. جبنة (كيري) أو (لافاش كيري).. بلح أسود.. عجوة.

إفطاري: ساندوتش جبنة مع كوب شاي بلبن.

مع ازدياد البرد كنت أرتدي أيضًا فوق المريلة: جاكت أسود جلد.. بلوفر أخضر صوف بسوستة طويلة.. بلوفر بيج مع مساحة عرضية باللون البني فوق الصدر والذراعين مطرز بها أشكالٌ هندسية صغيرة.. بلوزة حمراء قطيفة، خفيفة، برقبة مفتوحة.. بلوفر بلونين الأبيض والأخضر الفاتح.. بلوفر صوف خفيف، لونه بيج فاتح.. جيليه تريكو، لونه بني

محروق.. كنت أحيانًا ألبس بلوفرين: واحدًا تحت المريلة والآخر فوقها.. كان ارتداء بلوفر فوق المريلة يجعلها تبدو منفوشة من أسفل كفساتين البنات، وكان ذلك يصيبني بالخجل أحيانًا.

لا أعرف كيف أنزل سلالم البيت.. أقف خائفًا فوق عتبة الدرجة الأولى، وأقول لأمي التي سبقتني لأسفل بدرجتين: (شيليني)...

تقول لي بلهجة آمرة، ونظرة حادة: (إنت مش صغير، وتقدر تنزل لوحدك)...

أكاد أبكي، ثم أطلب منها مجددًا: (أنا خايف.. شيليني)...

تصر على عدم حملي.. تكتفي بمد يدها لأعلى حتى أمسك بها، وأستند إليها ثم أنزل بتمهل.. ربما كانت قدماي متجمدتين من البرد ولا أستطيع تحريكهما إلا بصعوبة بالغة، وربما كنت أحيانًا أرى السلالم شديدة الارتفاع حتى لو سبق أن نزلتها بسهولة من قبل.

الشنطة على ظهري، وبداخلها الكتب والكشاكيل والكراريس وأدواتي المدرسية وكيس الساندوتشات، أما الزمزمية الخضراء بغطائها الأسود الدائري المضلّع فمُعلّقة في رقبتي بالخيط البلاستيكي الأحمر الذي يشبه أنبوبًا طويلاً.. كانت لهذه الزمزمية رائحة قوية، تزداد ثقلاً كلما قربت حافتها من أنفي وهي فارغة لاستنشاق باطنها.. يمكنني تشبيه هذه الرائحة الآن بأنها كرائحة الصخور التي تتدفق ماء النبع من داخلها.. كأن الشرب من الزمزمية كان يعني أن أمد كفي الصغيرة ـ كما كنت أفعل في طفولتي مع حنفيات المدرسة، ولازلت مع حنفيات البيت ـ لأحتوي الماء النقي لهذا النبع في راحة يدي المجوّفة وأشرب.. كان طعم الماء من الزمزمية يبدو كأنها تُصفّي تلقائيًا ماء الحنفية المنهمر عبر فوهتها؛ ليتحوّل إلى ماء نبع فعلاً.. هذا ما جعل العطش شعورًا دائمًا لم يفارقني منذ أن توقفت عن الشرب من هذه الزمزمية، وعن استنشاق عمقها الأخضر.. منذ أن فقدتها.

أخرج مع أمي من بوابة البيت.. أتطلع للضباب الثلجي الناعس الذي يغطي واجهات البيوت، والمحلات المغلقة، ومبني المدرسة الكبير.. كأن الطريق القصير الفاصل بين منزلي والمدرسة ليس سوى ممرٍ ناعم من الريش بين جناحي طائر أبيض خرافي.. كفي في كف أمي.. الصباح الباكر.. رجفات الصقيع في ظهري، وأصابعي متجمدة داخل الجورب والحذاء.. أحيانًا كنت أرتدي الجوانتي الكروشيه الكحلي الذي نسجته لي (ماجدة).. غيوم كثيفة وهواء بارد ومطر خفيف وبخار ماء ورائحة احتراق مازوت قادمة من مدخنة الفرن المواجه للبيت، مختلطة بروائح حرائق أخرى غير مرئية.. أدخل من بوابة المدرسة حيث المصباح الأصفر الصغير مضاء داخل الغيوم الباردة في سقف المدخل.. أركز بصري للحظات قليلة نحو المساحة الأمامية الصغيرة التي تسبق سلالم المعلمين المقابلة للبوابة، ثم أتوجّه يمينًا فوق بلاط الردهة نحو الفناء وأقف في الطابور.. أستاذ (عزت) مدرس الألعاب يمسك بالميكروفون.. تمارين الصباح: الذراعان لأعلى.. تصفيق.. للأمام.. تصفيق.. لأسفل.. تصفيق.. صفا وانتباه.. النشيد الوطني (بلادي بلادي).. زميلتي في الفصل (سلوى) تجلس في منتصف الفناء على ركبتيها وتعزف على (الإكسيلفون).. بجوارها تلميذة من فصل آخر تدق على الطبلة الكبيرة المرفوعة فوق كرسي خشبي، وأخرى تُحرك أصابعها فوق مفاتيح (الأكورديون).. نتحرك مع موسيقى (يا أغلى إسم في الوجود) إلى الباب الداخلي للفناء في نهاية الردهة السفلية، بجوار البوابة الفرعية التي تطل على حارة (العطافي).. نصعد السلالم، ثم نمر على المدخل الخالي للطابق الذي ستجلس في ظله أبلة (فاطمة) على كرسيها في أثناء الفسحة بجوار دكة (الكانتين): لبان (بم بم) في العلب الحمراء المفتوحة، وصورة سيارة على كل باكو.. لبان (تشكلتس).. لبان في أكياس صغيرة، كل كيس فيه ثلاثة قطع على شكل كرات ملونة (أحمر ـ أخضر

ـ أصفر).. لبان (هارتي).. لبان (باطوق) بالفراولة والموز.. لبان (سيما) الذي كانت كل قطعة منه تحمل صورة لعلم دولة.. بونبون (بستلية) مربعات صغيرة بألوان مختلفة: أحمر وأصفر وبرتقالي، وكل واحدة مرسوم على غلافها الورقي الوردة التي تحمل لونها.. بونبون أحمر في ورق بلاستيك شفاف (فراولة).. بونبون دائري ذو أغلفة شفافة: الأحمر والأبيض والبرتقالي.. بونبون وطوفي (إكلير) بأغلفته الذهبية ذات الأطراف الزرقاء.. علب كارتونية مفتوحة بداخلها: (بسكويت "لوكس".. بسكويت "ماري".. بسكويت "الشمعدان" بأغلفته الحمراء والصفراء والخضراء.. بسكويت "بيمبو" الدائري بالشوكولاتة.. بسكويت "نواعم".. بسكويت "تاك" المملح).. شوكولاتة "جيرسي".. ثلاجة الـ (كوكا كولا).. مصاصات (سيما): الحمراء (الفراولة)، والصفراء (الليمون)، والبرتقالي (البرتقال)، والبني (القهوة).. مصاصة مستديرة ذات أنبوب أبيض صغير ورفيع جدًا، وبغلاف شفاف.. مصاصة طويلة مستطيلة.. أكياس (الكاراتيه) أو (البوزو) الصفراء والخضراء والبرتقالية، التي كنت أشتريها أيضًا من دكان (أبو كمال) بشارع (سينما أوبرا).

كان (أبو كمال) رجلاً عجوزًا يضع نظارة، ويرتدي طاقية وبالطو ثقيلاً، وكان يداعبني دائمًا بادعاء ضعف السمع كلما طلبت منه شراء شيء.. أقول له مثلاً: (عايز كيس بوزو)؛ فيرد مستفهمًا (عايز لحمة؟).. كنت أشتري من دكانه أيضًا أكياس الشيبسي الحمراء، و(البي نات)، والنوجا ذات الكيس الصغير باللونين الأبيض والأخضر.. أتذكر أنني ذهبت إلى دكانه عصر أحد الأيام لشراء علبة سجائر أو أمواس حلاقة لـ (مجدي)، وعند منعطف شارع (سينما أوبرا)، وقبل خطوات قليلة للغاية من الدكان تذكرت نكتة.. كانت نكتة بارعة سمعتها أو قرأتها في وقت سابق، ولا أتذكرها الآن، أجبرتني على الضحك خلال تلك المسافة القصيرة حتى وصلت إلى دكان (أبو كمال) حيث كان الواقف هناك

هو (كمال) ابنه، وكان أكبر مني بما يقارب عشر سنوات.. لم أستطع التوقف عن الضحك وأنا واقف أمامه أمد يدي بالنقود، بينما ينظر لي مستغربًا بضيق.. ظللت أضحك غير قادر على الكلام، بينما كان استياء (كمال) يتصاعد، ويسألني بغضب: (عايز إيه؟).. (بتضحك على إيه؟)، والنكتة لا ترحمني، وتُعاد في رأسي؛ فأستمر في الضحك، ويدي مرفوعة بالنقود، و(كمال) يرفض أن يأخذها حتى أتوقف، ويعرف ماذا أريد.. ظللت هكذا عدة دقائق جاء خلالها أكثر من زبون إلى الدكان ليقف بجواري ويشتري شيئًا ثم ينصرف وهو يرمقني بتعجب، حتى أن أحدهم انتقلت إليه العدوى بشكل أخف؛ فابتسم لي محتارًا، وهو يبدّل نظراته بيني وبين وجه (كمال) المحتقن حتى تمكنت في النهاية من إيقاف الضحك، وطلب الغرض الذي جئت من أجله؛ فأحضره الشاب المغتاظ وأعطاه لي، بالضبط كأنه يقول: (أتمنى ماتجيش تشتري حاجة من هنا تاني).

في اليوم الأول من السنة الأولى لم أقف في الطابور.. ذهبت بعد انتهائه مع أمي، وصعدنا إلى الفصل ـ حيث كانت أصابع الطباشير الأبيض، والبشاورة الإسفنجية الصفراء فوق حافة السبورة ـ وأجلستني بجوار (محمد روّاش).. سألته: (إسمك إيه؟).. قال لي: (محمد).. ثم تغيّر ترتيب الجلوس بعد ذلك.

من ناحية الباب:

ـ مجاهد إبراهيم (حضر إلى بيتي ذات يوم، وعلمني في حجرة الصالون كيفية لعب "البلي").

ـ محمد روّاش ـ وليد بدير.

ـ جيهان إبراهيم (كانت فتاة قروية سمراء، تتولى أمها ذات الملابس الريفية زاعقة الألوان توصيلها يوميًا إلى المدرسة، وكانت تحمل لها حقيبتها والزمزمية ذات اللون الأحمر والغطاء الأصفر.. رأيت أباها

يقوم بتوصيلها ذات مرة، كان أسمر أيضًا وله شارب كبير، وكان يحمل ـ مثل أمها ـ الحقيبة والزمزمية.. ذات مرة نبّهت عليها أبلة "خلود" بألا تجعل أمها تحمل لها حقيبتها والزمزمية بعد ذلك لأنه أمر لا يصح؛ إذ يجب عليها أن تحمل أغراضها بنفسها).

ـ سعدية.

ـ حنان (كانت طفلة بدينة، ولوجهها ملامح امرأة عجوز، تتشابه كثيرًا مع (دقدق) في مجلة (ميكي).. كان شعرها مجعدًا، وترتدي مريلة باهتة، كما كانت تلميذة بليدة.. لم تكن صديقة لأحد، ولا أتذكر أنني رأيتها تشارك الفتيات الكلام أو اللعب أو الغناء حتى مع البنتين اللتين تشاركانها نفس الدكة.. كانت دائما متجهمة وخائفة كأنها مخطوفة، وكنت أتقزز حينما يُطلب منها الإجابة على سؤال، فتفتح شفتيها الكبيرتين بصوت لاذع كأنهما كانتا ملتصقتين بالصمغ.. كان صوتها منفرًا أيضًا، وكنت أنظر لها فتبدو لي كتمثال غامض ومخيف، وضعته أسرة متآلفة في أحد أركان حجرة المعيشة لسبب مجهول.. ذات مرة كنت ألعب في الردهة أمام أبواب الفصول، وكانت هي واقفة، تنظر بعينيها الضيقتين إلى بقية التلاميذ.. كانت يدها تستند إلى الجدار، وفي أثناء اللعب رفعت يدي بحركة تلقائية فلمست يدها لمسة خاطفة دون قصد.. شعرت بالرعشة المفزوعة ليدها وهي تبعدها بسرعة كأن سلكَ كهرباء عاريًا قد مسّها.. نظرت إلى يدي، وأحسست بأشواك كثيفة تنمو فجأة تحت الجلد فتجاوزت الشعور بعدم الراحة لوجودها إلى الإحساس بالغضب من هذا الوجود.. بعد مرور سنوات كثيرة جدًا كنت أقف مساءً داخل البلكونة القديمة لبيت أسرتي القريب من المدرسة.. رأيت (حنان) تمر.. صارت أكثر بدانة، ووجهها لازال كما هو عدا المكياج الخفيف، في حين أصبح شعرها ناعمًا بدرجة ما.. كانت المرة الأولى التي أراها بعد انتهاء المرحلة الابتدائية، وشاهدتها تمشي باتجاه

المدرسة.. تمنيت وهي تعبر أمام بوابتها المغلقة أن تحرّك رأسها نحو اليمين وتنظر إليها، لكنها لم تلتفت إلى المدرسة على الإطلاق.
ـ علي فريد.
ـ سماح (كانت أبلة "خلود" تصرخ فيها وهي تضربها بالعصا بعنف في جميع أجزاء جسمها ـ عدا الوجه ـ وتخبرها بأن رائحتها النفاذة الكريهة تبدو كأن إخوتها الصغار قد تبولوا جميعًا عليها وهم نائمون بجوارها).
ـ سلوى.
ـ أحمد حافظ ـ محمد العدوي ـ وليد إسماعيل.
ـ محروس.
الصف الأوسط:
ـ أنا (حقيبتي وراء ظهري ـ في حالة جلوسي بين تلميذين ـ أو بجوار قدمي في أثناء الجلوس عند أحد الطرفين؛ إذ كان وضعها أمام قدميّ سيمنع من إراحتهما فوق المسند العريض المرتفع للدكة).
ـ عادل فتحي ـ خالد جلال.
ـ نيفين (كانت بيضاء بجسم ضئيل، ومصابة بالزكام دائمًا، وربما هذا ما كان يجعل أنفها أحمر طوال الوقت، وهي تجففه بالمنديل الورقي الثابت في يدها الصغيرة.. كانت ترتدي فوق المريلة شالاً صوفيًا بلون سماوي، وبشراشيب طويلة، وكرات كبيرة بألوان زرقاء ورمادية.. أتذكر أنها ارتدت فوق المريلة ذات مرة جاكيت جلد لونه كحلي، مبطنًا بالفرو الأبيض، وله غطاء للرأس يتدلى على الظهر.. كان يملأ شعرها الذي يأخذ شكل الكحكة من الخلف فيونكات صغيرة ملونة أغلبها حمراء.. كانت رقيقة ومسالمة وكوميدية بما يتجاوز أي فكرة ممكنة عن الطيبة الممزوجة بخفة الدم.. كان صوتها خافتًا كمواء قطة ضعيفة، وكانت تبتسم وتضحك كثيرًا، ولم تفوّت يومًا دون أن تخبرنا في حصته الأولى

ـ بهدوئها الأبيض، ووداعتها المتوردة، ودون كلمة واحدة ـ أنها تناولت بيضًا مسلوقًا على الإفطار.. أعتقد أنها لم تكن معنا منذ الصف الأول، كما أنها زاملتنا عامًا واحدًا أو عامين ثم انتقلت إلى مدرسة أخرى، لكن ذكرى البيض المسلوق ظلت في قلوبنا).

ـ أحمد شلبي (ذات يوم أوصلناه أنا و»وليد بدير» وزملاء آخرون لا أتذكرهم إلى بيته في «طلخا».. ربما كنا نريد الحصول على غرض متعلق بالدراسة.. فوق كوبري القطار أراد أن يخرج شيئًا من حقيبته لكن «السوستة» لم تطاوعه فقال لها: «اتفتحي يا بنت الكلب».. ابتسم «وليد بدير» مطمئنًا أن الولد المهذب، الخجول، المتفوق قد بدأ يفيق من غفلته التي دخل بها إلى مدرستنا؛ ليتخذ أخيرًا الطريق الصحيح في الحياة.. كانت الأشجار الكثيفة تفصل بين بيته والنيل، وكان ضوء النجفة عصرًا يعمّق السكينة الشتائية الباردة داخل هذا البيت، وفي الخارج أيضًا حيث النوافذ والشرفات امتدادات متباينة لغيوم العصر البيضاء التي ستمطر حالاً.. كانت العمارات العالية تبدو في هذه اللحظة كأن وراءها بحرًا هائلاً أو حقولاً خضراء شاسعة.. أظن أنني و»وليد بدير» ذهبنا إلى بيت «أحمد شلبي» في يوم آخر مساءً، وأنه عند عودتنا توقفنا عند سنترال صغير في «طلخا»؛ لأن «وليد» كان يريد أن يُجري اتصالاً تليفونيًا.. كنت أقف عند عتبة السنترال فيما بين الإضاءة الصفراء القوية للسنترال، والظلام الممطر للطريق الخالي، والصامت، المحفوف بالأشجار أمام النيل.. كأنني أراقب تواطؤ عناصر سحرية لمغامرة مثيرة على وشك أن تبدأ: «المساء.. الإضاءة الصفراء.. مكان صغير منعزل.. مكالمة تليفونية.. الظلام.. المطر.. الأشجار.. النيل.. الفراغ البارد.. الصمت.. الغيوم الداكنة التي تغطي بيوتًا مغلقة على الأسرار».. هذا المشهد لا يزال مستقرًا في أحلامي حتى الآن.

ـ تامر بهجت (اقترح ذات يوم أن نشترك في جمعية أنا وهو و»أحمد

شلبي»، ثم انضم لنا «مصباح يوسف» و«سماح نعيم» وآخرون بحسب ما أتذكر.. كان على كل فرد أن يدفع «بريزة» يوميًا، لكن هذه الفكرة لم يستمر تنفيذها أكثر من ثلاثة أيام بسبب عدم التزام بعضنا، الذين لم أكن منهم؛ فأعاد لكل تلميذ ما دفعه، ومزّق ورقة الحسابات المدوّن فيها أسماؤنا).

ـ محمد عبد العزيز.

ـ سماح نعيم (كدت أصيبها بالشلل ذات يوم.. كنا في إحدى حصص الألعاب، ولسبب ما طُلب منا أن نأخذ حقائبنا إلى الفناء في أثناء اللعب.. ربما كان يتم تنظيف الفصل ومسح أرضيته في تلك الحصة.. أخذت «سماح» حقيبتها وحقيبتي وحقيبة تلميذ آخر وسبقتنا إلى الفناء، ولا أتذكر حقيقة السبب الذي دفعها لذلك.. كنت أسير وراءها، ووجدتها تضع الحقائب ـ كالعادة ومثلما فعل بقية التلاميذ ـ في جانب الفناء، تحت العمارة الكبيرة التي تُطل على ظهر المدرسة.. حينما أصبحت واقفًا بجانبها قالت لي وهي تشير إلى الحقائب المصفوفة: (شنطتك هنا جنب شنطتي، أنا حطيت الشنط كلها جنب بعض).. وجدتني أسألها برصانة مبتهجة: (كويس، والحاجة جاهزة؟).. ما الذي كان يعنيه هذا السؤال؟!.. إنه مجرد كليشيه تليفزيوني لزج مثل (اتفضلوا يا جماعة البوفيه جاهز)، وكنت أريد أن أردده لا أكثر.. كنت أريد أن أتقمص أرواح من يكررونه على الشاشة، وأن أحصل على الشعور الناجم عن التفوه به مثلهم.. انتهزت هذه الفرصة بعفوية تامة لأسأل (سماح) هذا السؤال السخيف الذي لا علاقة مطلقًا بما قالته لي؛ لأنني كنت أحتاج إلى ذلك، وكان يجب عليها حقًا ـ كأقل واجب ـ أن تطرق برأسها وهي تنسحب من أمامي دون أن تفتح فمها مثلما حدث بالفعل.

ـ أحمد حسن (أعتقد أنه كان صاحب الاقتراح الجريء بأن نجمع نقودًا من مصروفي ومصروفه ومن مجموعة أخرى من زملاء الفصل،

ويأخذها في الفسحة ليخرج من المدرسة، ويشتري لنا ساندويتشات فول وطعمية من مطعم «المصري» أو «السيدة زينب» في «ميت حدر».. كانت فكرة عبقرية ومتهورة جدًا في نفس الوقت؛ إذ كانت ستمنحنا مذاقًا مختلفًا عن الطعام الروتيني الذي نأكله يوميًا في ساندونشات البيت، ولكننا في نفس الوقت لم نكن نضمن حدود العقاب لو كُشف الأمر.. أتذكر أننا نفذنا هذا الاقتراح مرتين متباعدتين، خرج فيهما «أحمد حسن» من المدرسة في الفسحة، وعاد بالساندويتشات الساخنة اللذيذة، وأعتقد أنه فعل ذلك بالاتفاق مع «عم معتز» الفراش الذي سمح له بالخروج والعودة سرًا).

ـ مصباح محمد مصباح.

ـ وفاء نعيم (كانت تسكن في حارة «العطافي» وكانت أختها الكبرى «حنان» تلميذة لأمي.. جاءت ذات يوم إلى البيت لتذاكر معي.. لعبنا في البلكونة بعد المذاكرة وتحدثنا وضحكنا كثيرًا، ثم وجدتها تبكي فجأة حزنًا على أمها التي ستجرى عملية جراحية لإنقاذ عينيها من العمى.. أعتقد أنها أبلغت أمي في أحد الأيام أنها بلعت مسمارًا دون أن تنتبه، وأنه لم ينزل مع البراز، ولا تعرف إلى أين ذهب.. هي لا تزال على قيد الحياة حتى الآن).

ـ أميرة المصري (تسبب الطرف المعدني الحاد لحقيبتها في إصابة ظهر يدي بجرح لا يزال أثره واضحًا حتى الآن.. كانت تعلّق الحقيبة الكبيرة فوق ظهرها، وكنا نتحرك لمغادرة الفصل بعد انتهاء اليوم الدراسي.. مرّت بجانبي في اللحظة التي رفعت خلالها بالصدفة يدي اليمنى لسبب ما دون أن أنتبه لحقيبتها؛ فحدث الاحتكاك المؤلم الذي جعل الدماء تتدفق بغزارة.. أسرعت إلى أحد صنابير الفناء؛ كي أغسل يدي، لكن الدماء لم تتوقف؛ فربطت الجرح بمنديلي القماشي الأبيض وعدت إلى البيت.. وضعت أمي الـ «الميكروكروم» فوقه، وأعادت ربط

يدي بالشاش، وطلبت مني أن أبقيها مرفوعة.. تمددت على الكنبة أمام التليفزيون، وأرحت يدي فوق رأسي مدة كبيرة.. عن هذا الجرح كتبت منذ زمن طويل هذا النص بعنوان «للبالغين فقط»:

رغم الشيخوخة
التي أعطتني شحوبًا مقاربًا
للون جلدك
ورغم الشعيرات الصغيرة
التي حاول بواسطتها الزمن
أن يخفيني
لا زلت واضحًا
على الأقل بالنسبة لك...
لم أكن مجرد جرح عادي
حفره بغدر طائش
الطرف المدبب لحقيبة مدرسية
معلقة على ظهر تلميذة الابتدائي
أنا النبوءة التي لم يبطلها "الميكروكروم»
والتذكار الذي لم تمحُه ضمادة منزلية.
لم أعد الغريب الذي كرهت طفولتك
تطفله المؤلم
ولا العابر الذي لم تصدق شرفتك
خلوده.
أصبحت منذ سنوات طويلة جدًا
وبالتدريج اللازم للتعايش مع انتهاك ما
صديقًا لم تعد في حاجة للنظر إليه
حتى تتأكد من بقائه...

الذي لم يسأم المشي بكل عكازاتك
وكراسيك المتحركة
ولا مشاركتك الانحناء
تحت المؤخرات الثقيلة...
المقيم معك على الطرق فائقة السرعة
حيث تنتظر حافلة إلى الرحمة
لا يلتقطها رادار الغيب
ولا يوقفها شرطي مرور السماء...
مؤرخ "الاشتغالة" الغامض
الذي لم يتعب من التنقل وراءك
طوال الحياة
بين الكواليس المعتمة
وجمع العظام
التي يتركها الجائعون
من روحك
بخبرة كيس قمامة عجوز
طالما طيّره هواء الشوارع
وتكوّم تحت طاولات المقاهي
وطردته البيوت إلى السلالم الخلفية...
أنا الخط العرضي الصغير
الذي أصبح جزءًا من التكوين الطبيعي
لظهر كفك
والذي ربما من حين لآخر
تسمعه يخاطبك بطريقة ما:
»ألم أقل لك؟!").

ـ حنان عطية (كانت لثغاء، ولهذا كنت أحب دائمًا أن تقول كلامًا يكثر فيه حرف الراء؛ لأنه حينئذ يصبح أجمل.. كان لها أخت أصغر اسمها "انتصار" وكانت تلميذة لأمي).
ـ محمود سالم (كان يمتلك جهاز "فيديو" في منزله.. ذهبت إليه ذات يوم بعد انتهاء اليوم الدراسي أنا و"وليد بدير" الذي كان جارًا وصديقًا مقربًا له.. دخلنا إلى الشقة التي كان بابها مفتوحًا ـ كانت العمارة كلها ملكًا لأسرة "محمود" ـ وبعد تجاوزنا العتبة نادى "وليد" عليه، فجاءه الرد من الداخل " أنا هنا.. تعال".. تحرك "وليد" وأنا وراءه حتى وصلنا إلى الحمام، فوجدت "محمود" جالسًا فوق المرحاض خلف الباب المفتوح، وقد أنزل البنطلون والكلوت.. قال "محمود" لـ "وليد" بتلقائية: "روح شغّل الفيلم.. أنا جي آهو".. تحرك "وليد" نحو الصالة، وأنا وراءه مترنحًا بالصدمة الثقيلة التي لم يكن لها أي أثر على وجه "وليد" وهو يشغّل التليفزيون، ويفتح الخزانة الزجاجية الشفافة أسفله، ويضع الشريط في الفيديو.. جلسنا على الكنبة نتابع بداية فيلم "التعويذة" 1987.. لحظات قليلة وانضم إلينا "محمود" بعد أن أنهى مشاغله في الحمام، وأنا مازلت عاجزًا عن تصديق ما بدا جليًا أنه شيء عادي للغاية بالنسبة له ولـ "وليد".. نجح رعب الفيلم في إلهائي عن هذا المشهد الذي لم أر له مثيلاً من قبل، بل ونجح الفيلم في إبقائي خائفًا فترة طويلة لم أتوقف خلالها عن استعادة أحداثه خصوصًا قبل النوم، داخل ظلام الحجرة.

الصف الثالث:

ـ أسماء مصطفى (كانت سمراء ورقيقة، وكان شعرها قصيرًا وناعمًا، وكانت متفوقة، ولها أخت أكبر، تلميذة عند أمي، أعتقد أنه كان اسمها "إيمان").
ـ جيهان شادي (كانت جميلة جدًا بعينين ساحرتين وشعر قصير، يشبه

شعر الأولاد، وكان في طبعها ولهجتها شيء من الغرور).
ـ صابرين عرفان (كانت نحيفة للغاية، ولها شعر بني طويل ومجعّد، وكانت تشبه "كوكا" في مجلة "ميكي"، وكانت صامتة دائمًا.. لا تبتسم ولا تضحك ولا تلعب إلا نادرًا، ويعجز الآخرون عن سماعها حين تتكلم.. كان المخاط سائبًا من أنفها طوال الوقت، ولم تكن تجففه بل تسترده لأعلى باستنشاق قوي ومتقطّع، كما كانت تُضرب كثيرًا بسبب بلادتها، وتبكي دون صوت، بدموع صغيرة وغزيرة للغاية، وهو ما كان يجعلني أشفق عليها أكثر من أي تلميذ آخر).
ـ حنان حسن (كانت ابنة أخي أبلة "نوال"، وكانت تسكن في شارع "سينما أوبرا" وتحديدًا فوق دكان "أبو كمال"، وكانت تحب الطهي وحصص التدبير المنزلي).
ـ عبد الرحمن (كان يُقال إنه يعيش مع أسرته في جامع، ولم أعرف كيف يمكن ذلك، ولم أتمكن من معرفة إذا كانت هذه المعلومة صحيحة أم لا).
ـ هشام مسعد (ابن "مسعد" صاحب محل إصلاح الراديوهات أمام المدرسة).
ـ شيرين.
ـ غادة (كانت قصيرة ونحيلة، ولم تكن تستطيع القراءة بشكل جيد، وكان صوتها مزعجًا بالنسبة لي، وكانت تسكن "ميت حدر" وتحديدًا أمام "رستوران داندي"، وكان لها شقيقات أكبر، جميعهن كن تلميذات عند أمي).
ـ أماني الشاعر ـ صابرين.
ثم انضم إلينا الأخوان (شوقي) و(يوسف صدقي) بعد رسوبهما.. أعتقد أن واحدًا منهما ـ أو ربما كليهما ـ هو الذي قذف البمبة الكبيرة من الشارع أمام المدرسة، والتي مرت عبر أحد شبابيك الفصل وانفجرت

في الحائط الملاصق للباب.. لحظتها صرخنا جميعًا، وجرينا خارج الفصل مع (أبلة خلود) التي كانت تُدرّس لنا في تلك الحصة.. صراحة لم نكن جميعًا؛ فعدد من الأولاد المتنمرين ظلوا هادئين داخل الفصل، وتبادلوا الابتسامات والضحكات كعقاب بديهي على فزعنا، كما أنهم تحركوا بلامبالاة نحو الشباك؛ ليتعرفوا على أخيهم في الشر، النجم الغامض الذي ألقى بمبة بهذا الحجم داخل الفصل، وفي أثناء الحصة فلم يجدوا أحدًا.

لم يكن مسموحًا لي بشراء البمب مثل بقية الأولاد.. ذات يوم وبعد مراقبة طويلة من البلكونة للأطفال وهم يفرقعون البمب في أرض الشارع خلعت السلسلة التي كنت أرتديها في رقبتي، ثم ضربت زجاجة الـ (كوكا كولا) الصغيرة التي تتدلى منها في بلاط الحجرة فتهشمت تمامًا.. حاولت أمي إفهامي بأن هذه النوعية من الألعاب لا تُضرب في الأرض مثل البمب، بينما كنت أفكر في أنه طالما أنني لم أحصل على البمب مثل الأولاد في الشارع فيمكنني إذن أن أضرب أي شيء آخر في الأرض.

كان الأخوان (شوقي)، و(يوسف صدقي) من التلاميذ الذين لا علاقة لهم بما كنت أعرفه في هذا الوقت عن براءة الطفولة والأخلاق الفاضلة والتفوق الدراسي.. في أحد الأيام، في أثناء دقائق قليلة فاصلة بين حصة وأخرى، كان (أحمد شلبي) جالسًا في الدكة بيني و(تامر بهجت) ـ كنا نحن الثلاثة ممن يُطلق عليهم (الأولاد المؤدبون المتفوقون، أبناء الناس المحترمين)، وكان الأخوان (شوقي)، و(يوسف صدقي) يشعلان الفصل صخبًا بجريهما ولعبهما العنيف وصياحهما البذيء مع بعض الطلاب (السيئين) الآخرين، وعندما احتدمت فيما بينهم معركة القذف المتبادل لقشر وقطع اليوسفي؛ اندفعت إحدى هذه القطع من فم (يوسف صدقي) كالرصاصة لتلتصق بأنف (أحمد شلبي)

بينما كان يتكلم معنا بمنتهى الهدوء والوداعة.. ظل (أحمد شلبي) متخشبًا لثوانٍ في مكانه غير مصدق ما حدث، وقطعة اليوسفي الكبيرة لازالت ملتصقة بأنفه.. أصابتني أنا و(تامر بهجت) ما يشبه نوبة من الضحك الجنوني لدرجة أنني شعرت بألم في بطني، في حين تدفقت الدموع من عيني (تامر)، ونحن نتابع (أحمد شلبي) وهو ينهض من بيننا بنظرته المصدومة، وصمته المذهول ليخرج من الفصل متجهًا نحو الحمام.

كثير من تلاميذ الفصل الذين قضيت معهم ستة أعوام دراسية كاملة لم أتكلم معهم على الإطلاق طوال هذه السنوات خصوصًا البنات.. ربما هناك منهم من تحدثت معه أو معها بكلمات قليلة للغاية في موقف أو آخر، ولكن هذا كان نادرًا جدًا.. كنت أتكلم مع عدد محدود من التلاميذ، أما الأغلبية الباقية فكنت أراقبهم.. أتأمل وجوههم وحركاتهم وأحاديثهم من بعيد مثلما أفعل مع المقيمين والعابرين الذين لا أعرفهم في الشارع وأنا جالس داخل البلكونة عصرًا.. أتخيّل حكاياتهم الخفية، المنفصلة عن المدرسة وفقًا لتأثيرات هذه المراقبة.. كنت أشعر أن هذا التباعد يحكمه الجفاء والحذر أكثر مما يفرضه غياب الفرص.. عدم الرغبة في الانسجام حتى لو كان ذلك ممكنًا.. لكن هذا ليس راجعًا لنفور شخصي أو لضغينة مخبوءة الدوافع، بل لحياة عامة أتصور أنها لم تكن تسمح لدى الكثيرين بمد الجسور إلا في نطاق ضيق.. واقع شخصي كان يحتّم الكتمان والانطواء وصد محاولات الاقتراب القادمة من الخارج عدا المصادفات التي يمكن أن تنجح بعد عناء.

بلوفرات وسويترات ـ ذات أغطية للرأس أحيانًا ـ فوق المرايل، متناغمة دائمًا مع المخاط الساقط معظم الوقت من الأنوف التي نادرًا ما يستخدم أصحابها الصغار المناديل لتجفيفها.. ما فائدة الأكمام إذن!.. دموع النعاس في برودة الصباح الباكر، والأحذية البلاستيكية التي

توضع أطراف البنطلونات بداخلها.. كانت أطراف البنطلونات توضع أيضًا في الجوارب عند لعب الكرة حتى لا تتسخ، وكذلك حتى لا تضايق اللاعب في أثناء الجري.. كانت هناك أيضًا أغطية رأس منفصلة من الصوف، وكذلك من الفرو الخالص أو من الجلد ـ الأسود في الغالب ـ المبطن بالفرو.

صباح شتائي مشمس.. برواز صغير معلّق في الصالة ذات الحوائط باللون البيج والنقوش الحمراء المتناثرة.. البرواز يحتضن زهورًا بيضاء وصفراء كبيرة تحت سماء زرقاء.. الوقت يقترب من الظهر، وأنا نائم في حجرتي.. أفرك قدميّ تحت الأغطية الدافئة، والبلكونة مغلقة مع بابيها الخشبيين.. (عمر فتحي) يغني في رأسي (عجبًا لغزالٍ قتّالٍ عجبا.. كم بالأفكار وبقلوبٍ لعبَ) فتخطو (فريدة فهمي) بدلالٍ وتثير الشُهبَ داخل عينيّ المغمضتين.. ضوء الشمس ينساب من فراغات الشيش، وزجاج بابي البلكونة، مع برد خفيف يزيد من عمق النوم، وثقل النعاس عند أي استيقاظ بسيط.. أصوات خافتة للناس والسيارات في الشارع بينما هدير الغسالة الأملس يخرج من الحمام، ويعبر الصالة، ويمر من الباب المقفول، ويدخل تحت اللحاف والبطانيتين.. كنت أريد استمرار العالم هكذا دون أي تغيير.

ذات مساء كانت أبلة (هانم) المعلمة بمدرسة (ميت حدر) ووالدة (وليد بدير) زميلي في الفصل في زيارة لأمي بالبيت مع ابنها.. حينما أخذت (وليد) إلى غرفتي للعب، دار حوار في حجرة الصالون بين أمي وأبلة (هانم) حول ضرورة أن تكون لي مساحة من الحرية خارج البيت والمدرسة.. كان (وليد) يمتلك هذه القدرة على الوجود في أي مكان يريده دون قيود، وسمعت والدته تنصح أمي بأن تتركني أذهب مع ابنها إلى الإستاد، أو إلى قصر ثقافة الطفل، وأن أشاهد الدنيا، وأعرف الناس بعيدًا عن سجن الأسرة.. أتصور أن (حالتي) كانت واضحة للجميع

داخل العائلة، وفي المدرسة، والشارع.. الخجل الشديد، والارتباك الهائل عند التعامل مع الغرباء، وأعتقد أنها لم تكن المرة الأولى التي تسمع فيها أمي هذه النصيحة من الآخرين، لكنني أظن ـ بسبب النبرة القوية لأبلة (هانم) التي كانت تصل إلى سمعي خارج الصالون ـ أنها كانت المرة الأولى التي تتخذ فيها النصيحة التقليدية هذا المستوى المرتفع من الإلحاح، والحسم.. بدا كأن أبلة (هانم) كانت تؤكد لأمي بطريقة ضمنية أن الأمر لم يعد من الممكن السكوت عنه، وأن معالجته لا تحتمل التأخير.. ربما كان هناك فرق مثير للشفقة، وسهل الملاحظة بالفعل بيني وزملائي في الفصل، وربما كان من اليسير أيضًا إدراك أن هذا الفرق يتسع بمرور الزمن بحيث أصبح من الضروري حدوث تدخّل منقذ لوضع حد له.. أعتقد أيضًا أن هذه الفجوة بيني وبين أقراني التي استوعبها (الكبار) تجاوزت اللجلجة، واحمرار الوجه، والصمت العاجز عند وجوب الكلام إلى فضيحة مستقرة، تنمو طوال الوقت من الاختلافات الخطيرة التي تؤثر على ما يُسمى بـ (بناء الشخصية)..

كان الكثير من زملائي ـ خصوصا الذكور ـ خبثاء.. جادين.. أقل طفولية مما ينبغي، أو مما أتصور أنه بديهي.. سريعي الخاطر (وتلك الميزة ليست مرتبطة على الإطلاق بمستوى التفوق العلمي، بل على العكس أغلب من كانت تتوفر لديهم هذه السمة على نحو واضح كانوا أقل التلاميذ كفاءة دراسية؛ ولهذا كانت الدلائل الواضحة لسرعة البديهة تتجسد خارج كل ما له علاقة بالتعليم، أو بشكل أدق داخل العالم الكبير المجهول الذي تقع المدرسة على هامشه).. خبراء في الحياة.. منهم الأذكياء في ممارسة الشرور، وفي تفاديها، وفي ردها لو أصابتهم.. خفيفي الدم أحيانًا بطريقة ملفتة؛ إذ لم يكونوا مهرجين دائمين بالكيفية المضرة لكرامتهم، أو متصنّعي الكوميديا في الأوقات الخاطئة، وإنما كانوا في لحظات قليلة مفاجئة يغادرون جديتهم المألوفة، وغموضهم الرصين،

ويخلقون دعابة غير متوقعة، غالبًا ما تكون مدعومة بجرأة الإيحاء الوقح، الذي لا يكشف عن بذاءة كاملة.. في نفس الوقت كانت تعطي اللامبالاة المتزنة التي تميز أساليبهم في خلق الدعابات رسوخًا إضافيًا، وأكثر حدة للهيبة ـ متعددة الصور ـ التي يصطبغ بها وجودهم.. كانت دعاباتهم تحفر بعمق أثرًا سحريًا في روتين الفصل، يجبر المعلمين والمعلمات ـ حتى أكثرهم وقارًا وعنفًا ـ وكذلك التلاميذ الآخرون ـ حتى أكثرهم كرهًا ونفورًا من صاحب المزحة ـ على الضحك ـ بقدر ضروري من الغيرة ـ بل والتفكير فيها، واسترجاعها في الأوقات التالية كذكرى تستحق الاستعادة، ونقلها أحيانًا لمن لم يشهد حدوثها باعتبارها هدية مباغتة، ومبتكرة يلزم تداولها.. أما أنا فكنت على الجانب المضاد أتحلى بذلك النوع الفاخر من الغفلة، التي يحكمها فراغ تام كان يجب أن تملؤه تجارب وخبرات مماثلة لتلك التي يمتلكها زملائي.. كنت ذلك الطفل التقليدي ("تربية البيوت" كما كانوا يقولون للإشارة إلى تكوينه المناقض للأولاد الآخرين "تربية الشوارع") رغم انتمائي إلى نفس المنطقة الشعبية التي يسكنها أغلب زملائي.. كنت ذلك الكائن الصغير الذي تتوفر في طبيعته كافة الخصال المعروفة للسذاجة بوفرة فائضة، وكان هذا يجعلني مختلفًا حتى عن الأولاد الآخرين (المؤدبين والمتفوقين) مثلي؛ إذ كان هؤلاء يتصفون بالذكاء الاجتماعي ـ الذي لا يخلو من دهاء غير مُضر ـ وبفطنة الانعزال المحسوب، الواثق، بعيدًا عن مسارات الأذى المحتملة والطائشة التي يحتلها الأولاد (السيئون).. كانوا أطفالاً عاديين، أي لديهم سلامة النية الشائعة في مثل هذه السن الصغيرة، التي كانت تعرّضهم ـ منطقيًا ـ في بعض الأحيان لمضايقات نفسية وجسدية من (ذوي الأخلاق الفاسدة)، ولكن ردود أفعالهم كانت تتسم دائمًا بالتحفّظ والتعقّل، وبكثير من عدم الاكتراث، والأهم أنهم كانوا لا يعانون بسبب هوسهم بمصادقة من يضايقونهم.. كانوا ـ على

العكس مما أكابده ـ لا يتلجلجون، ولا تحمر وجوههم وآذانهم دائمًا، ولا يصمتون حينما يجب أن يتكلموا.. لم تتحوّل سلامة النية في طفولتهم إلى وصمة مهينة.. كنا (أي الأولاد المؤدبين والمتفوقين) نشبه أطفال البرامج الصباحية، ومسلسلات الثمانينيات وأفلامها ومسرحياتها من حيث النظافة، والأناقة، ووفرة الأدوات والأغراض الدراسية، وسلامتها وجمالها، إلى جانب فصاحة اللسان التي كانت تتحوّل عندي إلى باعث للضحك والشفقة.. لكن بالطبع لم يكن يتوفر لديّ أي قدر من ذلك النوع من الفهم الذي يدفع أحدنا عندما يتعرّض لمضايقة نفسية أو اعتداء بدني من أحد الأولاد (الأشرار) لأن يبتسم في وجهه بهدوء قاتل، ويخبره بمنتهى الثقة المدمرة أن العنف الذي يرتكبه دون مبرر ضد الأولاد المسالمين ليس إلا نتيجة طبيعية للبؤس الأسري الذي يعيشه، ولتعويض المهانات اللاأخلاقية التي يتعرّض لها في بيته، أو للانتقام من الرذائل والموبقات التي تحدث في نطاق عائلته.. لم تكن هناك قواعد أكيدة، أو حسابات قاطعة للانفصال بين هاتين الفئتين من الأطفال اللتين تمثلان ـ ظاهريًا ـ ثنائية (الخير والشر).. كانت المسألة بعيدة عن الغنى والفقر، أو الرُّقيّ المهني ووضاعته؛ فمعظمنا كان من أبناء الطبقة الوسطى بتدرجاتها وتنويعاتها، وبالتقاطعات الغائمة لأطيافها، ولم يكن (حسن التربية) متعلقًا بالمستوى الوظيفي أو بدرجة الكسب المادي.. لكن ينبغي التفكير في أن موضوع (الانفصال) بحد ذاته يبدو أكثر طغيانًا في الطفولة، حيث الميل الفوري ـ الذي يعاند التراجع، ويسمح بسلوكيات غير خاضعة لصلابته أحيانًا ـ لتصنيف الآخرين ـ ولو بحسب ملامحهم ومظهرهم الخارجي ـ وتوزيعهم دون تفاوض على العالمين المتباعدين: الأبيض والأسود.

لو أردت تحديد كلمة واحدة لوصف علاقتي بأقراني في الفصل، وفي الدرس الخصوصي الوحيد الذي أخذته طوال المرحلة الابتدائية

في الصف السادس عند الأستاذ (عاشور)، الذي كان يسكن في شقة بالدور الأرضي داخل شارع جانبي أمام سينما (ركس)؛ ربما ستكون كلمة (الادعاء) هي الاختيار الأنسب: ادعاء الخبث.. ادعاء الجدية.. ادعاء المعرفة.. ادعاء القوة الجسدية.. ادعاء الدهاء اللاأخلاقي.. ادعاء الصلابة النفسية.. ادعاء الصداقة بأقراني.

أظن أن هذه الادعاءات هي صاحبة الفضل الأساسي في تحويل الغفلة من مجرد حالة إقصائية، تنطوي على آلامها الخاصة المحدودة في نطاق التوحد الطفولي إلى مهزلة كوميدية حاضرة، ومتجددة طوال الوقت من الإذلال الرائج.. تحويل السذاجة من انزواء مقفل للهموم الصغيرة إلى تراكم متداول، شبق، ومضحك، للجروح المغرية.

شد الشعر.. ضرب الرأس بالرأس.. الصفع على الخد.. الصفع على القفا.. ضرب الأذن بالإصبع السبابة.. ضرب الأذن بالإصبع الأوسط.. اللكم في الوجه.. ضرب الكوع في الصدر.. اللكم في البطن.. ضرب الخصية باليد أو بالركبة.. الصفع على المؤخرة.. ضرب القدم في المؤخرة.. دفع الرقبة باليد.. الخنق من الخلف.. الخنق من الأمام.. لَيّ الذراع أو الذراعين معًا خلف الظهر.. الخنق بالذراع مع الطرح أرضًا.. تثبيت الجسد في الأرض بالنوم أو بالجلوس فوقه.. دفع الكتف بالكتف.. الدفع في الظهر.. العرقلة.. مسح البصاق على الظهر.. الزنق الشديد بين ولدين في الدكة.. السخرية من الملامح.. السخرية من المظهر.. التهكم على الأفعال.. التهكم على الكلمات الحمقاء.. التهكم على الخجل.. السخرية من الارتباك.. السخرية من احمرار الوجه والأذنين.. السخرية من العجز عن الكلام.. الإقعاد القسري على الحِجر.. الإقعاد غير القسري على الحِجر (استغلالاً لعدم الفهم).. لطش ظهر الإصبع الأوسط للمؤخرة.. لطش ظهر الكف للمؤخرة.. الاحتضان من الخلف.. الاحتضان من الخلف مع إلصاق الحِجر بالمؤخرة.. الاحتضان من

الخلف مع دفع الحِجر في المؤخرة بشكل متتابع.
كانت قلة من زملائي في الفصل هي التي تقوم بتلك الأفعال، حيث كان لكل تلميذ تخصص في ممارسات محددة دون غيرها، غير أن معظم هذه الأفعال كانت تتسم بالندرة النسبية، وكان عدد أقل من التلاميذ داخل هذه الفئة لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة لديهم القدرة على الجمع بين كافة تخصصات الأذى، فضلاً عن براعتهم في التعامل مع الفتيات.. هذا ما يدفعني لتأكيد أن معظم زملائي كانوا مسالمين، ولكنها لم تكن ـ على الأرجح ـ المسالمة الناجمة عن الطيبة بقدر ما كانت أثرًا متينًا للانعزال.. لعدم الرغبة في التورط.. للانغلاق على كآبة طفولية، شخصية، غامضة، غير معنية، أو غير قادرة على التشارك أو التصادم مع كآبات أخرى.. كان هذا منبعثًا من العيون، وطافحًا على الملامح، ونازفًا من الأصوات.
أتذكر أن العنف الجسدي لم يكن هو الشر السائد، بل كان الإهانة.. لم تكن السخرية، أو الحيَل الهازئة، أو الحركات البذيئة من الممارسات العدائية النادرة، بل كانت سلوكًا شبه يومي، ينشط ويخفت أحيانًا، لكنه ممكن الحدوث طوال الوقت حتى من أولئك المعروفين بأن مهارة الأذى لديهم تقتصر على القوة البدنية، بل حتى من أولئك المعروفين بأن إمكانيات العنف معدومة تمامًا في شخصياتهم.. كان بوسع أي تلميذ ـ مهما كان ـ أن يصبح على نحو مباغت شخصًا آخر غير ما هو عليه دائمًا، وأن يصدمك بتصرف مُذل، غالبًا دون سبب مفهوم، قبل أن يسترد طبيعته المعروفة.. أبسط هذه الأفعال أن يهمس تلميذ في أذن آخر بكلمات لا يمكنك سماعها وهما ينظران إليك ثم ينفجران في الضحك.. تنظر إليهما والنيران تلتهم جسدك من الداخل محاولاً في نفس اللحظة أن تبتسم، أو تدعي اللامبالاة، أو تفكر في أسلوب يحوّل توسلاتك التي ستقدمها إليهما لمعرفة سبب ضحكاتهما إلى طلب فكاهي

ـ يُساير الدعابة مغصوبًا، ويُنجّيك من شراستها المتصاعدة في الوقت ذاته ـ بينما تبحث كل الأفكار المحترقة التي يتزايد صراخها في أعماقك برعب محموم عن الدوافع التي لم تنتبه إليها وجعلتهما يضحكان.. في ذاكرتك.. في وجهك.. في ملابسك.. أحيانًا يكون لا شيء.. مجرد أن هذين التلميذين قد قررا أن يمُثلا هذا المشهد أمامك، ليوحيا إليك بأن هناك علةً مضحكة أنت غافل عنها، تستدعي سخريتهما العاصفة منك؛ كي تشعر بالاضطراب والألم.. همس فارغ لا يحوي كلمات حقيقية تمهيدًا للفعل الأهم وهو الضحك القوي، الممزِق، الذي يعرف استعدادك التام لتصديق أي ادعاء بأنك تحمل عيبًا شكليا أو نفسيًا يؤثر على كلماتك وأفعالك.. لكن الهمس حينما لا يكون فارغًا فهو على الأغلب يتضمن إخبارًا أو تذكيرًا بحيلة هازئة أصابتك قبل هذه اللحظة ـ في معظم الأحوال ستظل بعيدة عن إدراكك ـ سواء كانت هذه الحيلة قد تمت بأيديهم، أو بأيدي تلاميذ آخرين، أم استعادة لمواقف أخرى، لا دخل للتلاميذ فيها، ولكن أتيح لهم مشاهدتها أو سماعها، وكنت تأخذ فيها دور الأبله عن جدارة واستحقاق.. محاولاتك لأن تبتسم، أو لادعاء اللامبالاة، أو لتنفيذ أي أسلوب فكاهي يُخفي نبرة التوسل في صوتك وأنت تطلب منهما معرفة سبب ضحكاتهما ـ كأنك تحاول استعطافهما للتعامل مع الأمر باعتباركم أصدقاء ليس بينهم ضغينة، وبالتالي لا يصح لـ (دعابة) أن تتمادى، وتحطم تلك الصداقة ـ هذه المحاولات لن تعزز قسوة النيران التي تلتهم جسدك من الداخل وحسب، بل ستمنحها القدرة على أن تحفر المشهد في أعماقك، لا ليبقى محميًا من الزوال، بل حتى يستمر للأبد في إعادة خلقه الذاتي، وإنتاج ما لم يكن منظورًا داخل إطاره عند حدوثه أول مرة.. لكن على جانب آخر لا يجب أيضًا تجاهل ذلك الكائن المتربّص في داخلك، الذي يُفضّل في بعض الأحيان تفسير الكلمات والأفعال العادية بوصفها احتقارًا للكرامة.. لكن حتى

هذا الكائن ما كان له أن يوجد لولا خبرة سابقة ـ واقعية ـ داخل هذا الجحيم الطفولي.

لم أكن ذلك الطفل الذي يستغل وجود أمِّه معلمةً في المدرسة، ويستند إلى التقدير الخاص الذي تمنحه المعلمات إليه؛ لأنه ابن واحدة منهن، إضافة لمحبتهن لكونه مؤدبًا ومتفوقًا، وهذا لأكثر من سبب: كنت منتبهًا تمامًا لحقيقة أن هذا الاستغلال سيُرسِّخ عني بيقين لا يحتمل الشك فكرةَ (ابن أمه المدلل) الذي لا يزال طفلاً ضعيفًا، يُشبه البنات في عدم قدرته على مواجهة زملائه بنفسه، وفي عجزه عن الرد على أفعالهم ضده، بل يحتاج إلى أمه لتحميه وتصد عنه الضرر.. كان ترسيخ هذه الفكرة بمثابة كابوس منتصب طوال الوقت أمام عينيّ، ظللت حريصًا على عدم التورط في الإقدام على خطوة تقودني للدخول إليه.. كنت متمسكًا بعدم استغلال وجود أمي في المدرسة؛ تفاديًا لترسيخ هذه الفكرة في داخلي قبل أن تتثبت في وعي زملائي في الفصل؛ إذ لم أكن أقبل على نفسي أن أكون هكذا، حتى لو كنت حقًا في احتياج بالغ لحماية أمي، حتى لو كنت منطقيًا لا أزال طفلاً بالفعل، ولم أصبح بعد رجلاً يستطيع أن يهزم الأشرار وحده.. لم أكن أقبل على نفسي أن أكون (ابن أمه المدلل)؛ لأنني لم أر أبدًا أحدًا من أقراني يستعين بأي من أبويه في مواجهة تلميذ آخر حتى الأولاد المؤدبين والمتفوقين مثلي، الذين كان من بينهم زميل تعمل أمُّه معلمةً في المدرسة أيضًا.. من ضمن الأسباب أن هذا الاستغلال سيكون إغراءً إضافيًا أقدمه بكرم مبهر (للأولاد السيئين) حتى يتمادوا في ممارساتهم العدائية؛ استثمارًا لهذا التأكيد الواضح بأنني حقل متحرك من الفرص السانحة التي ينبغي انتهازها للتسلية والضحك.. كنت أعرف تمامًا أنه لا يوجد عقاب أو تهديد ـ مهما كان ـ قادرٌ على منعهم من توجيه العنف، بل على العكس كانوا بارعين في ابتكار الأذى الذي لا يُمكن أو يصعب إثباته، أو ذلك الذي يجعل أي

محاولة لشرحه وتفسيره عند الشكوى أمرًا عسيرًا وعبثيًا وغير مفهوم، ومن الوارد جدًا أن ينقلب بشكل عكسي ليحوّل الشاكي إلى مصدر للاستهزاء، والاستخفاف المضحك.. كانوا أيضًا ماهرين في الإنكار، وفي الاستعطاف، وفي تمثيل الندم تمهيدًا لارتكاب إثم أعظم.. السبب الآخر هو أنني لم أكن أفهم أصلاً طبيعة العنف الموجّه ضدي، لا أقصد بالطبع العنف الجسدي النادر الذي كنت أبتلع آلامه في صمت دون أن أشكو لأي من (الكبار)، بل أتحدث عن الحركات البذيئة، والحيّل الخبيثة التي لم أكن أستوعب دلالتها الجنسية، ولم أعرف معناها إلا بعد أن انتهيت من المرحلة الابتدائية.. كانوا يضحكون دون أن أعرف مبررات ضحكهم.. من ضمن الأسباب أيضًا ـ وقد يكون الأهم ـ هو أنني لم أكن أريد خسارة (الأولاد السيئين)، وبشكل أكثر تحديدًا لم أكن أريد أن أفقد اقترابي من (الشر) بينما أتحرك داخل الهامش المتسم بقدر من الأمان بيننا.. كان العدد القليل من التلاميذ الذين لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة، ولديهم القدرة على الجمع بين كافة تخصصات الأذى - كانوا يمتلكون حيزًا محدودًا من المسالمة العادية التي يمكن أن توجد في طفل الابتدائي، ولا تتوفر تقريبًا عند أولئك الذين تقتصر مواهبهم في الأذى على العنف الجسدي.. كان المُلاحظ بالفعل أن الذين يعتمدون على القوة البدنية المدعومة ببذاءة اللسان يفتقرون بشكل ما إلى الذكاء اللازم للسخرية، أو الخبث الضروري لتدبير المكائد الهازئة.. كان صيتهم يعتمد على المظهر المخيف المنفّر، وبذاءة اللسان، والتأهب الدائم للاعتداء البدني.. أما فئة التلاميذ الذين لديهم القدرة على الجمع بين كافة تخصصات الأذى فقد كانوا بارعين في السخرية وفي تدبير الحيّل، وفوق ذلك كانوا قادرين على ممارسة العنف الجسدي، ولكنهم ربما كانوا يستمتعون أكثر بارتكاب الإهانات النفسية.. كان الهامش المتحلي بقدرٍ من الأمان بيني وبين

هؤلاء الأولاد هو المصدر الفعلي للانتهاك؛ إذ كان يمثّل بالنسبة لي وعدًا تحريضيًا يجبرني على الاقتراب أكثر من وحشيتهم، أي الالتصاق بالسطح الوعر لهذا الهامش؛ لتحقيق ما يشبه المعادلة الصعبة التي تحاول إحراز هدفين متناقضين: أن أغادر موقعي كمتفرج شغوف على الشر، وأتوغل ـ بخطوات محسوبة ـ داخل ظلامه، متمتعًا بقدرٍ متوهم من الحماية ضد الجروح المحتملة التي يمكن أن تنتج عن الرغبة في الحصول على أي درجة من الانتماء له، وفي نفس الوقت محاولة تطوير مساحة الطفولة الضئيلة أو المدفونة لدى الأولاد الأشرار (الذين لا يقرأون مجلات «ميكي»، و«سمير»، و«ماجد»، و«مجلتي»، ولا الألغاز البوليسية، ولا يشاهدون أفلام الكارتون، وبرامج الأطفال، ولا يجلسون طويلاً في بلكونات بيوتهم ليتأملوا الشارع الذي لا يستطيعون النزول إليه).. كنت حريصًا على عدم خسارة الجانب الودود من شخصياتهم، الذي كان بمقدوري التعامل مع براءته الخارجية دون شعور بالإذلال.. ربما كنت أمد جسورًا كلامية مرتعشة من عالمي، فتبلغ غايتها أحيانًا، أو تتقوّض قبل أن يكتمل وصول أطرافها الأخرى إليهم في أحيان أخرى.. أعتقد أن أكثر المناطق المروّضة في علاقتي بهؤلاء الأولاد هي تلك التي كانت تعبر منها الأحاديث المتبادلة عن كرة القدم، وأفلام الأكشن، وإفيهات المسرحيات الكوميدية.. كان استقرار هذا التواصل الشبيه بالألفة هو معيار القوة ـ الظاهرية ـ لما كنت أعتبرها صداقة في ذلك الوقت.

كان من اللحظات العجيبة والنادرة أن يبكي ولد من (الأولاد السيئين).. أتذكر أن (أبلة منى) معلمة الرياضيات ـ وكانت من فئة المدرسات ذوات الطبع المتأجج طوال الوقت بالعصبية والعنف ـ داعبت أحدهم في إحدى حصصها بقرصات قوية في الخدين، أو ربما كانت تعاقبه على أمر ما في صيغة مزاح أعمى.. لديّ شك خفيف الآن في أنها لم

تكن قرصات حقيقةً، وإنما صفعات قوية، ولكنني أميل للغاية ناحية القرصات؛ لذا سأتعامل معها كواقع.. فوجئت (أبلة منى) بالولد يبكي.. دموع، ومخاط، وانكسار في الملامح دون صوت.. ربما كان نوع البكاء الذي يثير الشفقة أكثر من ذلك المصحوب بالنهنهة خصوصًا من ولد مشهور بالصلابة وخفة الدم.. لم تفلح محاولاتها لتطييب خاطره، وكان هذا أكثر غرابة.. كيف لولد معروف بقوة الجسد والشخصية وخفة الدم الخبيثة (اللاأخلاقية) أن ينهار بهذه السهولة المباغتة على يد امرأة، مهما كانت قوة قرصاتها، دون أن يسترد هيبته، أو يُظهر على الأقل أي قدر من التماسك، أو الاستجابة لمحاولات رد الاعتبار له.. بدا هذا الولد كأنما كان يعيش داخل صورة زائفة طوال فترة زمالته لي بالفصل، وأن هذه الصورة قد تبخرت على نحو مفاجئ لتتعرى شخصيته الحقيقية التي كانت مختبئة خلال هذا الماضي.. أتصوّر أن الألم الذي كان يمضغه لم يكن قادمًا من وجنتيه المتقدتين بالاحمرار الدموي الذي حفرته أصابع (أبلة منى) الطويلة، المغتلة من الحياة، بل من الثقل الحاد للمهانة التي أسقطتها تلك الأصابع في صدره.. ظل جالسًا في مكانه داخل الدكة (بجانبي) يبكي، و(أبلة منى) تستكمل الحصة، موجهةً جانبًا غير قليل من انتباهها إليه، حتى حدث أن سألت (أحمد حافظ) عن مسألة رياضية عجز عن حلها؛ فكان جزاؤه المعروف هو الضرب.. هنا أمسكت (أبلة منى) بالعصا، وأعطتها للباكي، صاحب الكرامة المهدرة، والخدين المشتعلين، وطلبت منه تنفيذ العقاب.. أن يضرب زميله الذي فشل في إجابة السؤال على يديه بدلاً منها.. التعويض الذي بدا أنه نزل عليها فجأة من السماء كفرصة كريمة، ورأته عادلاً في نفس الوقت: لقد قامت بإيذائه دون ذنب، وفي المقابل يمكنه أن يؤذي زميله الذي يستحق أن تؤذيه هي.. كان كل شيء أسخف من أن يكون حقيرًا.. نهض الولد من جانبي، وأخذ العصا ـ وهو لا يزال

يبكي ـ ثم توجّه إلى (أحمد حافظ) الواقف عند السبورة، الذي ابتسم وهو يمد يده إليه بهزة رأس موافقة تعني رضاه لأن يُضرب من زميله معتبرًا الأمر مزحة مقبولة تهدف إلى وضع حد لحزن ولد، ظهر لي في تلك اللحظة أن الفصل بل المدرسة كلها (تلاميذ ومعلمين) يجمعهم اتفاق ضمني بأنه لا يجب أن يتعرّض لضرر بأي حال من الأحوال، وأن بكاءه حدث بالغ السوء، لا يصح أبدًا أن يقع.. ابتسم الولد بملامحه المطفأة، المهزومة، والمبتلة بالدموع في وجه زميله الذي مد يده إليه ثم لمس كفه بالعصا بخفة متناهية قبل أن يعيدها إلى (أبلة منى) مُعلنًا انتهاء الأزمة.. حتى في ذلك الوقت الذي ظهر خلاله ضعيفًا نجح في تحويل الإهانة إلى مشهد بطولي يثبت بواسطته أنه ليس طفلاً بل رجلاً شهمًا، وأنه لا يزال محتفظًا بصلابته بعدما رفض أن يضرب زميله بقوة كما كانت ستفعل المعلمة.. كنت أراقب هذا الاستعراض العدائي لجبر الخاطر المقدس بابتسامة بلهاء، غير مصدقة، يتعمّد سطحها الظاهري ـ تلقائيًا ـ المشاركة والاندماج بابتسامات باقي التلاميذ؛ كي أتجنب مرارة الشعور بالانعزال، بينما يأكلني في الباطن المخفي لتلك الابتسامة مزيج من الغيظ والحسرة.. كان كل ما يحدث أمامي يمثل صدمة لا يتركز هولها في تجسيدها لتأكيد سابق في وعيي بأن الأشرار هم أكثر الذين يمتلكون شخصيات جذابة، قادرة على أن تسحر الآخرين فحسب، بل في كونها أثبتت أن هذا التأكيد الذي أمتلكه لا يمثل سوى أبسط فكرة عن الحقيقة التي لا تقبل الشك.. ولد صغير في الابتدائي بدا لي أن الحياة أصابها عطب مفاجئ نتيجة هذا الأذى البسيط غير المقصود الذي لحق به، ليس لأنه طفل مؤدب ومتفوق ورقيق النفس، بل لأنه خفيف الدم وخبيث وقوي.. الأشرار إذن ـ خصوصًا الذين يختلط عنفهم غير الوحشي بالمرح واللؤم ـ لا يأسرون قلوب البشر في التليفزيون والسينما والشارع فقط، وإنما لدى النسخ المصغرة منهم...

نفس قوة التأثير ـ وبشكل لا يمكن توقّعه ـ على الكبار، حتى المعلمين والمعلمات ذوات الطبع المتأجج منهن طوال الوقت بالعصبية والعنف، واللاتي يمتلكن أصابعًا طويلة مغتلة من الحياة.. أتذكر أنني في لحظة ما رأيت ما يشبه احمرار الخجل المخلوط بالندم الساخن يطفو فوق الطبقة السميكة لبودرة المكياج الحمراء في وجنتي (أبلة منى) الفائضتين بـ (حب الشباب)، وأنني شعرت ـ مع التصاعد الدرامي للمشهد ـ أنها ستقبّل هذا التلميذ على خديه لمجرد أنه لا يصح أن تقبّله في فمه أمامنا، وأنها تجاهد بصعوبة بالغة لمنع نفسها من طلب الزواج منه.. لم تكن (منى) من المعلمات المحبوبات بالنسبة لي ـ في الواقع ولأسباب مختلفة لم أكن أحب سوى «أبلة خلود» و«أستاذ عزت» ـ بل على العكس كنت أكره حدتها، وصوتها المنفّر الذي يزداد قبحًا مع صياحها، وقبل كل شيء استسهالها المتلهّف للضرب والصفع رغم أنني لا أتذكر مطلقًا تعرضي لأي عنف على يديها.. لكنني لم أشعر بالبغض تجاهها أكثر من ذلك الوقت الذي أصبحت فيه هادئة تمامًا ـ ذلك النوع من الهدوء الناجم عن أسف الضمير ـ وصار صوتها خافتًا بارتباك الرغبة في تصحيح الخطأ، والعشم في تدارك الأمر.. لم أشعر بالغضب المدموج بالاحتقار تجاهها أكثر مما شعرت به في تلك الحصة التي قضتها في محاولات طلب العفو من ولد أصبح تاريخي معه مضاعفًا بعد هذا الموقف.. أن يكون نجمًا مُحاطًا بالاهتمام والتقدير حتى في لحظة ضعفه المهينة والمبكية فإن هذا كان كفيلاً بأن يزيد في وعيي، وبأثر رجعي، من قسوة الشرور الماكرة التي أصابتني منه في الماضي.. في المقابل أدى هذا الحدث إلى ترسيخ أكثر إذلالاً ليقيني عن نفسي بأنني أبعد ما أكون عن الانتماء لتلك الفئة المبهرة من الأولاد ـ الذين لم أنظر لهم أبدًا بوصفهم أطفالاً ـ وأنني على العكس مقدّر لي هذا النصيب البائس من الحياة الذي يُحتِّم على الأولاد المؤدبين والمتفوقين أن يظلوا

مجرد كائنات مملة، تخلو من القدرة على إبداع الإثارة، ولا تُلفت النظر بسلوكياتها المسالمة المتوقعة.. ما كنت أحصل عليه من الاهتمام والتقدير كان يُعادل ما يفوز به حيوان أليف ناعم؛ مكافأةً على أفعاله الطيبة، وخضوعه لأحكام المعتنين به، أما أولئك البارعون في تدبير المكائد اللاأخلاقية فكانوا ـ حتى مع تعرضهم لمستويات مختلفة من العقاب ـ يتركون بإجادة عفوية بصماتٍ قوية وحاسمة من الغواية الغامضة حتى في نفوس الكارهين لهم.. يحفرون بإتقان، ودون بذل جهد آثارًا عميقة، ومحفّزة للخيال من الافتتان السري بمهارات الجرأة والتمرد والذكاء في خلق الشر.

لم تنتهِ سطوة هذا الموقف بين زميلي والمعلمة (منى) عند هذا الحد في عقلي، بل كان لا بد أن يتحوّل هذا الحدث إلى سوط أكثر إيلامًا من ذلك الذي كان يسوقني قبل ذلك، حيث إن التمسّك بالمحاولات الدونية والمتعددة للاقتراب والتودد من تلك النوعية التي ينتسب لها هذا الولد سيُمعن في الحدة كهوس مؤرّق يتخذ وظيفة معيارية؛ فالسعادة في حياتي ستقاس بمدى وضوح العلامات التي يبديها تلميذ كهذا ـ بخبث اعتيادي محسوب ـ ليشير إلى رضاه عني، أما التعاسة فستُقاس بحجم الدلائل التي تؤكد شعوره المناقض تجاهي.

لم يكن موقف هذا الولد مع (أبلة منى) هو الحدث الوحيد الغريب في ذلك اليوم، بل كان هناك أمر آخر، لم يكن منفصلاً عن هذه الواقعة بل كان مرتبطًا بها، وتم من خلالها.. حينما طلبت المعلمة من هذا الولد أن يضرب زميله الواقف عند السبورة بدلاً منها، وفي أثناء توجهه لأخذ العصا من يدها مال على أذني أحد التلاميذ (السيئين) الآخرين، وكان مثل الولد الذي قرصته (أبلة منى) في خديه بشدة، وتسببت في بكائه؛ أي كان معروفًا مثله بقوة الجسد والشخصية وخفة الدم الخبيثة (اللاأخلاقية).. كان هو الآخر من ضمن الفئة التي تجمع بين

كافة تخصصات الأذى، وفي نفس الوقت كان ابن معلمة العلوم في المدرسة التي تُدرّس للصفوف الأخرى.. لم يكن متخمًا بالهيبة، والخبث، وقوة الشخصية، وخفة الدم فحسب، لكنه كان أيضًا ـ مثلما وصفته في روايتي (الفشل في النوم مع السيدة نون) ـ زعيم عصابة صغيرًا.. سفاحًا ابن ناس.. تراه لا تقول إنه في ابتدائي: جسم ضخم، ولسان غاية في البذاءة، وتحديق عينين لا يليق سوى بتاجر مخدرات.. أصبح فعلاً بلطجيًا شهيرًا، ومدمن مخدرات في شبابه.. مال هذا التلميذ على أذني وهمس: (أبلة وسخة.. تخليه يضرب زميله عشان تصالحه).. لم أرد عليه، وإنما أعتقد أنني أبديت بهزة رأس الموافقة المطلوب أن يحصل عليها هذا التلميذ من جانبي بعد انتهاء كلامه الهامس.. الطاعة التلقائية التي يجب أن أسرع بتقديمها لولد مثله؛ كي لا يغضب ويقتلني بالنبذ أي بالمعاملة المقتضبة، أو بتجاهل التحدث معي لفترة ما (وهو ما كان يحدث كثيرًا، وبشكل طبيعي، دون سبب يتخطى رغبته المزاجية).. حتى لو لم أكن أتفق مع ما قاله عن (منى) كنت سأبدي نفس رد الفعل، لكنني كنت أوافقه، وربما كان الدافع وراء عدم قدرتي على إظهار قبولي لما قاله بالكلمات ـ حتى ولو بالهمس أيضًا ـ هو العجز الذي كان يتملكني في ذلك الوقت عن التجاوب مع عبارات تحمل ألفاظًا قبيحة، أو سبابًا فاحشًا؛ حيث كنت ألتزم بذلك الصمت الذي لا يستند إلى الامتعاض أو التقزز بل إلى الخوف.. لكن ما كان يشغلني حقًا ـ في أثناء انهماكي في متابعة اللحظات الأخيرة من مشهد الولد الباكي مع (أبلة منى) ـ هو أن هذين الولدين صديقان كما يجب أن تكون الصداقة داخل العصابات.. الصداقة التي أنا محروم من وجاهتها، ورونقها مع أي منهما.. كانا زميلين في الفصل، يجلسان في دكة واحدة ـ حيث أجلس في المنتصف؛ لا لشيء سوى لأن كلاً منهما كان يفضّل الجلوس على الطرف، ولكن ليس هناك شك في أن وجودي

بينهما كان يمثل رفاهية إضافية بالنسبة لهما ـ بجانب أنهما جاران، يسكنان في شارع جانبي (حارة الخياري)، وبيت كلٍ منهما يواجه الآخر تمامًا، حيث لا يفصل بينهما سوى مساحة ضئيلة للغاية.. كانا معروفين بمتانة الصلة التي تجمعهما، وصلابة الانسجام التام في كافة تفاصيل الحياة، التي يُرسِّخها التكاتف القوي في الأمور الجادة، والمكائد، والمداعبات البذيئة، وكذلك التشارك المنغلق برهبة ساحرة على الأسرار الغامضة والخبيثة ـ الشريرة بطبيعة الحال ـ التي لا يمكن لأحد التسلل إليها، أو الاقتراب من ظلامها.. كانا يبدوان حقيقة كأنهما يمتهنان في الخفاء عملاً إجراميًا، يتقاسمانه دون ترك دليل أو أثر.. حينما أسترجع نظرة الولد الجالس بجانبي في أثناء تعليقه الهامس في أذني عن شريكه الباكي فإنني أجدني أكثر ميلاً لقبول فكرة أن هذا التعليق ـ الذي لم يتكرر في أي مناسبة أخرى ـ كان كشفًا مفاجئًا عن شعور سيئ لدى هذا التلميذ تجاه شريكه الدائم أكثر من كونه حيلة دنيئة لإيقاعي في فخ الإساءة للتلميذ الذي تحاول (أبلة منى) مصالحته؛ إذ ستنتقل إليه هذه الإساءة عبر نصفه الآخر، الوفي، الجالس بجانبي لو أبديت موافقة لفظية معلنة على ملحوظته الهامسة، سواء كانت مقتضبة، أم مشحونة بقدر من العداء، يمثّل بصمتي الخاصة في هذا الموقف.. إحساس بالحقد تجاه صديقه (الذي وصل الاهتمام بروحه المنكسرة إلى هذا الحد) أكثر من كونه توجيه إهانة اعتراضية تجاه (أبلة منى) لن يمكنه تصويبها إليها وجهًا لوجه.. ضغينة مخبوءة لم يكن من الممكن أبدًا العثور عليها داخل الاستعراضات اليومية البراقة لصداقتهما الوطيدة.. الصداقة التي يمكنها أن تخلق مع مرور الزمن كراهية باطنية، على استعداد للإعلان عن وجودها في اللحظات الآمنة التي لا يمكن أن تهدم هذه الصداقة، أو تخدش الجدار الخارجي اللامع لثباتها.. هل كان هذا صحيحًا أم أنني كنت أفتش متلهفًا طوال

الوقت، وبآلية عفوية عن أي إحساس بالبغض الخفي بين الأشرار طالما كان الخصام أو حتى النزاع العابر بينهم منعدمًا تمامًا؟.. كنت في هذا الحدث تجسيدًا لإحدى هذه اللحظات؛ إذ يمكن لصديق مخلص، شرير وخبيث بشكل نموذجي أن يُظهر مشاعره الحقيقية تجاه صديق مخلص آخر، شرير وخبيث أيضًا في غفلة منه داخل أذن واحد مثلي جاهز ومعد لاستقبال أي كلمة أو فعل دون أن يكلّف أحدًا ثمنًا ما.. واحد مثلي لا يمثل تهديدًا بوجه عام.. عاد الولد الباكي إلى الدكة، وجلس بجانبي بينما الولد الآخر على يميني يحرّك عينيه بعيدًا.. كنت أجلس بينهما كأنني الهواء الذي يمكن أن يمر منه أي شيء.

لم تكن هذه المرة الأولى التي يهمس فيها هذا الولد في أذني بصدمة مماثلة.. المرة الأخرى كانت أكثر من مجرد صدمة حينما مال على أذني بعد توبيخ عنيف من (أبلة خلود) له بسبب شيء ما لا أتذكره، ثم قال لي بصوت خفيض جدًا: (أبلة رخمة).. كان تأثير ذلك في نفسي يشبه سماع التجرّؤ على إله.. تخطت فكرتي عن هذا الولد في تلك اللحظة حقيقة أنه سافل أو بلطجي ليصبح مجنونًا أيضًا.. في داخلي كان هذا الانطباع الإضافي يعمّق من نظرتي له كشيطان.. كانت هزة الرأس الموافقة والمطيعة التي يجب أن أسرع بتقديمها له عسيرة جدًا حينئذ أكثر من أي وقت مضى، ومع ذلك حاولت أن أبدي رد الفعل الضروري والثابت.. تحوّلت هزة الرأس المطيعة إلى رعشة خفيفة، غير كاملة، منعني الذهول من استدعاء أي ابتسامة لتسندها.. رجوت القدر أن يلحظ الولد هذه الرعشة، وأن يعتبرها تضامنًا بطريقة ما حتى لا يظنني عاصيًا.. كان هذا أقصى ما في بوسعى تقديمه، ولم أكن قادرًا ـ حبًا وتقديسًا لـ (أبلة خلود) ـ على إعلان قبول زائف لما قاله، يتعدى ذلك الأثر الخفيف للانقياد.. لكن هذه الصدمة كانت تحمل لي السعادة من جهة أخرى.. كانت إنهاءً، أو على الأقل ترويضًا كبيرًا

لشعوري بالغيرة تجاه اهتمام (أبلة خلود) بهذا السفّاح.. فضلاً عن كونه ابن زميلتها أبلة العلوم، كان تشابه اسميهما يدعم ما كنت أعتبره توافقًا عاطفيًا أموميًا يتجاوز ما يربطني بـ (أبلة خلود).. كانت للأسماء أهمية كبيرة وتأثير عظيم في طفولتي.. كانت معيارًا جوهريًا يمكن من خلاله تكوين الانطباعات، والاستقرار على الأحكام الذاتية تجاه الآخرين وعلاقاتهم.. كأن التوبيخ العنيف من (أبلة خلود) لهذا الولد كان ـ بكيفية مضادة ـ مشاعر حب احتضنتني أنا في نفس اللحظة دون أن تكشف عن نفسها.. كذلك الوصف المعيب الذي تفوّه به الشيطان في أذني تجاه معلمتي المفضلة كان طمأنة غير صريحة لي بأنه لن يسمح مستقبلاً بأن يكون هناك انسجام بينهما.

من ضمن المواقف الجاثمة على ذاكرتي مع هذين الولدين ـ وهو حدث أظنه معتادًا بصور مختلفة، ولكن هذا المشهد يبدو أكثر وضوحًا وثقلاً الآن ـ أنه في إحدى المرات كنا نتمازح أنا والولد الذي أبكته (أبلة منى) في الفترة القصيرة بين حصتين.. أتذكر أنه كان يحاول أن يفعل شيئًا يشبه إجباري على الجلوس فوق حِجره بينما كنت أضحك، وغير منتبه ـ بديهيًا ـ لدلالة الفعل.. كان كل ما يستحوذ على تفكيري حينئذ هو السرور النابع من كون هذه الدعابة دليلاً على أننا صديقان، وأن هذا الولد يحبني، وأنه ينبغي أن أكون حريصًا للغاية حتى لا يتسبب أي تصرف طائش من جانبي في إفساد هذه اللحظة التي يؤكد من خلالها سعادته بي.. كنت واقفًا وهو جالس، وكنا نضحك في أثناء محاولته لجذبي؛ كي أقعد على حِجره، بينما ظللت أقاوم رغم أنني يقينًا لم أكن أفهم ما الذي يعنيه ذلك، ولكن من الواضح أنها بدت ظاهريًا بالنسبة لي كلعبة مسلية لا أكثر، وليس لها أي حقيقة أبعد، تشبه أن يحاول أحدهم تقييد يديك من الخلف مثلاً.. استطاع الولد في النهاية أن يُجلسني على فخذيه، وأنا مستمر في الضحك.. كان يقف بجوارنا في

تلك اللحظة توأم روحه، التلميذ الآخر الذي يجلس على يميني.. لم يكن هذا التلميذ شريكًا في المزحة، ولم يكن منتبهًا لها حتى جاءت اللحظة التي نجح خلالها الولد في أن يُجلسني على حِجره، فوجدت نفسي أمد يدي ـ دون أن يفارقني الضحك ـ لأجذب هذا التلميذ نحوي كأنني أستنجد به؛ لينقذني من هذه الورطة ـ الظريفة ـ وبالتالي أمنح الدعابة قيمة أعلى بضم ولد شرير آخر إليها؛ فيرضى عني اثنان بدلاً من واحد.. ضحك هذا التلميذ، ولا أتذكر كيف كانت طبيعة مشاركته بالضبط، ولكنني أتذكر أن شيئًا ما في رد فعله جعلني أنتبه أن هناك شيئًا غير طبيعي تُخبّئه هذه المزحة التي لم تستغرق سوى بضع ثوان.. ربما رأيت انطباعًا ماكرًا في عينيه، وربما قال شيئًا موحيًا بأن الأمر ليس كما يبدو بالنسبة لي؛ ومن ثم بدأ الضحك يخفت ويتراجع تدريجيًا، حتى انتهى تمامًا دون أن أستوعب ما المعنى السري لهذه الدعابة.. أتذكر أنني خرجت من الفصل لمدة قليلة، وعند عودتي وفي أثناء سيري في الردهة وجدت الولدين يقفان بجوار الفصل ويتهامسان، وكان على وجه كلٍ منهما ابتسامة واسعة من الدهاء الملتذ، وينظران لي.. أبعدت عينيّ عنهما، ودخلت الفصل موقنًا أن هناك حقيقة سيئة وغامضة بالفعل لهذا المزاح، ولكن كان تفكيري على استعداد تام للاكتفاء بأن المعنى المتواري الذي كان هذان الولدان يتهامسان بشأنه لن يخرج عن سخريتهما ـ المعروفة ـ من رغبتي المقهورة في صداقتهما، وأن الأمر لن يتجاوز ذلك.. كنت مهيئًا لتصديق هذا التصور السهل؛ حتى يمكنني أن أستمر بينهما.

لكن المرحلة الابتدائية لم تنته دون أن أحاول ممارسة العنف الجسدي تجاه تلاميذ آخرين.. بشكل محدد تمامًا كانت لي ثلاث تجارب فقط، أجدها في حقيقة الأمر تدل بطريقة مثالية على علاقتي بموضوع العنف ذاته، والتي لديّ من القرائن الثابتة عبر الزمن ما يؤكد أن

هذه العلاقة لم يطرأ على جوهرها أدنى تغيّر.. التجربة الأولى كانت مع ولد أصغر مني قابلته في فناء المدرسة في أثناء إحدى الحصص، ربما في أثناء ذهابي أو عودتي من دورة المياه الخاصة بالتلاميذ.. كان الفناء خاليًا بالطبع في تلك اللحظة، ولا أتذكر ما الذي جعلني أدفعه بقوة في رقبته.. ربما من الغريب حقًا أنني أشك الآن في أن هذا الاعتداء من جانبي جاء ردَّ فعلٍ على قولٍ أو تصرفٍ مؤذٍ من جانب الولد استفز رغبتي في عقابه.. ربما فعلت هذا وحسب دون أن يكون لهذا الطفل ذنب في شيء.. الغريب أيضًا أنني أشك الآن في أنه حتى إذا كان هناك اعتداء ما قد ارتكبه هذا الولد ضدي، فإنه لم يكن بأي حال من الأحوال يستحق هذه الضربة العنيفة بذلك التجويف الذي يكوّنه التقاء الإبهام بالسبابة.. أين تكمن الغرابة؟.. ربما في أنني ببساطة لست ذلك الطفل الذي يُبادر بتوجيه الأذى دون سبب، كما أنني لست ذلك الطفل الذي يُقوم بالاعتداء على أحد حتى مع وجود مبرر.. كل ما أنا متأكد منه أنه كان وراء دفعي القوي لرقبة هذا الولد استغلال لصغر سنه، وقصر قامته، وللضعف الظاهري لجسده بصرف النظر عن قيامه بفعل سيئ أم لا.. لماذا حدث هذا الاستغلال في تلك اللحظة؟.. أتذكر أنني كنت غاضبًا لسبب ما في أثناء عبوري الفناء، ومقابلتي لهذا الولد حينئذ.. نعم أتذكر غضبي مجهول الباعث جيدًا.. أو ربما كنت في ذلك الوقت أتفحص بالصدفة هذا الركام الأسود في داخلي من مضايقات التلاميذ الآخرين لي، والذي وصل إلى مدى غير محتمل.. ليست الإهانات فقط، وإنما أيضًا ـ ربما بشكل أقوى ـ عدم القدرة على تجاوزها نحو التآلف والتوحد مع الذين يوجهونها ضدي.. بدت سمات الطفل الذي قابلته في الفناء بمثابة دعوة مواتية لشفي الغليل؛ إذ كان يمتلك ذلك الشعر القصير المجعّد والمغبر، الذي يعطي الانطباع التقليدي بأن الماء لم يلمسه منذ زمن طويل، وكذلك الوجه

الأسمر المنطفئ الذي يبدو ـ كما كان حال كثير من وجوه التلاميذ في ذلك الوقت ـ أنه لا يُغسل أبدًا.. كنت أتفحص مريلته المتسخة البالية، وملامحه الخامدة بشحوبها العدائي، وبالبقع الباهتة المتناثرة فوق ملامحه التي يطفح منها التأهب لإلحاق الأذى المرعب.. فكرت في أنني الآن أمام النسخة المصغرة، الأضعف من الأولاد السيئين في فصلي.. الشبيه الأقصر والأنحف للأشرار، الذي يعطيني الفناء الخالي فرصة لن تتكرر حتمًا للانتقام بواسطته منهم.. ربما لم أكن أحتاج لأكثر من النظرة الاستفزازية التي كان ينظر لي بها حتى أُنهي ترددي ـ الذي لم يكن قويًا على أي حال ـ وربما كانت هذه النظرة مقترنة أيضًا بكلمات أثارت غضبي؛ فمددت يدي لأدفعه في رقبته بقوة، وهي الحركة التي كنت منتبهًا لحظتها إلى أنني الآن أتولَّى في أدائها دور الفاعل للمرة الأولى.. كان في الدفعة شيء من العنفوان المتسرّع، الذي قرر فورًا تجاوز رعشة ما؛ حتى لا تتبدد الرغبة أو الدافع لتنفيذها.. فوجئت بالطفل يضع يديه الصغيرتين على رقبته متألمًا، وهو يغمض عينيه بعدما أرجعته الدفعة خطوة للوراء.. شعرت بالفزع، وسألته سريعًا: (مالك؟).. اختفت الملامح العدائية من وجهه، وتلاشت النظرة الاستفزازية من عينيه، وربما تبخرت البقع الباهتة أيضًا من ملامحه التي أصبحت منكسرة وهو يقول بصوت خافت متوجّع: (أصلي لسه عامل عملية اللوز قريب).

كأن يدًا لامرئية أو ربما صورة خفية من كفي التي دفعت رقبة الولد ارتدت بقوة أعظم إلى رقبتي.. شعرت بالضربة تعود إليّ بثقلٍ أشرس، ودون أن يقتصر ألمها داخل حدود هذه المساحة الضئيلة من العنق، بل بدا كأنها امتزجت مع الدم؛ لتتنشر في كامل جسدي.. مددت يدي اليسرى ـ كأنني أخفي يدي اليمنى التي ضربته، أو كأنني اعتبرتها لم تعد مناسبة للتعاطف والندم ـ ثم ربت على كتفه، وهو لا يزال

ممسكًا برقبته، وينظر في الأرض، كأن الوجع المنبعث من مكان العملية على وشك أن يجعله يبكي.. قلت له بنبرة معتذرة بدت كأنها آتية من دقات قلبي المتلاحقة: (طب معلش).. إذا كان الشعور بالأسى الجارف، الناجم عن هذه الصدمة منطقيًا فقد كان لديّ وقتئذ إدراك لا يقل قسوة عن الإحساس بالذنب تجاه هذا الطفل، وهو الوعي بأنني ارتكبت خيانة لنفسي.. انتهاك لعالمي الخاص، كأنني لم أغدر بطفل صغير ومريض فحسب، وإنما على نحو أفظع ارتكبت خيانة لأصدقائي الذين يعيشون داخل مجلات القصص المصورة النائمة في حجرتي الآن منتظرة عودتي، ولأغاني وبرامج الأطفال، وللألعاب المستقرة في الصناديق الكارتونية، وللبلكونة التي أجلس فيها أغلب الوقت لأتأمل وأراقب الكائنات، وللحكايات التي يرسمها خيالي، وللامتداد السماوي الممطر، وغيومه الشتوية الكثيفة الناعمة، التي أختبئ بداخلها كل يوم فيما بين العصر والمغرب.. ما الذي جعلني أفعل هذا؟.. ما الثمن الذي حصلت عليه نتيجة تصرف مفاجئ، غير محسوب، يتنافر تمامًا مع طبيعتي؟.. نعم.. كنت ـ ولازلت ـ أريد ممارسة الشر.. إثبات القوة التي يتحلى بها الآخرون.. امتلاك السحر والهيبة مثل أولئك المؤذين القادرين على معاندة سلطة الكبار، ودهس الصغار من أمثالي.. لكن هذا الطفل ليس منهم رغم مريلته المتسخة، وشعره المغبّر، ووجهه المبقع.. كما أنه مريض.. هل من الممكن أن تتسبب دفعة يدي لرقبته في موته؟.. ظللت أفكر في هذا الهاجس أيامًا طويلة لم أر خلالها هذا الولد الصغير مرة أخرى، ولكنني كنت أعرف أن موته لن يكون سرًا، بل ستعرفه المدرسة كلها لو حدث.. هذا الموقف البائس لم يقتصر تأثيره على مرارة الخيبة المتدفقة من الفشل في أن أكون قويًا، بل امتد وبشكل أعنف نحو فكرتي عن نفسي.. أنا الجبان الذي لا تتوقف تعاسته عند الوهن الجسدي والنفسي فقط، وإنما تنقصه أيضًا الكرامة

بعد أن حاول الاستقواء على طفل أصغر وأضعف، والأفظع أنه مريض أيضًا.. هل كان لدى هذا الطفل من الدهاء ما يجعل من عملية اللوّز، والألم، وانكسار الملامح مجرد أكاذيب؟.. لن يكون هذا غريبًا، ليس لأنني كنت أرى معظم أطفال المدرسة ماكرين؛ بل لأنني أسهل من يمكن ممارسة الخبث ضده.. هل كان في نفسي أثر خفيف، بعيد للغاية، ومتقطّع بشحوب بالغ من الاعتزاز الذكوري؛ لأنني ضربت ولدًا آخر مهما كان جسده هزيلاً، أو يحمل جرحًا طازجًا أصابت يدي موضعه تمامًا؟.. هذا جائز جدًا.

(أضواء الإعلان التليفزيوني للمخرج «عادل مكين» عن حفل «داليد» في مصر.. رباعي فريق «Abba" وهم جالسون على العشب وسط الأشجار ويضحكون في أغنية "The winner takes it all".. "سيد الملاح" وهو يتحول لثلاثة نسخ، ويغني "كان فيه واحد مزيكاتي ومعاه صاحبه مألفاتي، غرقت بيهم المركب، عاموا، عاموا، لجزيرة القرصان زناني" في أغنية "أبريق الشاي".. الستائر الملونة خلف "فايزة أحمد" وهي تغني "بكرة تعرف".. حجرة الأولاد "صباحًا" في فيلم "محاكمة علي بابا" 1984.. ضحكة الضفدع "Kermit" مع هزة رأسه في برنامج "The muppet show".. قبعة "Larry Hagman" في مسلسل "Dallas".. اللوحة الليلية للسلم والسور الخشبي وباب البيت في بداية تتر النهاية لمسلسل "الأيام" مع صوت "علي الحجار" وهو يغني "دوامة سودا ودايرة تحت وفوق، والدنيا بحر غويط وعالي الموج" 1979.. سيارة الدب "Rupert" وهو يقودها ويطير بها وسط الأشجار في مسلسل "The Rupert bear" أو الدب "روبي".. قصاصة الجريدة الممزقة بين يدي "تان تان" وهو داخل السجن مع الكابتن "هادوك" والكلب "ميلو" في قصة "تان تان في معبد الشمس".. صورة جد "مسعود" في مسرحية

"المتزوجون".. الطفل في إعلان "كريست" حينما يتوقف عن المضغ بعد أن يخبره أبوه أن مفعول الخل مثل الحامض الذي تكوّنه بقايا الأكل على أسنانه في إعلان "كريست".. الشعر القصير المنسدل على الجبهة والنظارة الكبيرة والسيجارة في طرف الفم لأحد الرافعين أذرعتهم بالتصفيق مع الإيقاع في أغنية "Live is life" لفريق "Opus".. النجمة الحمراء الكبيرة المضيئة داخل الظلام خلف الطبّال في أغنية "مغنواتي" لفرقة "الفور إم".. الأباجورة الصغيرة ذات اللون البرتقالي بجوار التليفون في حجرة "محمود ياسين" بالفندق في فيلم "الوهم" 1979.. البراميل الخضراء والزرقاء في سباق العوامتين ببرنامج "تيلي ماتش" مع صوت المعلق العربي وهو يقول:"ما كنت سأسمح لهم بقذف أمتعتي بهذه الطريقة لو كانت لي أمتعة هنا".. "عايدة حسن إسماعيل" وهي تقف خارج حجرة المكتب وتتصنت على المشاجرة بين "محمود الجندي" و"مريم فخر الدين" في مسلسل "أبرياء في قفص الاتهام" مع الموسيقى التصويرية لـ "مختار السيد" 1984.. "هند" وهي تقلّب الفطيرة في الطاسة لـ "هاني" في قصة "هاني عاوز فطير" بالعدد 86 لمجلة "ميكي جيب" مارس 1982.. قطعة المعجون المتكلمة وهي تبرز عضلتَيْ ذراعيها في إعلان "سيجنال تو".. "خوليو إجليسياس" عندما يغمض عينيه وهو يغني "Je n'ai pas change".. الطفلة التي كانت تقلّد مواء القطة في أغنية أصوات الحيوانات.. "ممدوح قاسم" وهو جالس، وممسك بالجريدة ويغني "متحسبوش يا بنات إن البنات راحة" في أغنية "متحسبوش يا بنات إن الجواز راحة".. الألعاب في حجرة الطفلة "شيرين" وأمها "نيللي" تغني لها "يا عصفورة العصافير" في فيلم "اتنين على الهوا" 1984.. الكرة الأرضية وهي تدور وتُفرد كخريطة مسطحة للعالم مع موسيقى نشرة أخبار التاسعة مساءً.. زجاج السيارة

الخلفي وهو ينزل ليُظهر ابتسامة "Jane Wyman" في مقدمة مسلسل "فالكون كريست".. رشفات "محمود عبد العزيز" و"أحمد بدير" القوية المتلذذة للشاي الذي أعدته "مديحة كامل" في مسلسل "البشاير" 1988.. الأبراج الشبحية العالية لقلعة الملكة الساحرة في الليل، وسط فروع وأوراق الأشجار الداكنة وتحت ضوء القمر في كارتون "الأميرة والأقزام السبعة".. "لاكي لوك" وحصانه "أصيل" في قصة "الممر الخطير" وهو يساعد عامل وزوجته على عبور سيل ضخم بعربتهما التي يقودها حصانان قبل أن يعود بهما مرة أخرى ويتركهما مغنيًا "أنا راعي بقر مسكين، وحيد، موطني بعيد بعيد، ولكني سعيد").

المسودة الثانية

التجربة الثانية كانت في إحدى الفسح؛ إذ حدث ما بدا أنه تجرّؤ غير متوقع من أحد الأولاد المؤدبين تجاه زعيم العصابة الصغير الذي يجلس بجانبي.. كنا في الفناء، ولم يكن لي في البداية علاقة بالأمر.. كنت مجرد واحد من التلاميذ الذين انتبهوا فجأة إلى غضب الولد المؤدب، وكلماته الحادة، عالية النبرة، التي تخلو بالتأكيد من البذاءة.. خمنت على الفور أن السفاح ابن أبلة العلوم قد ارتكب فعلاً لاأخلاقي، أو تفوّه بلفظ مهين دون سبب أكثر من الرغبة التلقائية في ممارسة شر روتيني في حق تلميذ مسالم.. تجلّت القسوة الظالمة لهذا الشر ـ الذي لم أعرف طبيعته ـ في قوة الغضب المفاجئ الذي تملّك هذا التلميذ، وصراخه غير المعتاد، المنفجر بعبارات ثائرة، ظلت ترتعش عند حافة البكاء، وتستنكر بحرقة ذلك الجرح المجهول الذي أصابه بلا ذنب.. هذا الاحتجاج العنيف بالرغم من عدم تسلل حرف من الإساءة لكلماته حتى ولو سهوًا فإن المشاكس الصغير اعتبره ـ وهذا بديهي ـ تجاوزًا صادمًا لا يمكن قبوله، خاصة أنه يخرج من بين شفتي تلميذ ضعيف، لم يسبق له أن تشاجر أو ضرب أو شتم ظِل أحد آخر؛ أي أنه مجرد طفل رخو، لم يصبح رجلاً بعد مثلما يعتبر ذلك البلطجي نفسه

هو وأقرانه.. ابتسم الولد ذو الشعر الممشط للخلف ـ وكانت تلك علامة دامغة على سوء الأخلاق في أيامنا؛ فالصغار المؤدبون لا بد أن يُمشط شعرهم للأمام أو بالعرض ـ ابتسم في وجه الولد الغاضب بسخرية، كعملاق يتفحص ذبابة عابرة، تعيسة الحظ، وقفت على وجهه، وعلى وشك أن يسحقها.. استفزت هذه الابتسامة المزيد من غضب التلميذ المسالم فرد عليها بعبارة تحدٍ حافظت رغم شجاعتها على نظافتها من السباب، أو حتى من لمحات الضرر، وظلت ملتزمة بذلك الحد الذي يبدو أنه أقصى ما يمكن أن يصل إليه ولد مثله في مواجهة كهذه.. الحد الذي يقول للوحش المنتصب أمامه إنه يدرك جيدًا عدم قدرته على إيذائه، ولكنه في نفس الوقت غير خائف مما قد يناله من بطشه حتى لو لم يكن هذا صحيحًا.. فجأة التفت زعيم العصابة لي، وأمرني أن أضرب هذا الولد.. كانت الابتسامة الساخرة تختفي تدريجيًا من شفتيه كأنما لم يعد هناك ضرورة لبقائها بعدما أصبح هذا الموقف الذي لا قيمة له على وشك الانتهاء.. أشاح بوجهه بعيدًا في نفس اللحظة التي انتهى خلالها من إصدار الأمر لي، وعلى ملامحه مزيج مُقبض من عدم الاكتراث والحسم، والتهيّؤ لاستعادة الانشغال بما هو أكثر أهمية.. كان يبدو كقاتل فرقع إصبعين في الهواء معطيًا إشارة الذبح لتابع أدنى منزلة، تليق به المهام الحقيرة.. كل شيء كان محسومًا بالفعل: الولد المؤدب أقل شأنا من أن يُحرّك السفاح الصغير إصبعًا واحدًا من أصابعه السمينة باتجاهه.. هذه التفاهة تخص واحدًا مثلي.. طفل هش يشبه ذلك التلميذ الذي لم يُصبح رجلاً بعد، ويتحلى بالخضوع اللازم لأن يشعر بالسعادة المتباهية حينما يتلقى من أحد الأشرار أمرًا كهذا، ويسرع بتنفيذه على الفور.. كنت أفكر قبل هذه الثانية الفارقة بشيء من عدم التصديق الساخط في التجاوزات المباغتة للولد المؤدب، مراقبًا في نفس الوقت تأثير هذا التطاول على التلميذ البلطجي.. كنت أتساءل

بدهشة وارتباك: كيف يفعل الولد المؤدب هذا؟.. لماذا لا يصمت؟.. كيف لا يتراجع عن إثارة غضب الولد الشرير؟.. لماذا لا يحاول الحصول على رضاه، ولو بالتوقف عن الكلام، أو الانصراف من أمامه؟.. كيف يُغامر بهذه الرعونة العمياء بتضييع الاحتمال لأن يكون صديقًا مقربًا له في المستقبل؟.. نعم.. لم يكن استغرابي متعلقًا بشجاعة الولد المؤدب، وعدم خوفه ـ الظاهري ـ من الضرب، وإنما بجرأته في المقامرة على خسارة وفاق ممكن مع هذا البلطجي.. هل كانت الدهشة قناعًا لغيظٍ يرتجف في عمق هائل داخل نفسي بينما أتأمل زميل لي يفعل ما لم أَقدر عليه أبدًا؟.. هل كان الارتباك ستارًا لذلك الحائط الصلب الذي اصطدمت به غفلتي على نحو مفاجئ بعدما رأيت أن هناك في الحياة من بإمكانه أن يُخاطر بالابتعاد عن الباب الذي أقف عنده منذ زمن دون أن أنجح في عبوره؟.. كان زعيم العصابة محقًا.. لم تكن عندي أدنى مشكلة في التغاضي حالاً عن كافة العوائق المنطقية: أن الولد المؤدب زميلي، وتربطني به علاقة طيبة حتى خارج المدرسة، ولم يحدث بيننا من قبل أي سوء تفاهم على الإطلاق.. أنني لست طرفًا في المشكلة.. أنني لا أعرف ما المشكلة أصلاً.. أن المعتوه الذليل الإمعة هو وحده الذي ينفذ عقابًا لا يخصه على حدث يجهله، وهي الفضائل التي سيتداولها عن شخصي ودون جدال التلاميذُ الآخرون، الذين تجمعوا لمتابعة المشهد الفاتن.. أن هذه هي الصفات التي سأنعت نفسي بها مع كل لحظة شرود ستعقب هذا العراك أيًا كانت نتيجته.. لم تكن عندي أدنى مشكلة في التغاضي حالاً عن كافة العوائق المنطقية؛ لأنني لم أكن أراها أساسًا.. لم يكن هناك صوت في العالم سوى ذلك الهادئ، الصلب، الذي أصدر لي الأمر اللامبالي بضرب الولد المؤدب، ولم يكن هناك مشهد في العالم سوى عيني الولد المؤدب وهما تتحركان من وجه السفاح إلى وجهي.. لم تكن هناك حقيقة في العالم سوى أنني حصلت

أخيرًا وبكرم مبهر، غير مرتقب، على فرصة إثبات جدارتي بأن أكون صديقًا حقيقيًا لذلك البلطجي، وأنه ينبغي أن أنتهز هذه المنحة تمامًا، ولا أهدرها بأي حال من الأحوال.. كان تفصلني عن الولد المؤدب خطوتان تقريبًا، وجدت نفسي أتجاوزهما دون تردد، ولكنني كنت خلال تلك اللحظة الخاطفة متيقظًا لوفرة من الأفكار والمشاعر المضطربة والمتصارعة، التي تناثرت فجأة بحدة في داخلي، وتفاوت انبعاثها المتوتر بين الوضوح والضبابية، والاستقرار والاهتزاز، والحضور المتقطّع والغياب التام.. كنت أفكر خلال تلك المسافة الصغيرة للغاية في أنني سأضرب للمرة الأولى شخصًا يعادلني تقريبًا في كل شيء: العمر.. الطول.. الحجم.. ليس شخص يعادلني فحسب بل إنني سأضرب للمرة الأولى شيئًا آخر غير وسائد السرير والكنبة.. سأضرب كائنًا حيًا.. إنني سأنجح في ضربه بسهولة مطلقة، وإنه لن يتمكن أبدًا من الدفاع عن نفسه أو من رد الاعتداء لي، بل سيتلقى الضربات ويتألم ثم يستسلم ويبتعد بخوف مهين، ورهبة يائسة.. لماذا؟.. لأنني أعرف أنه ولد مسالم.. أبيض القلب.. لم أشاهده أبدًا من قبل وهو يحاول إيذاء أي من زملائنا، وكان حريصًا دائمًا على تجنُّب التورُّط في المشاكل.. لا بد أنه ضعيف إذن.. لا شك أن وداعتَه دليلٌ يقينيٌ على عدم امتلاكه لأي قوة جسدية.. لم يخطر في بالي أبدًا في تلك اللحظة أنني مثله، وأن كل التأكيدات التي استخدمتها في إدراكي له هي نفس التأكيدات التي سأستخدمها دون أي انحراف في إدراكي عن نفسي، بل على نحو أسوء.. كنت أفكر أيضًا بينما أندفع نحوه في أنني لا أعرف كيف سأضربه: هل سألكمه في وجهه أم في بطنه أم سأخنقه بذراعي وأوقعه أرضًا، ثم أقرر بعد انبطاحه أسفلي الطريقةَ التي سألتهمه بها؟.. شعرت بالزهو المحموم؛ لأن توجيه الأمر بضرب الولد المؤدب يعني أن الولد الشرير يعتبرني رجلاً بشكل أو بآخر، وأنني ـ بالضرورة ـ قوي وشجاع، يستطيع التغلب

على الخصوم ـ حتى لو لم يكونوا خصومه ـ وكان الشعور الممتن بهذه الثقة المباغتة كفيلاً بأن يدفع في عروقي المخزون العظيم لإثارة الأكشن التي كوّنتْها في ذاكرتي الصغيرة أفلامُ (عادل إمام) و(سيلفستر ستالون)، وأفيشات (بروس لي) و(جاكي شان) و(أرنولد شوارزنيجر) على جدران شارع (سينما أوبرا).. شعرت أن العالم سيتغير كليًا بعد دقائق قليلة، حينما أعلن انتصاري المؤكد، وينسحب التلميذ المهزوم مدنسًا بالعار، وحينما ينظر السفاح في وجهي للمرة الأولى بابتسامة مختلفة تمزج بين السرور والتقدير، وربما يربت باستحسان فخور على ظهري، وربما يضع ذراعه حول كتفيّ كصديقين ونحن نبتعد عن ساحة القتال التي ستشهد بداية تاريخي الجديد.. سأمتلك الشخصية المضادة التي أتمناها، حيث لن أتوقف - وحسب - عن كوني دمية طيّعة تلهو الشياطين بسذاجتها، بل ـ وهذا هو الأهم ـ سأكون بدرجة ما واحدًا من هؤلاء الشياطين.. انتبهت في نهاية الخطوتين الفاصلتين بيني وبين الولد المؤدب، وقبل أن أرفع يديّ نحوه أن نظرته لي كانت تحمل شيئًا عجيبًا.. كانت عيناه متأهبتين لهجومي، وكان هذا متوقعًا، ولكنهما كانتا خاليتين من الدهشة.. لم يكن في نظرته أي قدر من الاستغراب تجاه استجابتي العاجلة لأمر البلطجي، وطاعتي الفورية للاعتداء عليه بدلاً منه في مواجهة لا دخل لي فيها.. كان في عيني الولد المؤدب استيعاب بأن ما أفعله الآن شيء عادي بالنسبة لي.. تصرف مفهوم يليق بشخصيتي.. كأنه كان يحتفظ طوال الوقت في داخله بمعرفة سرية عن حقيقتي، لم يكشف عنها أبدًا من قبل، أو ربما كان الأولاد المؤدبون يتداولون هذه المعرفة بوضوح مثل الأولاد السيئين دون أن أدري.. كانت يداي مرفوعتين عند وصولي إليه حتى أمسك بجسده، لكن آخر ما يمكن أن أتوقعه في تلك اللحظة هو أن يقبض ذراع الولد المؤدب بصلابة خاطفة على رقبتي، وينزل برأسي لأسفل بمنتهى القوة ودون

ألم.. كان مجرد شعور بالخنق المتين الضاغط حول عنقى، والذي جذبني للوقوع على ظهري في أقل من ثانية.. لم أتمكن من استيعاب ما حدث خلال تلك المدة القصيرة للغاية التي انتهت بجلوس الولد المؤدب على ركبتيه، فاتحًا فخذيه فوق صدري.. كان ما قام به هو أكثر الاعتداءات التي ارتُكبت ضدي سرعةً، وأكثرها صدمًا وإهانة.. كان قد شل حركتي من مكانه فوقي بالإمساك بيديّ وتثبيتهما في الأرض.. كانت ساقيّ تضربان الهواء وراء ظهره بأقصى ما لديّ من شدة متهيّجة بالفزع من الهزيمة، لكنها ظلت مقاوَمة عبثية فاشلة، لا علاقة لها بمنطقة القهر حيث الولد الجالس فوق صدري، وكفيه اللتين تُلصقان يديّ بتراب الفناء.. لم أمتلك مع تلك المصيبة الحقيقية التي لم يكن لها أي احتمال في ذهني سوى أن أنظر في عينيه.. كنت منسحقًا تمامًا، وكان فقداني القدرة على فعل أي شيء سوى النظر في هاتين العينين هو أفظع ما في هذا الانسحاق.. لم يكن يبتسم.. فقط كان ينظر لي.. لم تكن على ملامحه العلامات المعتادة للزهو، أو التعالي، أو التشفّي التي يتوقع ظهورها على وجه أي أحد في مكانه.. كانت عيناه كأنما تكتفيان بإعطائي رسالة مختصرة وصامتة: (مكنش فيه داعي للي حاولت تعمله، أنا مش هضربك، بس متفكرش تكرر الغباء ده تاني معايا).

لم أسمعها، لكنني قرأتها بوضوح تام، وكانت هذه الرسالة أكثر فداحة من خسارتي الجسدية.. لم أكن أعرف أنه ولد قوي إلى هذه الدرجة.. لم أكن أعرف أنني ضعيف إلى هذا الحد.. لم أكن أعرف أنه رجل بما يجعله يكتفي بهذا العقاب البسيط المحكوم بالشفقة، دون أن يمارس ضدي تأديبًا وافيًا، لم يعد هناك شك أنه باستطاعته جزاءً لي على فعلتي الخائبة.. لم أكن أعرف أي شيء.. ترك يديّ لتتحررا من قبضتيه ثم نهض من فوقي وهو لا يزال ينظر في عينيّ.. نهضت كرماد يقف على

قدمين من الخزي والحرقة.. كان بعض التلاميذ من الفصل المتجمعين منذ البداية، والذين تزايدوا مع سقوطي أرضًا، وجلوس الولد المؤدب فوقي - يضحكون، ويقذفون التعليقات الساخرة على جسدي لتختلط بالتراب الذي يغطي مساحات كبيرة من ملابسي.. لم أنظر إليهم؛ لا لشيء سوى لأنني كنت أعلم أن زعيم العصابة ما يزال واقفًا بينهم، وأنه يشاهدني الآن بخيبة أمل.. لم أكن أحتاج للضحكات والتعليقات الساخرة لأقرر معاودة الهجوم على الولد المؤدب؛ إذ كان أخذ الثأر بالنسبة لي مسألة محسومة ليس لأنه هزمني، وإنما بشكل أقوى لأنه ضيّع الفرصة النادرة التي حصلت عليها فجأة لإثبات قوتي كرجل، وكنت أظن أن النجاح في استغلالها أمر بديهي رغم كل شيء.. سمعت صوتًا اختفت معه جميع أصوات التلاميذ الأخرى في أذنيّ.. صوت يقول لي بتهكم بدا كل حرف من كلماته كأنه رصاصة تخترق روحي: (كده يضربك؟).

كان صوت الولد الشرير الذي لم يكن من الصعب إدراك أنه ينطقها بشماتة واستفزاز؛ ليستمتع أكثر بمحاولاتي الطفولية المنتظرة لرد الاعتبار، ولكن هذه الكلمات ظلت متمسّكة في داخلي بكونها تعبيرًا عن خيبة الأمل فقط مثلما ظللت مصممًا على عدم النظر إليه.. طيّرت كلمات البلطجي عقلي بقسوة ثقيلة في نفس اللحظة التي أعطاني خلالها الولد المؤدب ظهره، وبدأ يسير مبتعدًا كأنما لم يترك أي فاجعة وراءه.. كنت بكل الغضب والمرارة والغيظ أتحرك نحوه بخطوات سريعة حتى ألحق به، بعد أن خلعت السويتر الأخضر الصوف، ذا السوستة الطويلة من فوق المريلة، وألقيته على الأرض، منتبهًا إلى أنني شاهدت هذه الحركة كثيرًا في الأفلام، وأنه من الجيد رغم كل ما حصل أن تسمح الكارثة التي أواجهها الآن بأن أقلّدها.. ارتفع صياح التلاميذ بعد خلعي للسويتر، ليس ابتهاجًا حماسيًا بتلك الإشارة على استمرار

المشاجرة، التي لم تحدث أصلاً؛ وإنما كتوجيه شكر لي على السخرية المضاعفة التي سيتلذذون بها مع محاولتي الجديدة للانتقام، والتي كان جليًا أنهم متأكدون من مصيرها.. فجأة رن الجرس معلنًا انتهاء الفسحة؛ فانقسمت الحياة على نحو مباغت عالمين منفصلين: العالم الأول من حولي حيث التلاميذ يتحركون نحو الممر المؤدي إلى الفصول دون ضحكات، ودون كلمات أو تلميحات عما حدث، بل ودون النظر إليّ أو إلى الولد المؤدب كأنما لم يكن هناك شيء من الأساس.. السفاح يغادر الفناء وحده صامتًا، ودون أن تكون على وجهه أي انطباعات لها علاقة بالأمر.. الولد المؤدب يصعد السلم أمامي في هدوء.. كان العالم الثاني هو ذلك المغلق في الخفاء على البراكين الثائرة التي تقذف الحمم المتصاعدة للعار واليأس في دمائي.. لم أفكر في أمي التي كانت تجلس في ذلك الوقت داخل حجرة المعلمات في الدور الأول، ولا في أبي الذي يجلس داخل حجرة مكتبه بإدارة تعليم الكبار في الطابق الأعلى.. كأنني كنت أريد أن أنسى وجودهما في المدرسة.. كأنني كنت أريد قطعًا مؤقتا لصلتي بهما؛ لأواجه الأزمة التي كسرتني وحدي، حتى لو بقيت خسرانَ من البداية حتى النهاية.. كنت أغادر الفناء، وأسير في الردهة، وأصعد السلالم بقدمين لا تريدان المشي أو الطلوع، بل تريدان البقاء والانتظار؛ حتى أحاول الثأر مما حدث لي.. كان تحرّك التلاميذ الآخرين الروتيني، المتجاهل لرغبتي في رد الاعتبار الذي لا بديل عنه يعمق من شراسة ما أصابني.. كأنني أُكرِهت على الانسحاب، أو كأن الجرس الذي رن لم يكن جرس انتهاء الفسحة، بل جرس انتهاء المباراة التي هُزِمت دون أن أخوضها، وأن (عم معتز) الفرّاش الذي ضرب الجرس كان يعلم، ومتواطئًا في هذا بتحريض من بقية المعلمين والمعلمات وموظفي المدرسة الذين كانوا يشاهدون كل شيء من زوايا سرية، وأنهم قررا إنهاء الأمر عمدًا بعد إذلالي..

حينما جلست في الدكة، وقبل بداية الحصة التي تعقب الفسحة لم يكن زعيم العصابة الذي يجلس بجانبي قد أتى بعدُ، وكانت عودته تمثّل همًا ضخمًا يثقل صدري.. وجدت الولد المؤدب ـ وكان مكانه في الدكة التي خلفي مباشرة ـ يقترب، ويجلس بجواري ثم يرفع نفس الذراع التي خنقتني وأسقطتني أرضًا بها؛ ليضعها برفق ومودة فوق كتفي، ويسألني: (إنت زعلان عشان ضربتك؟).

لم أنظر إليه؛ إذ بدا أن علامات الزهو والتعالي والتشفي التي لم تظهر في وجهه لحظة جلوسه فوقي وأنا ممدد على أرض الفناء قد توحدت الآن في هذا السؤال، وأعلنت عن نفسها بوضوح أكثر قبحًا وإيلامًا مما لو كانت قد ظهرت على وجهه وهو يثبّت يدي في الأرض.. كان السؤال البطولي المُحتقِر الذي يجب أن يضرب به الفائز صدر المهزوم بطعنة استعراضية أخيرة ليُجهز عليه تمامًا.. الولد المسالم، أبيض القلب، الذي لم أشاهده أبدًا من قبل وهو يحاول إيذاء أي من زملائنا، والحريص دائمًا على تجنب التورط في المشاكل - ألحق بي ما اعتبرته فضيحة في الفناء، والآن يسألني هذا السؤال الذي لا شك أن ثمة أصداءَ صاخبة له من الضحكات المستهزءة والمتباهية تتردد في أعماقه دون حاجة لأن تبدو على وجهه علامات لها.. سؤال الرجل الكبير القوي الخبيث، الذي يُطيّب خاطر الطفل الصغير الضعيف المسكين، وفي نفس الوقت يحرص بكلمة (ضربتك) على أن يثبّت في نفس هذا الطفل الواقع الذي حدث اليوم كي لا ينسى.. أبعدت بيدي المرتعشة ذراعه عن كتفيّ مواصلاً عدم النظر إليه، ودون أن أتكلم.. فوجئت به يمسك برأسي، ويقبّل جبهتي ثم ينهض من جواري، ويعود صامتًا إلى دكته.. هكذا لم يعد هناك سبيل لمحو هذا الواقع من الذاكرة.

التجربة الثالثة كانت مع (محروس) الولد الذي يجلس وحده في الدكة الأخيرة بالصف الأول من جهة باب الفصل.. كان (محروس) يمتلك كل

السمات والصفات التي تجعله يصنّف بجدارة ضمن فئة (الأولاد السيئين).. كان ذا رائحة كريهة، وشعر قذر، غير ممشط، ووجه شاحب متسخ، مملوء ببقع وخطوط داكنة كثيرة، وعينين منطفئتين فائضتين بالعُماص.. كان يرتدي مريلة باهتة وبالية تمامًا، وبنطلونًا قديمًا مهترئًا، وحذاءً بوت بلاستيكيًا رخيصًا، والذي عادة ما يلبسه أبناء الفقراء، أو من كنا نعتبر أنفسنا نحن أبناء الطبقة الوسطى أغنياء مقارنة بهم.. كان (محروس) يسب، ويقول ألفاظًا فاحشة، ويُصدِر أصواتًا بذيئة من فمه، ويشير بحركات سافلة بيديه وأصابعه، وبالطبع اعتاد دائمًا على مضايقة الأولاد المؤدبين مثلي.. في هذه الفترة كنتُ أسمع كثيرا عن (الضرب بالحذاء).. كثيرًا جدًا.. كان أبي مثلاً يقول لي بصوته الغليظ ولهجته التهديدية الشرسة: (لو عملت كذا هديك بالجزمة).. كذلك الناس في الشارع الذين كنت أظل أراقبهم من الشرفة لأوقات طويلة، والممثلون في التليفزيون، والمعلمات في المدرسة، وغيرهم.. جميعهم كانوا يتحدثون ببساطة وبتلقائية متناهية عن الضرب بالحذاء؛ فتصوّرت أن هذا الفعل عادي للغاية ومن بديهيات الحياة.. لا أتذكر ماذا فعل (محروس) في هذا اليوم.. كل ما أعرفه أنه قام بشيء غبي جدًا جعلني أغضب بشدة، وبما يفوق قدرتي على تجاهله، أو بمعنى أدق على تفادي المزيد من تصرفاته السخيفة.. كانت سماجة ما فعله لا يكفيها أن أخبر أمي، أو أي من المعلمات لعقابه، وهو ما لا أتذكر أنني كنت أفعله على أي حال.. كان لا بد أن أتولى ذلك بنفسي.. اندفعت بشدة تجاهه، وأنا مصمم في داخلي أن أقوم بشيء محدد.. لم أنتبه في قمة غضبي وتصميمي إلى أن (محروس) يجري أمامي للمرة الأولى محاولاً الهرب.. دائمًا كنت أنا الذي أخاف، وأتحاشى الاحتكاك به.. لكن ربما كان رد فعلي مفاجأة كبيرة له؛ فقرر مرتبكًا عدم التورط في مواجهة لم يعتادها؛ وبالتالي غير مضمونة

النتائج.. كان لحاقي بـ (محروس) والإمساك به أمرًا سهلاً؛ لأنه ببساطة كان أعرجَ.. لم نكن نعرف ما الحادث الذي جعله هكذا، ولا متى حدث رغم أننا كنا في المدرسة الابتدائية؛ بما يعني أنه أصيب بالعرج وهو صغير جدًا.. ذات مرة خلع أمامنا حذاءه؛ ليرينا قدمه المصابة.. كان منظرها بشعًا للغاية.. قطعة لحم طولية ضئيلة، ومهروسة في بعضها، تتدلى منها أطراف أصابع صغيرة متشابكة، ومتلاصقة كخيوط من العجين.. بدت قدمه كأنها بقايا أو أشلاء أُعيد تجميعها عشوائيًا بعد خروجها من مفرمة.. أمسكت بـ (محروس) وحاصرته في ركن بأحد طوابق المدرسة، ثم خلعت حذائي ونزلت به ضربًا على رأسه.. في أثناء ذلك اكتشفت عدة أشياء غريبة.. أنني لم أشاهد أحدًا من قبل يضرب أحدًا آخر بالحذاء.. الأمر كله كان أولاً وأخيرًا مجرد كلام سمعته كثيرًا فحسب، وأن هذه هي المرة الأولى التي أشاهد فيها ضربًا واقعيًا بالحذاء، بل وأكون أنا الذي أقوم به.. اكتشفت أيضا أنه فعلٌ قاسٍ للغاية.. مهين ببشاعة.. أن تمسك بشخص وتحاصره وتقبض بكف واحدة بمنتهى القوة على يديه؛ لتمنعه من حماية نفسه، وتنزل بقبضتك الأخرى الممسكة بالحذاء فوق رأسه المنحني تحت سيل الضربات المتعاقبة.. لكنني رغم إحساسي بكل هذا لم أتمكن من التوقف ـ وهذا اكتشاف آخر ـ كان في الأمر متعة أن تكون قويًا، ومسيطرًا، وقادرًا على إخضاع أحد كان سببًا دائمًا في ضيقك، وغضبك، وشعورك بالعجز والخوف؛ كي تنتقم منه.. أن تتمكن من أن تؤلم شخصًا كان منذ لحظات سببًا في ألمك، وأن تسمع توجّعه، وطلبه منك أن تتوقف عن ضربه.. أيضًا تصورت أن استمراري في ضربه سيجعل مني بطلاً بشكل ما داخل المدرسة؛ حينما يعلم الجميع أن التلميذ المؤدب (ابن الناس المحترمين) أثبت أنه ليس ضعيفًا ولا جبانًا، وليس في حاجة لأحد كي يأخذ له حقه، بل ضرب بنفسه (محروس) الولد السيئ المعروف بكونه

بلطجيًا، ويخاف منه التلاميذ.. كل هذه الأفكار كانت تمر في رأسي وأنا أضرب (محروس).. ما لم أكن أتوقعه أبدًا بل وصدمني للغاية أن معلمي المدرسة ومعلماتها غضبوا مني بشدة، وخاصموني جميعًا بسبب ما فعلته.. أتذكر أن أبلة (تحية) دخلت الفصل بعد هذا الحادث بيوم أو يومين، وفور جلوسها على الكرسي المواجه للدكة الأولى في الصف الأوسط التي أجلس عليها أخبرتها بفخر بما فعلته في (محروس) معطيًا احتمال أنها لم تسمع بهذه الواقعة، وأنها ستمنحني التجاوب الذي لم أحصل عليه من بقية المعلمات، لكنني فوجئت بها تنظر في وجهي بمزيج من الضيق وخيبة الأمل، وتقول لي بنبرة لوم حادة: (عرفت إللي انت عملته، وزعلانة منك أوي)، ثم كررت نفس العبارات التي حاصرتني من الجميع خلال تلك الأيام: (دي مش أخلاقك)، (مهما حصل ميصحش تضرب زميلك بالجزمة)، (إحنا متضايقين منك، ومن إللي عملته جدًا)، (إنت اتعلمت في البيت والمدرسة إنك تعمل كده؟!)، (ترضى إن زميل لك يضربك بنفس الطريقة؟!).. سمعت كل هذا وأكثر في الفترة التي تلت هذا الحدث من كل معلم أصادفه داخل المدرسة، ومن كل معلمة تدخل الفصل، وكان رد فعلي الوحيد والثابت هو الصمت التام بعد محاولات شاحبة لتفسير (المصيبة) التي ارتكبتها، وتبيين ما قام به (محروس) ضدي أولاً.. لم أحاول أن أشرح لأحد أو أجعلهم على الأقل يعرفون حكايتي مع مقولات (الضرب بالحذاء)، ولا اعترافي بمدى سوء الفعل الذي قمت به، ولا رغبتي القوية التي كنت أراها عادلة جدًا وقت ضربي لـ (محروس) في رد الاعتبار لنفسي بأي شكل.. لم أحاول أن أجعل أي أحد يفهم أي شيء.. كان لديّ شعور ما بأنهم لن يقتنعوا، أو لن يتمكنوا من استيعاب ما أقصده أصلاً.. لم أكن أشكو لأمي أو لغيرها من المعلمات، ليس فقط بسبب سمعة (ابن أمه) التي تحاشيت أن تطاردني ـ رغم أنني لم أكن في حاجة للشكوى حتى تلتصق بي ـ بل

أيضًا لأنني كنت أعرف بطريقة ما أنه لدى أمي ومعلمات المدرسة نوع من اليقين بأن المضايقات، والدعابات الثقيلة، والسخرية تُعد من الثوابت المنطقية في العلاقة بين الصغار ـ حتى أولادهم ـ وأنها لا يجب أن تواجه بمبالغة في الاهتمام، خاصة إذا لم تتجاوز الحد الذي يحوّلها إلى جريمة.. لم أكن أعرف ماذا تعني الجريمة في تصورهم.. أي شكل من التمادي في الأذى يجعلها كذلك.. هل كان يجب أن أبكي؟.. هل كان يجب أن تظهر بقعة زرقاء داكنة في جسدي؟.. هل كان يجب أن تسيل دمائي؟.. ربما كان الاعتقاد المهيمن لديّ في تلك السنوات ـ والذي لم يترجم إلى كلمات مسموعة أبدًا ـ هو أن الاعتداءات المهينة، غير المكشوفة التي يمارسها الأولاد السيئون مسموح بها بشكلٍ أو بآخر.. في المقابل تمنعك الحقيقة المحسومة في وعي الآخرين عنك ـ كولد مؤدب لأسرة محترمة ـ من اتخاذ رد فعل يعيد إليك كرامتك.. الحقيقة التي تمتلك دائمًا وجهًا مزيفًا.. لا أحد غيري كان يفكر في هذا الواقع بأنه يعني في الأصل عدم القدرة على توجيه الشر.. افتقاد الدهاء الضروري لإخفاء الشر عندما تستطيع القيام به.. أن تكون ولدًا مؤدبًا فذلك ليس إلا صفة أخرى للوضوح.. أن تكون من أسرة محترمة فذلك ليس إلا مرادفًا لأن تكون مفضوحًا طوال الوقت.. كان البلطجية يتمتعون بهذه القدرة على المراوغة، وعدم الكشف، وإبقاء سخافاتهم مستترة.. كان هذا ما يجعل سحرهم في المدرسة يبلغ ذروته الغريبة، التي كنت أعجز عن تصديقها في الغالب.. كانت حادثة (محروس) دليلاً دامغًا على كل هذا.. تم تكريس التعاطف العام لولد يمتلك تاريخًا من البذاءة، والعنف، والضحايا الذين يشبهونني.. على جانب آخر كنت أنا المذنب، والمُدان، والمنبوذ بدرجة ما.. كأن اللحظات التي سبقت ضربي لـ (محروس) تم مسحها من ذاكرة الجميع، ولم يعد أحد يتذكر سوى حذائي وهو يضرب رأسه.. هل كان لعرجه أثر قاطع في تلك المسخرة؟..

كانت أمي تعاملني في المدرسة كأنني لم أغادر البيت.. ربما كان ينقصني فقط أن يكون لي سرير وبيجامة داخل إحدى الحجرات لأتمدد أو أنام إذا أردت.. كانت تخاف عليّ، وتريد حمايتي، ولكنها لم تكن منتبهة إلى ما يؤذيني حقًا.. لم تكن تعرف ما لا أستطيع أن أفصح عنه.. بالتأكيد لم تفكر أبدًا، أو تتساءل في داخلها عن الموقع الدائم الذي أشغله داخل المضايقات، والدعابات الثقيلة، والسخرية.. ربما ما كانت تعرفه أصلاً عن المضايقات والدعابات الثقيلة والسخرية يعادل ما تعرفه عن قانون كرة القدم.. ربما لأنها كانت مثلي.. غافلة ومسالمة.. خائفة.. ربما لأنها كانت حريصة على تعويض اهتمامها وتدليلها لي في المدرسة بسلوك مناقض في مواقف أخرى، تعلن خلالها ما يتجاوز الحياد.. الصرامة التي تبلغ مستوى القسوة أحيانًا في أمور لا تستحق.. كانت تتعامل معي في بعض الأوقات بحزم غير مفهوم، كأنها كانت تتذكر فجأة ضرورة أن تثبت للآخرين في المدرسة أنها لا تميزني عن أقراني، وأن كوني ابنها لا يعني أن أمتلك مكانة خاصة وسط التلاميذ رغم أن هذا كان متحققًا بالفعل، وكان يجب أن أدفع ثمنًا له.. كان حذرها في موضوع المساواة يضاعف الضرر الذي أتعرض له؛ فهي لم تصد عني أذى زملائي في الفصل، ولا ضربات العصا الوحشية لـ (أبلة عواطف) معلمة المواد الاجتماعية مثلاً.. لا أعرف هل كان أبي يعلم بأمر (أبلة عواطف) أم لا، ولكن أظن أن معرفته لم تكن ستغير شيئًا؛ فلقد كان يبدو لي أن والديّ يؤمنان بأن المعلمين لديهم الحق المماثل الذي يمتلكانه في عقابي حتى لو لم أكن مذنبًا، بالضبط مثلما لديهم الحق في عدم رؤية ما يؤلمني وأنا بعيد عن أعينهم.. هل كانا يريدان دون وعي أن أحصل على هذا الألم مثلما ناله كل منهما في طفولته؟.. كانت أمي أكثر الغاضبين والمعاتبين لي بسبب اعتدائي على (محروس).. لم يكن في عاطفتها الأمومية وقتئذ أي مبرر لي، ولا حتى مجرد استياء

ضعيف تجاه ما تعرضت له قبل هذا الاعتداء، وبالطبع لم تكن هناك رغبة في الانتقام لكرامتي.. شعرت حينها أنها تشعر بشيء مبهم من الرضى تجاه الأذى الذي أصابني من (محروس).. (محروس) الذي ظلت تضربه أمي، وتضربه بقية المعلمات طوال تلك السنوات لأسباب أخرى مختلفة.

أمي مثلاً لم تعرف أن ولدًا اسمه (رمضان) شاركنا الفصل لمدة قصيرة ثم اختفى للأبد، وكان يمتلك السمات الشكلية المألوفة للأشرار: الشعر القصير المجعّد والمغبر.. الوجه الأسمر المنطفئ ـ شدة السمار كانت دليلاً مبدئيًا أحيانًا على قوة الإجرام في الطفولة إلى أن يثبت العكس ـ الملامح الخامدة.. الشحوب العدائي.. البقع الباهتة.. المريلة المتسخة، والبالية.. أمي لم تعرف أن هذا الولد كان يجلس خلفي ذات يوم، وأنه كان بين لحظة وأخرى يمسح بمنديل ورقي ظهر الجاكت الأسود الأنيق الذي أرتديه فوق المريلة.. كنت أحب هذا الجاكيت كثيرًا.. كنت ألتفت إليه وأسأله لماذا يفعل هذا، فيجيبني بأن ثمة اتساخًا أراد أن يزيله من أجلي.. ظل يفعل هذا، وأنا ألتفت إليه، وأسأله، ويجيبني بنفس الإجابة.. كنت أصدقه، ولم أفكر رغم استمراره طويلاً في مسح ظهر الجاكيت في التأكد بنفسي مما يدّعيه إلا أن اكتشفت في إحدى التفاتاتي بأنه يأخذ في كل مرة البصاق من فمه بالمنديل ليبلل به ظهر الجاكيت.. لم أبلغ الأبلة التي كانت تقف أمامنا في تلك الحصة.. شاهدتني فقط أنهض، وأخلع الجاكيت، وأضعه بجواري منصتًا للضحكات المكتومة خلفي، المنبعثة من الفم المقزز.. لم أخبر أمي لأنني أعرف أنها ربما ستنهرني أنا على جلوسي أمام ولد سافل مثله.. أمي التي دخلت فصلي فجأة في إحدى الدقائق القليلة بين حصتين، لتستفسر عن سبب الضوضاء التي سمعتها وهي تمر بالخارج؛ فأجابتها (أسماء) البنت الجميلة، الطيبة والرقيقة التي أحببتها حينما أعارتني كراساتها؛ لأتمكن

من تعويض الدروس التي فاتتني بعد عملية اللوّز واللحمية، وغيابي عن المدرسة لمدة أسبوع - أخبرتها (أسماء) بأنني مصدر هذه الضوضاء؛ لأنني كنت أحتفل مع زملائي الأهلوية في الفصل بفوز (الأهلي) على (الزمالك) أمس، وأنني كنت أصفّق، وأطبّل، وأغني، وأقفز فوق الدكك.. كان كل هذا صحيحًا، ولكنني لم أتخيّل أن تنقله (أسماء) بالذات لأمي، ولم أتخيل أن أمي ستأخذني أنا وحدي.. أنا فقط من ضمن جميع التلاميذ الذين كانوا يشاركونني التصفيق والتطبيل والغناء.. لم أتخيل أنها ستأخذني خارج الفصل، وتأمرني بالمجيء معها إلى الناظرة؛ لأنها قررت أن تفصلني من المدرسة.. بكيت، وصرخت، وتوسلت إليها أن تسامحني وهي مستمرة في المشي نحو حجرة الناظرة.. كانت تسمع (والنبي يا ماما معنتش هعمل كده تاني) المشتعلة بالدموع والنحيب، ومع ذلك كانت تلتفت لي بوجه جامد، وعينين ثابتتين، وتأمرني بأن أواصل اتباعها.. عند باب حجرة الناظرة بالضبط التفتت لي للمرة الأخيرة، ثم بملامح حادة، ونظرة صارمة زعقت في وجهي الصغير، وأمرتني بالرجوع سريعًا إلى الفصل.. نعم كنت أصدق أنها ستفصلني من المدرسة.. كنت على استعداد لتصديق أي شيء، وكانت أمي أحيانًا كالأولاد السيئين.

الغريب أنه في موقف آخر يبدو لي أكثر عدائية بيني وبين أمي في الفصل لم تتصرف معي بتلك الطريقة، وإنما كان رد فعلها أقل شراسة.. كنا في إحدى حصص مادة (المشاهدة) التي كانت تدرّسها لنا، وكانت تكتب على السبورة ما ينبغي أن نكتبه معها في كراساتنا.. لم أكن قادرًا على رؤية الكلمات.. كان جسدها يغطي مساحة كبيرة من السبورة؛ الأمر الذي فشلت معه كل محاولاتي لمتابعتها.. أتذكر ـ وهو ما كان عجيبًا ومحبطًا ـ أن التلاميذ الآخرين كان يتطلعون إلى السبورة ويواصلون الكتابة دون عائق.. ظللت أبدّل أماكن جلوسي ثم تنقلت

واقفًا بين زوايا عدة في المنطقة الصغيرة الفاصلة بين الدكك الأمامية والسبورة حاملاً كراستي وقلمي، متمتعًا بالحرية البسيطة التي يمنحها وجود أمي معلمةً في هذه الحصة.. مع ذلك كان يوجد دائمًا حيز معمي من الكتابة، لا أستطيع رؤيته، وهو ما أدى لتأخري عن بقية زملائي.. كأن أمي كانت تغطي الكلمات أمام عينيّ وحدي، وتبقيها واضحة لباقي الأطفال.. كأنها كانت تضبط حركتها وفقًا لهذا الغرض بإرشاد من عينين خلفيتين، ومتواريتين.. كان الحنق يتصاعد في رأسي إلى أن وصلت إلى حد لا يطاق من الغضب فقلت لها: (نوّري.. مش شايف).. لم تلتفت لي.. بصوت أعلى: (بقولك نوّري.. مش شايف).. تواصل الكتابة.. بصياح محتقن بالغيظ العارم (مش عارف أكتب).. بدا أنها لا تسمع، أو بشكل أدق تتعمد تجاهلي.. كانت قد أوشكت على الانتهاء من الكتابة على السبورة، وكذلك قارب التلاميذ على الانتهاء من الكتابة في كراساتهم.. لم أكن قد كتبت إلا سطورًا قليلة.. اندفعت نحوها، وبكفيّ الصغيرتين ظللت أضربها في نهاية ظهرها ـ حيث أقصى ما يمكنني الوصول إليه ـ والغريب أنها لم تلتفت أيضًا، بل انتظرت حتى انتهت من كتابة الكلمات القليلة الباقية رغم مواصلة ضربي لها بل وقرصها أيضًا، ثم سحبتني من ذراعي وأخرجتني من باب الفصل.. ابتعدت في الردهة حتى لا أظل متاحًا لعيون التلاميذ عبر الباب المفتوح.. وقفت عند السلالم خلال الدقائق التي كانت متبقية على انتهاء الحصة، وحينما رن الجرس ووجدت أمي من مكاني تغادر الفصل عدت إليه.. لم يكن لهذه الواقعة وجود بيني وبين أمي بعد ذلك.. كان طردي عقابها الوحيد، ونقطة ختامها الأقل قسوة من التهديد بالرفد.. حتى الآن لم أعرف حقًا كيف كانت أمي قادرة على حجب الكتابة عن عينيّ، وإظهارها لبقية التلاميذ.

بالنسبة لعملية اللوّز واللحمية أتذكر أنني أجريتها في الصف الثاني

الابتدائي، وأنها تمت يوم ثلاثاء.. أتذكر جلوسي مساء الاثنين الذي سبق هذا اليوم أمام التليفزيون المجاور لباب حجرة (مجدي) لكتابة واجب مدرسي بالقلم الرصاص في إحدى الكراسات.. أفكر في أنني غدًا سأجري عملية اللوّز كما قالوا، وأنني لا أعرف ماذا يعني هذا.. كنت خائفًا، ولكن الجهل بالتفاصيل منع تحويل الخوف إلى رعب في نفسي.. في الثانية عشر ظهرًا من اليوم التالي ذهبت برفقة أمي وأختي وجدتي إلى عيادة الدكتور (حسن علام) بـ (ميت حدر).. أتذكر أنني استلقيت فوق سرير العمليات، وأنني سألت الدكتور (حسن علام) الواقف بجواري ومعه طبيب آخر: (هي العملية سهلة؟).. أتذكر أنه ابتسم، وقال لي: (سهلة جدًا متخافش) ثم غرز إبرة البنج في ذراعي فصرخت بقوة من شدة الألم، ورأيت جدتي العجوز بجسدها القصير والنحيف، وبجلبابها الأسود تضرب باب الحجرة، وتندفع إلى الداخل لتُمسك بالبالطو الأبيض للدكتور (حسن علام) وهي تزعق فيه: (الواد بيصرخ ليه؟.. عملت فيه إيه؟) بينما الطبيب يحاول إبعاد يديها عنه ثم اختفى كل شيء، واستيقظت مساءً.. وجدتني في سرير حجرة أخرى داخل العيادة، وحولي أمي وجدتي وأبي و(ماجدة) و(عم فوزي) زوج عمتي.. شعرت أنني عائد من سفر بعيد، خارج العالم، ولا أتذكر أي شيء عما حدث لي خلاله.. ظلام هائل مجهول تمامًا تركته خلفي وأنا أفتح عينيّ بصعوبة، وأتبين الوجوه برأس ثقيل، ثم أعتدل بمساعدة أيديهم لأستند على ظهري.. دخلت الممرضة تحت ضوء النيون الأبيض إلى الحجرة تحمل صينية عليها أطباق كثيرة من (الجيلي) الأحمر.. جلست بجواري فوق السرير، وبالملعقة الصغيرة أخذت قطعة من أحد الأطباق، ووضعتها في فمي.. اندلعت النار في حلقي بمجرد ابتلاع قطعة الجيلي؛ فرفضت الاستمرار في الأكل.. أصرت الممرضة على ضرورة أن أتحمّل لأُكمل الطبق، وقالت لي إنني لو لم آكل ستفسد

العملية، وسيضطرون لإجرائها ثانية من جديد.. أكملت نصف طبق الجيلي بمعاناة بالغة، وحينما حان وقت مغادرة العيادة قاموا بلف جسدي ببطانية ثقيلة بإحكام ثم حملني (عم فوزي) ونزل بي السلالم الضيقة، وعادوا بي إلى البيت.. في الصباح التالي، ولمدة أسبوع ظل (عم سامي) الحلاق يأتي إلى المنزل يوميًا ليعطيني حقنة في العضل، وبعد نهاية هذا الأسبوع ذهبت في المساء مع أمي إلى عيادة الدكتور (حسن علام).. أتذكر أنني حينما دخلت مكتبه، ومد يده ليصافحني، رفعت له يدي اليسرى فقال لي مبتسمًا: (فيه حد يسلّم بالشِمال) فأسرعت بالتعديل، ومددت له اليمنى ثم كشف عليّ، وأخبرني أنني تعافيت تمامًا، وبإمكاني العودة غدًا إلى المدرسة.

من ضمن الوقائع السيئة التي جمعتني بالولد الذي أبكته قرصات (أبلة منى) ما حدث في صباح اليوم التالي للعرض الأول لفيلم (النمر الأسود) في التليفزيون، والذي شهد اتفاقًا جماعيًا بين ذكور الفصل على تنظيم مباريات قصيرة في الملاكمة خلال الفسحة.. أردناها أن تكون مباريات مقاربة للواقع؛ أي أن يكون لكل لاعب مدرب، وأن تكون هناك حلبة بحدود لا يجب تخطيها، وأن يكون لكل نزال وقت ثابت، كما لا بد أن يكون هناك حكم.. شاركت في اللحظات الحماسية الصاخبة التي كان يجهّز خلالها الأولاد ـ ومعظمهم من الأشرار طبعًا ـ لبدء المباريات بملامحي الغافلة، وابتسامتي المغتبطة الساذجة، وبإلحاحي المسكين لهم حتى يقبلوا إشراكي فيما بدا لي ـ كالعادة ـ أنها فرصة لإثبات نفسي رجلاً قويًا مثلهم.. كنت قد أحببت الفيلم جدًا، وقضيت الليلة السابقة منتشيًا بالإثارة التي زرعتها شخصياته وأحداثه وأغنياته في داخلي، وبالضرورة لم يكن محتملاً تفويت المناسبة التي بإمكانها مساعدتي على تجسيد تخيلات ما قبل النوم التي امتلأ بها ظلام حجرتي أمس.. وافقوا على وجودي معهم ليس شفقة بتوسلاتي،

وإنما لإكساب الحدث بُعدًا كوميديًا.. اتفقوا على أن يكون أحد الأولاد السيئين هو مدربي، الذي أخذني إلى أحد أركان الفصل بعدما عرفت أنني سأواجه في مباراتي الأولى الولد الذي أبكته قرصات (أبلة منى).. كان على ملامح الولد السيئ عدم اقتناع بمشاركتي في الأمر ـ وكان هذا منطقيًا ـ لكن داخل الضجر الذي يخنق ملامحه كان يمكنني ملاحظة التشوّق للضحك الذي يتعشم في أن يناله بعد لحظات كمكافأة لصبره.. رأيت غريمي يذهب إلى ركن آخر مع صديقه وحليفه الولد البلطجي ابن أبلة العلوم؛ فأدركت أنه سيكون مدربه، ولم يكن هذا غريبًا بالطبع، ولكن الغيرة أبعدت مباراة الملاكمة الوشيكة خطوة إلى الوراء في نفسي.. كان هذا مؤلمًا؛ إذ لم يكن من العدل بالنسبة لي أن يكون هذا الولد بالذات هو مدرب خصمي.. لم يكن من العدل أن يكون لخصمي مدرب أصلاً، بل كان يتعيّن على ابن أبلة العلوم أن يكون هو مدربي كي يتحقق قدر من المساواة.. لم أكن خائفًا.. كان حماسي أقوى من أن يسمح للقلق بالطغيان داخل روحي، حتى لو كان القلق رابضًا بالفعل في مكان ما.. ربما كنت أظن أيضًا أن جزءًا أساسيًا من الاتفاق الجماعي يلزم بعدم تبادل لكمات حقيقية، وإنما الاستبدال بها نوعًا من التوازن بين محاولة أن تبدو كذلك، وألا تكون مؤلمة في الوقت ذاته.. نحن في النهاية نقلّد فيلمًا، ولا نتعارك بحقد جاد.. هذا ما كنت أتمنى أن يبقى ثابتًا في داخلي، وفي وعي الولد الذي سأواجهه بعد لحظات.. فرد مدربي كفيه أمام وجهي، وطالبني بتوجيه لكماتي إليهما منبهًا بأن تكون هذه اللكمات قوية ومركّزة، وألا أنسى حماية وجهي بيدي الأخرى، وعدم تثبيت قدميّ، والاستمرار في التحرك؛ كي لا أعطي فرصة للولد الآخر بتوجيه ضربات مضادة ناجحة.. رغم ملامحه المتجهمة، ونبرته التي بدت رصينة أكثر مما يجب، ورغم شجاعتي التي اشتدت بفضل توجيهاته ـ وهو ما جعلني أعتبره (أحمد مظهر) على

الفور ـ فإن الأمر ظل في وعيي ـ ولو بشكل هزيل ـ مجرد لعبة.. قد تبدو أنها ليست كذلك، لكنها في الأصل دعابة.. ضربت كفيه بأقصى ما لديّ من قوة، ليس بغرض إيلامه، وإنما لأمرر له صلابة قبضتي ـ أو التي كنت أعتقد أنها كذلك ـ أيضًا تقافزت بخفة في مسارات نصف دائرية كما طلب مني، وكنت في أثناء توجيه اللكمات أحرّك رأسي بسرعة كأنني أتفادى ضربات وهمية في الوجه.. تجمّع بعض التلاميذ حول المساحة الخالية وراء الدكك في نهاية الفصل استعدادًا لبداية المباراة.. خلال اللحظات الأولى من القتال التمثيلي تأكدت من اليقين بأن هذه دعابة فعلاً.. كان زميلي مبتسمًا طوال الوقت.. ليست ابتسامة السخرية، أو التعبير عن الثقة في فوز محسوم حتمًا لصالحه.. كانت ابتسامة المزاح بين صديقين بالتأكيد لن يؤذي أي منهما الآخر.. أصبح هذا اليقين صافيًا من الشك حينما وجّه لي لكمته الأولى في وجهي، وكانت في منتهى الضعف المتعمّد.. شعرت بطمأنينة كاملة زادت من حماسي، ودفعتني لضربه في كتفه بضعف مماثل.. نعم.. نحن نقلّد الحركات فقط..

فجأة اقترب غريمي من جسدي، وبدأ في توجيه لكمات قوية متتابعة، وسريعة في بطني لم أستطع صدها أو تفاديها.. لم يكن هناك ألم بالغ، ولكن كان يوجد وجع، أما الألم الأعظم فكان في المفاجأة التي لم يكن لها أي تمهيد، بل كانت اللحظات التي سبقتها تحمل دليلاً مناقضًا.. أنهى خصمي لكماته العنيفة المتلاحقة في البطن بضربة مباغتة في الوجه لم تكن قوية وإنما كانت ثقيلة، أي أنها ليست من نوع اللكمات التي تُجبرك على الإمساك بموضعها والتوجع، وإنما التي ترغمك على الشعور بمكانها دون ألم فعلي.. وخز مذل يذكرك أن ثمة من اعتدى عليك، وأن هذا هو موضع الهزيمة التي رافقتها صيحات الاستحسان من بقية التلاميذ.. كالعادة رن جرس انتهاء الفسحة، وعدنا إلى أماكننا

مع دخول أبلة الحصة التالية، وحينما سمعت الأولاد وهم يتفقون على استئناف المباريات بعد نهاية اليوم الدراسي شعرت بقدر من الرضى المكتوم تحت المهانة الراسخة في نفسي.. فكرت في أنني مع استكمال المباراة سأنسى كل ما اعتقدته بشأنها، وسأخوضها كمعركة حقيقية، بعيدة تمامًا عن أن تكون مجرد لعبة.. جلست بجوار الولد الذي ضربني، فوجدته يهمس في أذني وكل منا يفتح كراسته: (ما تزعلش، أنا فعلاً كنت بهزر، بس كان نفسي أعمل الحركة إللي عملها «أحمد زكي» امبارح).. تذكرت أن (أحمد زكي) قد أدى فعلاً هذه الحركة في (النمر الأسود)، وأسقط بها أحد خصومه فوق الحلبة.. لكمات متتابعة وسريعة في البطن ثم لكمة قوية في الوجه.. أعاد اعتذار الولد ـ حتى لو لم يكن يقصده ـ المباراة إلى يقينها السابق في ذهني كمجرد دعابة.. كنت مسرورًا لحرصه ألا أكون حزينًا مما حدث، ورغبته في أن يوضّح لي الدافع وراء ما قام به ضدي.. نحن أصدقاء إذن.. لا يعتبرني تابعًا مطيعًا، أو أضحوكة مسلية، أو لعبة سهلة الإذلال.. لكن اعتذاره لم يُعِدِ النزال إلى اليقين السابق كاملاً.. ظل الجرح الذي ما زلت أشعر بأثره في بطني ووجهي حيًا، ويحرضني على الأخذ بالثأر، وأيضًا دون أن يخرج الأمر عن كونه لعبة فحسب.. فكرت في أن الانتقام بلكمات قوية في المواجهة القادمة سيدعم الصداقة التي تصورتها حاضرة بفعل كلماته في هذه اللحظة بيني وبين هذا الولد.. إنني هكذا سأحصل على ما سيعد قدرًا من التكافؤ معه؛ الأمر الذي سيجبره على احترامي، والكف عن الاعتداء على كرامتي.. وقفت الأبلة تشرح الدرس، وأنا أسرح ببصري خارج باب الفصل المفتوح، غائبًا تمامًا في تخيّل اللكمات والحركات التي سأقوم بها ضد غريمي في المعركة القادمة.. لم أنتبه إلى أن هذه التخيلات قد تمثلت بشكل معلن في حاجبين معقودين، وشفتين مزمومتين، ونظرة خشنة، متحدية،

وقبضتين ضممتهما دون وعي، رحت أضرب بهما الهواء.. نظرت فجأة إلى خصمي فوجدته يراقبني مبتسمًا كأنه يكتم ضحكاته بعناء كبير.. بعد انتهاء اليوم الدراسي لم يتجمّع التلاميذ في الفصل أو الفناء.. انصرفوا جميعًا دون كلمة واحدة عن الملاكمة أو عن (النمر الأسود).. نظرت إليهم، وكان شعوري باليأس المختلط بالارتياح المهين يمنعني من الاستفسار من أحدهم عن سبب إلغاء المباريات.. كان في تخليهم الجماعي عن الأمر إقرار جديد بفشلي في الانتقام.. لكنهم أيضًا في المقابل أعطوني الحماية من عواقب التأخير عن الرجوع إلى البيت، ومن عواقب شعوري بالعار تجاه نفسي لو تركتهم يستكملون النزالات وعدت إلى البيت خوفًا من أبي وأمي.. من إدراكي للبرهان الإضافي الذي سيحصل عليه التلاميذ لكوني جبانًا فضّل الانسحاب تجنبًا للمزيد من الأذى.. كان من الرائع أن أعود إلى البيت لأواصل هوايتي الممتعة التي أجيدها حقًا.. ضرب الوسائد.

لم يكن اعتذار الولد السيئ بعد مباراة الملاكمة هو المرة الوحيدة التي أبدى خلالها ـ كذبًا ـ ما يشير إلى أنه يعتبرني صديقًا له.. أتذكر أنه كان لـ (أبلة حميدة) المعلمة التي كانت تعطينا حصة المكتبة تلميذ قريب لها أكبر منا.. كان ولدًا مسالمًا، ولكن في طباعه شيء من العصبية.. كانت علاقتي به فاترة، لا تحوي إلا تلك الكلمات المحايدة القليلة، المغلّفة بقدر من الود الذي تفرضه العلاقة بين أمي وقريبته.. لا أدري ماذا حدث بيني وبين هذا التلميذ في إحدى الفُسح جعله يحدثني بنبرة حادة.. لم يكن صوته عاليًا، ولم تتجاوز ألفاظه الحدود المهذبة، وإنما كان غاضبًا تجاه أمر يخصني.. كل ما أقدر على استرجاعه الآن هو أن موضوع الغضب كان تافهًا، أو على الأقل لا يمثل أهمية لي؛ حتى أنني أتذكر ابتسامتي التي كنت أواجه بها نبرته الحادة.. فجأة وجدت غريمي في مباراة الملاكمة يقترب منا ثم ينظر إلى الولد بعينين

وحشيتين، ويسأله بلهجة سافك دماء: (إنت بتكلمه كده ليه؟).. رأيت في وجه قريب (أبلة حميدة) الأكبر سنًا، والأكثر طولاً وعرضًا من زميلي ذلك النوعَ من الخوف العميق الذي يحاول أن يُظهر تماسكًا خارجيًا فوق ملامح مرتبكة.. (وانت مالك؟) سأل هذا الولد زميلي بصوت خافت يقاوم رجفة قسرية، ويريد استدعاء شجاعة هاربة.. رد عليه المشاكس فورًا، وبنبرة تصاعدت قسوتها التحذيرية: (يبقى أخويا).. كان الولد يعرف أمي بالطبع، ولا يتذكر أن أمي قد أخبرته بأن لي أخًا لا يشبهني في نفس الفصل، وربما كان يعرف كذلك أن جميع إخوتي أكبر مني بسنوات كثيرة جدًا.. أدار الولد دهشته التي تدنو من الذهول، وسألني كمن اصطدم بسر يخص حياته الشخصية: (يبقى أخوك فعلاً؟).. وجدت نفسي أهز رأسي دون تردد، وأقول له بغرور فرح: (أيوه).. أشاح الولد بوجهه بعيدًا، وتركنا، ولم يتكلم معي بعد تلك اللحظة أبدًا.. لم يكن خصمي في مباراة الملاكمة وحده من يفعل ذلك.. أكثر من ولد مثله كانوا يدركون تمامًا تعطشي الرهيب والدائم لصداقتهم.. أكثر من ولد مثله كانوا يتعمدون أن يمنحونني أحيانًا تلك العطايا التي يدّعون بواسطتها شعورًا غير حقيقي بالوئام نحوي.. كان هذا بمثابة الوجبة الضرورية التي يجب إطعامها للقط الصغير المحبوس في قفص زجاجي للاستمتاع بآلامه.. لكن صفة (أخويا) التي أطاح بها هذا البلطجي الولد الآخر قريب (أبلة حميدة) بعيدًا لم تكن مجرد بهجة زائفة أراد أن يعطيها لي بكرم دنيء؛ ليحصد على إثرها لذة قادمة، بل كان في لهجته المُهدِّدة أيضًا دفاع السيد عن ملكيته الخاصة.. كأنه كان يقول للولد الآخر: (هذا الشيء خادمي أنا، ولن أسمح لأحد غيري أن يوجعه).. نعم كنت أحس بهذا.. كنت أسمع تلك الكلمات بوضوح دون أن يقولها.. كنت أعرف أنها وجبة خبيثة.. بشكل أو بآخر كنت أعرف أنها كذلك وأنا طفل، ومع ذلك شعرت بالغرور

والفرح.. مع ذلك رضيت بخسارة ولد غير شرير مقابل تلك اللحظة الكاذبة، التي سأدرك إلى أي مدى كانت مسمومة مع محاولاتي التالية التي لن تتوقف للاقتراب من هذا الولد وأشباهه.
هذا السفّاح مثلاً سيخبر (أبلة خلود) بأنني سأنتخب (وليد جاويش) لعضوية مجلس الشعب، بعدما أخبرتنا أن غدًا عطلة بسبب الانتخابات.. كانت صور الدعاية ولافتاتها لـ (وليد جاويش) تملأ (ميت حدر)؛ فكان تقريبًا الاسم الوحيد الذي التصق بذاكرتي من بين المرشحين الآخرين.. كنت كعادتي أسعى للمشاركة في أي حدث حتى لو لم أكن أستوعبه.. أن يكون لي دور في موضوعات الكبار ولو بالكلمات الغبية التي لا تصدر إلا من فم طفل سهل الانخداع، لا يكف عن توريط نفسه في أمور لا يفهمها؛ فيتحوّل كل مرة إلى أضحوكة.. الأولاد الأشرار ليسوا كذلك.. لا تصدر مثل هذه العبارات البلهاء من أفواههم، ولا يخدعون بسهولة، ولا يقحمون أنفسهم إلا فيما يوقنون أنهم سيكسبونه.. لهذا حينما همست في أذن زعيم العصابة الجالس بجواري بأنني سأنتخب (وليد جاويش) أسرع قائلاً دون إبطاء، وبصوت يكفي للوصول إلى أضعف التلاميذ سمعًا: (يا أبلة.. إللي قاعد جنبي بيقولي إنه هينتخب «وليد جاويش»).. لم تضحك (أبلة خلود)، ولكن ضحك معظم التلاميذ، وشعرت بالدماء الساخنة للحرج والغيظ تشعل وجهي.
هذا الولد أيضًا سيجلس لسبب لا أتذكره في إحدى حصص العلوم بجوار التلميذ المؤدب الذي حاولت مهاجمته بأمر من البلطجي الآخر في الفناء وأوقعني أرضًا.. كان الدرس عن التبخّر، وهذا ما جعل (أبلة أمينة) تترك قطرات من الماء فوق سطح الطاولة الخشبية التي تجلس إليها بجوار شباك الفصل المطل على الشارع.. أخبرتنا أن قطرات الماء هذه لن يكون لها وجود على الطاولة بعد دقائق.. حدث هذا بالفعل، واختفت القطرات، وعرفنا أن هذا ما يُسمى بـ (التبخر).. كانت هذه

الحصة تسبق بفترة مواجهة الفسحة مع الولد المؤدب الذي لم ينهض مثل بعض التلاميذ للتحقق من اختفاء قطرات الماء؛ فذهبت إليه حيث يجلس؛ لأخبره بانبهار طفولي أن القطرات لم يعد لها وجود فعلاً مثلما قالت الأبلة.. فوجئت بغريمي في مباراة الملاكمة يقول لي باستخفاف وحسم: (عرفنا.. عرفنا)، ولم يرد الولد المؤدب الآخر على ما قلته، ولم يلتفت إلى ذلك الجالس بجانبه الذي صدني كأن الأمر كله لا يعنيه فعدت إلى مكاني.

الولد الآخر ابن أبلة العلوم الذي يجلس بجانبي في الناحية الأخرى، أخبرته بمنتهى السعادة أنني اكتشفت مساء أمس ظهور عضلة في ذراعي وأنا أستحم.. أسرع قائلاً دون إبطاء وبصوت يكفي للوصول إلى أضعف التلاميذ سمعًا ـ لا أتذكر أي معلمة كانت تدرّس لنا في تلك الحصة: (يا أبلة.. إللي قاعد جنبي بيقولي إنه لقى عضلة طالعاله في دراعه وهو بيستحمى امبارح).. لكنني أتذكر أن الأبلة ضحكت هذه المرة مثلما ضحك ـ كالمعتاد ـ معظم التلاميذ.. كان ـ ولا يزال ـ في بيت كلٍ من هذين التلميذين ما يستحق أن يُحكى للعالم كله.

كان (وليد بدير) هو أقرب الأشرار لي.. القرب الذي يعني أنه كان أقل الأولاد السيئين عدوانية ضدي.. كان من ضمن أولئك القادرين على الجمع بين تخصصات الأذى، ولكن الهامش المتسم بالأمان بيننا كان هائلاً.. كان يستطيع أن يبقى مسالمًا لفترات طويلة جدًا، وكان قادرًا بالتأكيد على اختراق هذا الحيز الطفولي في أي لحظة وتوجيه العنف اللساني والجسدي.. العنف الممازح الذي لم أكن أعتبره كذلك في داخلي، رغم ملامحي التي تدّعي قبوله معظم الوقت.. كان هذا الهامش ـ كما سبق أن ذكرت ـ هو المصدر الفعلي للانتهاك؛ فالفعل المهين النادر داخل هذه الطمأنينة ـ الشكلية ـ يتحوّل إلى ارتكاب أكثر وحشية مما يكون عادة عند حدوثه داخل الأحوال المألوفة من التهديد

والخطر، وبفضل شخصيات أكثر عدائية.. كان في شخصية (وليد) جانب ودود كبير، يكاد يكون جوهريًا، لكنه ليس بريئًا بما يكفي لجعله كائنًا مروضًا مثلي.. كان الزميل الوحيد المسموح لي ـ في نهاية المرحلة الابتدائية ـ بالخروج والتجوّل معه، والذهاب إلى بيته للمذاكرة واللعب.. أتذكر أنه تعرّض لكسر في الساق، وغاب عن المدرسة مدة طويلة، ثم عاد في اليوم الأول للامتحانات مستندًا إلى أبيه بقدم مجبّسة، ومرتديًا جلبابًا منزليًا.. كانا يقفان في الفناء، وحينما رأيته جريت نحوه، وفتح ذراعيه ليحتضنني كصديقين وفيين، افترقا زمنًا طويلاً.. كان الوحيد الذي يستطيع أن يناديني في أي وقت من تحت البلكونة، وكان الوحيد الذي يمكنني أن أنزل للتحدث معه، أو للذهاب إلى أي مكان ـ قريب من المنزل ـ ولو بالبيجاما.. أتذكر أنه لم يكن يرتدي البيجامات حتى في البيت.. جلاليب أنيقة وترنجات كان يخرج بها أحيانًا.. كان من النوع المشغول طوال الوقت بفرض شخصيته على الجميع، وربما كان هذا سببًا أساسيًا في تعلّقه بطفل مثلي.. كان يتكلم كثيرًا، ويستعرض بجدية تامة وثقة مطلقة معلوماتِه تجاه أي أمر يمكن أن يكون محور حديثنا أو نقاشنا.. بالنسبة لي لم يكن من الممكن التأكد طبعًا من صحة تلك المعلومات التي أكاد أجزم الآن أن معظمها إن لم يكن كلها خاطئة.. كان يسرد طوال الوقت، وفي كل مناسبة حكايات شخصية من حياته.. حكايات رجل ناضج لديه خبرة عظيمة بالحياة، ويمتلك ماضيه الحكمةَ اللازمة لتفسير جميع الأشياء والظواهر، وإعطاء الأحكام القاطعة التي تُنهي أي جدل.. حكايات كاذبة كان له القدرة على اختراعها في أي لحظة، وبما يلائم طبيعة الموقف الذي نعيشه، أو الموضوع الذي نتكلم بشأنه؛ معتمدًا على فخامة سذاجتي التي كانت تضمن له أن أظل منبهرًا بحكاياته المختلقة، ومصدقًا لكل شطحاته المخادعة.. كان دائمًا ما يُنهي تحليلاته، وقصصه بالاستفهام التعليمي المترفّع (فهمت؟).. أي

(هل استوعبت الأسرار الكونية التي كشفتها لك؟).. أتذكر أنه كان يأتي إلى بيتي أيضًا لننجز الواجبات المدرسية في الصالون، وأننا كنا نجلس في حجرة السطح التي تعلو شقته، ونتسابق حول من يستطيع إنهاء الكتابة المقررة أولاً.. كنا نخرج بعد درس الأستاذ (عاشور) في المساء للتمشية من (ميت حدر) إلى شارع البحر إلى شارع (سينما أوبرا)، وكنا أحيانًا نُكمل الطريق نحو شارع (بنك مصر)، أو نعود إلى (ميت حدر) ـ حيث يسكن ـ عبر حارة (العطافي) أو حارة (الخياري) أو شارع (صيام).. لم أكن أرفض أبدًا النزول كلما استدعاني صوته من تحت البلكونة.. حتى لو كنت مشغولاً بمذاكرة، أو مستمتعًا بقراءة قصة، أو بمشاهدة عرض مفضل لي في التليفزيون.. كنت أترك أي شيء وأخرج له.. أتذكر أنه في إحدى المرات كان مطلوبًا منا واجبٌ لمادة العلوم، ولم نكن متأكدين مما يتعيّن علينا أن نقوم به في كراساتنا.. نادى عليّ من الشارع فنزلت له، وبعد حديث قصير قرر أن نذهب إلى (أبلة أمينة صالح) مدرّسة العلوم في بيتها بحارة (الخياري) لسؤالها.. كنت بالبيجاما البيضاء ذات الزهور الخضراء الصغيرة، وكان هو يرتدي ملابس الخروج التقليدية.. صعدنا السلالم، ورن (وليد) الجرس وفتحت (أبلة أمينة) الباب، والدهشة في عينيها.. أدخلتنا الصالة، واستفسرت عن الدافع وراء هذه الزيارة غير المتوقعة.. أخبرها بالأمر وأنا صامت تمامًا، فأجابته، وأوضحت ما كان غامضًا ثم سألته وهي تشير لي: (هو الموضوع كان مستاهل إنك تنزّله من بيته، وتجيبه بالبيجاما؟).. شعرت بالخجل، ليس من (أبلة أمينة) فقط، وإنما من نفسي بعدما قبلت الخروج والذهاب إلى معلمتي بالبيجاما طاعةً لهذا الولد.. قلت في نفسي إنها تأكدت الآن حتمًا من طبيعة وجودي في الحياة.. أنا ذيل يسحبه شخص آخر وراءه.. كنت أخرج دائمًا بالبيجامات؛ لأشتري طلبات أسرتي من المحلات القريبة ثم أعود فورًا، لكن هذه المرة كان

الأمر مختلفًا بالتأكيد.. حينما كانت أمه (أبلة هانم) تتحدث مع أمي في الصالون في أثناء زيارتها لنا حول ضرورة أن تكون لي مساحة من الحرية خارج البيت والمدرسة؛ كان (وليد) في حجرتي يعلّمنى فوق السرير كيفية الغطس في حمام السباحة؛ حتى أكون مستعدًا لو سمحت لي أمي بالاشتراك في الإستاد، والذهاب للتدريب معه.. لكن أمي لم تسمح سوى بأن يصحبني إلى قصر ثقافة الطفل، حيث كان يمثّل هو وأخوه الأكبر (محمد) في مسرحية للأطفال اسمها (رحلات الأمير حسام) تأليف (وليد يوسف) وإخراج (ناجي الدسوقي).. في هذا اليوم تجوّلت داخل القصر للمرة الأولى، ودخلت المسرح حيث شاهدت البروفات، وحصلت على المطبوعة الدعائية للمسرحية التي تحمل أسماء جميع المشاركين فيها مع رسوم لزهور وأشجار.. كنت سعيدًا بكل ما شاهدته وحصلت عليه، حتى أن هذه المطبوعة الدعائية ـ رغم أنني لم أشترك في المسرحية ولا في أي مسرحية أخرى ـ كانت من ضمن ما اعتبرته مقتنيات ثمينة في طفولتي.

لم يكن (وليد بدير) صديقًا حميميًا للبلطجية في الفصل.. كان صديقاً لهم فقط.. لم يكن يؤذيهم، وما كانوا يؤذونه.. لم يكن رفيقًا دائمًا لغريمي في مباراة الملاكمة، ولا للسفّاح الآخر ابن أبلة العلوم، ولا لأي زعيم عصابة صغير آخر.. كانوا يتحدثون، ويتمازحون، ويقفون معًا في الشارع، ولكنه لم يكن يذهب إلى بيوتهم، ولا يخرج بصحبتهم إلا في أوقات قليلة.. كان معظم أصدقائه من المسالمين بدرجة أو بأخرى، أي ممن يسهل له فرض سطوته على أرواحهم بيسر.. كان يبدو بينهم ـ رغم قصره ونحافته ـ كأنه كبيرهم، والمسؤول عنهم، والمكلّف بحمايتهم.. كان قادرًا على إخضاعهم بواسطة التفاني في الاهتمام النفسي بهمومهم الخاصة، ومشكلاتهم الأسرية.. بالمساندة في أوقات الشدة.. بابتكار الخطط الذكية والممتعة لتمضية الوقت في الحدود المختلفة المسموحة لنا

نحن التابعين، حيث كان يبدو دائمًا أنه لا يوجد عائق قادر على تعطيل خطواته.. كان ماهرًا في تثبيت ذاته كأمان يحتاج الآخرون إليه.. كحرية يريد أقرانه اللجوء إلى طيشها أحيانًا؛ هروبًا من الإحباط، والفشل، والعنف المنزلي.. كان ماهرًا في جعل كل من يعرفه منجذبًا إليه، وكان عقله فائضًا بالمكر.. لم يكن (وليد) يقرأ المجلات المصورة، أو الروايات البوليسية، ولم يكن يشاهد أفلام الكارتون وبرامج الأطفال، ولكننا كنا نتحدث عن كرة القدم، والممثلين، والأغاني الشهيرة، والمشاجرات بين التلاميذ الآخرين، والمدن التي لم نذهب إليها، والإشاعات المصرية، وحكايات الأشباح.. أتذكر أنه لوقت ما انتشرت بقوة قصة خيالية في (المنصورة) عن حيوان غامض مفترس يلتهم البشر والحيوانات، يعيش في مخابئ مظلمة بجانب شريط السكة الحديد بالقرب من مخزن القطارات.. ربما تكفل ببناء ذلك الاعتقادِ العثورُ على جثة مشوهة لطفل مثلاً، أو لكلب ممزق قريبًا من تلك المنطقة التي كانت شبه مهجورة في هذا الوقت.. تحوّلت هذه القصة إلى حقيقة لدى كثير من الناس، حيث تناقلت الأفواه لفترة طويلة مشاهد وأحداثًا وهمية عن هذا (الوحش) المزعوم.. كان هناك من أقسم بأنه رآه، ومن ادّعى معرفته لأشخاص ـ معظمهم أطفال ـ من الذين التهمهم، ومن حاول تأكيد أنه سمع صوته المخيف وهو يمر بالقرب من المخزن.. تطوّر الأمر إلى درجة أن بعضهم بدأ يتحدث عن أن هذا الوحش ليس حيوانًا، وإنما رجل مسعور يأكل أيضًا القطط والكلاب فضلاً عن البشر.. فوجئنا ذات مساء بعد خروجنا من درس الأستاذ (عاشور) بشارع (سينما ركس) أن (وليد بدير) قرر الذهاب إلى مخزن القطارات لاكتشاف الوحش.. كان قراره يعني أيضًا تشجيعه الساحر الذي يصعب مقاومته لأن نذهب معه.. وافق معظم الزملاء المشتركين في الدرس بدافع الفضول، والرغبة في اقتحام الخطر ومواجهته، وكذلك إرضاءً لـ (وليد).. قررت الذهاب

معهم.. دون شك طاعةً للولد المسيطر، وتفاديًا لاتهامي بالجُبن، سواءً منه أم من بقية التلاميذ، ولكنني أيضًا لم أكن خائفًا.. بالعكس كنت قلقًا أكثر من العواقب الأسرية السيئة المحتملة لو تم اكتشاف هذا الذنب المرعب، أما الذهاب إلى المكان الذي يتردد أن الوحش مختبئ فيه فلم يكن مصدرًا للفزع.. كنت أشعر بقدر من التوجس الخفي، ولكنني في نفس الوقت كنت منتشيًا بالإقدام على هذه المغامرة التي توحّدتْ فيها ـ وعلى نحو مباغت ـ كافة العناصر التي يمكن لولد مثلي مقيم داخل الروايات البوليسية أن يحلم بتحققها في الواقع: ليل.. رفقة من الأصدقاء.. وحش مخيف.. مكان مظلم غامض.. قطارات بأضواء خافتة، وأصوات مقبضة.. خرجنا من (ميت حدر)، وسرنا تحت الكوبري السُفلي ثم مشينا بمحاذاة شريط القطار نحو المخزن.. أعترف أن جانبًا من شجاعتي كان راجعًا إلى أن تكذيب وجود الوحش قد تصاعد بشكل كبير بين الناس في الأيام التي سبقت هذا المساء؛ لدرجة أن سيرته قد تحوّلت إلى تناثر واهن ومتباعد من الكلمات الشاحبة التي تخبو سريعًا.. كان اليقين بعدم وجوده قد أصبح مهيمنًا لدى سكان المدينة، ومع ذلك تمنيت وأنا أقترب مع زملائي من مخزن القطارات أن نعثر عليه بالفعل.. كان الظلام يزداد كثافة مع تقدمنا، حتى دخلنا إلى ما يشبه العتمة الكاملة مع وصولنا إلى المخزن.. كانت السماء رمادية، ولم تكن هناك نجمة واحدة، أما الأشجار والبيوت المنتصبة بجوار شريط السكة الحديد كعفاريت سوداء جامدة فقد أضيفت في وعيي لعناصر الحلم المتحققة في الواقع.. فجأة رأيناه أمامنا.. جسد ضخم يغطيه من الرأس حتى نهاية القدمين ما يشبه معطفًا هائلاً غاية في القتامة.. لم يكن هناك بشر سوانا في تلك البقعة من العالم، وكان الجسد الذي رأيناه واقفًا بجوار شريط السكة الحديد على بُعد خطوات من المخزن.. نعم.. في هذه اللحظة شعرنا بالهلع.. لم نجرِ، ولم نصرخ، ولم يتوقف

قلب أي منا، ولكننا تراجعنا للخلف بقفزات صغيرة مذعورة.. (وليد) أيضًا تراجع مثلنا، ولكن عينيه كانتا أكثر العيون ثباتًا، وهو يواصل التحديق في ذلك الكائن الذي اكتشفنا أن له ذراعين.. نعم له ذراعان، واكتشفنا أيضًا أنه يعطينا ظهره.. ربما طلب ولد منا أو أكثر أن نغادر المكان، وربما طلب منا (وليد) أن ننتظر.. لم يمر أي قطار.. كان يكفي الامتداد الصامت لشريط السكة الحديد لمضاعفة الرهبة.. وجدناه يُحرّك رأسه للخلف.. يستدير ببطء نحونا، وقدماه ثابتتان.. ربما سمعنا صوت غراب ينعق لحظتها، وربما كان هذا هو الصوت الوحيد الذي سمعناه داخل هذا السكون التام.. رأينا وجه رجل عجوز بلحية بيضاء طويلة.. لا أعرف مصدر الضوء الأزرق الخفيف الذي أتاح لنا التمعن في وجه هذا الشخص ذي الهيئة العملاقة، والبالطو الأسود الرث، والبنطلون الممزق، الباهت، والحذاء البالي.. ربما بدّلت السماء لونها في تلك اللحظة تحديدًا لمعاونتنا على رؤيته.. كان يرفع المعطف ليغطي رأسه بينما ذراعاه يتدليان خارجه، وبدا نموذجًا شائعًا للمتسول وهو يشعل سيجارة بيد مرتعشة، وينظر إلينا بملامح هزيلة وعينين غائمتين دون انطباع عدائي قبل أن يتحرك بعيدًا بتثاقل متعب.. الوحش لا يمكن أن يكون هكذا، وبالتأكيد الوحوش لا تدخن السجائر وهي ترتجف.. تساقطت من أفواهنا ونحن عائدون إلى منازلنا في تلك الليلة وفرة ممتنة من الضحكات الآمنة، التي تحاول قبول العودة لرتابة الحياة المألوفة، الخالية من المعجزات.

كان (وليد بدير) يناديني من تحت البلكونة، فأنزل له ونمشي ونتجول، ونمر على بيوت بعض زملائنا الذين يسكنون (ميت حدر).. أتذكر أننا ذهبنا ذات مساء إلى (مجاهد)؛ لنسأله إذا كان راغبًا في الخروج معنا.. كان بيته في حارة جانبية داخل شارع (سينما أوبرا)، وهي التي يوجد على ناصيتها محل (أسطى محمد) الحلاق الذي أقص شعري عنده..

فتح (مجاهد) الباب، ودخلنا وراءه إلى الممر الصغير في الدور الأرضي المؤدي إلى سلم يقود إلى حجرات علوية.. كان هناك حزن كبير على وجه (مجاهد) في تلك اللحظة عندما وقف عند الدرج الأول من السلم؛ ليتكلم بصوت هامس للغاية مع (وليد)، ربما كي لا يسمعه أحد من الموجودين في الحجرات.. كنت أقف وراء (وليد) محاولاً فك طلاسم الحوار الخافت بينه وبين (مجاهد)، والذي بدا أنه يتعلق بأزمة عنيفة تخص أسرته.. كان (وليد) يتحدث معه كالعادة كأنه صاحب المشكلة، وأنه هو الذي يتعيّن عليه أن يتوصّل إلى حل لها.. كانا يتهامسان بجدية كرجلين كبيرين، وكان (مجاهد) يشكو، و(وليد) يتفهم، ويدعم، ويلاحق صديقه بالأسئلة والتفسيرات والتحليلات وأطواق النجاة الممكنة، بينما أنا في الخلف غير قادر على معرفة أي شيء مما يقال داخل تلك الهمهمات الخفيضة.. كانت اللهجة فقط هي التي تعطيني الانطباع عما يتحدثان بشأنه، وعن الدور الذي يأخذه كل منهما في الحوار، وتسبب هذا في شعوري بالضيق والغيظ.. أحسست ـ كالمعتاد ـ بالنبذ والتجاهل وانعدام الأهمية؛ فقررت مشاركتهما بأي شكل.. مددت رأسي من خلف ظهر (وليد)؛ لتقترب من وجهيهما، ثم بدأت أنا أيضًا في الهمس.. بلا كلمات حقيقية.. مجرد حروف مرتجلة غير مترابطة وليس لها معنى.. كانا مغمومين ومنهمكين في محاولة إيجاد خلاص من المشكلة الغامضة حينما فعلت ذلك.. التفت (وليد) لي، بلا انفعال محدد.. بدت ملامحه شاردة، كأنه لا ينظر لي حقًا، وإنما يواصل التفكير في حل للأزمة.. نظر (مجاهد) في وجهي بمنتهى الغضب ونفاد الصبر، ثم قال لي بنظرة شرسة، وصوت غير هامس: (اسكت ياله).. ربما ظن أنني أتطفل عليهما بدعابة ليست في وقتها، أو أنني أسخر من أدائهما في حديث أجهل حقيقة خطورته، ولكن هذا لم يكن صحيحًا.. كنت جادًا تمامًا، ولم يكن في داخلي ذرة مزاح، وأنا أحاول حشر رأسي

بينهما وأهمس بالكلام الفارغ.. كنت أريد أن ينتبها لي، وأن يشركاني معهما، وأن يشعراني بضرورة وجودي.. أنهما يحباني، وأن لي قيمة عندهما.. حينما أمرني (مجاهد) بالصمت شعرت بالألم.. ليس بسبب ما قاله، وإنما لمهانة الإدراك الجديد الصادم ـ الذي جاءني متأخرًا كما هو مألوف ـ بأنني لست رجلاً بعدُ، وأنني ما زلت طفلاً يستبعده الكبار ـ حتى زملائه ـ من شؤونهم المهمة، وينهرونه بشدة إذا ما حاول التدخل.. أن أساليبه التلقائية البلهاء في إقحام ذاته بينهم هي التي تثبت فعلاً حقيقة أنه لا ما زال طفلاً، يستحق النبذ.. كأن حياتي استمرار لا يتعطل لجمع أضخم حصيلة ممكنة من هذه الإدراكات.. أفكر الآن في أنني كان يجب أن أتحرك خطوتين للخلف.. أن أبقى بعيدًا، صامتًا، ولا أنظر إليهما.. أنني كان يجب أن أنتظر حتى يأتيا لي، ويخبراني بالمشكلة ثم أظهر لهما عدم الاهتمام، أو على الأقل التفهّم المتزن، المترفّع بترك مسافة مقصودة، وغير المتورط في عاطفة ما.. أفكر الآن في أنني كان يجب أن أكون شخصًا آخر.

كانت معظم مباريات كرة القدم في حصة الألعاب التي يغيب خلالها الأستاذ (عزت)، أو التي يحضرها، ولكن يعطي لزملائي حرية اللعب فيها، وكذلك المباريات التي كانت تُقام أحيانًا في الحصص الأخيرة التي لم تحضر معلماتها أو معلموها لأي عذر، أو التي كانت تُقام بعد انتهاء اليوم الدراسي في بعض الأوقات، وأتيح لي لسبب ما التأخر قليلاً عن الرجوع إلى البيت وحضورها - كانت معظم هذه المباريات تقام بوتيرة احدة.. يقف الولد البلطجي، الذي أبكته قرصات (أبلة منى) في منتصف الفناء ومعه السفاح الآخر ابن أبلة العلوم.. يبدأ كل منهما بالتبادل في اختيار اللاعب الذي سيضمه إلى فريقه.. لم يكن ابن أبلة العلوم هو المنافس الدائم لصديقه المقرّب، بل كان يواجهه أحيانًا لاعب آخر من (حريفة) كرة القدم في الفصل مثل (محمد العدوي).. حينئذ

ينضم زعيم العصابة الصغير إلى فريق غريمي في الملاكمة، ويكون ـ بالطبع ـ أول من يختاره من التلاميذ.. لكن هذا لم يكن يحدث إلا نادرًا؛ ربما لأن (محمد العدوي) كان كثير الغياب عن المدرسة.. أحيانًا كان يختارني الولد الذي أبكته قرصات (أبلة منى)، وفي الأغلب كان يختارني كآخر لاعب في الفريق ليلعب بأعصابي، وهو يستمتع بالرجاء اليائس في عينيّ كي ألعب في فريقه.. أحيانًا كان يختارني بطريقة استعراضية ليستمتع أكثر بإذلالي؛ فيشير لي برأسه ناحية المنطقة التي يتجمّع فيها أعضاء فريقه، وهو يغمز بعينه منتشيًا بسعادتي العارمة للانضمام إلى اللاعبين الذين انتقاهم، أو يهتف بصيحة تشجيعية خبيثة يطلب مني خلالها التوجّه نحو المرمى الذي يخص فريقنا، مراقبًا بضحكات واثقة ذلك الجري، والتقافز الحماسي الفَرِح لقدميّ وهما تجوبان بامتنان فخور أرض الفناء دون هدف، وقبل أن تبدأ المباراة.. أنا اللاعب السيئ، أو الذي لا يجيد اللعب مقارنة بالآخرين من اللاعبين المهرة في الفصل، الذين لم يمثلوا أغلبيةً بالتأكيد.. كنت فاشلاً في استخلاص الكرة من المنافسين، ولم يكن يمررها لي أحد، وحينما كانت تصلني بالصدفة كنت أعجز عن التصرّف فتؤخذ مني، أو تطيح قدمي بها نحو الاتجاهات الخاطئة.. كنت ألعب في البيت فقط، وكان هذا مختلفًا بالطبع عن اللعب في الشارع باستمرار، أو في ملاعب كرة قدم حقيقية، وهو ما كان يتمتع به (حريفة) الفصل.. تغيّر كل ذلك بعد الابتدائي.. في معظم الأحيان كنت أنضم لفريق الولد الذي كان خصمي في الملاكمة، وفي مرات أقل انضممت إلى فريق ابن أبلة العلوم.. في إحدى المباريات اجتمعت أنا و(وليد بدير) في فريق الولد الذي أبكته قرصات (أبلة منى).. كان (وليد) حريفًا، وفي هذه المباراة أحرز هدفًا، تبادل بعده المصافحة المعروفة بين اللاعبين بضرب الكفين في الكفين مع بقية أفراد الفريق.. جريت

نحوه رافعًا ذراعي، وهو يتراجع فرحًا إلى الخلف بخطوات سريعة.. لم يرفع ذراعه استجابة لي.. كان منتبهًا لي دون شك، ومتيقظًا ليدي وهي ترغب في مصافحته لأهنئه بالهدف.. بشكل عام كانت تهنئتي للاعبين تعويضًا يائسًا عن عدم قدرتي على اللعب الجيد، وإحراز الأهداف.. لكن (وليد) لم يرفع ذراعه، وإنما استمر في النظر للأمام وهو يتراجع للوراء.. في اللحظة التي وصلت خلالها إليه رفع يده ليشير بها إلى ولدٍ ما خلفي، ويقول شيئًا له.. هنا ضربت يدي بيده التي لم تكن مرفوعة من أجلي.. صافح كفي المفرودة بإخلاص كفه المضمومة، بأصابعه المتراخية، المطبقة قليلاً، غير المكترثة بيدي.. نظرت إليه بعد أن توقف عن التراجع السريع إلى الخلف، وبدأ في التحرك إلى الأمام بخطوات عادية، وهو يواصل التحدث، والإشارة بالذراع المرفوعة إلى الولد الآخر الذي لا أراه مع استعداد الفريق المنافس لضربة بداية جديدة بعد إحراز الهدف.. سألت نفسي: لم يحدث أي سوء بيننا قبل المباراة، وكنا نتبادل بعض الكلمات خلالها، وكان حريصًا على مصافحة الجميع.. لماذا تجاهل يدي إذن؟.. لا شيء أكثر من أن هذا يحدث معي دائمًا.. لا بد أن يحدث معي.. أن أحصل على تحقير ما بين فترة وأخرى كأنها حصة روتينية لا بد أن أتسلّمها دون أن يكون لها علاقة بماضٍ معيّن.. بصرف النظر عن الواقع الذي تنتمي إليه.. حتى ـ بل خاصة ـ ممن هم قريبون مني ـ أو هكذا أظنهم ـ مثل الولد الذي يناديني من تحت البلكونة، وأنزل له لنمشي ونتجول ونتشري أحيانًا اللب والفول والحمص الأبيض، ونقزقز ونتكلم ونضحك، ويقول كل منا للآخر: (سلام) قبل أن يعود إلى بيته.. كأن هناك حقيقة عن طبيعتي الذاتية تنتشر داخل كل من يعرفونني، وتجبرهم على التصرف بعفوية مباغتة كما يتلائم معها.. حقيقة أنني كيان غير مهم، ليس هناك ضرر في أن يهمله أحدهم أحيانًا، أو يتغافل عنه، أو لا يكترث بمشاعره مهما

كان مستوى علاقتهما، أو شكل التعامل اليومي بينهما.
في إحدى المرات التي عدت فيها إلى البيت مساءً بعد تجول طويل مع (وليد بدير) في الشوارع ـ يُحتمل بنسبة كبيرة جدًا أن يكون بعد درس الأستاذ (عاشور) في الصف السادس ـ وجدت أمي غاضبة بشدة.. كانت في انتظاري لتعنفني على التأخر، والتقصير في المذاكرة، والانصياع الدائم لـ (وليد) الذي يتعمّد إخراجي لفترات طويلة من البيت، وتأخيري كي يشغلني عن المذاكرة، ويمنعني من التفوق عليه.. كان الفرق في المستوى الدراسي لصالحي دائمًا، ولكنه لم يكن فرقًا كبيرًا.. بدا كأن أمي قد أضاءت حقيقة كانت مظلمة في وعيي، ورغم تمسكي بصداقة (وليد)، وحرصي الشغوف على الخروج معه، فإنني بعد خروجنا من حصة اليوم التالي عند الأستاذ (عاشور)، وبعد أن طلب (وليد) أن نتجول قليلاً قبل العودة إلى البيت رفضت، وقلت له بحسم ملتذ، وبتصديق تام لكل كلمة أنطقها: (ماما قالتلي إنك بتخليني أخرج معاك عشان تعطلني عن المذاكرة).. فوجئت بـ (وليد) يبتسم وهو ينظر في وجهي للحظات كرجل وقور، حكيم، فاجأته عبارة حمقاء لطفل أبله ثم قال لي: (خلاص.. طالما مامتك قلتلك كده يبقى عندها حق، ولازم تسمع كلامها.. روّح دلوقت عشان تذاكر).. كان في صوته نبرة الكبار التي تمزج بين الخبث والحزن، وتستوعب بمرح رصين سذاجة الصغار، وسخافة ما يتفوهون به.. لحظتها شعرت على نحو مبهم بأنني ارتكبت خطأً ما.. كنا قد وصلنا إلى بوابة منزلي، فتركني قائلاً: (سلام) المعتادة؛ فبدت حروفها في أذنيّ كأنها مكتومة بشكل أو بآخر، ومجبرة على النطق، لا تريد مغادرة الصمت الذي أعقب نصيحته التي قالها لي في الطريق القصير بين بيت الأستاذ (عاشور) وبيتي.. نظرت إليه، وأنا أرد بـ (سلام) خافتة ومرتبكة، تقاومها رغبة خفية في استرداد اللحظات السابقة وتصحيحها.. رأيت في عينيه وهما تبتعدان

عن بصري كأن الحزن يطغى على الوقار واللؤم والمرح.. فتحت لي أمي باب الشقة فأخبرتها فورًا بما قلته لـ (وليد).. لم أكن على استعداد للانتظار حتى أعرف الوصف الصحيح لما فعلته.. بدا على ملامحها ذلك النوع من الصدمة التي تحاول منع قوة تأثيرها الداخلي من الظهور كاملة.. تأكدت حينها بأنني ارتكبت خطأً بالفعل.. قالت أمي: (وليه تقوله بس!).. أمي تأكدت أيضًا ـ رغم أنها لم تكن في حاجة بالطبع لأي دليل إضافي ـ بأنني أحمق.. بدا لها ما قمت به كأنه تجاوز مباغت لتوقعاتها تجاه بلاهتي.. لم أرد على سؤالها الاستنكاري المُستاء، وتركتها لأقف في البلكونة مدركًا بطريقة ما أنها لا تنتظر أو لا تتمنى أن أرد على هذا السؤال؛ حفاظًا على قلبها من تنامي الحسرة المخبوءة تجاهي.. الحسرة التي رأيتها أكثر من مرة في عينيها.. كلما تواريت خجلاً في حجرتي؛ كي لا أصافح الأقارب أو الضيوف الجالسين في الصالة.. كلما اضطربت الحروف على لساني، واحمر خداي وأذناي، وعجزت عن قول كلمات صحيحة ردًا على مجاملات الآخرين.. كلما تحدثت بثقة غبية ومضحكة عن شخصيات وأحداث ومشاهد وأمور لا أفهمها، أوعن أمنيات غافلة أريد تحقيقها في المستقبل.. كانت حسرتها مختلطة بما هو أفدح.. التوهان الناجم عن عدم القدرة على إيجاد سبيل لتغيير ما أنا فيه.. فكرت في أن جانبًا غير قليل من طاقة صوتها وهي تسألني هذا السؤال لم يكن موجهًا للفعل الذي ارتكبته بقدر ما كان مشغولاً بنتائجه المحتملة.. ربما كانت التساؤلات الأكثر جوهرية تتصارع في عقلها حينئذ: هل سيقول (وليد) لأمه (أبلة هانم)؟.. هل ستستفسر (أبلة هانم) منها عن الحقيقة؟.. هل ستتأثر علاقتهما بسبب اعترافي الطائش؟.. هل خافت من حزن (وليد)، ومن تجنُّبه لي بعد ذلك، وبالتالي تكون قد تسببَتْ في إفساد الصداقة بين ولدين (مقربين) دون قصد؟.. فكرت في أن أمي ربما لم تكن على حق فيما

قالته عن (وليد)، وأنها كانت تدّعيه فقط حتى تستفزني للمذاكرة، وللحرص على عدم السماح له بالتفوق عليّ.. فكرت في أن أمي يمكنها أن تكذب ذلك النوع من الأكاذيب الذي يصيب صاحبه بالقلق حين يُكشف مثل سائر البشر.. لكن حتى بعد ما حدث اليوم، كان لا يزال هناك شيء في داخلي مستمر في تصديقها.. رغم تأثير كلماتي على (وليد)، ورغم ضيق أمي من إفشائي لحديثها، والذي ظهر دليلاً على التراجع والندم - فإنني كنت مقتنعًا ـ أو على الأقل لا أستبعد ـ أن الحق معها فيما قالته، خصوصًا أن (وليد) لا ينقصه الشر ولا اللؤم اللازمان لهذا الحقد.. كان في تصديقي الفوري لكلمات أمي عن (وليد)، بل وفي اللذة الغريبة التي شعرت بها، وأنا أصرّح له بهذه الكلمات - شكلٌ من محاولة الانتصار عليه.. كأنه جاءتني فرصة للانتقام من شخصيته القيادية الخبيرة، ومن جرأته المبهرة، وبالطبع من مهاراته في كرة القدم.. الثأر من الأماكن التي يستطيع الذهاب إليها، ومن المتع التي بوسعه أن يجرّبها، ومن اللغة التي يقدر على إطلاقها من فمه وأنفه بحرية.. رد الاعتبار لي حتى لو كان على أساس غير صحيح.. كأنني انتهزت كلمات أمي لإثبات نفسي كرجل محنّك، وماكر مثله، قادر على اكتشاف النوايا السيئة الخبيثة التي يضمرها له أعداؤه.. لم أكن أريد تضييع هذا الشعور من أعماقي حتى لو كان ما قالته أمي كاذبًا، حتى لو تسبب في كسر خاطر (وليد) من ناحيتي، وهو ما ظل يؤرقني كثيرًا.

(«زكريا موافي» وهو يقول لـ «فؤاد المهندس»: «أنا صحفي بجريدة (المجتمع)» في مسرحية «سك على بناتك» 1980.. صوت "سناء منصور" على وجه "هدى عبود" وهي تقول" بيوكلينا بالتكت الأزرق" في إعلان "عائلة بيوكلينا" لـ "طلعت يوحنا".. السترة الزرقاء، والبنطلون الأحمر، والإنسيال الفضي في يد أحد أعضاء فريق "The Shorts" وهو يلعب على الأورج في أغنية "Comment

?ca va" 1983.. "أحمد عدوية" وهو يغني "زحمة يا دنيا زحمة" مع رقص "زيزي مصطفى" في فيلم "شعبان تحت الصفر" 1980.. صوت "عفاف الهلاوي" وهي تحكي قصة "زهرة قوس قزح المسحورة".. "سامي مغاوري" وهو يمسك بصينية الشاي بجوار "إبراهيم عبد الرازق" الجالس وسط الشجر داخل الليل الريفي مع نباح الكلاب وصفير الصراصير ونقيق الضفادع في مسلسل "الرجل والحصان" 1982.. رجل البوليس السري أستاذ "هولمز" وهو يقول لـ "عم دهب": "زائر عجيب! مؤكد يشكو من جنون الرقص.. وهو ما يجعل السرير يهتز" وهما مختبئان في السرير الواسع بالليل في قصة "حلم عم دهب" بالعدد 73 لمجلة "ميكي جيب" أغسطس 1982.. الأسرة السعيدة التي تفترش العشب وتأكل الجبنة في إعلان "لافاش كيري" مع أغنية "البقرة الضاحكة".. الجالسون أمام المسرح حيث فريق "Bonny M" يغني "Daddy Cool".. البالونات والشموع الكبيرة وزينة عيد الميلاد الملونة في استعراض "التورتة" من فيلم "اتنين على الهوا".. امتزاج زرقة البحر وبنفسجية السماء في أغنية "بحلم معاك" لـ "نجاة" للمخرج "حسين كمال".. أزقة ودكاكين وبيوت "درب المواردي" في فيلم "فوزية البرجوازية"، والطفل "بيلية" الذي أرسلته أمه "نبيلة السيد" بالبيجاما ليأتي بأبيه "أبو بكر عزت" من دكان الحلاقة 1985.. الأضواء تحت قدمي "لبلبة" وهي ترقص وتغني "دقي يا مزيكا".. لحظة تحوّل "Bill Bixby" إلى "الرجل الأخضر" في الليل مع المطر والبرق والرعد ودفعه بيديه للسيارة ذات المصابيح الأمامية المضيئة وقلبها على سقفها في مسلسل "The Incredible Hulk".. منديل رأس "مديحة حمدي" في مسلسل "الحب وأشياء أخرى" 1986.. الطفل والطفلة فوق الأرجوحة وبينهما الكلب المبتسم وسط الزهور والنباتات في

إعلان مصاصات "لولي بوب" من "سيما" في الصفحة الأخيرة لمجلة "ميكي".. صالون "نوال أبو الفتوح" في مسرحية "الأستاذ مزيكا" 1978.. التليفزيون الكبير في برنامج "يا تليفزيون يا" تقديم "رمسيس".. ورق تغليف علب الحلويات التي أحضرها "محمود الحفناوي" حينما ذهب ليطلب يد "ميرفت أمين" في مسلسل "الزوجة أول من يعلم" 1987.. صندوق بريد "بطوط" في حديقته، والمكتوب عليه اسمه وخروجه من باب البيت؛ ليأخذ الأولاد الثلاثة في سيارته إلى "عم دهب" في قصة "أين السباك؟" بالعدد 120 لمجلة "ميكي جيب" يوليو 1986.. "طاهر أبو زيد" وهو يتلاعب بالكرة في إعلان "كولونيا إيفا"، إخراج "شريف عمران".. الضوء الذهبي والدخان مع المصابيح الحمراء والزرقاء وصور فريق "Dolly Dots" بالأبيض والأسود على خلفية المسرح في أغنية "Leila The Queen of sheiba" 1981.. سائق الحنطور وهو يغني مع الأطفال في أغنية "أهلاً بالعيد" لـ "صفاء أبو السعود".. ابتسامة البنت في "المسحراتي" داخل الشوارع المعلّق في فضائها زينة رمضان ومصابيحه، وهي تنظر إلى "سيد مكاوي" بجلبابها الريفي، والفانوس في يدها في أثناء وقوفهما تحت الفانوس الكبير المتدلي في ليل المنطقة الشعبية وسط العابرين، وبين مقهى صغير، وبائع كنافة، و"سيد مكاوي" يغني كلمات "فؤاد حداد": "ناس كانوا قبلي قالوا في الأمثال. الرِجل تدب مطرح ما تحب. وأنا صنعتي مسحراتي في البلد جوال. حبيت ودبيت كما العاشق ليالي طوال. وكل شبر وحتة من بلدي حتة من كبدي حتة من موال").

المسودة الثالثة

في معظم مباريات كرة القدم بحصة الألعاب، تحوّل وجودي في أي من الفريقين إلى ضرورة بعدما تم استبعادي أكثر من مرة؛ فاشتكيت لأمي ـ تكاد تكون المرة الوحيدة التي أقدمت فيها على اللجوء لسلطتها داخل المدرسة ـ التي أبلغت الأستاذ (عزت) بالأمر؛ فأعطى مدرس الألعاب تنبيهًا للاعبين (الحريفة) في الفصل، بأن يتم إشراكي في المباريات التي تتم في عدم وجوده، وقد كانت كثيرة جدًا.. وصل الأمر لدرجة أن نزاعًا كان يحدث أحيانًا قبل بدء كل مباراة بين البلطجي الذي أبكته قرصات (أبلة منى)، وصديقه ابن أبلة العلوم، أو (محمد العدوي) حول من يأخذني في فريقه.. كان كل قائد فريق يقذفني للآخر حتى يستسلم أحدهما ويضمني مضطرًا، موقنًا أنه هكذا سيلعب بفريق ينقصه لاعب.. كان قائد الفريق الذي اختارني ـ أيًا يكن ـ يعيد عليّ التحذير الصارم الذي سمعته كثيرًا بألا أحاول لمس الكرة، وأن أكتفي فقط بمحاولة استخلاصها من أقدام لاعبي الفريق المنافس لو استطعت، على أن أسرع بتمريرها فورًا ـ لو نجحت المعجزة ـ إلى أقرب لاعب من فريقي.. لا تحتفظ بالكرة.. لا تفكر في المراوغة.. الْعَب الكرة للأمام فحسب لو لم تجد من تمررها له.. في النهاية وجدوا

الحل.. اتفقوا جميعهم على أن يحضر واحد منهم كرة من بيته خصيصًا لي حتى ألعب بها وحدي.. أتذكر أنهم كانوا يحضرون أحيانًا كرتين؛ واحدة لهم، والأخرى لي بعد أن ظلت حجرة الألعاب التي تحوي الكرات مغلقة لفترة طويلة مع استمرار غياب الأستاذ (عزت)، وعدم وجود بديل له.. أتذكر أن (محمود سالم) كان واحدًا من الذين كانوا يحضرون الكرة التي سألعب بها وحدي، وربما أيضًا (محمد العدوي).. كان هذا بمثابة الحل السحري المنقذ الذي يجعلهم يستمتعون باللعب من دوني، وفي نفس الوقت لا يعطونني فرصة كي أشكوهم عند أمي أو الأستاذ (عزت)..

في أثناء صخب ما قبل الطابور، وفي أثناء وقوفنا لأداء تمارين الصباح وتحية العلم قبل الصعود إلى الفصول؛ كنت أرى الكرة الأخرى مستقرة في كيس بلاستيك بيد أحدهم.. الكرة التي أعرف أنهم سيعطونها لي حينما يجيء موعد حصة الألعاب، ويطلبون مني أن أذهب في ركن بعيد داخل الفناء، وألعب بها وحدي كي لا أزعجهم.. أنظر إلى الكرة المستقرة في الكيس بجوار شنطة ولد من الفصل تحت قدميه وهو واقف في الطابور.. كأن كل من في المدرسة ينظر إليها مثلي.. المعلمات والمعلمون والموظفون والموظفات والتلاميذ.. البشر جميعهم ينظرون إليها، ويعرفون لماذا يتم إحضارها إلى المدرسة في مثل هذا اليوم من كل أسبوع.. يعرفون أنني لست مثل زملائي.. غير جدير بأني أكون مثلهم، ولهذا لا بد أن أتركهم يستمتعون باللعب دون مضايقة.. يعرفون أن زملائي لا يطيقونني، حتى أنهم اجتمعوا، وفكروا ليجدوا حلاً كهذا يريحهم من تطفلي.. كأن الكرة نفسها تنظر لي.. كأنها تخبر الناس كلهم أنها الدليل على كوني منبوذًا.. كنت بالفعل آخذ هذه الكرة إلى زاوية صغيرة في الفناء، وألعب وحدي.. أحاول تنطيطها على قدميّ، وأسددها نحو مرمى خالٍ تمثله البوابة الفرعية للمدرسة، المطلة على

حارة (العطافي).. كان هناك تلاميذ مثلي لا يجيدون كرة القدم، ولا يتم اختيارهم في المباريات، ولكنهم أيضًا كانوا غير مهتمين باللعبة.. كانوا لا يحبون كرة القدم أصلاً؛ لذا كانوا يجلسون دائمًا في أحد الأركان، ويتحدثون، أو يتجولون حول الفناء، وبعضهم كان يظل في الفصل.. كنت ألعب جيدًا وحدي، وأحرز أهدافًا غزيرة وحدي، وكنت أجري فرحًا بعد إحراز كل هدف وأنا أرفع ذراعيّ لأعلى، وصيحات الفوز تتدفق من فمي مثل اللاعبين في التليفزيون.. كنت أفعل كل هذا، والأولاد الذين لا يلعبون كرة القدم، الجالسون في الركن يتفرجون عليّ ويضحكون.

كنت أحب أستاذ (عزت) رغم حدة طباعه التي يخترقها الهدوء والمزاح في بعض الأحيان.. كان يعد بالنسبة لي نموذجًا مثاليًا للتحرر والقوة.. أتذكر أنه في إحدى حصص التربية الرياضية التي لم نغادر خلالها الفصل ـ ربما بسبب نوبة مطر شديدة حوّلت أرض الفناء إلى بحيرات صغيرة من الماء والطين ـ وقف أمامنا أستاذ (عزت)؛ ليحكي لنا عن إحدى مباريات الملاكمة التي خاضها في شبابه المبكر.. شرح بالإشارات المزهوّة كيف أعطى خصمه لكمة قوية أسقطت ذقنه في رقبته.. لا أعرف هل كان صادقًا أم لا، لكن أستاذ (عزت) كان قويًا بالفعل ـ على الأقل بالنسبة لي ـ في إحدى الفسح مثلاً تجمعنا حوله لسبب ما، ثم حدث مزاح جماعي لا أتذكر تفاصيله بينه وبين التلاميذ الواقفين وأنا منهم انتهى بأن أمسك كرة يد بنية ثقيلة من ضمن الكرات الكثيرة التي كانت تختزن في حجرة الألعاب، وقذفها بمنتهى العنف في جسدي.. ارتطمت الكرة بكوعي من الخلف بعد أن حاولت تفاديها بإعطاء ظهري لاندفاعها القوي؛ مما أسقط ساندوتش الفول الذي كنت آكل منه.. كنا نضحك جميعًا.. أنا والتلاميذ والأستاذ (عزت)، لكن سقوط ساندوتش الفول تسبب في تعكير المزاح في نفسي، ومع ذلك أخفيت

هذا الشعور بقدر ما أستطيع.. واصلت الضحك، وابتعدت خطوات قليلة تاركًا الساندوتش على الأرض، ومتجاهلاً الألم الحاد في كوعي الناجم عن ضربة الكرة.. كان فرحًا نادرًا أن يكون لأستاذ (عزت) مزاج رائق، وأن يتبادل دعابة معنا، وخصوصًا معي، ولم أكن أريد إفساد هذا رغم غباء المزحة.. كنت أعرف أنها دعابة خاصة بالرجال فقط، ولم أكن أريد لأي مستوى ولو بسيط من الاستياء أو الشكوى أن يسقطنى من هذا الارتفاع الشاهق، ويعيدني إلى القاع الطفولي.. لكنني حينما التفت ورائي بعد تلك الخطوات القليلة وجدت خليطًا مصدومًا من الضيق والحرج على وجه أستاذ (عزت) بسبب سقوط ساندوتش الفول من يدي.. في محاولة عاجلة لتجاوز هذا الخلل الطارئ في المزحة أمرني بصوت يكافح أن يكون فكاهيًا بأن ألتقط الساندوتش من على الأرض.. كان مزيج الضيق والحرج لا زال ملتصقًا بوجهه، غير قادر على إزاحته، وهو يبعد وجهه، ويتحرك بعيدًا عن المكان.. كأن أستاذ (عزت) شعر أنه أضاف للخلل غير المقصود ورطة جديدة بأمْره المتسرّع لي أن ألتقط الساندوتش ـ الذي مددت يدي فعلاً لآخذه ـ بعد أن أدرك أنه غير صالح للأكل مع الجرعة الكبيرة من تراب الفناء التي أضيفت إليه.. أبعد وجهه، وتحرّك بعيدًا عن الأزمة غير المتوقعة التي تسببت فيها دعابته الطائشة، وأسهمت محاولته لمعالجتها في تعقيدها.. تركني أنا وساندوتش الفول لمصيرنا الغامض.. ولد آخر في مكاني ـ أو حتى فتاة من الفصل ـ كان قادرًا على أن يقول لأستاذ (عزت) بابتسامة ثابتة، ونبرة مترفّعة وحاسمة إن ساندوتش الفول أصبح ملوثًا، وإنه لن يلتقطه من الأرض.. ولد آخر ما كانت الكرة التي قذفها أستاذ (عزت) في جسده ستختار يده الممسكة بساندوتش الفول، وما كانت ستسقطه من يده لو اختارتها مهما كانت قوة الضربة.. ولد آخر ما كان سيمسك بساندوتش فول أصلاً وهو يقف مع بقية التلاميذ حول

أستاذ (عزت).. لكنني امتثلت للأمر، وأنا أعرف تمامًا أن الساندوتش يجب أن يُرمى في القمامة، وهذا ما فعلته بالضبط.. لا أتذكر أنه كان لدينا صندوقٌ للقمامة، ولكنني أتذكر جيدًا أنه كانت هناك ما يشبه العادة الجماعية بين تلاميذ المدرسة، وهي أنه حينما يشبع أي منهم في منتصف الساندوتش الذي يأكل منه، يترك بقيته فوق الحاجز العريض البارز من جدار الفناء، والذي كنا نجلس عليه قبل بداية الطابور، وفي الفسح، وحصص الألعاب.. إذا كان أستاذ (عزت) قد شعر بالضيق والحرج، فإن سقوط الساندوتش من يدي قد جعلني أشعر بالشفقة تجاه نفسي.. الشفقة التي لا يمكن لأي ألم في الكوع أن يتخطاها أو يساويها.. الشفقة التي تمددت مع انحنائي لأخذ الساندوتش من الأرض، ثم ملأتني تمامًا وأنا أسير نحو الحاجز العريض في جدار الفناء، وأضع ساندوتش الفول فوقه ناقصًا قضمتين.. كانت المدرسة كلها تتابع رحلتي القصيرة البائسة هذه من منتصف الفناء إلى جانبه، أو هكذا تخيلت.. نعم.. يمكن لأي أحد أن يشعر بالشفقة تجاه نفسه حينما يسقط ساندوتش من يده لأي سبب.. لكن السبب الذي أسقط ساندوتش الفول من يدي هو ما جعل الشفقة التي شعرت بها ثقيلة إلى هذه الدرجة.. إن السقوط حدث نتيجة مزاح مع نموذج مثالي للتحرر والقوة، وإنه حاول إشراكي في دعابة جماعية كرجل مثله، ومثل بقية التلاميذ الذين يقفون حوله.. إن سقوط ساندوتش الفول من يدي لم يكن حادثًا عرضيًا، وإنما نهاية منطقية لوجودي في موقف لا أنتمي إليه.. أثر بديهي يليق بحياتي المنفصلة عن هذا النوع من البشر، وهذا الشكل من المزاح.

أتذكر أن أستاذ (عزت) أشرك تلاميذ الفصل جميعهم في مباراة كبيرة، وقام بتحكيمها.. كنت حارسًا للمرمى في فريق (عادل فتحي) و(خالد جلال) و(وليد بدير).. ربما كان انضمام جميع التلاميذ لهذه المباراة

الكبيرة هو الذي فرض مركزي في الملعب؛ إذ جرت العادة أنه إذا تحتم إشراك ولد لا يجيد كرة القدم فمن الأفضل أحيانًا أن تعيّنه حارسَ مرمى؛ أملاً أن ينجح في صد التصويبات، أو أن تصطدم الكرات بجسده وترتد عن طريق الصدفة.. شهدت هذه المباراة اكتساحًا لفريقي ـ الذي يضم أمهر تلاميذ الفصل ـ حيت تعاقبت الأهداف في شباك الفريق المنافس، بينما ظللت واقفًا وحدي في المرمى دون أن تقترب باتجاهي أي هجمة مضادة.. كنت أشعر بالارتياح والغيظ.. شباكي نظيفة، ولكن هذا ليس ناجمًا عن أي براعة من جانبي.. فجأة اقترب لاعبو الفريق الآخر.. شعرت بالخوف، وتسارعت دقات قلبي وأنا أراقبهم بتحفز متوسل وهم يتبادلون الكرة حتى تم تمريرها إلى أحد التلاميذ، وكان يقف أمامي من جهة اليسار.. كان إحراز الهدف مؤكدًا، ولكنني تقدمت بسرعة نحو الولد وهو يضرب الكرة فاصطدمت بفخذي وابتعدت عن منطقة الخطورة.. صفق لي (عادل فتحي) و(خالد جلال) و(وليد بدير) غير مصدقين ما حدث.. أنا نفسي لما أصدق ما قمت به، ولم أصدق رد فعل هؤلاء البلطجية الثلاثة تجاه هذا التصدي المفاجئ.. كنت قد شعرت بوجع خفيف في المكان الذي ضربته الكرة، ثم قررت استغلال غنيمة الانتصار غير المتوقعة في تأكيدها وتطويرها.. انتهزت خروج الكرة من الملعب وذهبت إلى (عادل فتحي) في منتصف الفناء، وقلت له بألم زائف؛ طمعًا في المزيد من التقدير والإشادة: (الكرة لما خبطت في فخدى وجعتني أوي).. لم يلتفت (عادل) لي، وإنما قال لي بعدم اهتمام، وعيناه مشغولتان برجوع الكرة إلى الملعب: (معلش معلش.. إرجع جونك).. أعلن أستاذ (عزت) بصفارته انتهاء المباراة بفوزنا الساحق على الفريق الآخر.. أتذكر أنني من فرحتي قفزت في الهواء فاتحًا كفيّ لأستاذ (عزت) الذي فتح كفيه هو الآخر لنتصافح بضربة الكفوف الأربع الشائعة كسلام تقليدي بين اللاعبين.. قرر (عادل

فتحي) أن أكون حارس مرمى فريقه في جميع المباريات القادمة، وقررت أنا تصديق اعتقادٍ عن نفسي بأنني حارس مرمى جيد رغم أنني لم أصد سوى كرة واحدة، لكنها كانت الكرة الوحيدة التي وصلت لي، وبالتالي فإن بإمكاني التصدي للمزيد.. عدت إلى البيت متباهيًا في داخلي، ومتفاخرًا أمام أمي و(ماجدة) وأنا أحكي لهما الإنجاز الذي حققته اليوم.. ربما كان هذا من ضمن الأسباب التي وطدت علاقتي بالجوانتي (الكورشيه) الكحلي الذي نسجته لي (ماجدة).. لم يعد هذا الجوانتي مجرد غطاء دافئ لليدين، بل قفازًا لحراسة المرمى في جميع المباريات التي لعبتها وحدي داخل البيت، وتخيلت نفسي خلالها ألعب مع أولاد وهميين، وأتصدى لكل الكرات الخطيرة، وأفوز في النهاية معلنًا فرحي بالجري، والصياح عبر الصالة والحجرات والبلكونة.. كنت ألبس الجوانتي طوال الوقت.. في اليقظة والنوم، وفي أثناء المذاكرة ومشاهدة التليفزيون وتناول الطعام، وفي البلكونة والحمام والشارع والمدرسة.. لم أكن أخلعه إلا مضطرًا ثم أعيد ارتداءه على الفور، وأنا أحلم بالمباراة القادمة في فناء المدرسة.

كانت المباراة التالية بعد نهاية يوم دراسي، ولم يكن أستاذ (عزت) موجودًا..كان نفس الفريق الذي فزت معه من قبل، وأمام نفس الفريق الذي لعب ضدنا، وانتهت هذه المباراة بخسارة فريقي بسبعة أهداف مقابل هدف.. توالت الأهداف في مرماي بسهولة تعذيبية، وأنا عاجز تمامًا عن التصدي لأي كرة.. كنت أقف أحيانًا في معظم الأهداف مسمرًا في الأرض، غير قادر حتى على إبداء محاولة لإبعاد الكرة قبل أن تسكن المرمى.. كان الكل يزعق فيّ: (عادل فتحي) و(خالد جلال) و(وليد بدير)، وأنا غير قادر على الرد.. فقط أقف في مكاني، والكرات تعبر من حولي.. بعد انتهاء المباراة، ودون أن أتبادل كلمة واحدة مع أي أحد، أخذت حقيبتي وعدت إلى البيت بعدما خلعت الجوانتي من

يدي، وأعتقد أنني لم أرتدِه بعد هذا اليوم أبدًا.. في البيت سألتني أمي عن سبب التجهم الذي يكسو ملامحي فأخبرتها.. ابتسمت باستخفاف، ثم خرجت (ماجدة) من المطبخ وسألت أمي عن سبب حزني؛ فأخبرتها أن سبعة أهداف دخلت في مرماي فضحكت.. خرج أبي من حجرته وسألهما عن سبب حزني، وقبل أن يجيباه أخبرته بأن سبعة أهداف دخلت مرماي، لكنه لم يبتسم أو يضحك.. رمقني بنظرته المرعبة، وسألني بصوته الغليظ المهدد: (أنا مش قلتلك متلعبش بعد المدرسة ومتتأخرش عن البيت.. هاتي الحزام).. كان الأمر الأخير موجهًا لـ أمي أو لـ (ماجدة)، لا فرق، ولم يكن هذا بالطبع هو الاستدعاء الأول للحزام، ولكن ـ كالعادة ـ لم تحضر أمي أو (ماجدة) الحزام له، ولم يكرر أبي أمره، ولم ينتظر بل عاد إلى حجرته، في حين ظل قلبي يتخبّط سريعًا في دمائي المرتجفة، والبكاء يتجمع ككرة حديدية ضخمة سوداء في حلقي، وجسدي ينكمش ويخف؛ حتى يتحوّل إلى ما يشبه فقاعة صغيرة مختنقة.

أعتقد أننا كنا في الصف السادس حينما اختارت (أبلة سيدة) معلمة الموسيقى مجموعة من فصلنا للتمرين على الغناء الاستعراضي بالحفلة المدرسية التي ستقام في نهاية العام.. أتذكر أنه كان ترتيب الوقوف في صف الأداء: (وليد بدير) ـ أنا ـ (عادل فتحي) ـ (خالد جلال).. كان هذا الترتيب بحسب طول القامة من الأقصر إلى الأطول، وهو نفس الترتيب الذي أدى الأغنية الاستعراضية في الحفلة.. صف البنات أتذكر منهن (حنان حسن) و(شيرين)، وربما كانت هناك فتيات أخريات من فصول البنات الصغرى.. كان الاختيار يتم بناءً على جمال الصوت، أو بمعنى أصح مدى اقترابه من أن يكون مناسبًا لأداء الأغنية.. لا يبدو الأمر الآن صدفةً غريبة أن أجتمع مع هؤلاء الثلاثة حتى في الفريق الغنائي للمدرسة.. كانوا أشبه بالقدر بالنسبة لي.. بالطبع اختارت (أبلة

سيدة) أيضًا من فصلنا (سلوى) عازفة الإكسيلفون الماهرة، التي تُنظّم موسيقاها طابور الصباح، مثلما اختارت عازفين للأكورديون والطبلة من فصول أخرى.. كانت (أبلة سيدة) تستدعينا في الحصص الخالية، وفي الفسح، وأحيانًا بعد انتهاء اليوم الدارسي، وكان مسموحًا لي بالتأخر قليلاً عن العودة إلى البيت لهذا السبب.. كنا نتمرن على نشيد:

(يا أمة الإسلام والإيمان يا خير الأمم
هيا بنا نرعى الفضائل والمكارم والقيم
هيا إلى ماضي الجدود واخلصوا نياتكم
وعلى المحبة والسلام لتلتقي قواتكم
الله أكبر لا حياة لمن يعيش بلا أمل
فالعلم والإخلاص غايات يتوجها العمل).

أعتقد أن لحن هذا النشيد كان يبدأ بـ (دو دو دو ري مي فا صول لا لا).. غير متأكد من هذا، ولكنني كنت أستعير الإكسيلفون بعد موافقة (أبلة سيدة)، وآخذه إلى البيت، وأظل أعزف هذه المقدمة الصغيرة مع الغناء.. أحيانًا كانت فترة الاستعارة تمتد لأكثر من يوم، وكان هذا بدافع التدريب على الأغنية، لكنني كنت أشعر بالفرح والتباهي وأنا أحمل الإكسيلفون في الشارع من المدرسة إلى البيت مثل (سلوى).. أتذكر أنني أخذت الأكورديون أيضًا معي لأتدرب عليه ذات مرة، وأنه كان ثقيلاً كفيل صغير، وأنني فشلت تمامًا في العزف عليه، ولم أكرر استعارته مرة أخرى.. كنا نقف صفين: واحدًا للأولاد والثاني للبنات، وبينما نغني النشيد مع الموسيقى كنا نؤدي الاستعراض عبر ترتيب معيّن للخطوات ولحركات الأيدي.. أتذكر أن (أبلة سيدة) ـ لم أرَها ترتدي أبدًا فستانًا غير الأسود ـ كانت تستدعي مجموعتنا في حصص الألعاب خصوصًا مع اقتراب موعد الحفل.. في إحدى هذه الحصص فضّلت اللعب ـ وحدي بالكرة كالعادة بجوار البوابة الفرعية للمدرسة ـ عن

الذهاب للبروفة.. كنت الوحيد الذي لم ينفّذ استدعاء (أبلة سيدة).. كانت رغبتي قوية جدًا في هذا اليوم للعب الكرة، وربما كان هناك حافز إضافي لا أتذكره قادني لتجاهل التمرين، والبقاء في الفناء.. عرفت من أمي بعد انتهاء حصة الألعاب، وقبل عودتي إلى الفصل أن (أبلة سيدة) حزينة بسببي، وأن عليّ إصلاح الأمر.. قابلتني (أبلة سيدة) في الردهة العلوية، فابتسمت في وجهي بخيبة أمل، وقالت لي بهدوء، ودون أن يبدو على وجهها أثر للتهكم: (مفيش مشكلة إنك محضرتش البروفة.. هنشوف واحد تاني، ولما يبقى فيه استعراض يجمع بين الموسيقى والكورة إبقى اشترك فيه).. أعتقد أنها صمتت لحظة صغيرة؛ انتظارًا لإجابتي على ما قالته، ولكنني ـ بالطبع ـ كنت أكثر الكائنات فشلاً في إعطاء الرد الصحيح والمناسب في مأزق كهذا، أو إعطاء الرد الصحيح والمناسب في أي مأزق.. تفحصت (أبلة سيدة) صمتي المتورّد برهة قصيرة، ثم أكملت سيرها داخل الردهة، بينما عدت أنا إلى الفصل.. في البيت طلبت من أمي أن تتوسط لي عند (أبلة سيدة) كي تسامحني، وتعيدني إلى البروفات.. بالفعل، في اليوم التالي وجدت (أبلة سيدة) تدخل الفصل، وتكرر التنبيه المعتاد على التلاميذ المشتركين في الاستعراض أن يتجمعوا في أحد الفصول بعد جرس الفسحة، ثم نظرت في وجهي، ودون أن تبتسم قالت لي: (ماتتأخرش)..

عدت إلى البروفات، التي كانت تقام أحيانًا في حجرة مخصصة للتدبير المنزلي، الذي كانت أمي تقوم بتدريسه أحيانًا مع الطالبات الأكبر سنًا مني.. في سقف هذه الحجرة كان هناك مصباح كبير له ضوء أصفر، ولكن لم تكن هناك دكك وإنما منضدة طويلة في المنتصف، وبضعة كراسي خشبية.. كنت مع الضوء الأصفر والمنضدة الطويلة والكراسي الخشبية أشعر أننا في مخزن لكوخ ما، يشبه ما أراه وأقرأ عنه في صفحات الحكايات، ومشاهد الأفلام، الكارتونية خاصة.. كوخ ذو

مزاج ملتذ بالصقيع القادم من نوافذه.. كان باب الحجرة مغلقًا طوال وجودنا في الداخل، وكان النور الأزرق الغائم للشتاء يمتزج في الهواء بالضوء الأصفر للمصباح الكبير في السقف؛ فأشعر بالنشوة تفرك جسدي الصغير.. قشعريرة تخلط بين البرد والدفء.. أكاد أجزم أن هذه القشعريرة الفاتنة كانت تتناوب على أجساد بقية التلاميذ داخل هذه الحجرة، وفي أوقات أخرى أيضًا داخل الفصل؛ خصوصًا مع النور الأصفر لمصباح السقف الذي كانت تضيئه أي من المعلمات مع شحوب ضوء النهار البارد وراء الغيوم الشتائية الكثيفة.. ربما كان (داود عبد السيد) واحدًا من هؤلاء البشر الذين جربوا هذه المتعة الكامنة في امتزاج زرقة النهار الخفيفة، بالضوء الأصفر لمصباح قديم، مترب قليلاً على نحو ما في سقف مكان ضيق ومغلق، شاسع ومفتوح بانكماشه مثل شوارع (الكيت كات) وبيوته، التي تشبه شوارع مدرسة (ميت حدر) وبيوتها وحجراتها وفصولها.

كان الزي الرسمي للحفلة بالنسبة للأولاد قميص بيج فاتح، وبنطلونًا بنيًا، وببيونًا بنفس اللون، بينما أعتقد أن الزي الرسمي للبنات كان الفستان الأبيض، والجورب الأبيض، والحذاء الأبيض.. كالعادة تم تفصيل الزي الخاص بي في البيت، حتى الببيون فصّلته (ماجدة) من قماش قطيفة بزركشة بارزة، وكان الببيون الأكبر من بين جميع الببيونات الصغيرة (الجاهزة) التي كان يرتديها زملائي.. خرجت صباح يوم الحفل في ساعة متأخرة عن الموعد الدراسي الثابت.. بنسبة كبيرة للغاية كان هذا اليوم هو الجمعة، وأغلب الظن أنني خرجت من البيت في الثامنة ونصف أو التاسعة صباحًا مرتديًا ذلك الزي.. كنت أتحسس الببيون كأنني أملّس على وسادتين صغيرتين معلقتين في رقبتي.. في البداية كانت طقوس يوم رياضي تقليدي كسائر الأيام الرياضية الأخرى التي كانت تقام في مدرستنا طوال المرحلة الابتدائية من حين

لآخر، وكان يحضر للمشاركة فيها تلاميذ من مدارس أخرى: موسيقى.. مباريات كرة قدم بين لاعبين يرتدون ملابس رياضية كاملة.. تعليق في الميكروفون على المباريات.. ساندوتشات فينو صغيرة تحوي لحمة مفرومة.. قطع جاتوه صغيرة فوق أطباق ورقية (غالبًا من «راندوبلو»).. شوكات وملاعق وسكاكين بلاستيكية لونها بمبي، وأحيانا لونها لبني وأبيض (كنت أحتفظ بها أحيانًا، وآخذها معي البيت، وفي إحدى المرات التصقت قطعة من البونبون الأحمر بإحدى الملاعق البمبي).. تلاوة قرآن.. أغانٍ وطنية.. أغاني أطفال.. مسابقات في المعلومات العامة.. مسابقات في ألعاب أخرى غير كرة القدم مثل الجري، وشد الحبل، وسباق الأجولة، أو الأقدام المربوطة، أو الأقدام المقيّدة بأقدام شركاء آخرين.. تكريم لمعلمين ومعلمات.. ثم جاء وقت الحفل.. كان آخر فقرات هذا اليوم، وكان المسرح قد تم تشييده وتغطيته بالسجاد الأحمر والستائر عند بوابة المدرسة الفرعية، بالضبط في نفس المكان الذي ألعب فيه الكرة وحدي بحصص الألعاب.. صعدنا إلى المسرح وراء الستار المغلق بنفس ترتيب البروفات، ولم أكن خائفًا؛ لأنني كنت أحفظ الأغنية، وأتذكر خطواتي جيدًا، ولكنني كنت متأهبًا بالترقب العادي، القلق من حدوث خطأ ما.. فُتح الستار، وفوجئنا بأن جمهورنا كله يقتصر على التلاميذ.. أطفال المدرسة (ميت حدر)، وأطفال المدارس الأخرى المشاركين في اليوم الرياضي.. لم يكن هناك شخص كبير واحد سواء كان معلمًا أم إداريًا من مدرستنا، أو من أي مدرسة أخرى.. حتى (أبلة سيدة) لم نرها.. كأنهم جميعًا قد تبخروا فجأة، أو عادوا خلسة إلى منازلهم، أو أنهم أخذوا كفايتهم من (الطفولة) في هذا اليوم الطويل.. سمعت (عادل فتحي) يقول من خلفي مذهولاً بسخرية: (إيه ده؟.. دول كلهم عيال).. بدأت الموسيقى، وكان يجب ـ مهما كان الأمر ـ أن نبدأ نحن أيضًا.. أنجزنا العرض بفتور، ودون أن ننظر كثيرًا

ناحية جمهورنا الصغير، ودون أن نرتكب خطأً واحدًا.. غادرنا المسرح، وعدت إلى بيتي وأنا أفكر في أن البروفات كانت أكثر حماسًا ومتعة من الحفل نفسه، وأن ساندوتشات الفينو باللحم المفروم كانت شهية، وكذلك الجاتوه، وأنني لن أرتدي هذا الببيون في حياتي مرة ثانية أبدًا. كان للبيت القديم الذي يرتفع فوق فرن (الشربيني) المواجه لنا شقتان.. لا أتذكر أي شيء عن سكان الشقة التي تعلو الفرن مباشرة أكثر من رجل يفتح الشيش ويغلقه، أو ربما كانت امرأة عجوز، ولكن الشقة الأخرى التي فوقها كانت لها بصمتان جوهريتان في نفسي.. الأولى والأقوى فانوس رمضان.. الفانوس الكبير المعلّق فوق الشيش، والمصنوع من أوراق الجلاد الأحمر، وفي سنة أخرى من الجلاد الأصفر، بينما المصباح المتلألئ في قلبه يسطع في قلبي كلما نظرت إليه من أسفل وأنا أتقدّم رافعًا رأسي نحوه من الصالة حيث أسرتي حول طاولة الطعام المستديرة، إلى ما بين السريرين في الحجرة مطفأة النور، ثم نسائم البلكونة وسكون الشارع؛ حيث أشرب وآكل ما تبقى من كوب البلح والتين بعد الإفطار على موسيقى فوازير الراديو وكلماتها بصوت (آمال فهمي).. كان الفانوس الكبير فوق البابين المغلقين للبلكونة ذات الطراز الشعبي، الأثري، القادم من العصر الإسلامي يجعل من هذه اللحظة اليومية خلال شهر رمضان سفرًا عبر الزمن.. البصمة الثانية كانت ذلك الطفل الذي كان أكبر مني بقليل، وكان يقف أحيانًا في بلكونة هذه الشقة ويغني بصوت رائع.. لا أتذكر الأغاني التي كان يُمتعني بها، ولكنها لم تكن أغاني أطفال بل كانت أغاني الكبار، وكان يغنيها بصوت مطرب حقيقي ما زال يحمل النبرة الطفولية.. توقف الفانوس عن الإضاءة في رمضان، ولم يعد الطفل يغني في البلكونة بسبب انهيار البيت.. لم أشاهد سقوطه الذي حدث في ظهيرة أحد أيام عام 1984 وتحديدًا في الوقت الذي كان يعرض خلاله التليفزيون

ـ بجوار حجرة (مجدي) ـ مسلسل (هند والدكتور نعمان).. سمعنا صرخات قوية أخرجت الجميع إلى البلكونات، ودفعت بالكثيرين من الشارع نحو الفرن، بينما تجمّع حشد هائل من البشر خارجه، ثم جاءت سيارات الحماية المدنية والمطافئ والإسعاف الذي أخرج رجاله جثة ملفوفة بملاءة بيضاء على نقّالة من داخل الفرن.. كل هذا والبيت أمامي كما هو في حالته العادية.. يقف دون أي رعشة في ثباته بنوافذه المغلقة ذات التصميمات المقاربة للتشكيلات الخارجية للبيوت العتيقة في الأفلام والمسلسلات، التي تدور أحداثها في أزمنة غابرة.. بزخارفه المنحوتة، الشبيهة بالتكوينات المعمارية الشائعة في المساجد.. بجداره الجانبي العريض والمرتفع، المطل على الخرابة وكشك الغاز، الذي كان عبارة عن تكاثف هائل من الكتل البارزة ذات اللون الرمادي الفاتح جدًا، التي تجعله يبدو في عينيّ كأنما تم بناؤه من قطع ضخمة من الفيشار الجاف.. عرفنا أن الذي انهار هو الجدار الخلفي، وأن زوجة الفرّان (أحمد الإنجليزي) كانت في زيارة لأصحاب شقة الدور الثاني (حيث كان يُعلّق فانوس رمضان في بلكونتهم)، وأنها كانت تجلس في تلك اللحظة على كنبة مستندة إلى ذلك الجدار الذي أسقطها معه فوقعت داخل برميل مازوت من براميل الفرن وماتت في الحال.. هي الوحيدة التي ماتت بينما جلس زوجها فوق الرصيف المقابل للفرن أمام محل موبليات (المكاوي) واضعًا رأسه بين يديه، وينظر في الأرض دون دموع أو كلام.. لم يمر وقت طويل حتى جاء جنود الحماية المدنية، وافترشوا بالبطانيات العسكرية الثقيلة الرصيف تحت بلكونتنا تمامًا، أمام عتبة مخزن الحاج (صديق).. ظلوا في هذا المكان فترة طويلة، لا يغادرونه أبدًا، حتى حفظت وجوههم، وعرفت بعضًا من أسمائهم، كما أصبحت أفرّق بين طبائعهم التي جعلتني أميل لتفضيل أحدهم عن الآخر خلال المتابعة الصامتة.. أتذكر أن واحدًا منهم أشار لي ذات يوم

بيده ناحية فمه كإشارة للعطش، ورغبته في زجاجة ماء.. دخلت من البلكونة، وأخبرت أمي التي ـ كعادتها ـ احتارت قليلاً، وبدأت تفكر، ثم ظهر على وجهها التردد وهي تخبر (ماجدة) التي ـ كالعادة أيضًا ـ بدت عليها نفس الحيرة والتردد؛ الأمر الذي أدى بهما للنقاش حول هل أنزل لذلك الجندي بزجاجة الماء أم نتجاهله؟.. كان دائمًا ما يحدث هذا الارتباك المصطبغ بالخوف، والجدال، والتأرجح في اتخاذ القرار تجاه أتفه الأمور وأبسطها.. ربما خشية من رد فعل أبي حين يعرف، وربما لأن ـ وليس هذا سببًا منفصلاً عن الاحتمال الأول ـ ذلك كان أثرًا حتميًا لتشابه ما في تكوينهما النفسي.. في النهاية قررت أمي أن أنزل بزجاجة الماء إلى الجندي وأصعد سريعًا.. بالفعل، شرب الجندي، وشكرني مبتسمًا ثم عدت شاعرًا بأنني قمت بعمل شجاع.. ليس لأنني سقيت عطشانَ، ولا لأن هذا العطشان كان جنديًا يخدم الوطن بحراسة البيت الذي سقط جداره، وإنما لأن اضطراب أمي وأختي قبل نزولي إلى الجندي بزجاجة الماء منحني أيضًا الإحساس المثير بأنني في مهمة محفوفة بالمخاطر.. وقفت في البلكونة متحمسًا لرؤية المزيد من المكافآت.. هل سينظر الجندي لي، ويرفع يده بتحية أخرى وهو مبتسم؟.. هل سيخبر زملاءه عني فيشيرون لي بسلام ودود؟.. هل سيطلب مني الماء مجددًا؟.. رحل الجنود جميعًا ذات يوم، وكان هذا إشارة البدء في هدم البيت القديم.. كان الشعور بالفقد مضاعفًا.

كنت أحيانًا في ليالي السهر الصيفية أجلس في البلكونة أراقب (أحمد الإنجليزي) الفرّان الذي ماتت زوجته مع انهيار البيت.. لا أحد يمشي في الشارع في هذا الوقت المتأخر بينما يجلس وحده تحت ضوء النيون القديم، والشاحب للافتة الفرن العريضة.. كان (أحمد الإنجليزي) هو رئيس الوردية الليلية أغلب الوقت، وكان يتبادل معه هذه المهمة فرّان آخر اسمه (أحمد شعبان).. كان (أحمد الإنجليزي)

قصيرًا ونحيفًا، ويضع نظارة على وجهه ذي العظام البارزة، وكان ظهره المنحني يذكرني دائمًا مع خطوه القصير المتقافز، وصوته المزعج بـ (كوازيمودو) في (أحدب نوتردام).. كنت أراه أحيانًا يأتي إلى الفرن في المساء لاستلام الوردية حاملاً صنّارة طويلة ورفيعة جدًا، يدخل بها إلى الفرن فأستنتج أنه عائد من الصيد، ومع تكرار المشهد أيقنت أنها هوايته الأثيرة.. كان مثل معظم الفرانين، بل ومعظم الذين لديهم انتماءات مختلفة إلى الشارع - يتسم بحدة الطباع وبذاءة اللسان.. لم يكن مسموحًا ببيع الخبز في الليل بعد أن يغلق الفرن شبّاكه إلا للمقربين والمعروفين من داخل المنطقة أو من خارجها.. رأيت ذات ليلة شخصًا يقف بدراجته أمام (أحمد الإنجليزي) الجالس على مقعد فوق رصيف الفرن، ويطلب منه شراء عدد من الأرغفة.. رفض رئيس الوردية بنبرته العدائية والتلقائية أن يبيع له.. حينما بدأ الرجل يتحرّك بدراجته ليبتعد انتبه (أحمد الإنجليزي) إلى الصنّارة التي يحملها فوق الدراجة.. سأله: (انت رايح تصطاد؟)، أجابه الرجل: (أيوه)؛ فأخذ منه النقود، ودخل إلى الفرن، وخرج حاملاً الأرغفة، وأعطاها له.. كنت أتمنى أن أكون مثل (أحمد الإنجليزي).. لم أتمنَّ أبدًا أن أصطاد السمك، بل كنت ـ ولا زلت ـ أتحاشى دومًا تخيل نفسي أفعل ذلك.. كنت أريد أن أعمل في هذه المهنة التي تبقيه ساهرًا في مكان ليس بيته.. أن أمتلك شجاعة الجلوس وحيدًا تحت إضاءة باهتة وغريبة كهذه، منتظرًا مفاجأة غامضة محتملة كل ليلة، ربما تدخرها من أجلي تلك الرهبة الصامتة للشارع الفارغ من البشر.. أن يكون لي هذا الأُنس: أصوات الراديو الممتزجة بثرثرة الفرانين، وحركة الطاولات، والدقيق المتناثر، ورائحة العجين، وسخونة الخبز، والأرقام التي تدوّن تباعًا في الدفتر الكبير الذي كان يبدو في خيالي كأن (أحمد الإنجليزي) يسجّل في أوراقه بيانات أعضاء جماعة سرية وخططهم، وليس حسابات الفرن.

كان (علي فريد) من ضمن الأولاد المؤدبين.. كان أبواه مطلقين، وكان يعيش مع جدته (أم أبيه) في منطقة (ميت حدر) وحدهما.. كانت جدته صديقة لأمي، أما هو فكان صامتًا أغلب الوقت، خفيض الصوت حين يتكلم، في عينيه حزن تائه مكتوم، وعلى ملامحه مسحة من حيرة جامدة.. كان انطوائيًا بدرجة كبيرة، ولكنه بتدرج ثقيل كان يحاول بناء صداقات مع التلاميذ الآخرين مثلي و(وليد بدير)، و(محمد روّاش)، و(مصباح)، و(أحمد شلبي)، و(تامر بهجت)، و(مجاهد)، و(أحمد حسن).. كان يحاول بارتباك مهموم المشاركة في الحوارات، والدعابات، وألعاب الفناء المختلفة.. ذات يوم كنا داخل الفصل في أثناء الفسحة.. ربما كان العام الدراسي قد اقترب من نهايته، وربما كان هذا ما جعل (أبلة خلود) معلمة اللغة العربية تجبرنا أحيانًا على عدم الخروج للفناء حينما تسبق حصتها الفسحة؛ كي تواصل تدريس المقرر.. كانت تقول فور سماعنا لصوت الجرس، وصخب تلاميذ الفصول الأخرى الهادر نحو الفناء: (إللي معاه ساندونش يطلّع ياكله، وإللي عايز يروح يشتري حاجة من الكانتين يقول، ويروح وييجي بسرعة، وإللي عايز يروح الحمام يقول).. ثم تُخرِج الترمس الكبير بلونه البرتقالي، وزخارفه البيضاء من حقيبتها القماشية السميكة والواسعة، بمربعاتها الكاروهات السوداء والنبيتي، واليدين الخشبيتين؛ لتصب منه الشاي بلونه البني الداكن في كوب التُرمس الذي لم تمتد الزخارف إليه؛ فيتحرر الدخان داخل الهواء البارد للفصل، وأستنشق رائحة القرنفل التي تحملها الخطوط البيضاء الراقصة، متذوقًا نكهته في صوت ارتشاف (أبلة خلود)، وصوت ابتلاعها المتلذذ لسخونته.. كنا نختنق غضبًا طوال الفسحة، وكانت المرارة تذيب أرواحنا الصغيرة مع تصاعد ضوضاء الحرية التي ينعم بها التلاميذ الآخرون.. كانت (أبلة خلود) تفطن إلى هذا التعذيب؛ فتأمر الجالسين بجوار النوافذ المطلة على

الفناء بإغلاقها، ولكنه هذا لم يكن سوى حماية فاشلة.. لا أدري ما الذي جعلني في هذا اليوم أنظر خلفي، وأحدّق في (علي فريد).. كان يجلس في الصف الأول المجاور لباب الفصل، وداخل دكة وراء التي أجلس عليها في الصف الأوسط مسافة دكتين.. ربما كان الضيق والملل بسبب هذا الاعتقال، ولكنني لا أصدق حتى الآن أن الأمر كان مجرد صدفة جعلتني دون سبب أنظر خلفي نحو (علي) الذي كان يجلس بصورة طبيعية، فاتحًا كتاب القراءة أمامه، ويتابع شرح (أبلة خلود) ثم بدأت مريلته تبتل فجأة.. بلل ظهر أولاً في نقطة صغيرة بين فخذيه ثم انتشر على الفور لأعلى ولأسفل؛ ليغرق النصف السفلي من المريلة تمامًا.. كان وجه (علي) في تلك اللحظة يبدو كأن شخصا آخر هو الذي تبوّل على نفسه.. نفس الحزن التائه المكتوم في عينيه، ونفس مسحة الحيرة الجامدة على ملامحه.. ظل جالسًا في مكانه حينما رأت (أبلة خلود) المشهد.. لا أتذكر هل رأته بنفسها أم أنني الذي أخبرتها.. على أي حال لو كنت أنا الذي فعلت هذا فبالتأكيد كان شعوري لحظتها هو الصدمة.. ليس انتهاز هدية كريمة من القدر لإثبات مهارة شخصية في الملاحظة والفضح دون شفقة، أو للتهكم على ولد يعاني الآن واحدة من أحقر المآسي التي يمكن أن تحطم أي إنسان؛ بل لأنني شعرت أن (علي) في مأزق شرس، لا ينفع مع قسوته إلا تدخّل (أبلة خلود).. الأطفال ـ مثلي ـ يفعلون هذا.. ينادون على الكبار فورًا عندما يواجهون خطرًا أو مشكلة يعتبرونها أعظم من قدرتهم على التصرف.. ربما قلت: (إلحقي يا أبلة "علي" عملها على نفسه)، أو ربما قلت كلمات أخرى، ولكنني كنت في منطقة ما بين الذهول والفزع.. هذا لو لم تكن (أبلة خلود) قد رأت بنفسها.. (أبلة خلود) التي زعقت في (علي) قائلة: (تعال هنا).. نهض (علي)، وترك الدكة، ومشى خطوات صغيرة نحو المنطقة الواسعة التي تفصل السبورة عن الدكك الأمامية حيث تجلس (أبلة خلود) في

المنتصف.. لم يحاول إخفاء النصف السفلي من المريلة، أو الجزء العلوي من البنطلون بل وقف أمامها كما نراه دائمًا ويداه بجواره.. كان (علي) تقريبًا أطول ولد في الفصل، وكان هذا يفاقم الأسى.. صاحت (أبلة خلود) في وجهه بحدة هائلة: (أنا مش قلت إللي عايز يروح الحمام يقولي.. روح لم حاجتك وهات شنطتك).. كانت ثائرة للغاية، وبدت عصبيتها الشديدة كأنها دفاع عن نفسها أكثر مما هو توبيخ لـ (علي).. التبروء من مسؤليتها عن هذه المأساة، في الوقت الذي تفكر خلاله بداخلها أن احتجازها لنا في الفسحة هو ما تسبب في تبوّل (علي) على نفسه، حيث اتضح الآن بما لا يدع مجالاً للشك أنه واحد من الأولاد الذين يحكمهم خجل أقوى من طلب الذهاب إلى الحمام، وهو ما كان يعني بشكل أو بآخر أنها المذنبة في هذه القضية.. إن اهتمامها بالارتقاء بالمستوى العلمي للتلاميذ، وبإنهاء المقرر قبل الامتحانات، الذي جعلها تحبس التلاميذ في الفصل في أثناء الفسحة - كان يعميها عن فهم النفوس المختلفة للأطفال، وإدراك تباين معاناتهم، والوقوف على ما في وسع كل منهم أن يفعله، وما ليس في استطاعته.. كان جليًا أن (علي) لن يطلب الذهاب إلى الحمام طالما أن أحدًا من التلاميذ لم يطلب ذلك، وأن (أبلة خلود) ـ وفقًا لتاريخه داخل الفصل الذي كان يتعيّن عليها اكتشافه ـ كان يجب أن تستدعيه فور سماع الجرس، وأن تسأله في أذنه إن كان يريد قضاء حاجته أم لا، أو على الأقل تتوقف عن الشرح دقائق قليلة لتفتح الباب، تاركةً من يريد الذهاب للحمام أو الكانتين أن يفعل هذا وحده دون سؤالها ثم يعود سريعًا.. بدا من تشنّج ملامحها النحيفة، وانفعال صوتها أن بول (علي) لم ينهمر داخل بنطلونه ومريلته فحسب، وإنما انسكب أيضًا فوق يقينها عن نفسها كمعلمة مثالية، بلغ تفانيها حد أن تستمر في التدريس للتلاميذ حتى في أثناء الفسحة كي تضمن نجاحهم.. بالطبع كان معظم التلاميذ

يضحكون.. من لم يضحك اكتفى بابتسامة ظلت منحوتة في وجهه، و(علي) يتوجّه إلى الدكة، ويجمع أغراضه، ويضعها في حقيبته ويحملها، ويعود للوقوف أمام (أبلة خلود).. كنت من ضمن الذين ابتسموا فقط، ولم يكن هذا سخرية من (علي)، وإنما لأن تقييم الموقف في ذهني تحوّل من الصدمة إلى الكوميديا.. أصبح ما حدث يتصف في عقلي بأنه أفظع المواقف المحرجة التي لا تُدين ضحيتها.. كان تفكيري مسالمًا مثل طباعي لأبعد الحدود.. لاحظت أن مساحة البلل في مريلة (علي) وبنطلونه قد زادت حينما عاد ليقف للمرة الثانية أمام (أبلة خلود).. كأنه استمر في التبوّل في أثناء جمع أغراضه وإحضار حقيبته.. بصوت أخفت، وبلهجة أهدأ لم تتخلّص بالطبع من غضبها قالت (أبلة خلود) له: (اتفضّل ارجع البيت عشان تتشطف وتغيّر هدومك).. ابتسم (علي).. للمرة الأولى يُصدر انطباعًا مغايرًا عن حالته التقليدية منذ بداية الحدث.. ابتسامة تدمج الألم والاضطراب والاعتذار، والرغبة في الهروب بعيدًا عن هذا المكان وهذه اللحظة.. كان في ابتسامته كذلك عدم استيعاب؛ هل يعود إلى المدرسة بعد الاغتسال وتغيير الملابس أم يبقى في البيت.. كان مع ابتسامته هذه يهز حقيبة المدرسة في يده بحركة ضعيفة للأمام والخلف.. كأن تلك الهزة الشاحبة كانت كل ما يقدر عليه لتمرير رجائه الصامت للجميع أن ينسوا هذا المشهد.. رجائه أن يتبدد من أمامهم.. الرعب البالغ في قلبه جعل من ابتسامته المقترنة بهز الحقيبة كأنها أقصى محاولات التنكر.. كأنها استعداد للذهاب إلى رحلة مشوّقة، وليست دليلاً على جحيم سيكتمل بإذلال جديد أمام جدته حادة الطباع عندما يعود إلى البيت.. خرج (علي) من الفصل، وعادت (أبلة خلود) لاستكمال الحصة الممتدة داخل الفسحة، بينما تقييم الموقف في داخلي يتحوّل من الكوميديا إلى السرور.. لم أكن سعيدًا لأن (علي) تبوّل على نفسه، وإنما لأن ولدًا مؤدبًا آخر تعرّض أمام الآخرين لمهانة

عظمى لم أحصل عليها رغم خبرتي الكبيرة في هذا التخصص من الحياة.. شعرت أيضًا أنني لم أعرف (علي) من قبل.. إن كل ما أعلمه عن شخصيته ليس إلا قشورًا واهية.. إن صمته، وصوته الخفيض، وحزنه التائه المكتوم، وحيرته الجامدة، وانطواءه، وخجله - أكثر وحشية مما كنت أتصوّر.. لكن الشعور الأقوى كان عدم التصديق.. نعم.. (علي فريد) هو الذي تبوّل على نفسه أمام الجميع، وهو الذي تعرّض للومٍ عنيف من (أبلة خلود)، وهو الذي ترك الفصل بملابس ملوثة، وعار سخي، وتوسّل أخرس لعدم العودة.. لكنني أشك في هذا.. لم يكن ذلك صحيحًا أو أن هناك خطأً ما.. هذه المسخرة كان يجب أن تصيبني أنا.. هي تليق بي أكثر فكيف أخطأتني، أو كيف نجحت في تفاديها دون أن أدري؟.

في إحدى الفسح، وبينما كنت أنا و(علي) وبعض التلاميذ المسالمين الآخرين نلعب ونجري وراء بعضنا؛ تعثّر (علي)، وسقط على أرض الفناء.. كان يحمل ساندوتش فينو (لانشون) حينما انكفأ على وجهه بقامته الطويلة، وبـ (آه) لم يسمح لها الطعام في فمه بالانبعاث الكامل فخرجت مكتومة؛ لتتمرغ مع جسده في التراب.. نهض بيننا متألمًا ثم توقف عن التوجّع فجأة حينما اكتشف أن إحدى ساقي بنطلونه قد شُقت بالطول من الداخل بدءًا من مفرق الفخذ حتى الكعب.. هذه المرة ضحكت.. ضحكت بقوة، ولم أستطع أن أمسك نفسي.. هذا الولد ليس طبيعيًا.. كأنه منذور للمآسي العجيبة، التي لا تحدث لأحد غيره.. كيف قُطع البنطلون بهذا الشكل الغريب؟.. كيف تسبب هذا الوقوع العادي الذي نتعرّض له جميعًا في قطع البنطلون بهذه الكيفية التي لا نراها إلا في كوميديا التليفزيون؟.. هو أيضًا لم يفهم.. ظل مذهولاً وهو يمشي ببطء متألم، يحاول إخفاء رجله المكشوفة من الشق العظيم، ونحن نحاوطه ونسنده، ونسير به من منتصف الفناء إلى السلالم ثم

الردهة، وندخله الفصل لنجلسه في دكته التي لم يغادرها بقية الفسحة، وما تبقى من حصص.. كان قد غيرّ مكانه في الفصل منذ فترة، وأصبح موقعه خلفي بجوار (أحمد حسن) الذي حاول معنا أن يطيّب خاطره، لكن (علي) كان يبدو أنه سيبكي في أي لحظة.. ليس بسبب الوقوع الذي ترك كدمة دموية في ركبته، ولا بسبب البنطلون المقطوع بل بسبب جدته.. كان لا يعرف كيف سيجتاز المسافة الفاصلة بين بوابة المدرسة وبوابة منزله، التي تحتّم عليه أن يعبر إلى الصف الآخر حيث محل (صدقي) الكبابجي، ثم يمشي خطوات قليلة يمر بها على مطعم (رستوران داندي) قبل أن يعبر مرة أخرى نحو الشارع الجانبي، الفارغ تقريبًا من المحلات، ولا يمشي بداخله بشر كثيرون ليصل إلى البيت.. كان هذا الحيز الصغير المزدحم من (ميت حدر)، الذي يتعيّن عليه تخطيه بمثابة حقل ألغام شاسع، لكن (أحمد حسن) عرض عليه أن ينتظر في المدرسة بعد نهاية اليوم الدراسي؛ ريثما يذهب هو إلى بيته المجاور لمطعم (رستوران داندي)، ويحضر بنطلونًا له كي يرتديه، ويعود به إلى المنزل.. اقترح أيضًا أن يأتي (علي) معه إلى البيت، ويرتدي البنطلون عنده، أو أن تُرتّق أم (أحمد حسن) شق بنطلونه المقطوع قبل رجوعه إلى منزله.. لكن كان من الواضح أن الأزمة الأساسية تتمثّل في جدة (علي) التي كنا نعرف أنها عجوز قاسية ـ آكلة أطفال بتعبير (باسكال روز) في رواية (الصائد صفر) ـ وأنها ستعاقبه بلا رحمة، سواء عاد ببنطلونه المقطوع، أو ببنطلون تلميذ آخر، أو لو اكتشفت الرتق في بنطلونه، أو لو تأخر عن العودة.. لم نكن نعلم ما هو ذلك العقاب تحديدًا.. خرج (علي) مع (أحمد حسن)، وأعتقد أنهما توجها لبيت الأخير، وفي اليوم التالي جاء (علي) إلى المدرسة بأعضاء كاملة، ولكن كان يبدو على وجهه أن جدته قد التهمت وجبة الأمس من مكان آخر، غير منظور.. لم يَحْكِ لنا، ونحن لم نسأله.

من الوقائع الغريبة التي حدثت داخل المدرسة دخول شاب عشريني، لا يعرفه أحد عبر البوابة، وصعوده في أثناء الفسحة إلى الطابق الذي يوجد به فصلي، ثم إمساكه بـ (أحمد حافظ) وضربه عند السلالم.. ليس ضربًا عاديًا.. كان طحنًا بالمعنى الدقيق للفعل.. صفعات ولكمات وركلات في جميع أجزاء الجسمـ بعنف وحشي لم أرَ مثيلاً له حتى في أفلام الأكشن، خاصة عندما كان يرفع جسده الصغير، الممتلئ قليلاً في الهواء ثم يقذفه بمنتهى القوة في الأرض، ثم يحمله من جديد ويرفعه؛ ليعيد قذفه المرة تلو الأخرى، وكان صوت ارتطام (أحمد حافظ) بالأرض يشبه الانفجارات المتتابعة، أو الانهيارات المتوالية لأسقف ثقيلة.. حدث كل هذا بسرعة جهنمية، في زمن لم يتجاوز الدقائق الثلاث تقريبًا، لم يظهر خلالها أي معلم أو معلمة أو أحد من الموظفين.. التلاميذ فقط هم الذين وقفوا متسمرين بهلع، يشاهدون الافتراس المفاجئ لزميلهم على يد هذا الشاب الغريب، الذي ترك (أحمد حافظ) محطمًا ومرتميًا على الأرض، بينما الدماء تسيل من وجهه وجسمه ثم نزل السلالم، وغادر المدرسة دون أن يستوقفه أحد.. لا أتذكر ما الذي حدث لـ (أحمد حافظ) بعد هذه اللحظات القاتلة، أو ردود أفعال (الكبار) داخل المدرسة، ولكننا عرفنا في نفس اليوم أن هذا الشاب هو شقيق (أحمد حافظ)، الذي ظل يأتي إلى المدرسة بتورمات وجروح مختلفة في رأسه ووجهه، وبرباط حول ذراعه الأيمن، وبقدرة ضعيفة على المشي كانت تتحسن ببطء.. في أحد الأيام، كان (أحمد حافظ) قد شفي تمامًا من آثار تلك المجزرة، عندما دخلت (أبلة خلود) الفصل ثم طلبت منه أن يقف، وقالت له: (البقية في حياتك يا أحمد).. بكى (أحمد) ثم جلس محاولاً تجفيف دموعه بيديه، وانكسرت دهشتنا حينما علمنا أن شقيق (أحمد حافظ) الذي طحن جسده من قبل قد مات أمس نتيجة الصعق بينما كان يُصلح ثلاجة منزلهم.. لم يخبر (أحمد) أي أحد طوال اليوم

بهذه المعلومة التي لم تظهر على وجهه أي إشارة لها، لكن بكاءه بعد الكلمات المواسية لـ (أبلة خلود) كان غريبًا بالنسبة لي.. فعْلٌ لم أفهمه.. كيف يبكي على موت أخيه الذي سبق أن افترسه بهذه البشاعة التي رأيناها؟.. فكرت أن بكاءه ليس حقيقيًا، أو أنه ناتج عن مجرد شعور هزيل بالفقد لن يبقى طويلاً، حتى ينتهي تمامًا سيظل يتلاشى بمجرد أن يطفو داخل روحه.. ستبتلعه على الفور تلك الذكرى التي بالتأكيد تملأه كليًا بسوادها الثقيل.. قلت في نفسي إن (أحمد حافظ) ربما لا يبكي على موت أخيه كما يتصور الجميع، بل يبدو أن موت أخيه قد سمح له أخيرًا أن يبكي كما كان ينبغي على كافة الآلام والجروح التي تركها أخوه في جسده.

كانت هناك معلمة اسمها (أبلة عايدة).. أتذكر أنها لم تعمل في مدرسة (ميت حدر) سوى فترة قصيرة جدًا، وأنها لم تدرّس لي أبدًا.. لم أكن أعرف المادة التي تدرّسها في الأساس، بل إنني ـ للحق ـ غير متأكد إذا كانت معلمة بالفعل أم موظفة؛ سكرتيرة أو أخصائية اجتماعية مثلاً.. على أي حال نحن الأطفال كنا ننادي الجميع بـ (أبلة) و(أستاذ).. لم تكن ترتدي البونيه المنتشر فوق رؤوس السيدات في ذلك الزمن، ولم تكن تترك شعرها مكشوفًا كما كان معتادًا أيضًا، بل كانت تغطيه بإيشارب يُربط طرفاه خلف رأسها بالطريقة التي كنت أظنها تشيع داخل البيوت وليس خارجها.. كانت بيضاء وجميلة، وكانت تربطها علاقة قوية بأمي.. ربما كانت قادمة من سفر، وربما أنهت أيامها القليلة في مدرسة (ميت حدر) بالسفر مجددًا، أو بالانتقال إلى مدرسة أخرى.. (أبلة عايدة) كانت حزينة طوال الوقت، وتبكي دائمًا، وكانت أمي وجميع المعلمات والمعلمين يواسونها.. كانت مطلقة.. لم أكن أعرف ماذا يعني ذلك سوى أنه شيء سيئ للغاية.. ربما كان مرضًا عضويًا يصيب أحد الأبوين، فيؤدي إلى انفصاله عن الأسرة.. هكذا كنت أتصور الأمور أحيانًا، بل

ربما في معظم الأحيان.. ربما كان مرضًا مُعديًا بين الزوجين، وربما كان علة نفسية أو عقلية تصيب الوالدين معًا في نفس الوقت، ويمكن أن تمتد إلى أبنائهما أيضًا بشكل مبهم.. ارتبطت صورة (أبلة عايدة) في وعيي ببكائها الذي لا ينقطع؛ فنادرًا ما كنت أذهب لأمي في حجرة المعلمات، أو أمر بالصدفة أمام هذه الحجرة، وأنظر بداخلها دون أن أرى دموع (أبلة عايدة)، المحاطة بكلمات الإشفاق، ونظرات العزاء، وبالأيدي التي تربت على انكسارها.. كان لها ابن اسمه (أحمد) في نفس عمري، أو أكبر مني بقليل.. كان طويل القامة، ويمتلك بياض أمه الرقيق، وملامحها التعيسة.. كان له كذلك شعر بني قصير ومجعّد، كما كان قليل الكلام، وصوته حزين وخافت.. كان ما حدث بين أبويه مستقرًا طوال الوقت في عينيه المهمومتين، الحائرتين، وفي الابتسامة الغائبة دائمًا عن وجهه.. لم ينضم هذا الولد إلى مدرستنا، ولم أكن أعلم ما المدرسة التي ينتمي إليها، فقط كان يأتي مع أمه بملابس الخروج التقليدية، ويظل جالسًا بجوارها في حجرة المعلمات، أو يخرج ليلعب ـ يتمشّى برأسٍ منكّس بمعنى أدق ـ وحده في الفناء عندما يكون جميع التلاميذ في الفصول.. أتذكر أيضًا أنني كنت أقابله خلال الأيام القليلة التي كانت تأخذني أمي فيها إلى مدرسة (ميت حدر) بالإجازة الصيفية، وهي الأيام التي كانت تُعقد خلالها اجتماعات أو لقاءات بين أعضاء هيئة التدريس قبل العام الدراسي.. تكون المدرسة خالية تمامًا من التلاميذ حينئذ، وبينما تجلس أمي مع زميلاتها في حجرة المعلمات كنت أتجوّل وحدي بين الفصول والردهات وداخل الفناء كأنني اكتشف مكانًا غريبًا لم يسبق لي دخوله.. كانت أمي تطلب مني أن أكون صديقًا لـ (أحمد)، وأن أشاركه اللعب في الفناء برغبة تتخطى إرادتها العادية في أن أُصاحب أبناء صديقاتها وأقاربهن.. كانت تريدني أن أكون سببًا لتخفيف ما يثقل صدر الطفل المغموم طوال الوقت، وأن أشغل ذهنه

بشكل أو بآخر عن طلاق أبويه؛ لأعيد إلى قلبه البهجة.. أظن أنني كنت أمتلك الوعي الكافي لفهم هذه الضرورة.. ستحاول أن تلعب مع هذا الطفل، مثلما تفعل مع أي ولد آخر من الفصل مثلاً، ولكن هذه المرة يتعيّن عليك الانتباه إلى أن يؤدي هذا لإسعاده.. أن تحرص على أن يكون مستمتعًا.. أن يضحك، ويفوز، وألا يشعر بالملل.. أن تراقب هذا جيدًا في أثناء اللعب أكثر من انشغالك بنفسك.. لكنني عندما حاولت هذا اكتشفت أنه وعاء بارد، فائض باللزوجة.. لم يكن مؤذيًا على المستوى الجسدي، ولم يكن لسانه بذيئًا، وإنما كان دمه ثقيلاً كأحجارٍ صُلبة، تتدافع بانسيابية عدائية مع صوته الحزين الخافت، ودون رعشة في ملامحه التعيسة، أو في عينيه المهمومتين.. لا أتذكر أي كلمة من حواراتنا القصيرة المقتضبة في الفناء، ولكنني أتذكر جيدًا أنه كان من ذلك النوع من الأطفال الذين يتعمدون الاستسخاف ضد أقرانهم في كل مرة يفتحون فيها أفواههم للتحدُّث.. مبرمجين على الإغاظة والتهكم بوجه صُلب، وكفاءة لا تتعطل.. كان هذا يبدو كأنه الطريقة الوحيدة التي يعرفها (أحمد) ابن (أبلة عايدة) للتعامل مع الأطفال الآخرين.. طريقته الوحيدة للانتقام من طلاق أبويه.. كالعادة لم أَحْكِ شيئًا لأمي، وإنما اكتفيت بالتهرّب من الخروج معه للفناء كلما طلبت مني ذلك.. لكن كانت هناك مشكلة أكبر تسمى (ريهام)..

كانت (ريهام) ابنة أخت (أبلة خلود)، وكانت تلميذة منقولة إلى المدرسة، وكانت أصغر مني.. كانت أمي و(أبلة خلود) حريصتين على أن أكون أنا و(ريهام) صديقين، وكنت سعيدًا بهذا.. لم تكن من النوع المرح، المتكلّم، وكانت خجولة أغلب الوقت، ولكنها كانت جميلة، ورقيقة، وبيضاء، وهادئة، ومسالمة، وصوتها غير مسموع، ولديها غمّازتان في خديها الممتلئين، وضفائر، وكرات ملونة، ومشابك صغيرة في شعرها.. كنا نتقابل في الفناء، ونتحدث ونضحك ونجري ونلعب، وكنا نمشي

يوميًا أنا وهي من المدرسة بعد انتهاء اليوم الدراسي حتى بيتي الذي يبعد خطوات قليلة، ثم أودّعها لتواصل هي السير نحو منزلها.. كانت أمي و(أبلة خلود) يتحدثان عن تزويجنا في المستقبل، وكنت أحبها فعلاً بكامل طفولتي، ثم رأيت (أحمد) ابن (أبلة عايدة) يقف مع (ريهام) ذات يوم في الفناء.. كانا يتحدثان ويضحكان، ولم تمر لحظات قليلة حتى عاد (أحمد) إلى أمه في حجرة المعلمات، وعادت (ريهام) إلى فصلها وأنا أراقبهما.. لم أعرف ترتيبات هذا اللقاء.. هل كان صدفة؟.. كيف تتكلم (ريهام) إذن مع ولد لا تعرفه؟.. هل سبق أن تعرّفت عليه في وقت سابق دون أن أدري؟.. هل طلبت (أبلة خلود) من (ريهام) أن تكون صديقة له حتى تخفف هي الأخرى ما يثقل صدره المغموم، وأن تشغل ذهنه عن طلاق أبويه لتعيد إلى قلبه البهجة؟.. في ذلك اليوم سألت (ريهام) في أثناء الخطوات المعتادة من المدرسة إلى بيتي عما كان يدور بينها وبين (أحمد) في أثناء وقوفهما معًا في الفناء.. ابتسمت بخجلها الثابت، وقالت لي باقتضاب ناعم: (مفيش).. كأن (أحمد) هو الذي ابتسم، وكأنه هو الذي رد على سؤالي بهذه الكلمة التي أصبحت أكثر كلمات اللغة سفالة.. كأنه هو الذي ألقى بعينيه قنبلة خفية إلى رأسي، ظللت أيامًا طويلة أشعر بدقاتها التنازلية المقبضة، مترقبًا انفجارها المؤكد.. حسنًا.. لقد تحوّل ابن المطلقة إلى نسمة حنونة مع (ريهام)، وهذا سيجعلها مع الشفقة الحتمية تجاه مأساته تميل إليه، وتتعلّق به.. وعاء اللزوجة المبخوت، الذي أهداه طلاق أبويه السحر الغامض للكآبة في ملامحه وصوته.. ثقيل الدم الذي لن يتنازل عن قلة الكلمات، وغياب الابتسامة في اللحظات المناسبة داخل الأحاديث الطويلة، والضحكات القوية بينه وبين زوجتي القادمة حيث يكمن الإبهار.. قارنت نفسي به.. أنا لا أمتلك كل هذه المعجزات.. هكذا بدأت أفكر مثل (بطوط) وهو يحترق بالغيرة من (محظوظ) في صراعهما

غير المتكافئ للفوز بقلب (زيزي).. أنا حتى لا أمتلك ما يحظى به الأطفال الآخرون الذين ينقصهم هذا السحر.. (ريهام) تعرف هذا جيدًا بالطبع.. تصورت أن (أبلة خلود) ستتخلى عن اتفاقها مع أمي، وتتعاهد هي و(أبلة عايدة) على تزويج (ريهام) من ابنها؛ لتُسعِد الولد المكلوم والأم المفجوعة.. تخيلت لو أن والديّ تطلقا.. أن يصيب أبي هذا المرض العضوي أو النفسي فينفصل عنا.. هل يمكن أن يعطيني هذا قامة أطول، وملامح تعيسة، وصوتًا حزينًا خافتًا، وعينين مهمومتين وحائرتين؟.. هل يمكنني أن أصبح قليل الكلام، ولا أبتسم أبدًا، وأن أكون في نفس الوقت مسليًا ومضحكًا لـ (ريهام) دون أن يتطلّق أمي وأبي؟.. كنت خائفًا في تفكيري من خطورة الطلاق على أمي، وإخوتي وأبي، وعلى نفسي بالتأكيد.. لم أكن أتمنى أن تصيبنا هذه الكارثة.. بدأت أفكر في أن (أبلة عايدة) جميلة بالفعل.. استرجعت كل المشاهد التي رأيت فيها بياض وجهها الباكي، وشعرت بأنني أريد أن أتزوجها.. إن جمالها الممتلئ بالدموع يستحق أن أعوّضها عن كل هذه الآلام.. انتهى كل شيء فجأة.. تركت (أبلة عايدة) المدرسة، واختفى ابنها (أحمد) من الحياة معها، وظللت أنا و(ريهام) كما كنا دون أدنى تطور في علاقتنا، حتى انتهت دراستي الابتدائية، ولم أَرَها بعد ذلك أبدًا.

في أحد أيام مولد النبي؛ كانت هناك (حلاوة المولد) في بيتنا صباحًا، وأتصوّر أن العلبة الكارتونية التي تحوي السمسمية والفولية والحمصية والملبن... إلخ كان يوجد بها كمية قليلة تمثّل آخر ما تبقى منها، وكانت غالبًا مقتصرة على السمسمية فقط.. تم تقسيم هذه الكمية علينا، فأصبح في أيدينا أنا وأمي وأختي ـ لا أتذكر وجود أبي أو أي من أخويّ في هذه اللحظة كما أستبعد جدتي بسبب حالة أسنانها وضروسها، ولكن المؤكد أنه كان هناك آخرون أيضًا؛ لذا سأعطي احتمالاً قويًا لوجود أبناء خالي ـ كانت بين أصابع كل منا قطعة واحدة، صغيرة

الحجم.. انتهيت سريعًا من قطعتي، ثم وجدت نفسي أمد يدي نحو يد أمي وهي واقفة أمام التليفزيون لتتابع أحد الأفلام العربية، وآخذ من بين أصابعها ما تبقى من قطعة السمسمية التي كانت تأكل منها.. لبرهة متناهية الضآلة تمسّكت يد أمي بالقطعة الصغيرة المتبقية قبل أن تتركها لي.. لحظة خاطفة للغاية لم تستغرق بالتأكيد سوى أقل من ثانية، لكنني شعرت بها تمامًا.. شعرت بأصابع أمي تقول لي: (دي بتاعتي، وانت أخدت نصيبك.. ومعدش فيه باقي في العلبة من الحلاوة دي، إللي بحبها أوي، بس لازم أسيبهالك).

عندما انتهيت من قطعة السمسمية الصغيرة الخاصة بي لم أشعر بالاستكفاء؛ فمددت يدي بعفوية لآخذ ما تبقى من قطعة أمي التي كانت لا تزال تقضم منها.. لكنها لم تكن عفوية كاملة.. ربما كان فيها شيء من التردد أو عدم الارتياح، أو لنقل الشعور الغامض بأن هناك خطأً ما.. كأنه في المسافة المحدودة للغاية التي تحركت يدي خلالها نحو يد أمي، وفي الوقت القصير الذي استغرقته هذه الحركة كنت أمد اختبارًا غير معلن من الاستفهامات التي كشفت عن حضورها فجأة داخل نفسي: هل يحق لي أن آخذ ما تبقى من قطعة أحد آخر بعدما انتهيت من قطعتي؟.. هل يحق لي أن آخذها من أمي؟.. هل قطعتها ملكًا لي ـ لأنها أمي ـ وبالتالي فإن أخذي لها سيعد استكمالاً للحصول على نصيبي من الحلوى، وليس اعتداءً على نصيب أحد آخر؟.. هل كان الإدراك السري الهزيل، والمفاجئ لعدم الحسم سببًا في مد يدي لأخذ ما تبقى من القطعة التي بين أصابع أمي، وعدم طلبها أولاً؟.. ربما كان انتزاعها بنفسي يعد طريقة ضمنية لتحقيق جميع الأهداف دفعة واحدة: أن أثبت لذاتي ـ بواسطة الأمر الواقع ـ أنه يحق لي أخذ ما تبقى من قطعة الحلوى؛ لأن الشخص الذي يُمسك بها ليس أي أحد؛ إنها أمي ببساطة.. أن أتفادى رفضًا قد يكون احتمال حدوثه ضعيفًا أو

مستبعدًا، ولكنه سيكون قاسيًا بشكل لا يمكن تصديقه أو تحمّله لو كان هو الإجابة التي سأتلقاها من أمي.. أن أحصل على آخر ما يوجد من الحلوى التي أتمناها، بعد أن صارت العلبة فارغة تمامًا.. لكن البرهة متناهية الضآلة التي تمسّكت فيها يد أمي بالقطعة الصغيرة المتبقية أخبرتني على نحو قاطع، وبالغ الألم أنني بالتأكيد قمت بتصرف سيئ.. لم يكن الشعور بالإثم راجعًا للخطأ الذي توقعته؛ إذ كان بعيدًا تمامًا عن موضوع الأنصبة والحقوق، والممنوع والمسموح للابن في علاقته بأمه.. خلال هذه اللحظة الخاطفة للغاية، التي لم تستغرق بالتأكيد سوى أقل من ثانية، والتي لم تُبعد خلالها أمي عينيها عن شاشة التليفزيون، ودون أي تغير في انطباع وجهها الذي يبدو على ملامحه التركيز مع أحداث الفيلم وهي لا تزال تمضغ الحلوى؛ خلال هذه اللحظة أدركت ضعفها كما لم أفعل من قبل.. أصابني يقين موجع في أعماقي بأنها طفلة مسكينة، وأن البرهة متناهية الضآلة التي تمسّكت فيها يد أمي بالقطعة الصغيرة المتبقية من الحلوى كانت صراعًا مباغتًا، تلاشى كفقاعة واهنة فور انبعاثه بين هذه الطفلة المتلذذة بطعم (السمسمية) في فمها، المبتهجة باطمئنان سري؛ لأنه مازال في يدها آخر ما تبقى من هذه الحلوى، والأم التي لا بد أن تمنح طفلها دون تفكير هذه القطعة الصغيرة، حتى لو كانت تخصها، وحتى لو كانت تشتهيها.. كان هذا هو الخطأ الذي عرفت أنني ارتكبته، وكانت هذه المعرفة سببًا في رجفة نفسية أثقلت يدي وهي تتحرك بقطعة السمسمية من يد أمي إلى ما بين شفتيّ.. كانت دافعًا لوجوم مشوّش، توغل من وجهي إلى صدري؛ ليحفر جرحًا فوريًا غير منتظر من الشفقة، جعل القطعة الصغيرة بلا طعم في فمي، فضلاً عن أن هذا الجرح سيزداد اتساعًا وعمقًا عبر الزمن.. كان تصرفي السيئ لا يكمن في انتزاعي للقطعة الصغيرة المتبقية من يد أمي بقدر ما كان نابعًا من الإيمان البديهي،

المفروغ منه، الذي لا يتطلب أي قدر من المراجعة أو التفكير بأن أمي ليست سوى كائن مخصص للعطاء.. إنها ليست مثلنا؛ فهي لا تحمل رجاءً شخصيًا في الحياة، بل تتركز كافة أمنياتها على الأحلام التي يمكن أن تحقق لأسرتها السعادة.. كيف يمكن لأمي أن تكون منفصلة عني أنا، طفلها الصغير، الذي لا تعيش إلا من أجله، وكيف يكون لديها رغبة مستقلة في شيء يتعلق بها كفرد يشتهي ويتلذذ، ويريد الاحتفاظ بذلك الشيء الذي تتوق نفسه إليه؟.. ربما فكرت في منتصف الطريق القصير جدًا الذي يفصل بين يد أمي وشفتيّ أن أتوقف وأعيد إليها قطعة السمسمية.. ربما ومضت هذه الحاجة إلى التراجع في روحي، ثم انطفئت كضوء باهت تبدد خفوته سريعًا، كأنه لم يكن خلال هذه اللحظة قبل أن أضع القطعة الصغيرة في فمي.. يبدو أنني كنت أستوعب بطريقة ما أن إعادتي قطعة السمسمية لأمي ـ مهما كانت الحُجّة التي سأستخدمها في التبرير ـ ستفضح إدراكي لضعفها.. إن التراجع سيكشف عن الشفقة التي شعرت بها حينئذ، وكان هذا بمثابة ألم أزيد بالنسبة لكلينا.. كان تصور أن تشعر أمي بإدراكي لضعفها يمثل هاجسًا مرعبًا بالنسبة لي.. كان طريقة لمضاعفة إذلالها، بعد أن حُرمت مما تبقى من قطعة السمسمية.. بالتأكيد لم أكن قد قرأت (حذار من الشفقة) لـ (ستيفان زفايج)، ولكنني أعتقد أن هذه القناعة المبكرة لموضوع الشفقة، والتي ظلت راسخة في داخلي، بل وتزداد صلابة مع مرور الأيام - كانت سببًا لإعجابي الكبير بهذه الرواية فيما بعد.. هذه القناعة تتجذر داخل علاقتي بنفسي؛ مما جعلها تهيمن على علاقتي بالآخرين؛ فمن أكثر العذابات وحشية هو أن يكون ضعفي عاريًا، وأكثر ما يمعن في تحويل هذا العذاب إلى قتل بالمعنى الحرفي هو مشاعر الشفقة المعلنة تجاه ضعفي.. لهذا لم يتعطل أبدًا منذ الصغر ذلك الشيء الباطني في تكويني، الذي يحرص تلقائيًا على كتمان الشفقة وتحويلها

إلى أفعال غير صريحة، تتفادى تمامًا حقارة العاطفة، وتجاهد بأقصى ما تستطيع لاتخاذ سمة الاستجابات التقليدية، التي تدّعي عدم الانتباه، أو حتى عدم الاهتمام الظاهري.. كان التراجع سيثبّت لديّ اليقين عن أمي بأنها طفلة هشة.. كان سيحوّله إلى واقع ملموس.. إلى حقيقة مجسّدة لا يمكن تضليلها بعد أن كان هذا اليقين لعنة متوارية وحسب.. لهذا لم أتمكن من إرجاع قطعة السمسمية إلى أمي، وأكلتها كمن يبتلع مأساة عليه أن يتحمّل مرارة كتمانها ـ وهو ما لم أتوقف عن فعله طوال حياتي ـ كي لا تصبح اضطرابًا غير محكوم من الحسرة الهائلة.

نعم.. حدث كل هذا في لحظة واحدة.. في أقل من الثانية.. نعم شعر الطفل وفكر في كل هذه الأشياء، ولكن بطريقته.. ربما عن طريق الإشارات الذهنية البسيطة التي تتأرجح بين الوضوح والإيهام في عقله.. ربما بواسطة الاستجابات الحسية المباشرة التي تُنقّب تدريجيًا داخل الإدراكات اليومية الملغزة لبناء خبرة.. هل لخداع الذاكرة دور في الأمر؟.. لن أقول: ربما، بل ـ وليس في ذلك شجاعة ما ـ سأقول: بالتأكيد.. لكن، أليس في الكيفية المجهولة التي تتم بها التعديلات والاختلاقات من أجل ترويض الماضي؛ أليس في هذه الكيفية ـ وهي في ذروة مراوغتها ـ إمكانية لرسم صورة ما ـ بأي مستوى من النقاء ـ للطفل الذي كنته؟.. ألا يوجد دائمًا في التذكر ـ مع كل التصحيحات والإخفاءات ـ احتمالات حقيقية، سواء كانت الاستدعاءات مطابقة للواقع القديم كليًا أو جزئيًا، أم خيالاً محضًا له؟.. أليس الامتزاج الغامض بين الواقع والخيال هو الصدق المطلق؟.. ألا تتجاوز المسألة الصواب والخطأ؟.

أتذكر أنه كان في أحد الأيام ما يشبه اختبارًا جماعيًا يضم في فصل واحد تلاميذ من صفوف مختلفة.. أظن أنه لم يكن امتحانًا رسميًا، ذلك الذي يجمع طلاب المرحلة الثالثة بزملائهم من طلاب المرحلة

الخامسة مثلاً، وإنما كان ربما اختبارًا للقدرات يتعلق بمعلومات عامة أو بموضوع للتعبير أو برسم لوحة.. كان يؤدي الامتحان معنا ولد يكبرني اسمه (أدهم)، ويسكن في منطقة (ميت حدر)، وكان يحاول العثور على برّاية لقلمه الرصاص المقصوف.. ظل يلف على الدكك واحدة وراء الأخرى بالترتيب ـ حريتُه في المرور على التلاميذ تؤكد أن هذا الاختبار بالفعل لم يكن رسميًا، وإلا ما سمحت له المعلمة بالتحرك من مكانه ـ دون أن يساعده أحد.. كانت له طريقة غريبة في طلب البرّاية؛ إذ لم يكن يكتفي بسؤال الجالسين، بل كان يضع مع سؤاله القلم الرصاص أمام من يسأله ثم يستعيده بنفسه عند الرفض، أو يعيده الطالب أو الطالبة إليه.. كان أشبه بباعة أكياس المناديل وكُتيبات الأدعية وعلب النعناع في القطارات والأتوبيسات.. لم أفهم لماذا رفض التلاميذ إعطاءه برّاية رغم تأكُّدي أن معظمهم يمتلكونها.. كنت أراقبه من مكاني، ورأيته ينتهي من الصف الأول بالكامل الملاصق للشبابيك المطلة على الشارع، وحينما بدأ في سؤال تلاميذ الصف الأوسط الذي أجلس أنا في بدايته التفتُّ إليه.. كان يتابع وقوفه بجوار الجالسين في هذا الصف من الخلف أي من حيث انتهى الصف الأول، وحينما وصل إلى بنت تجلس في دكة ورائي على مسافة خطوات قليلة، وسألها عن برّاية وهو يضع القلم الرصاص على الدكة أمامها - لم تكتف البنت بالرفض وإعادة القلم أو تركه ليأخذه، بل أمسكت بقلمه وألقت به على الأرض دون كلمة واحدة، ودون أن تنظر إليه، أو ترفع عينيها عن ورقتها أو تتوقف عن الكتابة.. أخذ (أدهم) القلم من على الأرض بفم مطبق، ولم يعاود النظر إلى البنت؛ ليواصل رحلته بحثًا عن برّاية حتى وصل إليّ.. كنت قد اتخذت قرارًا عند رؤيتي لما فعلته التلميذة التي تجلس في الدكة الخلفية، وصممت على تنفيذه.. انتظرت حتى وضع الولد القلم الرصاص أمامي وهو يسأل: (معاك برّاية؟)، ثم أمسكتُ

بالقلم وألقيته على الأرض دون كلمة واحدة، ودون أن أنظر إليه، أو أرفع عينيّ عن ورقتي، أو أتوقف عن الكتابة.. بالضبط مثلما فعلت التلميذة الذي وجدت في تصرفها اعتزازًا بالنفس يستحق الاقتداء.. كنت أهوى التقليد، واختبار العبارات التي تصدر عن الآخرين على لساني، وتقمّص الانفعالات التي يعيشها من حولي دون أن يكون لها أي وجود في داخلي.. كان هذا التقليد ينتج عن إعجاب خفي، ورغبة في الخروج من ذات صغيرة، مغلق عليها بإحكام.. بدا رد فعل البنت بالنسبة لي كأنه تعبير متعالٍ عن المكانة الرفيعة التي يجب على (التلميذ الشاطر المؤدب) أن ينتهز كل الفرص؛ ليثبت استحقاقه لها، وانتماءه إليها.. الولد الذي يستوعب تميُّزه بفضل حقائق الكبار وقراراتهم التي تُلقن في وعيه طوال الوقت، ويدرك تمامًا اختلافه، وفضائله المضادة التي تضعه في منزلة سماوية بعيدة كل البعد عن القاع الذي يسكنه الطفل البليد الآخر، سيئ الأخلاق، المُهمِل لدرجة أنه لا يمتلك برّاية.. لكن حينما نزل (أدهم) بجسده؛ ليلتقط القلم الذي ألقيته على الأرض، وينسحب من أمامي - شعرت بأنني مجرد مقلّد حقًا، وأنني في الحقيقة لم أكن أريد أن أقوم بهذا التصرف، خاصة أن لديّ برّايةً كان يمكنني إعطاؤها له ببساطة.. ربما يومها أدركت أن للتقمّص ثمنًا ينبغي دفعه.. إن هناك أثرًا جانبيًا للحظة النشوة التي تتحوّل خلالها إلى شخص آخر.. ارتباك بين رغبة لا تخصك ينبغي الامتثال لتحريضها، وواجب لا يجب الخضوع إليه تفرضه طبيعتك الأصلية.. بعد أيام رأيت مع (أدهم) برّاية زرقاء صغيرة ولم يكن ذلك مهمًا بالنسبة لي إذ لم يكن امتلاك برّاية أمرًا إعجازيًا، وإنما ظلت هذه البراية الزرقاء في يد (أدهم) هي أجمل براية رأيتها في حياتي حتى لو لم يكن هذا صحيحًا في الواقع.. ظلت دليلاً على الحضور القهري لما قد يُعد خسارة داخل ما نظنه مكسبًا سيغير حياتنا ولو للحظة صغيرة.

أجمل أفلام التليفزيون في الثمانينيات: (استقالة عالمة ذرة).. (المجنون).. (محاكمة علي بابا).. (فوزية البرجوازية).. (أنا وأنت وساعات السفر).. (اثنين على الهوا).. (تحقيق).. (أنا لا أكذب ولكني أتجمل).. (الوزير جاي)، وهو الفيلم الذي صاحب عرضه في سهرة يوم ما تظاهر أبي بالموت في سريره.. لم يكن في المنزل سواي أنا وأمي وهو، وكانت الأيام القليلة السابقة لهذه اللحظة قد أنهكتها مشاجرات عنيفة بين والديّ و(مجدي).. في نهاية إحدى المشاجرات الليلية تمدد أبي فوق الكنبة الصغيرة بالصالة وأغمض عينيه، بينما كنا جميعًا في حجراتنا نحاول طرد أصوات الزعيق والصراخ وتحطّم الأشياء من رؤوسنا حتى ننام.. توجه (مجدي) إلى أبي محاولاً تطييب خاطره، ولكننا عندما سمعناه ينادي عليه أكثر من مرة دون أن يرد انتفضنا خارج الأسرّة، واندفعنا عبر الأبواب برعب من يجربون اقتراب الموت من أجسادهم للمرة الأولى.. توحدت نداءاتنا الصارخة على أبي الذي فتح عينيه بتثاقل الخارج من غيبوبة صغيرة، وابتسم في وجوهنا بامتنان متعب، ثم نهض ودخل حجرته بخطوات بطيئة، مرتعشة، وهو يقول لنا: (متخافوش مفيش حاجة).. بعد هذه الليلة بأيام قليلة كرر أبي نفس التهديد ـ كأن اللعبة أعجبته ـ ولكن هذه المرة في حجرته، وعلى سريره، وأمام البلكونة المفتوحة، وتحت المصباح الكبير الساطع داخل طبق الإضاءة الأحمر في السقف.. كنت أشاهد فيلم (الوزير جاي) في الصالة حينما سمعت ارتفاع نبرة الفزع في نداء أمي له؛ فأسرعت إلى حجرتهما بنفس الرعب الذي لم يكن قد تحول إلى ماضٍ بعد.. ظللت أنادي على أبي كأنني أقف على حافة هوة غامضة أراقب سقوطه وضياعه في ظلامها، بينما كانت أمي تحاول إفاقته بالربت على خديه.. فتح أبي عينيه بتثاقل أقل إجادة من المرة الأولى، وربما هذا ما جعلني أغادر الحجرة على الفور، وأعود للجلوس أمام التليفزيون ومتابعة الفيلم..

كان (لطفي عبد الحميد) أمامي على الشاشة يقول لـ (وحيد سيف): (دي موهبة قديمة عندي قوي يا فندم، ظهرت أعراضها عليا من وأنا طفل، تأثرًا بوالدي الله يرحمه).. رغم قوة الشك في أن أبي قد توصّل إلى حيلة جديدة لتعذيبنا بادعاء الموت فإن تعبير (والدي الله يرحمه) أصبح بديلاً لدقات قلبي.. لم يعد ما أراه مجرد تمثيل، بل حوّله الخوف اليائس في روحي إلى علامة دامغة لحقيقة صارت قريبة جدًا فجأة.. ظللت أتأمل بدموع مكتومة وجه (لطفي عبد الحميد)؛ محاولاً اكتشاف كيف يصبح الإنسان بعد أن يموت والده.. كأنني أعاين الشخص الذي أوشك أن أكونه، متخيلاً المرارة الفادحة لتلك الكلمات في فمي حين يأتي موعد التفوّه بها، وكيف يمكنني التعوّد على مذاقها بمرور الزمن حتى أصل إلى مثل هذه اللحظة التي أكون قادرًا خلالها على نطقها مبتسمًا بهذه الصورة العفوية، التي تجعلها مشابهة لأي كلمات أخرى: (والدي الله يرحمه).

أمام سرير (مدحت) كومودينو بداخله كتبي المدرسية وكشاكيلي وكراساتي وأدواتي، وفوقه حقيبتي.. كنت أستخدمه أحيانًا في المذاكرة.. كان لدينا طاولة دائرية ذات سيقان طويلة، وكانت أمي تُحضّر الدروس عليها، وهي جالسة على الكنبة في الصالة بعد إعداد الشاي لي ولها ولأختي ولجدتي، والمجيء بأكوابه الزجاجية على صينية لونها نبيتي، وأحيانًا على صينية أخرى لونها فضي أصغر حجمًا، أو على صينية أخرى لونها أخضر فاتح كانت موجودة في المطبخ ضمن طقم يحتوي أيضًا على أطباق مسطحة مختلفة الأحجام، وأوعية أخرى واسعة وعميقة بنفس اللون.. في نفس اللحظة كنت (أعمل الواجب) على طاولة مستطيلة أمام التليفزيون.. أتذكر الصباح الشتائي الذي قام فيه أبي بتركيب إريال التليفزيون فوق الطاولة ذات السيقان الطويلة في حجرتنا أنا و(ماجدة) و(مدحت) بمساعدة (الكتالوج) الأشبه بكتيّب أبيض صغير

يحوي رسومات ملونة للتليفزيون والريموت والإريال المكوّن هو الآخر من أجزاء متعددة الألوان.

في أماسي شتاء الثمانينيات شديدة البرودة كانت أمي تشعل (الوابور)، وتضعه في منتصف الحجرة مع غلق شيش البلكونة وبابيها الزجاجيين.. نشرب أنا وهي وأختي وجدتي القرفة سادة أو باللبن مع صوت المطر المتداخل مع صوت الوابور ولذة حرارته، ومع صوت الرعد أحيانًا، برفقة ما نجح في التسلل من الهواء البارد تحت الألحفة والبطانيات مع الملابس الثقيلة، وشال أمي وجوربها الصوفيين، وبيجامتي الكستور والبلوفر تحتها، وجوربي السميك.. أمي تكتب في دفتر تحضير الدروس بالقلمين الأزرق والأحمر وأحيانًا الأخضر.. كانت تكتب بسرعة، وبخط صغير وجميل جدًا، ولم أرَها أبدًا ـ رغم سرعتها ـ تخطئ في حرف أو ترتبك في الكتابة.. كانت تستخدم أقلامًا مختلفة الألوان، وهو ما كان يعد ميزة مبهرة بالنسبة لي؛ حيث لم يكن مسموحًا إلا باستعمال القلم الرصاص ثم الأزرق فقط بعدما كبرت قليلاً.. كانت كلمات أمي المنمنمة والملونة لا تُرسّخ في ذهني حقيقة تخص الكبار فحسب بل بأمي تحديدًا.. بروحها الناعمة، وقلبها الرقيق الجدير بالحصول على بهجة تمزج بين هذه الألوان.. كنت أجلس للمذاكرة أمام المسلسل التليفزيوني إذ كان الوجود مثاليًا في هذا المكان وفي تلك اللحظة، ومع هذا المناخ، ويدفعك لأن تؤدي عملك مثل الجميع خاصة لو كان هذا العمل (قراءة وكتابة).. كأننا في الواقع كنا أقرب إلى كائنات كارتونية تعيش حياة خيالية بيضاء، لا أعيشها فقط، بل لديّ القدرة على مشاهدتها بعين كلية من الشغف مثلما أتصفّح قصة مصورة، أو أشاهد فيلمًا للرسوم المتحركة.. لم يكن ينقصنا سوى (جولي آندروز) لتغني لنا (My Favorite Things) من فيلم (The Sound Of Music).

كتب (خوان مياس) في رواية (العالم) عن برد الطفولة، وعلاقة الشتاء

بالرغبة في تدوين الذكريات: (أتذكر ملمس شراشف السرير.. شديدة البرودة كالكفن. عندما أدخل بينها بستين في المائة من جسدي.. 30٪ أو 40٪ لحمي، و5٪ بيجامتي. أتذكر برودة الملاعق والشوّك حتى عندما تهدأ وقت ملامستها للأيدي. أتذكر عدم الإحساس بالأقدام التي كانت تبدو كأنها أقدام تعويضية من الثلج وضعتا في نهاية الأرجل. أتذكر تورُّم الأطراف المؤلم ـ يايللا ـ الذي يبدأ يخز في وسط فصل اللغة الفرنسية أو الرياضيات. وأتذكر أنه إذا أدركتك رغبة في الهرش ستشعر بارتياح على الفور، لكن ستتجاوب هذه الرغبة في الحال مع السبب المؤدي لها مضاعفة الاحساس بالحكة. أتذكر أنني تعلمت هذه الكلمة.. الحكة.. في عمر سخيف، من كثرة قراءتها في نشرات تلك الكريمات التي لا تنفع لأي شيء. أتذكر ـ خاصة ـ أن البرد لا يأتي من أي مكان؛ وبالتالي لا توجد طريقة لإيقافه.. فهو يشكّل جزءًا من الجو ومن الحياة.. فشرط الحياة كان البرودة، مثل شرط الليل كان الظلام. كانت الأرض باردة، السقف، درابزين السلم، كانت الحوائط باردة، كانت المراتب باردة، وكان حديد الأسرّة باردًا، كانت حافة سلطانية المرحاض متجمدة وحنفية الحوض، وباستمرار كانت المداعبات متجمدة. وتلك البرودة هي نفسها اليوم.. وبالرغم من التدفئة، فإنه تلوح بعض أيام الشتاء وتفجّر في الهواء الرغبة في تدوين الذكريات.. فإذا شعر أحد بالبرد وهو طفل فإنه سيظل يشعر به طوال حياته).

بعد العشاء أمي جالسة على الكنبة أمام فيلم السهرة.. أشعر بالنعاس.. أقترب منها، وأدخل في حضنها ثم أنام بين ذراعيها.. حضنها كان يشبه سحابة دافئة، تتسع كلما توغلت داخل نعومتها المتينة.. كأنني كنت أعاود الدخول إلى جسدها حيث لا يمكن لأحد أن يراني، أو لتهديد أن يطالني.. عيناها متجهتان ناحية التليفزيون.. أصابعي الصغيرة تلعب في (الحسنة) الصغيرة البارزة في ذقنها.. ألعب في القرط الذهبي

الذي يتدلى من أذنيها، ومنقوش عليه الكعبة.. صوت أحداث الفيلم في أذنيّ.. أنام.. كان هذا يحدث كثيرًا جدًا. في إحدى المرات كان الفيلم هو (رحلة السندباد السابعة).. لم يكن هناك أروع من أن يتحالف الشتاء والليل والنعاس وحضن أمي والمغامرات الأسطورية التي كنت أسمع أصواتها وأتخيل صورها وأنا مغمض العينين.. عندما تقدم بي العمر قليلاً، وصار جسدي أكبر وأثقل، وأصبحت أمي أكثر ضعفًا أردت أن أنام بين ذراعيها.. ضحكت أمي وأنا أحاول أن أدفس نفسي في حضنها بصعوبة قائلة: (يا خرابي)، ومع ذلك كانت تستجيب لي وتفتح ذراعيها وتحملني.. التصقت بصدرها، وداعبت (الحسنة)، والقرط، ونمت كما لم ينم (السندباد) في حياته.

كان بالمطبخ (نمَلْيّة) لونها لبني، وخزانة عريضة جدًا مثبتة في الحائط تحت الشباك من جهة اليمين، ولها سطح رخامي واسع مخصص للأطباق، أما في الطابق السفلي من الخزانة فكانت توضع الحِلل والصواني.. ظلت المساحة تحت هذا الطابق فارغة عدا الفترة الطويلة التي عاشت فيها البطة معنا.. جهزت أمي هذا الجزء السفلي للخزانة كبيت للبطة التي تعلقتُ بها كثيرًا، لدرجة أن الهم الأكبر في حياتي عند مجيئها إلى البيت كان الحصول على وعد من أمي بأنها لن تذبحها أبدًا.. كان وعدًا كاذبًا بالطبع.. من خلال هذه البطة تعرّفت على الطبائع التي تتشارك فيها مع القطط، وهو ما كان يزيد من حبي لها؛ فقد كانت تتبع خطواتنا، وتستكشف الحجرات بدهشة، وفي أحيان كثيرة ـ وكان هذا أجمل ما كانت تفعله ـ كنا نلتفت فجأة، ونحن جالسون أمام التليفزيون في نهاية المساء لنجدها واقفة عند عتبة المدخل المؤدي إلى المطبخ، تحدّق في الفيلم أو المسرحية مثلنا قبل أن تعود ثانية بمنتهى الهدوء إلى بيتها أسفل خزانة المطبخ.. كنت أراها تأكل من الأرز الذي نتناوله في غذائنا، وكان في بيتها طبق للماء، وكانت رائحتها (قروية)،

أي أنها كانت تستدعي الطبيعة الحميمية للريف بالضبط مثلما كانت تشع من تترات ومشاهد المسلسلات الدرامية التي تدور أحداثها في القُرى.. عاشت البطة معنا زمنًا طويلاً بالفعل، شهدت خلاله نموها التدريجي وامتلاءها المتسارع؛ لدرجة أنني كنت أعتبرها عضوًا أساسيًا في الأسرة، وربما هذا ما جعلني أبكي يوم ذبحها ذلك النوع من البكاء الذي تشعر معه أن الألم يمزق روحك، وأن العالم قد وصل إلى نهاية جحيمية مفاجئة.. كان العذاب في حالتي مضاعفًا؛ إذ كان مجرد التصور أن تُذبح البطة التي عاشت معي كل هذه المدة، وأحببتها بالشكل الذي يجعلني عاجزًا عن تخيل الاستمرار في الحياة داخل البيت بدونها، مجرد تصور ذلك كان تهديدًا بشعًا يستحيل تحمّله، لكن ما كان سببًا في مضاعفة الألم هو الشعور القاهر بالخيانة.. أمي التي وعدتني في اليوم الأول لوجود البطة بأنها لن تذبحها تقف الآن في الحمام لتشاهد يدي بائعة الفراخ وهي تفصل بالسكين رأس البطة عن جسمها.. هكذا يتم الأمر ببساطة.. ربما كانت أمي وبائعة الفراخ تتحدثان في موضوع آخر لا علاقة له إطلاقًا بالبطة وهي تذبحها إمعانًا في تأكيد هذه البساطة.. كنت أقف في حجرتي أمام بابها المفتوح، حيث كنت أستطيع عبر الصالة رؤية باب الحمام الموارب، وسماع الأصوات الأخيرة للبطة.. هل كانت القوة الأعمق للقهر تكمن في صدمة عدم استيعاب كيف يمكن لأمي (البطة الكبيرة) أن تذبح بطة مثلها؟.. كيف انعدمت مشاعر الشفقة والرحمة فجأة من عند أمي، وهي التي كانت النموذج الذي لا يُضاهى للطيبة رغم تصرفاتها العدائية ضدي في بعض الأحيان؟.. دائمًا كنت أشعر بسعادة غامرة كلما احتضنت أمي بشدة وهي جالسة، وكانت سعادتي تزداد كلما ضحكت هي من قوة الحضن.. كانت ترتدي في الشتاء ملابس كثيرة بعضها فوق بعضٍ (أكثر من جلباب منزلي بالإضافة إلى العديد من البلوزات الثقيلة) ثم يغطيها في النهاية شال

كروشيه كبير، لونه أسود، ويمتد فوق كتفيها وذراعيها وصدرها.. أتشبّع بالعطر الأمومي لملابسها حريرية الملمس.. كانت أمي وهي جالسة بملامح وجهها الصغيرة، وبالامتلاء الحنون لجسمها الملتحف بالملابس المتراكمة، وبالشال الناعم ذي (الشراشيب) الوفيرة تبدو كـ (بطة) سمينة تجسّد المسالمة الخالصة.. كنت أقول دائمًا لـ (ماجدة) بينما أحتضن أمي: (دي البطة بتاعتي).. اعتصرها كأنني أريد اختراقها، والعودة للعيش بداخلها.. كان وضع البطة التي ذبحتها أمي مختلفًا عن كل الدجاج والحمام والبط والأسماك واللحوم الأخرى التي أكلتها أنا وأسرتي.. هذه البطة عاشت معنا فترة كبيرة لدرجة أنها أصبحت واحدة منا.. هكذا كنت أفكر.. كان الأمر يقترب من ذبح قطة شاركتنا الحياة في المنزل، وإن لم يصل هذا التشبيه قطعًا في ذهني إلى درجة التماثل التام.. أتصور أن العنف المذل للصدمة ـ حيث لم يكن هناك أي نوع من التمهيد لهذه الجريمة، رغم الخواطر المتقطّعة السابقة لعدم الثقة في وعد أمي التي كنت أحاول دائمًا تفاديها فور انبعاثها في عقلي ـ كان هو مصدر الصداع الرهيب الذي ظل يفتت رأسي وقتًا طويلاً في أثناء بكائي، واستمر بعدما توقفت دموعي، وخروجي من البيت هروبًا من قسوة تلك اللحظة.. حتمًا لم أشاركهم أكلها، وبالتأكيد لم أكن حاضرًا في موعد الغداء الذي تناولوها خلاله.. كانوا يعرفون المدى الهائل للغضب، الممتزج بالحسرة العظيمة في نفسي؛ لذا كانوا يتفهمون ـ بقدر لا بأس به من التعجب المخلوط بالابتسامات الساخرة ـ ضرورة أن يظلوا بعيدًا عن بصري في أثناء وجودهم في ذلك المشهد.. كانوا حينئذ بالنسبة لي قطيعًا من الوحوش الباردة التي ليس لها قلوب.. هل توقفت (أمي) عن أن تكون (بطة) مثلما اعتدت أن أصفها؟.. كلا بالطبع.. لم يكن هناك حدث قادر ـ مهما كان ـ على نزع هذه الحقيقة منها.. لكن حكاية البطة ـ وكافة الحكايات المشابهة التي ليس شرطًا أن

تنتهي بالذبح أو بالموت عامة، والتي صارت الجوهر المخبوء أو المؤجّل أو الفائض من كل الحكايات الأخرى، أي كحقيقة أساسية مفروغ منها للحياة ـ كانت هذه الحكاية دعمًا وحشيًا لعلاقتي مع الفقد.. الرعب الخبيث، القابض والمهيمن على نفسي من الامتلاك.. من التعلّق.. من القرب.. من أن ينتمي لي كائن ما؛ إذ يختزن الامتلاك وعدًا ملعونًا بالغياب.. يؤسس التعلّق يقينًا مفزعًا لا يقبل الشك بالحرمان، أما ثقل السادية المستعملة في المأساة فيتحدد وفقًا لمدى الألفة.. تزداد شراسة الفقد كلما كان المفقود أكثر طفولية.. كلما كان غافلاً ومسالمًا ومضحكًا.. كلما كانت سيطرة المعاناة أقوى على الغفلة والمسالمة والضحك.. الكائن الذي لا يسمح لروحك سوى بالإيمان في أثناء حياته بأنه أروع موجودات العالم، وأنك لن تمتلك فرصة بعد خسارته لتفادي اليقين بأن هذا العالم لم يكن يستحقه.. لذا كان فقْد بطة أو قطة بمثابة تأكيد أسود لهاجس لم يكن يفارقني مطلقًا أنه سيأتي يوم أُحرم فيه من أمي، وليس أي فرد آخر من أسرتي.. كانت أمي والحيوانات الأليفة في غيمة خيالية واحدة داخل نفسي.. لكن الخسارة ذاتها ـ وتلك هي الطبيعة الدنيئة للواقع ـ لا يعطب تحريضها على الامتلاك.. أن تتعلق بكائن.. أن يعيش معك، أي أن تخلقا معًا جحيمًا جديدًا من الغياب.. لا تريد أن تكون وحيدًا؛ لذا عليك أن تتبادل الانتماء مع كائن سيُسهم الحرمان منه في قتلك، ربما على نحو أفظع مما ترتكبه الوحدة.. المشين في الأمر أن الحيوانات الأليفة هي التفاهم المثالي بين الوحدة ومشاركة الحياة مع آخر.. مع القطة مثلاً أنت لست وحدك، بل مع كائن يمتلك سماتٍ وخصالاً بشرية، وفي نفس الوقت لا تعيش مع إنسان يمكنه أن يحوّل عالمك إلى حفرة بائسة من الصراعات المهلكة، ولهذا فالحيوانات الأليفة مغرية أكثر لمن لا يطيقون بدرجات متفاوتة الوجود بين البشر.. محرّضة كوسيلة إنقاذ باعتبارها الأمان السحري الذي يسترد الطفولة،

ويخفف الحزن، ويقاوم الموت.. لذا فخسارة هذا التفاهم المثالي دائمًا ما تكون أشد مرارة.. على الأقل لم يسبب لك هذا الأمان السحري نفس الأذى الذي سببه لك الناس.. فقدان الحيوانات الأليفة ـ بالنسبة لواحد مثلي ـ يعادل خسارة البشر الذين يحملون نفس خصائصها، أو ربما التي تتجاوزها، وهو ما لم يكن ينطبق على أي إنسان في العالم سوى أمي.. (د. هـ. لورانس) تناول هذه الفكرة في قصته القصيرة (أدولف): الخوف من امتلاك أرنب؛ حيث سيؤدي وجوده إلى موت جديد داخل أسرة تمتلئ ذاكرتها بالبكاء والصراخ حزنًا على الحيوانات الميتة.. لكن الموت أو الفقدان ليسا مجرد ختام مؤلم بل ـ بكيفية أكثر قتامة ـ تدمير لجمال الحياة التي سبقت الحرمان.. تحويل الماضي إلى جحيم.. كافة اللحظات المميزة ـ وخاصة تلك التي تمادت في سحرها ـ ستصبح بعد الموت أحمالاً مهولة، لا تُطاق من الذكريات القاتلة حسرةً على ضياعها.. على الخسارة الفادحة التي لا تعوّض لروعتها الفائقة.. ستصير عبئًا يستحيل إزاحته من الإذلال، يُذكّرك دائمًا بأنك لم تستطع الحفاظ على الكائنات الثمينة التي خُطفت من بين يديك.. إنك لم تتمكن من استغلال جمالها بالشكل الأمثل حينما كانت بحوزتك تحسبًا لفقدها.. من تطوير أوقاتك برفقتها، وتنقيتها من شوائبها المعطلة، وغموضها المقلق، ودفعها للتمدد، والاستمرار، وبالتالي الهيمنة على كل الماضي، الذي ربما كان بمقدوره ـ على نحو مبهم ـ حمايتها من الضياع.

(مشهد شقة «إسعاد يونس» و«حسين الشربيني» وهي تظهر مضاءة في الليل بالنور الأصفر الساطع عبر البلكونة من خارج العمارة في أثناء حفل العشاء لسكان العمارة في فيلم «المجنون» 1988.. موسيقى الناي لـ "محمود عفت" في برنامج "العلم والإيمان".. "مارك" أو "Patrick Duffy" وهو يتنفس تحت الماء في مسلسل

"Man from Atlantis".. الأضواء الخافتة مع الموسيقى الناعمة لعرض أزياء شتاء 83 في مسلسل "الحرملك"، و"كرم مطاوع" يجلس مع المتفرجين داخل هذا المساء المغلق الهادئ، ويصفق مع صعود "بوسي" إلى المسرح 1983.. الكلب "سكر" عندما كان يحاول "تهته" أن يلتقط صورة له في عدد مجلة "سمير" 4 مايو 1980 الذي كان يحوي لعبة ترتيب حروف السمك الذي يصطاده "عصام" و"أيمن"، والهدية التي كانت مع هذا العدد وهي "بيت جحا" الذي كان لونه بمبيًا، ويعتمد اللعب به على إدخال البليات الأربع البيضاء الصغيرة داخل الخانات المرقمة في مدة محددة.. لاعب البخت في أوبريت "الليلة الكبيرة" وهو يغني مع المجموعة: "فتح عينك، المجموعة: تاكل ملبن. لاعب البخت: فينك فينك، المجموعة: تاكل ملبن. لاعب البخت: إوعى لجيبك.. لا العيب عيبك، قرب... جرب... نشن... وسطن ايدك وسطن. إضرب.. يحميك يابني تبقى غالبني. قرب خد لك حتة ملبن«.. "شادية" وهي تغطي عينها اليمنى بشعرها ثم تنفضه عنها في أغنية "مصر اليوم في عيد".. «سعيد عبد الغني» و»أحمد بدير» وهما جالسان داخل غيط القصب في الليل أمام النار في مسلسل «الغربة» الذي ظل «أحمد بدير» يردد خلال حلقاته «هرّاس جاي».. ضحكة «جيزابيلا» وهي تدهن باطنها بمزيل العرق في إعلان «Mum".. الطفل الذي يغني "أنا واد لعيب.. زي الخطيب" في أغنية "جوايز للشطار" لـ "ليلى نظمي".. الرجل في طرف المسرح الذي يحرّك يديه كأنما يمسك بالمقود، ويعدّل هندامه في المرآة، ويمسح الزجاج في أغنية "البوسطة" لـ "فيروز".. كتاب "الفراشة" بين يدي "نيللي" في أغنية "كان فيه فراشة صغنططة" من مسلسل "مبروك جالك ولد" 1980.. لاعبو الأهلي في برنامج "دوري النجوم" تقديم "طارق حبيب".. قفّة "حسين فهمي" في

حكاية "عبد الله البري وعبد الله البحري" بمسلسل "ألف ليلة وليلة" التي كان يحمل بداخلها الخبز واللحم والبطيخ والجواهر 1984.. عم "دهب" وهو يُخرج المذكرات، وخريطة "ماسة الزمان" من الصندوق القديم أمام "بطوط" والأولاد الثلاثة في قصة "ماسة الزمان" بعدد "سوبر ميكي" 16 يونيو 1983.. سيارة "محمد صبحي" السوزوكي ربع نقل في مسرحية "الجوكر" 1979.. أضواء وحيطان الخرابة في الليل تحت بيت "كعب الغزال" التي انشقت لتتسلل من بينها "كريمة" إلى مخدع الملك "جولان" ملك الجان، والملكة "مرجانة" في مسلسل "ألف ليلة وليلة" 1987.. لاعبو الأهلي في إعلان "إنجرام".. اللحظة التي يُنزِل فيها "محمد ثروت" الطفلة من فوق البيانو وهو يغني لها "حبيبة بابا رشا".. "وليد توفيق" وهو يغني "يا بحر ملوش نهاية، قلبي ملاح وحكاية" من أغنية "هابي بيرثداي تو يو" في فيلم "من يطفئ النار" 1982.. فناء المدرسة، وردهة الطابق العلوي، وأبواب الفصول وشبابيكها، والدكة الخشبية التي كان يجلس عليها "بكر" ابن "عادل إمام"، ومريلته، وحقيبته المعلّقة وراء ظهره في فيلم "الحريف" 1983.. "بقلظ" في برنامج "صباح الخير" تقديم "ماما نجوى".. "سمير غانم" وهو يطير فوق برج إيفل ويغني "Bonjour Paris" في مقدمة فوازير "الشخصيات" 1982).

المسودة الرابعة

من الذكريات الغريبة جدًا ذلك الحدث الذي وقع بشكل حقيقي للغاية في إحدى الليالي التي كنت أنام خلالها بجوار أمي.. ليس حلمًا ولا خيالاً، وإنما أتذكره بأقصى ما يمكن من إصرار كمشهد محسوس، مستقر في يقظتي التامة.. كنت أظن أن وراء جلدي ماكينات تشبه تلك التي أراها في المصانع على شاشة التليفزيون، وفي صور الجرائد والمجلات.. كان هناك جرح في الإصبع الكبير لقدمي اليمنى.. لا أعرف هل كان جرحًا غير مقصود، أم أنني تعمّدت أن أثقب جلدي بمسمار لأرى الماكينات مثلما كتبت في نص سابق لي اسمه (خلل بسيط في برمجة السعادة).. لكنني أتذكر جيدًا أنني تحسست إصبعي تحت الغطاء وأنا نائم بجوار أمي آخر الليل في ظلام الحجرة، وأنني حينما شعرت بملمس الثقب في الإصبع تسللت خارج الحجرة إلى الصالة المضاءة بالنيون الأبيض، وجلست فوق الكنبة لأشاهد ما كشف عنه هذا الثقب: (في الليل.. انتظر حتى نام الجميع، وتسلل إلى الصالة؛ كي يثقب إصبع قدمه الكبير بمسمار.. كان يريد أن يتأكد من وجود ماكينات تعمل وراء جلده كالتي رآها في المصانع على شاشة التليفزيون.. بالفعل.. تمكن من رؤية جزء من قطع معدنية متشابكة، وجانب من ترس صغير.. بعدها عاد

لسريره واثقًا أن الماكينات موجودة وتعمل، وأن الثقب سيلتئم من تلقاء نفسه. في هذه الليلة.. كان قد تجاوز الخامسة من عمره بقليل، وبعد أن أضافت الحياة إليه خمسة وعشرين عامًا أخرى.. أقسم أن ما رآه كان حقيقيًا جدًا، ودون أي تهيؤات.. هكذا.. قرر أن يُحدث ثقوبًا في كل جسده كي تخرج الدماء التي ظلت تتزايد طوال هذه المدة؛ فأغرقت الماكينات القديمة وعطلتها عن العمل.. بالفعل.. أغلق الحجرة على نفسه، وأحدث الثقوب؛ فخرجت الدماء.. خرجت.. ورغم أنه لم يعثر على أثر للماكينات.. فإنه كان محظوظًا بدرجة.. فهو لم يكن موجودًا طبعًا؛ كي يطلب منه أحد تنظيف الأرض من الدماء).

في شارع (بنك مصر) كان هناك دكان قديم لبيع لِعَب الأطفال يملكه رجل عجوز.. كنت أتأمل الدكان عند ذهابي مع أمي إلى بيت جدتي وعند الرجوع منه، شاعرًا بالتناقض بين الحالة الأثرية للدكان والعمر الكبير لصاحبه ولعب الأطفال.. كأنني كنت أعتبر أن لِعَب الأطفال لا يجب أن تُباع في دكان قديم، ولا يجب أن يبيعها رجل عجوز، بل ينبغي أن تُعرض داخل محل جديد، أنيق، ومضاء بشكل كرنفالي، كما يجب أن يكون البائع أصغر سنًا بكثير؛ ليمنحها القدر الذي تستحقه.. كان يزيد من إحساسي بهذا التناقض أرنب أحمر كبير، منفوخ، ذو أذنين طويلتين، وابتسامة ودودة، منكسرة.. كان تقريبًا نسخة من أرنب (عادل إمام) في مسرحية (شاهد ماشفش حاجة).. كان مُلقى تحت ذبول ضوء اللمبة الأصفر المترب بإعياء تام، كأنه سجين تعرّض لاستجواب مُنهِك طويل، ولمعاملة قاسية بين جدران معتقل.. لم أهدأ إلا حينما اشترت لي (ماجدة) هذا الأرنب بعد إلحاح متواصل استغرق زمنًا ثقيلاً.. كان سعره غاليًا؛ وهو الأمر الذي تسبب في تأجيل شرائه.. حينما أجلست الأرنب أعلى (بلتكانة) حجرتي فوق بابي البلكونة ـ كان أنسب مكان له بالنسبة لي ـ ونظرت إليه وهو يبتسم في وجهي ـ بعد تبدد الانكسار

من ابتسامته ـ شعرت بأنني أنقذته حقًا من مكان لم يكن يناسبه، ومن راعٍ لا يليق به.

حينما سافر أبي إلى (السعودية) كنت أنام بجوار أمي في سريرها.. كنت أحتضنها من الخلف بعد الغداء، وأنعس مع أصوات الناس والسيارات في الشارع، الملوّنة بضوء آخر النهار الأزرق الفاتن.. هواء بارد يطير بضوضاء ناعمة من فراغات ضلفتي البلكونة، ومن وراء البابين الخشبيين المغلقين بعدهما، بألواحهما الزجاجية المائلة للاخضرار، التي تُقسّمها شرائط الـ (شيكرتون) المتقاطعة إلى مثلثات متفاوتة المساحات.. كان مرورالسيارات بسرعة في الشارع يُسبب اهتزازًا مكتومًا لبابي البلكونة المقفلين، وينتج عن هذا الاهتزاز صوت يشبه الارتعاش الخفيف، الذي يصير قويًا في بعض الأحيان.. أصوات تنكمش وتنام معنا داخل دفء البطانيتين واللحاف دون أن تفقد لذة البرودة.. أحيانًا كنت أتمدد بجوارها دون رغبة في النوم، فتطلب مني أن أغمض عينيّ بقوة فأفعل، ثم تطلب أن أفتحهما ثانية فأستجيب لها.. تسألني: (ماذا ترى الآن في السقف؟).. أنظر إلى السقف فأخبرها أنني أرى أشكالاً غريبة تتحرك.. حينئذ تقول لي بنبرة مُحذّرة، تصطنع الخوف، وهي تضمني إليها وتغطيني إن ما أراه الآن هو الشيطان، ويريدني أن أنام حالاً كي لا يغضب.. أدفس وجهي على الفور بفزع مكتوم في ظهرها، ثم أُدخِل ذراعي تحت ذراعها مكوّرًا جسدي الصغير تحت الأغطية.. منذ أن فهمت الخدعة بعد وقت طويل لم تفارقني الدهشة من صلابة يقين أمي أن الخيالات الضبابية سترتعش أمام عينيّ في كل مرة نتيجة إغماضهما بقوة ثم فتحهما والنظر إلى فراغ أبيض واسع كالسقف داخل ظلام الحجرة الذي يداعبه ضوء العصر الشاحب.

في يوم وصول أبي إلى (مصر) عائدًا من (السعودية)، جاء عمي بسيارة

الأجرة 125 التي يقودها (أحمد بكر) لأخذ أمي و(مجدي)، والسفر إلى المطار لاستقبال أبي.. حينما رفضت أمي أن أذهب معهم انتابتني نوبة هستيرية من البكاء والصراخ وأنا أجري وراءها على السلم.. أسرعت (ماجدة) لتحاول تهدئتي، وعندما فشلت قالت لأمي بخوف: (قلبه يا ماما).. وجدتها فرصة ينبغي استغلالها فورًا.. تظاهرت بالإصابة بتعب مفاجئ، وبعدم القدرة على التنفس مرددًا بإعياء: (قلبي.. قلبي).. كان تأثير التليفزيون حاضرًا في مناسبات عديدة من طفولتي، وهذه المرة نجح استخدامه في جعل أمي توافق على أخذي معهم إلى المطار بعد أن وصلت ببكائي وصرخاتي إلى الشارع، وبعد أن توسلت لعمي الجالس بجوار السائق: (والنبي يا عمو).. أشار عمي لي بالركوب، ولا أتذكر من رحلة الذهاب سوى الغثيان والقيء.. في المطار رأينا أبي يأتي من بعيد مثل الأفلام، وهو يدفع عربة الحقائب؛ فاحتضنته أمي، وقالت له بسعادة: (حمد الله على السلامة).. في أثناء رحلة العودة من (القاهرة) إلى (المنصورة) كان الوقت مساءً، ولا أعرف أي سبب جعل (أحمد بكر) يوقف السيارة في منتصف الطريق؛ ليخرجوا منها جميعًا ويتركوني وحدي، ثم يقفون على بُعد خطوات، ويتكلمون.. أخفقت في فتح البابين الخلفيين أكثر من مرة، واضطررت للبقاء في الكنبة لأراقب أبي، وأمي، وأخي، وعمي، والسائق عبر الزجاج ورائي، دون أن يلتفت أي منهم نحو السيارة.. انتبهت إلى أن زجاج كل الشبابيك مغلق؛ فحاولت فتح زجاج النافذتين اللتين أجلس بينهما، لكنني عجزت عن ذلك أيضًا؛ فأحسست باختناق مباغت.. كان اختناقًا نفسيًا ناجمًا عن الوحدة والإحساس بالإهمال، وليس عن عدم وجود هواء في السيارة.. كان يبدو أنني أحتاج إلى دليل مادي، أو مبرر ملموس متمثل في ذلك الإغلاق المحكم حتى أشعر بضياع أنفاسي.. زاد من حدة الاختناق أنهم لم يسمعوني حينما بدأت أنادي: (بابا.. بابا.. بابا).. لم أنادِ على أحد غير

أبي، كأنني كنت أجد أنه هو الذي يستحق أن يسمع استغاثتي في تلك اللحظة بعد غيابه عني مدة طويلة، ورجوعه منذ زمن قصير.. صوتي لم يكن مسموعًا.. كان مكتومًا حتى بالنسبة لأذنيّ داخل السيارة.. لماذا خرجوا جميعهم، ووقفوا هكذا كما لو أنهم قابلوا شخصًا غير مرئي، وبدأوا يتحدثون معه الآن في أمر مهم؟!.. كنت طفلاً يمكن لأي كبار أن يتكلموا أمامه دون حذر من تورطه في شؤونهم؛ لذا كان مستبعدًا بالتأكيد أن يكونوا قد أوقفوا السيارة، وغادروها في منتصف طريق السفر ليلاً، وابتعدوا عنها لخطوات قليلة، وتركوني فيها حتى يتكلموا في شيء لا يريدونني أن أسمعه.. هل كانت هناك استراحة لم أنتبه إليها من تلك اللاتي توجد بين المدن لخدمة المسافرين، وكان لوقوفهم علاقة بها؟.. ربما، ولكن هذا الاحتمال لا يفسّر تركهم لي وحدي.. عمومًا لم يستغرق ما حدث الوقت الكافي لتحوّله إلى ذكرى سيئة؛ إذ عادوا إلى السيارة التي استكملت الطريق، ووصلت بنا إلى البيت.

في الصباح تم فتح الحقائب، وخرجت منها علب (الكريز) المجفف الخضراء والحمراء المستديرة، وكان مطبوعًا عليها رسم للعناقيد والثمرات مع كتابة إنجليزية.. مزيل عرق (أولد سبايس)، كان إعلانه أيقونيًا، أو علامة مقدسة للرهبة، حيث الشوق اليومي في البرد لتدفق الشجاعة الشبقة إلى الدماء مع لحظة الاقتحام المفاجئة لسيمفونية "كارمينا بورانا" لـ "كارل أورف"، وتحوّل شاشة التليفزيون إلى محيط شيطاني من الأمواج الضخمة المسعورة، التي يشقها رجل ثابت فوق لوح التزلج، كأنه يخترق بصلابة الغواية العاتية لشعر المرأة ذات الجمال الشهواني التي يحلم بملامحها تمتزج بالأمواج، قبل أن يخمد هياج شعرها في نهاية الإعلان مع خروج الرجل من العاصفة.. زجاجات عطور، ومزيلات عرق لونها أبيض في أخضر، وكذلك زجاجات أخرى لونها أصفر وأحمر، بالإضافة إلى زجاجات (باريس) الزرقاء الكبيرة،

المطبوع عليها عربة تجرها الجياد.. في الحقائب أيضًا كانت هناك شرائط كاسيت لـ (عبد الحليم حافظ)، و(وردة)، و(فريد الأطرش)، و(فايزة أحمد)، و(محمد الكحلاوي)، و(شادية)، و(ميادة الحناوي)، و(أم كلثوم)، و(عزيزة جلال).. (ألف ليلة)، و(القلب يعشق كل جميل)، و(يا حبايبي يا غاليين)، و(تؤمر ع الراس وع العين)، و(لاكتب ع اوراق الشجر)، و(وياك)، و(الحب إللي كان)، و(هو الحب لعبة)، و(أهواك) وهي أول أغنية أسمعها لـ (عبد الحليم حافظ) في حياتي، وكانت تُعرض كحفلة في التليفزيون بالأبيض والأسود.. خرج من إحدى الحقائب مرايات ذات أُطر ومساند حمراء متحركة، وأخرى ذات أُطر ومساند سوداء.. طفايات فضية كبيرة، مجوّفة، ويخرج منها ريش بلاستيكي منتصب.. كذلك كانت هناك مرايا فضية ذات أيدٍ مزخرفة، وجهاز تسجيل كبير بسماعتين وله بابان للشرائط، كما كانت أضواؤه الخضراء تتراقص مع إيقاعات الأغاني، فاحتفلت معنا (وردة) برجوع أبي ـ الذي كان يجلس على أرضية الحجرة ـ ونحن نستمع في ذلك الصباح إلى (في يوم وليلة)، و(قال إيه بيسألوني)، و(شعوري ناحيتك)، (وأكدب عليك)، و(على عيني)، و(أنده عليك).. كان مع الشرائط مكتبة صغيرة توضع فيها، وكان لونها أسودَ، ولها قاعدة دائرية تلف فوقها لاستعراض الشرائط المستقرة بالطول داخل الخانات المخصصة لها.. كانت الشرائط أكثر بالطبع مما تستوعبه هذه المكتبة الصغيرة؛ فتم رصّ معظمها في علب الأحذية المصنوعة من الكارتون الأبيض.. كان هناك كاسيت آخر بسماعة واحدة، وباب للشرائط، وكان زر التسجيل فيه باللون البرتقالي.. أحضر لي أبي معه الكثير من اللِعَب: أرنب بمبي، ذو بشرة لها ملمس ناعم، ويلعب (درامز) بواسطة حجرَيْ بطارية كبيرين.. قطاران: واحد كبير ذو قضبان زرقاء، ومعه محطة وشجر وإشارات، والآخر صغير ذو قضبان سوداء.. عربة مطافئ حمراء مكشوفة، ذات

نمط غربي كلاسيكي أنيق، يجلس بدخلها رجلا إطفاء صغيران، يرتدي كل منهما سترة خضراء، وخوذة حمراء.. طائرة هليكوبتر صفراء، بنوافذ كحلية، ومراوح بيضاء.. طائرة حربية رمادية، ذات جناحين متحركين للداخل والخارج.. طائرة ركاب بيضاء.. بيانو بُنّي صغير، يقف على ثلاثة أرجل قابلة للانتزاع والتركيب.. أتوبيس أحمر.. بائع آيس كريم مع عربته.. علبة بلاستيكية بيضاء، ذات تجاويف ضئيلة لسيارات متنوعة: (مازدا) حمراء (كانت المفضلة لي بسبب انتمائها في مخيلتي، وبتحريض من بعض الأفلام لأجواء الغموض البوليسي، والمطاردات المثيرة، خاصة في تكوينها الخلفي، وهي نسخة من سيارة "محمود ياسين" في فيلم "الوهم").. (بولونيز) خضراء.. شاحنة تشبه عربات الإسعاف القديمة، لونها موف غامق.. قرد بني يرتدي سترة حمراء، ويمسك في يديه بصاجين من النحاس، يضربهما بتلاحق سريع فور تشغيله بالزمبلك.. هذا القرد كان يقوم بعمله في الصالون ذات يوم عصرًا في أثناء وجود أبي مع صديق له يُدعى (رستم).

في فترة الجامعة كان أخي (مدحت) يسهر في الصالون للمذاكرة مع صديقه (محمد شلبي).. كانا يُحضِران يوميًا ساندويتشات الفول والطعمية ويأكلانها قبل السهر، وكانا يعطياني كل ليلة ساندوتش فول.. كان طعمه لذيذًا بشكل لا يوصف.. كنت أحيانًا أجلس معهما لبعض الوقت، وفي أحيان أخرى كنت أتركهما يذاكران فوق السُفرة ـ كانت مُغطاة بمفرش مشمع أبيض عليه رسومات لزهور ملونة، ومكتوب عليه بالقلم الأزرق كلمات إنجليزية بخط (مدحت)، وخواطر رومانسية، ورسوم لقلوب تخترقها أسهم بخط (مجدي) بالإضافة لاسميهما بالعربي والإنجليزي أكثر من مرة وبخطوط مختلفة، وكان هناك مفرش آخر أرضيته باللون السُكري، وبه ورد أحمر تم استعماله للطاولة المربعة الصغيرة الموجودة أمام التليفزيون في الصالة.. كنت بينما يذاكر (مدحت) مع صديقه

أقف في شباك الصالون المفتوح، وأنظر إلى الشارع الذي أصبح خاليًا، وضعيف الإضاءة في هذا الوقت المتأخر.. لكنني بالطبع لم أُكمل معهما أبدًا السهر إلى نهايته؛ حيث كنت أذهب إلى النوم وهما ما زالا منهمكين في المذاكرة.. الذي كان يُشاركهما السكون الليلي هو (الشيخ علي) النجار العجوز الذي يقابل دكانه القديم بلكونة بيتنا.. كان يجتمع مع أصدقائه للسهر في الدكان ـ أحد أصدقائه كانت لديه سيارة بيضاء (تويوتا) قديمة، ثم باعها واشترى (لادا) جيب ـ وكانوا يتكلمون ويضحكون وراء البابين الخشبيين المواربين للدكان مع ضوء النيون الناعس ودخان (المعسّل)، ورائحة الخشب، وصوت (أم كلثوم) الخافت.. كتبت ذات يوم نصًا عن (الشيخ علي) ودكانه بعنوان (بأمل أن تغفر لنا الرمال المتحركة هذه الضوضاء الخفيفة):

(يكفي أن يعود واحد من (إيطاليا)
لا تعرفه ولا يعرفك
ومعه بضعة ملايين
جمعها خلال السنوات التي أعقبت نجاته
من قارب الهجرة غير الشرعية
حتى يأتي بلدوزر كبير إلى الشارع ليلاً
ويهدم دكان عم (علي)
لأن برجًا سكنيًا يحتاج للتقرّب أكثر إلى السماء
من هذا المكان تحديدًا
وفي هذا الوقت بالذات
حفاظا على الصحة الإنجابية لـ (اليورو)...
عم (علي) ربما لا يعرف ماذا حدث في الدنيا بعد 1989
لأنه منذ ذلك الوقت يرقد في مقبرته الريفية
التي لم يعد يزورها أحد

والتي لم يكن سيعيده إلى الحياة بالطبع
كثرة زوارها...
ربما آخر ما يتذكره أنه كان نجارًا عجوزًا
يسهر في الدكان مع أصحابه كل ليلة
لتدخين (المعسّل) وسماع (أم كلثوم) والتحدّث في الحياة
ربما لا يعرف عم (علي) أن دكانه ظل مغلقًا بعد موته لسنوات طويلة
كأن الروح التي تركت جسده ظلت واقفة هناك
عند البابين الخشبيين الموصدين بقفل حديدي
كي تحرس الدكان من كل شيء
وتراقب العابرين الذين يحملهم الزمن
ولأنها ظلت لا تفهم شيئًا
حتى أصبحت عاجزة عن التصديق
اضطرت أخيرًا لأن تترك مكانها
كي يؤدي البلدوزر مهمته الاستثمارية
التي ستنتهي بحصول أطباق الفضائيات
على مكان واسع جديد
يساعدها على توطيد الصلة بين العالم ومجموعة من البشر
البشر الذين سيكون لهم أطفال
حينما سيقف أي طفل منهم في نافذته
لن يشم رائحة خشب أو دخان (معسّل)
ولن يسمع صوت شاكوش أو منشّار أو كلام أو سعال أو ضحكات
أو (ابتديت دلوقت بس.. أحب عمري.. ابتديت دلوقت أخاف لا العمر يجري)
ولن يشاهد عم (علي)
سيشم روائحَ أخرى

وسيسمع أصواتًا أخرى
وسيشاهد أشخاصًا آخرين
لن يخطر في باله وقتها أبًدا
أن لديهم أرواحًا تستعد لترك أجسادهم
ولعدم الفهم والعجز عن التصديق
بينما تحرس الذكريات وتراقب العابرين
حتى يأتي البلدوزر المعتاد
فتضطر لترك مكانها
وتذهب حيث يمكنها أن تبكي دون أن يلحظ أحد
بينما تراقب كيف يكبر الأطفال بمنتهى السهولة
كلما وقفوا في نوافذهم أكثر).

كان لـ (مدحت) أصدقاء آخرون، كانوا يأتون إلى بيتنا ويجلسون معه في الصالون، وكنت أحب وجودهم والمزاح معهم: (هشام حامد).. (طارق الشامي).. (بشير) وكان يشبه (علاء ميهوب)، ذات يوم أخبرته باكتشافي هذا الشبه فضحك.. (طارق حلمي).. (حسام مدكور).. (ممدوح).

في الطفولة الشتائية للثمانينيات؛ كانت عيناي تلونان قلبي بالأبيض والرمادي واللبني والأزرق والأصفر والبرتقالي والأحمر.. ألوان الغيوم في السماء وقت الغروب.. كانت روحي الصغيرة تعوم في فضاء هذه الألوان عبر البلكونة أو شباك حجرة الصالون مع نسمات المطر الباردة.. كان هذا يعني التنبوء بما سيحدث بعد قليل: أنا وأمي وأختي وجدتي سنشاهد مسلسل (نهاية العالم ليست غدًا) مع أكواب الشاي الساخن، والملابس المنزلية الثقيلة، وراء شبابيك مغلقة وزجاج نوافذ موصد بإحكام.. (مجدي) وأصدقاؤه يتجمعون حول طاولة مغطاة بمفرش أحمر، وتتوسطها مطفأة كبيرة، يقتسمون زجاجات الـ (ستلا) وسجائر

الـ (مارلبورو) مع الضوء الأصفر الخفيف الذائب في الظلام المسائي لـ (أبو شامة) أو (راندوبلو) أو (مكة) أو (القاهرة) أو (كيلوباترا) أو (النادي اليوناني) أو (مارشال المحطة)، ويستمعون إلى (متحسبوش يا بنات إن الجواز راحة).. أبي و(أمين جبر) يتمشيان على الكورنيش، ثم يجلسان في كازينو (الشجرة) أمام النيل، ويشربان عصير الليمون، ثم يشتريان بعد خروجهما من الكازينو بضعة أعواد خشبية قصيرة، ورفيعة، مربوطة في أطرافها زهور الفل البيضاء الصغيرة؛ ليعطيها أبي لي بعد عودته إلى البيت؛ فأحاول أن أمتلئ كليًا بعبيرها الذي يختزن المطر والغروب والبرد والمساء الذي ينثر لمعانه فوق النيل، وشارع البحر، وبنك مصر، والسكة القديمة، والسكة الجديدة، وسيدي عبد القادر، وشارع بورسعيد.. ابن عمي يجلس أمام فرن (بلبل) في شارع (السكة الجديدة) المزدحم، والمضاء بأنوار ساطعة، يتأمل نساء الثمانينيات، ثم يركب سيارته التي يغني بداخلها (عدوية): (زحمة يا دنيا زحمة)؛ ليخرج من الكرنفال الشهواني الصاخب نحو شوارع جانبية مثل (صيام)، و(ثمرة الحياة)، و(الحسنية) التي تحوي بشرًا أقل، وأضواء تستند البيوت القديمة إلى سكينتها الماكرة قبل أن يعود إلى (السكة الجديدة) وهو يفكر في المغامرة السرية التي تكوّنها هذه الشوارع الآن، داخل خفاء هذا الليل، بالتواطؤ مع الشارع المزدحم.. أنا وأبي وأمي سنركب تاكسيًا لزيارة عمتي، التي على حائط بيتها صور لـ (محمود الخطيب)، وللاعبي الأهلي في أواخر السبعينيات، وأوائل الثمانينيات داخل ملعب (مختار التتش) تحت برج القاهرة، والتي لديها أيضًا (كوكاولا) و(بيبسي) و(ميراندا) و(تيم) و(سفن) و(فانتا) و(سبورت) و(سبرايت) و(شويبس) في الثلاجة، وبسكويت وكحك وبتيفور وغريبة ومحوجة وشوكولاتة وخرشوف في الصالة والمطبخ وتحت كنبة الصالون، ولديها كذلك شرائط كاسيت لـ (أم

كلثوم)، و(عبد الحليم حافظ)، و(فريد الأطرش)، و(وردة)، و(ميادة الحناوي)، و(فايزة أحمد)، و(نجاة)، و(الكحلاوي) و(أوفا)، داخل مكتبة كبيرة معلقة فوق حائط الصالون، كما لديها أجندات تليفون، وأوراق نتائج حائط قديمة، وأقلام، وصور فوتوغرافية أبيض وأسود، ولوحات أطفال، ومناظر طبيعية، وآيات قرآنية، وكروت شخصية، ومفكرات صغيرة، كما تمتلك جنينة محاطة بسياج خشبي، يسقي زوجها (عم فوزي) نباتاتها، وينظفها، ويراقب هو وعمتي وأبنائه ونحن معهم أحيانًا المطر المسائي، وينصتون إليه وهو يتدفق بغزارة فوق أوراق الريحان، كأن الغيوم توقن أن استمرار حياتها لا يضمنه سوى ألا يشعر الريحان بأي قدر من العطش.. مطرب شعبي يجلس مع زملائه المطربين، وبعض العازفين داخل كافتيريا (سحر) المطلة على شارع البحر، يدندنون ويضحكون، ويتبادلون حكايات الوسط الفني في (المنصورة) قبل التحرك إلى المسرح المشيّد داخل منطقة شعبية وسط الأضواء البرّاقة لإحياء فرح اليوم.. (مدحت) يجلس مع أصدقائه الجامعيين في مقهى (جعفر) على شارع البحر، يدخن الـ (كليوباترا)، ويلعب الدومينو والطاولة، ويفكر في الحذاء الجديد الذي يريد شراءه من (شحاته حنفي) أو (أبو طوق) أو (توت عنخ آمون).. أنا وأمي وأختي سنذهب لحضور حفل زفاف بأحد نوادي (طلخا) على النيل مثل (التجاريين ـ التطبيقيين ـ التجديف ـ المعلمين ـ المهنسين)، حيث مصابيح الزينة المعلقة وسط الشجر تدغدغ الأوراق الخضراء بومضات متتابعة من الأمواج الضوئية المتجانسة للأحمر والأزرق والأصفر، بينما (كوشة) العروسين في جانب المسرح الذي تعلوه فرقة موسيقية ستغني (ليندا) على أنغام الأورج، والجيتار، والدرامز، والطبلة مع السماعات الكبيرة، والمشروبات الغازية، والجاتوه، والكراسي الخوص، والطاولات البلاستيك، والورد البلدي الأحمر، والزغاريد.

كنت أهوى تقليد (بطوط) في المهن التي كان يشتغل بها داخل قصص مجلة (ميكي).. قمت بتعيين نفسي سكرتيرًا لـ (مدحت) خلال إعداده لرسالة الماجستير، وقضائه لساعات طويلة متصلة بشكل يومي في المذاكرة على السُفرة.. كنت أجلس أغلب الوقت على الكرسي المجاور لباب الصالون المغلق، حيث ينهمك أخي في العمل وراءه.. كنت أشتري له السجائر والساندويتشات وأمواس الحلاقة (ناسيت) أو (جيليت)، أو أطلب من أمي أو (ماجدة) إعداد الشاي أو القهوة حين يريد ـ رغم أنني كنت أفعل هذا دائمًا من قبل، لكن شعوري أصبح مختلفًا حين تحوّل إلى (عمل رسمي) ـ كانت يدي لا تفارقها مسطرة شفافة ذات سنتيمترات حمراء، لم أكن أفعل أكثر من مجرد الإمساك بها وأنا جالس متأهبًا للاستجابة الفورية لنداء (مدحت) حين يطلبني لأي سبب، معتبرًا أن هذه المسطرة ضرورية بشكل مبهم لمهنتي كسكرتير.. ذات يوم ـ كعادتي من باب التغيير، ومن أجل تجربة حالة مختلفة لم أعشها من قبل ـ قررت تقديم استقالتي من هذه الوظيفة.. كتبت الاستقالة على ورقة فلوسكاب، وقدمتها لأخي الذي قام بالتوقيع عليها ـ كان يسايرني أحيانًا وهو يضحك، وأحيانًا وهو يدّعِي الجدية ـ ذكرت في نص الاستقالة أن سببها هو رغبتي في العمل لاعبَ كرة قدم.. بالفعل، وبعد أن حصلت على موافقة (مدحت) على الاستقالة لعبت مباراة طويلة ضد نفسي في الصالة، جعلت لها وقتًا محددا، وشاركني فيها أكثر من لاعب متخيل بالإضافة إلى حكم وهمي كنت أمثّل الاعتراض على قراراته، وحاولت ـ بقدر استطاعتي ـ الالتزام فيها بالقوانين المعروفة لكرة القدم؛ لدرجة أنني بدّلت المرميين بعد انتهاء الشوط الأول (كانا باب الشقة، وستارة حجرة "مجدي").. كانت هناك أهداف تُحرز في مرماي، وأخطاء عنيفة تُرتكب ضدي، أو أرتكبُها ضد لاعبي الفريق الآخر.. انتهت المباراة بفوز فريقي بركلات الجزاء

الترجيحية، وطرت من الفرح باتجاه الجماهير للرد على تحيتها الهادرة التي كنت أصدرها بفمي، ورفعت يديّ لتوجيه الشكر لهم وهم يهتفون لي من فوق البلتكانة التي تعلو مدخل المطبخ والحمام، ومن فوق البلتكانة الأخرى المقابلة لها، التي تعلو حجرة نومي.. بعد هذه المباراة قررت البحث عن وظيفة جديدة.

كانت هناك مهن أخرى لم يشتغل (بطوط) بها، وحاولت تقليدها، لعل أبرزها (بائع حشيش).. كان (بوتيك سحر) المواجه لبيتنا منفذًا لبيع الحشيش؛ حيث كان المشهد العادي، اليومي، والمتكرر الذي أراقبه من البلكونة أو شباك الصالون هو مجيء سيارة للوقوف أمام (البوتيك)، ينهض للتوجه إلى سائقها الذي لا يغادر مكانه خلف عجلة القيادة (حلمي)، أو أخوه (عطا)، أو (الجنزوري)، أو (محمد)، فيتبادلان سريعًا كلمات هامسة مقتضبة، بينما تمتد يد السائق من شباك السيارة بنقود مطوية يأخذها البائع في قبضته، ثم يدخل إلى الحارة الضيقة التي يقع (البوتيك) على ناصيتها (كانت تسمى حارة "الحشيش")، ويغيب قليلاً ثم يعود مطبقًا كفه على قطعة السولفان الأحمر أو الأصفر، ويعطيها للسائق الذي يتحرك بسيارته، ويغادر الشارع بمنتهى البساطة كأنما اشترى قطعة من الشوكولاتة.. نعم.. في البداية كنت أظنهم يبيعون الشوكولاتة في هذا (البوتيك)، وأنه بداخل الحارة يوجد حتمًا مخزن هائل لها، لا ينفد، ولا يمكنني رؤيته من موقعي، وبالتأكيد لم يكن هناك برهان يؤكد هذا الاعتقاد لديّ سوى ورق السولفان الأحمر والأصفر الملفوف به الحشيش، الذي كان يبدو واضحًا جدًا أمام عينيّ عند انتقال القطعة الصغيرة من القبضة المغلقة للبائع إلى يد سائق السيارة.. حتى عندما عرفت أن ما يُباع ليس شوكولاتة بل (حشيش)، وأنه بضاعة كريهة، يبيعها أناس أشرار إلى أناس أشرار آخرين؛ لم يضعف شغفي بالمراقبة؛ إذ لم تكن حقيقة (الشر) الذي تتصف به هذه البضاعة

مدركة في وعيي، وإنما كانت مبهمة بشكل كبير، وبالتالي ظل تأثير الطقس المتواصل للبيع والشراء محافظًا على رسوخه بكل ما يتضمنه من حركات وهمسات وانتقالات للفائف الضئيلة المزينة باللونين الأحمر والأصفر من مكان غامض داخل الحارة إلى أيادٍ عابرة، لا نهائية، عبر وسطاء ثابتين.. ربما كان في الصورة العادية التي يتم بها الأمر، وفي استمراره علنًا دون عائق أو مشكلة دافعٌ لإبقاء مستوى (الشر) الذي يلوث فكرتي عنه منخفضًا؛ فإذا كان ما يحدث يُصنّف كممارسة فاسدة بحسب الكبار ـ الذين على حق دائمًا ـ فإن وجودها الدائم، والمكشوف يجعلها بالضرورة ليست فاسدة للغاية، أي ليست شريرة بما فيه الكفاية حتى تمنعني من تقليدها.. كيف يبقى الشر واضحًا هكذا دون أن يتم منعه، أو على الأقل تهديده، إلا إذا كان شرًا خفيفًا، غير كارثي، يمكن السماح بثباته على هامش الحياة.. كان (محمد) سببًا إضافيًا، وربما يكون سببًا مهمًا في حقيقة الأمر لدعم فكرتي عن (بوتيك سحر).. كان شابًا مختلفًا عن (حلمي) و(عطا) و(الجنزوري)؛ إذ لم يكن يحمل نفس ملامحهم الحادة، المتجهمة، أو نظرتهم العدائية، ولم يكن يمتلك فمًا يعمل كفوهة خشنة لإطلاق الشتائم الجهورية البذيئة طوال الوقت مثل أفواههم، كما لا أتذكر أنني رأيته يتشاجر مع أحد.. كان وجوده في هذا المكان غريبًا بالنسبة لي، وكان الشعور بهذه الغرابة يزداد ثقلاً مع تأملي للمسالمة الظاهرة التي تحكم طبيعة علاقاته مع أهل المنطقة، والتي كانت تتخطى في بعض الأحيان الطيبة المعتادة لدى الآخرين الذين لا يبيعون الحشيش في الشارع، كما كان الشعور بهذه الغرابة يُمعن في التحوّل إلى دهشة عظيمة مع مراقبة صلاته الوثيقة بأطفال الشارع، ومشاركته المستمرة لهم في اللعب والمزاح والضحك للدرجة التي جعلت هؤلاء الأطفال يحبونه جدًا، ويحرصون على الذهاب إليه، ولم أره أبدًا يعامل أحدهم بجفاء أو يتحاشى اللعب معه.. كان (محمد) أشبه بـ

(بابا نويل) هادئ، مقيم في الشارع، ولكنه نحيف، وأسمر، وذو شعر قصير مجعّد، وبدون لحية بيضاء كبيرة، ولا يرتدي ملابس الكريسماس الحمراء.. كان وجوده دليلاً حاسمًا في تصوري أن بيع الحشيش ليس من المصائب المحظور تقليدها؛ إذ لا يمكن لإنسان يحمل هذه الشخصية أن يكون ما يمتهنه سيئًا إلى هذه الدرجة.. أعتقد أنني كنت أجلس على كرسي الصالة المجاور لباب حجرتي المفتوح مثلما اعتاد أن يجلس (حلمي) أو(عطا) أو(الجنزوري) أو(محمد) أمام (البوتيك)، أو على ناصية الحارة الملاصقة له عند جراج الحاج (صديق).. ربما كنت أتخيل السيارة التي تجيء، وتقف أمامي، وربما كنت أنهض من فوق الكرسي، وأتقدّم إليها ثم أحني رأسي، وأمد وجهي للأمام كأنني أتحدث مع سائقها من خلال الشباك المفتوح، وأحرك شفتيّ بهمس مقتضب ليس له أي معنى، مجرد همس يخلو من الكلمات المفهومة؛ حيث لم أكن أعرف ما الذي يُقال في هذا الموقف بالضبط.. ربما كنت أمد يدي، وأحركها في الهواء كأنني آخذ في قبضتي نقودًا مطوية من يد السائق، ثم أدخل إلى حجرتي.. ربما كنت أخرج من الحجرة مطبقًا كفي على قطعة مكعبات لونها أحمر، وفي أحيان أخرى قطعة مكعبات لونها أصفر ـ ربما لم أستعمل قطع المكعبات الخضراء أو الزرقاء مطلقًا؛ حتى لا يخسر تقليدي التطابق مع الواقع ـ ثم أمد قطعة المكعبات للسائق، الذي يأخذها، ويتحرك بسيارته مغادرًا الصالة، بينما القطعة لا تزال في يدي، فأعود لإرجاعها إلى مكانها داخل الحجرة.. أتصور أنني توقفت عن هذا التقليد بعدما كنت أتحدث مع (ماجدة) ذات يوم وهي جالسة للمذاكرة عصرًا وراء الطاولة المستطيلة في حجرتنا.. في نهاية الحوار قلت لها وأنا أشير نحو الصالة: (بعد إذنك عشان الظاهر فيه عربية عايزة حشيش).. لحظتها نهرتني بغضب شديد، وحذرتني من قول هذه العبارة مرة أخرى.. كان في تحذيرها ما يؤكد حتمية

العقاب المنتظر عند تكرار الأمر، والذي كان يعني بداهة صفعي على وجهي، إما بكفها أو بكف أبي إذا قررت أن تخبره، وكان هذا إجراءً سهلاً بالنسبة لها.
كنت أستعمل (البلتكانة) أيضًا في لعب السلة بواسطة كرة تنس الطاولة البيضاء ذات الكتابة الدائرية باللون الأحمر، التي تشير إلى صنعها في (الصين).. كان حجمها الصغير يُسهّل من مرورها عبر فراغ (البلتكانة) الخلفي.. كنت أقف عند عتبة باب الحجرة المفتوح، وأُصوّب رميات حرة متنافسًا ضد نفسي.. أحيانًا كنت أكسب نفسي، وأحيانًا كانت نفسي تهزمني فأغضب، وألعب مجددًا للثأر منها، وكنت ألعب لي ولنفسي بجدية مماثلة، وبرغبة متساوية في الفوز.
كنت أنظر للبلتكانة التي تعلو مدخل المطبخ والحمام نظرة أخرى بخلاف كونها سلة في لعبة كرة السلة، أو مدرج للجماهير في لعبة كرة القدم.. كانت زخارف قماش هذه البلتكانة مصممة على هيئة ثلاث موجات، لكل موجة رأس له ـ في عينيّ ـ ملامح مختلفة عن الآخر رغم تطابق التطريز في كل منها.. لا بد أن أعطي احتمالاً أن التطابق لم يكن كاملاً تمامًا؛ إذ ربما كان هناك انحرافٌ طفيف لخط في الزخرفة، أو بروز خفيف للغاية في جزء معين من التصميم، أو كرمشة بسيطة ودائمة في زاوية من القماش.. بدت الزخارف بالنسبة لي كأنها عبارة عن ثلاثة قضاة غامضين، يفرد كل منهم عباءته، ويحمل صفة تتفق مع ملامحه: كان الشرير يجلس في المنتصف (هل فرضت ملامحه مكان وجوده، أم أنني دون مبرر واضح قررت وضعه في هذا المكان ليأخذ السلطة الأعلى، وفي يده يرجع القرار الأخير)، بينما الخبيث على يمينه، والطيب على يساره.. ربما كان في هذا التصور تأثرٌ مزدوج بالشكل التقليدي للمحكمة مقترن بفيلم (الطيب والشرس والقبيح)، ولكنني لم أكن منتبهًا لذلك وقتها، كما أن طبائع القضاة الثلاثة تختلف عما قام

به أبطال الفيلم.. كانوا قضاة يجلسون في الأعلى حيث المكانة المفترضة للحكمة الغيبية والقدرة المطلقة.. أتطلع إليهم دائمًا في لحظات مختلفة من اليوم سواء عن قصد أم بالصدفة، وفي كل مرة أراهم يحدقون في وجهي، بطريقة من يعرف أسراري ويقيّم أفعالي، ويخفي نوايا مجهولة تجاهي.. مقاصد خاضعة لمشاورات خفية لم تنتهِ بعد فيما بينهم، وليس هناك سبيل لمقاومتها، أو لعدم الخضوع لأحكامها.. يدخرون رغبات تستهدفني وحدي، ربما تتغير بحسب المعطيات الجديدة التي تخلقها حياتي يومًا بعد يوم، كما أنها مؤجلة طوال الوقت أو ربما يتم تنفيذها بأسلوب خفي دون أن أنتبه.. كنت أتصور (الخبيث) يحاول دائمًا التأثير على (الشرير) بالهمس الشيطاني حتى يتعجله لإصدر حكمًا ضدي، وليمنعه من الاستماع لنصائح (الطيب) التي ستكون دون شك في صالحي.. كان (الطيب) أيضًا يبدو كأنه يبعث لي برسالة تكاتف وطمأنة وتحفيز على مواصلة أن أستمر في حياتي كما أنا.. الطفل النموذجي الذي يلتزم بالإرشادات المطبوعة في ظهر الكراسات والكشاكيل.

(مدحت) أيضًا كان له دور كبير في مهنة أخرى قررت العمل بها وهي (الحلاقة).. كنت قد قرأت قصة في مجلة (ميكي) أخذ (بطوط) فيها دور حلاق، وكانت قصة غاية في الروعة.. كان هناك شوال أرز كبير في حجرة نومنا قمت بإسناده على الحائط بجوار البلكونة؛ ليكون الكرسي الذي سيجلس عليه الزبون، ثم طلبت من (ماجدة) أن تكتب لي بخط جميل لافتة للمحل؛ فكتبت بالقلم الفلوماستر الأزرق على صفحتين متصلتين من منتصف كشكول (صالون الأمانة.. لصاحبه...).. ألصقت اللافتة بـ (أوهو) على الحائط فوق شوال الأرز بمسافة عالية، ولم يمض وقت طويل حتى جاءت الفرصة.. كان أخي يريد حلاقة ذقنه، ولم تكن هناك أمواس في البيت، وقبل أن يرسلني ـ كالعادة ـ لشراء أمواس جديدة؛ طلبت منه أن أتولى هذه المهمة.. في البداية

رفض بشدة الاشتراك في هذه التمثيلية؛ إذ كان على عجلة من أمره، لكن أمي وأختي أقنعتاه بأن يجلس فوق شوال الأرز للحظة واحدة.. طاوعهما في النهاية، وبما أنني كنت لا أمتلك ماكينة حلاقة أخذت إبرة وابور الجاز، وحرّكتها برفق على خد (مدحت) مسافة ثانية واحدة ثم نهض سريعًا ـ ربما خوفًا من الإبرة في يدي الصغيرة ـ وبعدها نزعت اللافتة، وأغلقت الصالون.

في الشارع كان هناك الكثير من الوجوه دائمة الحضور.. أشخاص لا أعرف أسماءهم، ولكن كان لا بد من ظهورهم يوميًا تحت بصري في أثناء وقوفي أو جلوسي في البلكونة؛ إما لأنهم يسكنون في الشارع، وإما لأنهم يعملون في مكان ما بداخله أو بالقرب منه.. كان استمرار وجودهم بالنسبة لي دافعًا لمراقبتهم.. تأمل ملامحهم، ونظراتهم، ونبرات أصواتهم، ولهجاتهم، وطرق كلامهم، وحركات أجسادهم، وتصميمات ملابسهم وألوانها.. كان هذا التأمل يعني محاولة استكشاف حيواتهم التي لا أدري شيئًا عنها.. الانفلات البصري من الحدود المغلقة التي تحاصر جسدي، نحو غموض الحكايات الأخرى.. كان يعني التعويض الذهني الآمن عن عدم التوغل في الحياة بتخيّل أسرارها البعيدة.

رجل عجوز ونحيف، ذو بشرة سوداء وشعر أبيض ناعم، يقود أتوبيسًا أزرقَ، ويأتي به إلى الشارع كل صباح.. أعتقد أنه كان أتوبيس قطاع عام، وأنه كان مخصصًا للعاملين في مؤسسة حكومية توجد في الشارع، أو قريبة منه.. لكنني في هذا الوقت كنت أعتقد أن هذا الرجل يمتلك الأتوبيس مثلما يمتلك الناس سيارات وموتوسيكلات ودراجات.. كان هذا الرجل يترك الأتوبيس في أحد جانبي الطريق تحت بلكونتي، ثم يجلس على مقهى (البقري) فترة ليست بالقصيرة ثم يعود لركوبه، وقيادته إلى خارج الشارع.. كل تفاصيل هذا الرجل كانت بالنسبة لي محرّضة على متابعته: لون بشرته؛ إذ لم أصادف ضمن النطاق الضيّق

لحركتي كطفل صغير شخصًا تحمل بشرته هذه الدرجة القاتمة من السواد خارج التليفزيون.. الهدوء والصمت الراسخان، اللذان يحكمان فتحه لباب الأتوبيس، وإغلاقه، وتوجهه نحو كرسي المقهى، وجلوسه، ثم معاودة السير نحو الأتوبيس، ومغادرة الشارع.. لا أتذكر إذا كان يرتدي نظارة أم لا، ولكنني أتذكر جيدًا أن نظرته كانت تتجاوز الحدة، أو الحزن المكتوم، أو الانطفاء الخاضع، المستسلم بتلقائية لروتين يومي ثقيل.. كانت عيناه تتخطيان كل هذه الإيحاءات لتبقى نظرته ثابتة فحسب.. متحجرة دون انفعال على خلاصة ماضٍ يعرفه وحده.. كان الهدوء والصمت المنسجمان مع جمود عينيه دليلين على فهم سري، يقبض بثقة مفروغ منها على ما وراء خط سيره المتكرر.. كان للأتوبيس دور أساسي في الإغراء بالمراقبة؛ إذ كان لونه الأزرق يعطي انطباعًا بكارتونيته أي بانتمائه إلى فيلم كارتون، أو قصة مصورة، أو حكاية خيالية.. كان لونًا طفوليًا، ولا أعرف السبب الذي كان يجعلني ـ ولا زلت ـ أشعر بوجود تناسق أو انسجام تام بين زرقة الأتوبيس وسواد سائقه.. كأن غرابة الألوان ـ هكذا كانت تبدو لي وقتئذ ـ يتحيز بعضها لبعضٍ، وتتلازم بالضرورة في نسق مشترك.. ربما فكرت في أن الرجل الأسود حينما قرر شراء أتوبيس اختار أن يشتري الأزرق؛ لأنه يتناسب مع لون بشرته، وهذا ما جعله ـ أي السائق ـ يحمل خاصية أو بُعدًا كارتونيًا أيضًا، وإن كان على نحو أضعف، مستمدًا من شخصية الأتوبيس.. كان الفراغ المستمر للأتوبيس محفزًا لاستفهاماتي؛ فعلى الرغم من أنني لم أشاهد أحدًا يستقله غير الرجل الأسود فإنني كنت متأكدًا بشكل أو بآخر أن هناك بشرًا يركبونه ـ ما دامت كل هذه المقاعد متوفرة ـ وأن الرجل الأسود ينقلهم يوميًا في مواعيد محددة من مكان مبهم إلى مكان آخر قريبًا من بيتي، لا أستطيع رؤيته.. من هؤلاء الركاب؟.. من أين يأتون؟.. إلى أين يذهبون؟.. لماذا لا يوجد هذا السائق معهم

حيثما يكونون، ويكتفي فقط بتوصيلهم وانتظارهم ثم إعادتهم إلى حيث أتوا؟.. كل ما كنت أشعر به استنادًا إلى اللون الأزرق للأتوبيس ـ ودون أي دليل إضافي ـ أن هؤلاء الركاب لا بد أن يكونوا أطفالاً، وأنهم يأتون من بيوت تختلف عن بيتي، ولا بد أنهم يذهبون إلى مكان يلائم اللون الأزرق للأتوبيس، ولا أقدر على الوصول إليه، كجزء من السماء مثلاً موجود على الأرض.

ذات مساء أرسلت أمي ابنة خالي (رانيا) لشراء متطلبات للعشاء، فأخذتني معها.. قررنا قبل العودة إلى البيت التوجّه إلى شارع البحر، وعبور الطريق إلى الجهة الأخرى، ثم المرور نحو ما كان يُسمى بـ (النفق) لمشاهدة النيل.. لا أتذكر هل كان ذلك بناءً على رغبتي الملحة؛ حيث كنت في مرحلة أصغر من تلك التي كنت أتنزه فيها على النيل مع والديّ، أم أنه كان اقتراحًا من (رانيا).. ربما أيضًا كنت في الفترة التي شهدت جولات مسائية مع أبي وأمي على الكورنيش بين كوبري القطار وكوبري السيارات؛ الأمر الذي خلق بداخلي ارتباطًا بالنهر جعلني أنتهز هذه الفرصة النادرة التي أكون خلالها في الشارع دون انقياد من (الكبار).. كانت (رانيا) تكبرني بسنتين فقط، وكانت تحفظ الطريق تمامًا بعكسي طبعًا؛ فلو تُركت وحدي في أي شارع مجاور لبيتي من أي ناحية سيتجمع الناس حول دموع وصرخات طفل تائه لا يستطيع العودة لأسرته.. ماذا عن ابتعاد بمثل هذا الشكل، وفي هذا الوقت الذي يُعد متأخرًا بالنسبة للأطفال، ودون علم أهلهم، وفي مكان معروف بكونه مظلمًا ومهجورًا وخطرًا على البالغين أنفسهم.. كانت مجازفة شجاعة من (رانيا) أو ربما تهورًا غير محسوب ذلك الذي جعلها تُمسك بيدي وتتوجه بي إلى هناك.. وقفنا تحت ظلال الأضواء الخفيفة التي تقوّي الظلام أكثر مما تكسره، ثم أمسك كل منا زلطة وقذفها بقوة في الماء.. (رانيا) أولاً ثم أنا، وكل يد تحاول أن تحشد كامل قوتها؛ كي

تبلغ الزلطة أبعد نقطة ممكنة داخل سواد النيل.. راقبت أصغر نافورة في العالم حينما قفزت قطراتها القليلة لارتفاع بسيط جدًا، وارتدت لأسفل على الفور.. كان صوت الزلطة وهي ترتطم بالماء خافتًا مقارنة بالصوت الذي أحدثته زلطة (رانيا)، ولم يكن ذلك نتيجة لصغر زلطتي أو لضعف يدي، وإنما كان راجعًا للحياة الضئيلة التي تركتها ورائي في تلك اللحظة.. كان البُعد الذي قطعته زلطتي محدودًا بشكل كوميدي مثل التأثير الهزيل لإلقائها في النيل.. بالضبط مثل قدرتي الهشة على تغيير وجودي المنكمش الذي لا يشغل حيزًا مؤثرًا أكثر مما ترسمه أحلام اليقظة التي يتنقل بينها الاختباء.. لم يستغرق الأمر أكثر من ثوانٍ قليلة رجعنا بعدها أنا و(رانيا) إلى البيت، ولا زلت حتى الآن أفكر: هل لا زالت تلك الزلطة موجودة في قاع النهر بعد كل هذه السنوات الطويلة؟.. هل ما زالت في نفس البقعة، أم تحركت إلى مكان آخر؟.. هل لديها ذاكرة تُبقي على ما حدث في تلك الليلة البعيدة بداخلها حتى تسترجعه وتُعيد التطلع إليه؟.. ثم؛ ماذا حدث للموجة الصغيرة المعتمة التي انتفضت بتخاذل حينما مرقت الزلطة في جوفها؟.. هل لا زالت حية وتتذكر تلك المداعبة التي أثارت رذاذًا هشًا من قطرات الماء الصغيرة في الليل؟.. هل لا زالت تلك الموجة ثابتة في مكانها رغم محاولات النيل لتحريكها كسائر الموج، أم أنها تبتعد وتغيب ثم تعود إلى تلك البقعة لإشباع الحنين؟.. أفكر في كل هذه التساؤلات والتصورات محاولاً تثبيت أي ذكرى ممكنة تعويضًا عن ضياع طفل لن يمكن استرداده.

كنت في أثناء إقامتي الدائمة في البلكونة أنتظر اللحظة التي أرى خلالها شيئًا من الاستحسان الطيّب على وجوه الأشرار الذين يمتلئ بهم الشارع.. أتمنى أن تنجح ابتسامة ما في الوصول إلى تلك الملامح العدائية المتجهمة طوال الوقت، التي تبدو أن لحظاتها العادية هي

التأهب الدائم لارتكاب العنف في مداه الأقصى.. كنت أنظر إلى الأشخاص العاديين الذين يعبرون أو يقفون على مقربة من أحد هؤلاء الأشرار، وتبدو المسالمة على ملامحهم، وأقول في نفسي إن هذا الغريب يوجد بوداعة الآن أمام عيني الشرير ولهذا لن يؤذيه، بل سيتركه يمر، أو يقف قليلاً حتى انتهاء مبرر وجوده في الشارع ليرحل منه بسلام.. ربما سيحدث شيء مفاجئ.. موقف كوميدي مثلاً سيجبر أي من هؤلاء العدائيين المتجهمين على الضحك بنقاء.. ضحكة ولو خفيفة، وخاطفة جدًا، ولكنها خالية من السوء.. سيكون أفضل بالتأكيد لو تسبب في هذه الضحكة أحد من الأشخاص المسالمين سواء كان طفلاً أم إنسانًا كبيرًا.. أن يُبدي الشرير ما يدل على رضاه عن هذا المسالم.. لو حدث ذلك لامتلأ قلبي بالسعادة، ولابتسمت ملامحي كلها بلهفة مشرقة، وأنا جالس بعيدًا في البلكونة، وليس لي علاقة بالأمر.. لم أكن أفكر بهذا الشكل في أشرار الشارع فقط، وإنما في أشرار التليفزيون أيضًا داخل المسلسلات والأفلام.. كنت أفكر هكذا في أبي وأخي (مجدي).

كانت ترتيب حجرتنا أنا و(ماجدة) و(مدحت) على هذا النحو: تدخل من الباب.. على اليمين سرير خشبي عريض لي أنا و(ماجدة)، وكان يعطي ظهره للحائط، وأمامه دولاب (إيديال) لونه رصاصي، ألصقت (ماجدة) على الحائط بجواره رسمًا لتمثال الحرية مقصوصًا من جريدة.. بين السرير والدولاب شماعة عريضة ذات لون ذهبي ومشاجب نبيتي، كانت مخصصة لملابس (مدحت)؛ ولهذا لم يكن باب الدولاب المجاور للحائط قادرًا على أن يُفتح بكامل اتساعه بسبب الملابس المعلقة.. الباب الآخر للدولاب كان مغلقًا دائمًا على ملابس (ماجدة)، وأدوات مكياجها، وحقائبها، وكتبها، ورواياتها، ومجلاتها، وأشيائها الخاصة.. أتذكر أنها ألصقت على هذا الباب من الداخل صورة الأم التي تحمل طفلها فوق علب حفاضات (كدليز).. في درج هذا الدولاب كانت توجد بذور

(اللبلاب) الذي زرعناه في البلكونة بجوار أصص (الريحان)، وجعلنا فروعه وأوراقه تنمو وتتكاثف حول الخيوط الصاعدة فوق الحائط، والممتدة في السقف بعد أن قمنا بتثبيتها بالمسامير، وربطنا أطرافها بالأغصان النابتة من أواني الطين.. أما الكرسي الخشبي الذي يُطوى عليه بنطلوني، وتُفرد مريلتي فوق مسنده، وينام تحته الحذاء المستقر بداخله الجورب - فكان يوضع أمام زجاج البلكونة المقفل.. على اليسار سرير (مدحت) الإيديال، وكان مصنوعًا من الحديد (السفري)، ومطليًا باللون الأزرق الفاتح، وتحت مرتبته بدلاً من الألواح الخشبية الكبيرة شبكة معدنية مطاطية جعلته أكثر مرونة من سريري أنا و(ماجدة).. كان يشبه أسِرّة المستشفيات، ويعطي ظهره للحائط، وكنت أحب الاستلقاء فوقه بينما البلكونة مفتوحة؛ لأحاول أن أضلل بعينيّ في سماء النهار الدوائر الصغيرة الشفافة التي تلاعبني بملاحقة بصري في كل اتجاه يتحرك إليه.. كنت أتصور أحيانًا ـ ربما نتيجة الفشل في تضليلها ـ أن هذه الدوائر موجودة في الفراغ الفاصل بين عينيّ وزرقة السماء، وأنها كثيرة جدًا؛ لدرجة أنها منتشرة داخل كل حيز في هذا الفراغ، ولم أنتبه إلا بعد وقت طويل لحقيقة انتمائها إلى عينيّ.. كنت أشعر بالبهجة أيضًا ـ التي لا تخلو من استفهام ـ في أثناء مراقبة الأشكال المرحة التي تنبعث، وتختفي، وتومض، وتنطفئ، وتتداخل، وتتباعد، وتلعب بوتيرة سريعة، وأحيانًا تُبطئ من لهوها داخل عينيّ عند إغماضهما في أثناء النظر إلى السماء وقت سطوع الشمس وأنا في نفس المكان: ممدد فوق سرير (مدحت).. كأن هناك مسرحية تدور أمام خلفية حمراء تتصارع في أحداثها كائنات صامتة، متناهية الصغر، تتوقف عند فتح العينين، وتستأنف العرض بعد معاودة إغلاقهما.. مسرحية مخصصة لي وحدي، ليس باعتباري المتفرج الوحيد؛ بل لأن أبطالها المجهولين يعيشون في داخلي بغموض تام، ولا يعلنون عن أنفسهم إلا بواسطة هذه الطقوس

السرية والفوضوية الغامضة.. كأن هذه المسرحية ستستغرق زمنًا طويلاً ولن يُكشف عن تفسيرها إلا في نهايته.. لكنني كنت أعتقد أن هذه الأشكال المرحة وثيقة الصلة بعالم خفي مكوّن من خيالاتي الذاتية، التي تُغذيها القصص المصورة، والروايات البوليسية، وأفلام الكارتون، وبتصوراتي المخبوءة عن الحياة والبشر.. عالم آخر يستقر بعيدًا في أعماق لا يراها أحد، ومنفصلة تمامًا عن الواقع، أما تلك الكائنات الصامتة، متناهية الصغر، فهي التي تتولى تنظيم عرضها المستمر وفقًا لإرادتها الخاصة، وبإرشاد مبهم من أحلامي.

كان هناك حمّام في كل طابق يُفترض أنه مخصص للمعلمين والموظفين، ولكن كان التلاميذ يستعملونه بالإضافة إلى استخدام حمّاماتهم التي تقع في الفناء وراء صف من الحنفيات المتجاورة.. أتذكر أنهم ذات يوم أخرجونا من فصولنا في الحصة الأولى لإعطاء عينات للتحليل.. وقفنا في طابور أمام الحمّام، وكان على كل تلميذ حين يأتي دوره أن يأخذ أنبوبًا زجاجيًا صغيرًا معه إلى الداخل ليضع فيه قليلاً من البول.. اكتشفت في الداخل أنه من المستحيل فعل ذلك دون أن تبتل يدي بسبب فوهة الأنبوب الضيقة؛ لذا كانت دقة التصويب التي حاولت تحقيقها تعني أن تتفادى يدي التي تمسك بالأنبوب أكبر كم من السائل الأصفر، وأن يعبر إلى داخله أي نسبة من المطلوب أن توجد للتحليل.. لم يخطر في ذهني أنه بالإمكان إلصاق فوهة الأنبوب بفتحة البول ربما نتيجة عدم تصور أن يلامس الأنبوب ـ بما له من خلفية طبية مقبضة ـ هذا الجزء الحساس من جسدي.. تصاعدت فجأة رائحة (حلبة) قوية، امتلأ بها الحمام؛ فاكتشفت أيضًا أنك عندما تشرب (حلبة باللبن) ليلاً قبل النوم فإن البول سيحفظ هذه الذكرى بإخلاص عظيم ويُهديها إليك صباحًا.. الغريب أن هذه الرائحة لم يظهر لها أثر على الإطلاق في حمام البيت قبل ذهابي إلى المدرسة، كأن لها مزاجًا

شخصيًا، يجعلها تنبعث في اللحظة التي تنتقيها.. كان من الطبيعي أن أغسل يدي قبل الخروج من الحمام، لكن كان هذا بمثابة مأزق جديد؛ إذ كان يفرض عليّ ترك الأنبوب، وهو ما لم يكن ممكنًا حيث لا يوجد مكان مضمون في الحمام بوسعه توفير حماية جيدة تمنع ما به من الضياع.. فكرت في أن ترك الأنبوب مستندًا فوق حافة الحوض أو على الأرض سيجعله ينزلق بسهولة، وسيتسبب ذلك في فشل عملية أخذ العينة؛ إذ لن تعاودني الرغبة في التبول قريبًا، كما أن الطبيب الذي جاء من خارج المدرسة لن يجلس منتظرًا أن أنعم عليه بعينة جديدة.. لم تكن لديّ فكرة عما حدث داخل الحمام حينما أخذ كل ولد من زملائي أنبوبًا ليترك بداخله قدرًا من بوله، ولكن كان لديّ يقين لا يقبل الشك بأن أي منهم لم يتعرّض لمثل هذه الورطة التي أواجهها سرًا وراء الباب المغلق.. بيد واحدة فتحت الحنفية وعينيّ لا تفارقان الأنبوب في يدي الأخرى.. لم يكن ما فعلته يسمى تنظيفًا حقيقيًا لليد حيث كانت رائحة الحلبة النفاذة تفوح منها ومن الأنبوب؛ الأمر الذي جعلني أخرج من الحمّام بخجل عارم.. كما توقعت؛ توجهت أنظار الجميع نحوي على الفور: زملائي والطبيب وحكيمة المدرسة.. كأنه كان من الأفضل أن يحتفظ بولي بالرائحة الكريهة المعتادة مثل بقية الأولاد عن أن تتحوّل إلى رائحة حلبة ثقيلة.. كانت عيونهم جميعًا تبتسم، ومنهم من امتدت ابتسامتهم إلى كامل وجوههم، وكانت جميع الابتسامات تسألني بتهكم ودون صوت: (كان لازم يعني تشرب حلبة امبارح؟).

لم يكن وقتها في ذلك المساء الثمانيني هو نفس الرجل ضيق الصدر، غليظ الصوت، صارم النظرة، بل كان رجلاً مختلفًا.. كان شخصًا يليق بكورنيش نيل (المنصورة) في مساء الثمانينيات.. حتى وأنت طفل في الابتدائي يمكنك أن ترصد هذا التغيير الذي قد أن يطرأ على أبيك في لحظة غير متوقعة.. ربما تشعر حتى بقدر من الغربة المفاجئة

بينكما.. نعم.. لم يكن هو أبي التقليدي ذلك الذي كنت أسير في صحبته بخطوات متمهلة، تتخللها أوقات وقوف تسمح بتركيز البصر على الجانب الآخر من النهر.. أسمع صوتًا غير مألوف يخرج من بين شفتيه: (ده جامع "البنا").. انظر حيث أشارت عيناه.. قبة يتوهج اخضرارها بخفوت مهيب وسط الظلام الذي يحتوي هذا الجزء من (طلخا).. كان صوته هادئًا، وذلك ما يفسر شعوري بعدم اعتياده.. لكنه لم يكن مجرد صوت هادئ فحسب.. كان فائضًا كذلك بمزيج ساحر من البهجة والحزن.. صوت يحتفل بالحنين كما يجب.. كنت أنصت بشغف طوال الوقت لأبي وهو يحكي لي عن هذا الجامع، وعن النيل الذي كان يمتد اتساعه (زمان)؛ ليغطي المكان الذي نسير فوقه الآن.. لم يكن الحكي وحده هو ما يحدث للمرة الأولى.. الرفقة نفسها، وبهذه الكيفية كانت تتم للمرة الأولى أيضًا.. الشغف بحكايات أبي كان مدعومًا إذن بنشوة رائقة احتضنت روحي نتيجة هذا التحرر الاستثنائي من النمط الثابت لعلاقتنا.. لم يكن غريبًا إذن أن يكون أول ما فعلته بعد عودتي إلى البيت في ذلك المساء هو تدوين ما سمعته داخل دفتر ورقي صغير يحمل شعار وزارة التربية والتعليم.. ذلك النوع من الدفاتر الذي كان يستخدمه أبي في عمله بإدارة تعليم الكبار.. قررت تخصيص هذا الدفتر لتسجيل (تاريخ المنصورة)، الذي لم يكن يرضيني سوى أن أحصل على وعد من أبي بالاستمرار في الخروج، ومواصلة الاستماع لحكايات هذا التاريخ كما حدث في لقائنا الأول. كانت المرة الأولى والأخيرة.. ليس الحكي فقط، وإنما الرفقة أيضًا.. لا أعرف كذلك المصير الغامض الذي انتهى إليه الدفتر الورقي الصغير المختوم بشعار وزارة التربية والتعليم، والذي لم يُكتب فيه سوى صفحة واحدة أو صفحتين على الأكثر.. كل ما أعرفه أنني أمشي وحدي الآن في نفس المكان (كورنيش المنصورة)، وأن تعريف الزمن أصبح الابتعاد

المتزايد عن مساء الثمانينيات.. أعرف كلما نظرت إلى الجانب الآخر من النهر حيث القبة الخضراء لجامع (البنا) أنني لم أعد طفل الابتدائي، وأن الصوت غير المألوف لأبي ـ الذي سمعته مرة واحدة فقط ـ لم يُدفن في مقابر العائلة.

في يوم من الأيام تركت أمي البيت غاضبة بعد شجار مع أبي.. سافرت (شبين الكوم) عند أقارب لنا، وتوالت أيام غيابها.. ذات ظهيرة كانت أختي في المطبخ، وأبي وأخواي خارج البيت.. وقفت في البلكونة أراقب الشارع منتظرًا عودتها، ثم بعد فترة تسللت بعيدًا عن عيني (ماجدة) نحو حجرة أمي.. أخذت طرحتها البيضاء التي كانت ترتديها دائمًا في أثناء الصلاة، وظللت أتشممها وأبكي.. كانت رائحة ملائكية، وكنت سعيدًا وأنا أستنشق بياضها الناعم كأن أمي ستتجسد من خلال الرائحة، أو كأنها ستدرك في (شبين الكوم) أنني أبكي الآن لفراقها فتعود.. كنت أشعر أيضًا بأنني لن أراها ثانية، وكان ذلك يزيد من حرقة بكائي، ومن صعوبة حرصي المرتعش على ألا تحس بي (ماجدة) وهي واقفة في المطبخ.. سافرت أنا وأختي وخالي (نصر) لإحضار أمي.. خرجنا من محطة الأتوبيس، ومشينا خطوات قليلة، وقبل أن نسأل عن العنوان سمعت أمي تناديني.. رأيتها واقفة في بلكونة بيت قريب، وحينما صعدنا السلالم وجدتها واقفة خارج باب الشقة ثم أخذتني في حضنها فورًا وهي تبكي.. عادت معنا، ولم أخبرها أنها كانت قريبة مني في غيابها أكثر من أي وقت مضى.

كنت أصعد أحيانًا بعد انتهاء الحصة الأخيرة إلى الدور العلوي للمدرسة، حيث حجرة أبي الذي كان موجهًا للغة عربية بإدارة تعليم الكبار بالمنصورة... أجلس على مكتبه، وأقلّب في أوراق عمله.. قد تكون أمي متغيبة عن الحضور إلى المدرسة في هذا اليوم، أو أنها عادت إلى البيت مبكرًا.. يقابلنا فور خروجنا من المدرسة مطعم (السلام)، حيث

دخان شوي الكباب والكفتة يتصاعد كثيفًا برفقة الأغنية المنبعثة من داخله، وراء الرجل العجوز النحيف ذي الشعر الأبيض صاحب المحل.. عم (فرج) البقال على يسار المطعم، وبجواره (العربي) الجزار، ثم مطعم (منى) الذي يمتلكه (صدقي) الكبابجي، والد الأشقاء: (وحيد)، و(شوقي)، و(يوسف).. على يمين مطعم (السلام) يوجد محل (مسعد) لتصليح الراديوهات، والد (هشام) زميلي في الفصل، ثم مائدة (عمر الخيام) التي كنت أتوجه إليها بمفردي أو مع أبي أحيانًا في المساء، وأراقب بلذة من أمام الفاترينة يدي (عم محمد السيد) وهما تقطّعان (اللانشون) و(الجبنة الفلمنك)، و(الجبنة الرومي) و(الجبنة البيضاء) و(البسطرمة)، و(الحلاوة الطحينية) قبل أن يلف أنواع البقالة هذه في أوراق كتب أغلبها مدرسية تخص التعليم الفني (الزراعي والتجاري والصناعي)، والتي كانت تزيد من قوة التشوّق للأكل ثم يضع اللفائف الصغيرة في أكياس مع البيض، والجبنة (النستو)، وعلب الزبادي.. كان يجمع أيضًا أنواع المخلل من الأوعية البلاستيك ذات الألوان المختلفة في كيس: (الجزر، والخيار، والزيتون، والبصل، واللفت، والفلفل، والليمون)، ثم يضعه فوق الميزان الأحمر الكبير، ويضيف بالمغرفة إلى الكمية أو يقلل منها وفقًا للمؤشر ثم يربط الكيس بإحكام.. كان تذكّر يدي (عم محمد السيد) وهما تقومان بكل هذا يمنح وجبة العشاء جمالاً إضافيًا.. عربة يد تُباع فوقها صور كثيرة، لكنني لا أرى سوى صور (مارادونا).. مطعم (العطافي).. دكان حلويات صغير لعجوز سمراء ترتدي نظارة، وتُعلق على حبل بمشبك أصفر ألبوم (بم بم).. كانت تبيع أيضًا الـ (يويو) بكراته الثقيلة الملونة، واللامعة أحيانًا، والأستك الطويل.. كنت أحتفظ بألبوم (بم بم) الخاص بي تحت مرتبة سريري أنا و(ماجدة)، وكنت أعيد تصفحه باستمرار خاصة في المساء.. طابور الرجال، وطابور النساء أمام الفرن.. رائحة الطبيخ على السلالم بعد

الظهر مع ضوء السماء الغائمة، والهواء البارد، وصوت المطر المندمج بموسيقى (أندريه رايدر) في فيلم الأبيض والأسود الذي يُعرض في التليفزيون الآن، وتتدفق أحداثه من وراء الأبواب.. أمر أمام شقة أبناء خالي بالحقيبة التي تحمل كتب المدرسة فوق ظهري.. أنظر إلى نافذة السطح الكبيرة في سقف البيت، حيث ينساب الضوء الرقيق منها متحدًا برائحة الشتاء.. أقف أمام باب الشقة، أتخيل أن أحدًا ينظر من الفتحة الصغيرة في جدار السلم المؤدي لأعلى، والتي تطل على الشارع الخلفي، الموازي لشارع (صيام).. لبان (بم بم) وصور الألبوم في جيبي.. أبدّل ملابسي، وألصق الصور الجديدة، وأتأمل فراغات الصور التي لم أحصل عليها بعد مستمتعًا برائحة الفراولة في اللبان.. أعيد الألبوم إلى أسفل مرتبة سريري، ثم أقف في برد البلكونة لأراقب المطر فوق أرض الشارع، وأسطح السيارات، وواجهات البيوت.. المطر الذي يملأ الضحكات الخضراء للشجرة الكبيرة المجاورة لـ (بوتيك سحر).. في ظهوره الأقوى داخل الفراغ الفاصل بين عينيّ والسطح الداكن لشبابيك منزل الحاج (عبد الجواد) الذي يعلو منزل دكتور (سمير أبو الحسن)، وجراج الحاج (صديق).. وهو ينهمر ويتناثر بشدة فوق حواف النوافذ العالية للسنترال.. وهو يتدافع بزاوية مائلة داخل الفضاء السماوي فوق سطح بنك مصر الذي يعلوه العلم.

في أعياد ميلادي كانت (ماجدة) تُعد لي تورتة الشوكولاتة المزينة بقطع (الفراولة) الصغيرة، والكيك بالبرتقال، والبسكويت بالقرفة المستدير، الذي كان عبارة عن قطعتين ملتصقتين بالمربى، وكذلك بلح الشام، والكاكاو.. (ماجدة) كانت متابعة جيدة لبرنامج (لك ولأسرتك) الذي كانت تقدمه (ماجدة رشيد)، وكان يُعرض على القناة الثانية يوم الجمعة بعد العصر، وكثيرًا ما كانت السماء تمطر في هذا الوقت، أو على الأقل تزداد كثافة الغيوم ليس في السماء فقط، وإنما داخل صالة

البيت، وفوق الصور المعلقة على الحائط.. كانت (ماجدة) لديها أكثر من كتاب لوصفات الحلويات، وكانت تستخدم (كريم شانتيه دكتور أوتكر)، ومضربًا كهربائيًا، وقُمعًا للتزيين.. أحيانًا كانت تأتي مجموعة من زملائي في الفصل، وكنت أغني معهم، ومع (ماجدة): (هابي بيرث داي تو يو)، و(سنة حلوة يا جميل)، ثم أُطفئ الشموع، وبعدها (هييييييه) جماعية.. ذات مرة غنينا وصفقنا مع أغنية (يا فيل يا بو زلومة)، وسجلنا سعادتنا على شريط كاسيت، ثم أعادت زميلتي (وفاء نعيم) غناء هذه الأغنية بمفردها في غفلة منا، وتسجيلها على نفس الشريط واضعة اسمي قبل (يا فيل يا بو زلومة).. كانت هناك الشموع الصغيرة، الرفيعة والملوّنة، وكانت تُباع في علب كارتونية بألوان مختلفة، ومكتوب عليها حروف إنجليزية لونها ذهبي، وتحمل صور شموع مضاءة، وكان يوجد كذلك الشموع البيضاء الكبيرة، كما كانت هناك الشموع الحمراء التي على شكل أرقام.. كنت أنا و(ماجدة) نُعلّق زينة عيد الميلاد، وكان (مجدي) أحيانًا يتولى هذه المهمة.. الزينة كانت عبارة عن فروع ورقية متشابكة، طويلة، ذات ألوان: أحمر وأبيض وأخضر وأصفر وأزرق، ويتدلى في وسطها كرة كبيرة ذات أوراق مضفّرة تحمل نفس الألوان، وكان لها شكل آخر يشبه فستان طفلة.. شرائط فضية براقة ذات حواف حمراء أحيانًا، وزرقاء في أحيان أخرى، ملفوفة حول نفسها، وترقص لأعلى ولأسفل مع الهواء بشكل دائري؛ فتتعاقب ألوانها مع حركتها.. كانت هناك بالونات حمراء وبيضاء وصفراء ولبني، وكانت هناك بالونات كبيرة مكتوب عليها (Happy Birth Day) مع وجه مبتسم، وكانت للبالونات رائحة الاحتفال.. في أحد أيام عيد ميلادي أخبرتني (أبلة خلود) في الفصل أنها أرسلت هديتي إلى البيت.. وجدت بالفعل أباجورة أنيقة في انتظاري بعد العودة من المدرسة.. كنا نلتقط صورًا بالكاميرا التي أحضرها أبي من (السعودية)، وكنا نشتري فيلم

(كوداك) أو (كونيكا) أو (أجفا) لهذا الغرض.. دائمًا كان يتبقى في نهاية عيد الميلاد بضعة صور لاستكمال الفيلم؛ لذا كنا نواصل في مساء اليوم التالي التقاط صور عائلية داخل الصالون: (أنا وأمي وأبي)، (أنا وأبي)، (أنا و"ماجدة" مرتديًا ساعة رقمية ذات "أُستيك" أسود، وخاتم ذهب ذي فص أحمر جانبي مع نقش صغير محفور في المنتصف، وكنت أيضًا أضع "طرطورًا" ذهبيًا فوق رأسي، وأتظاهر بالعزف على البيانو البني الصغير).. في أحد أعياد الميلاد تركت حجرة الصالون أنا و(وليد بدير)، و(عادل فتحي)؛ لنلعب الكرة في حجرة النوم.. ارتديت الجوانتي الكروشيه الكحلي الذي نسجته لي (ماجدة)، ثم وقفت حارس مرمى أمام البلكونة المغلقة.. كانت الكرة عبارة عن مجموعة جوارب مُكوّرة بعضها داخل بعضٍ.. كان عندي جوانتي آخر، جلدي، لونه أسود، ومبطن بالفرو الأبيض الناعم، والدافئ، الذي يميل للاصفرار؛ ربما لأنه كان قديمًا ولا يخصني، وإنما كان ملكًا لـ (مجدي) وأخذته منه ـ رغم التفاوت الكبير بين أيدينا ـ وأتذكر أن الاهتراءات والتمزقات الصغيرة كانت موزعة في هذا الجوانتي، وأن (مجدي) أحيانًا كان ـ قبل انتقاله لي ـ يرتدي الفردة اليمنى من الجوانتي، ويمُسك بالفردة اليسرى في يده اليسرى ـ أو العكس ـ في أثناء الخروج، وسمعت وقتها أن هذه كانت موضة في تلك الأيام.

ذات ليلة كنت أنا و(ماجدة) على سريرنا مستيقظين، وكانت جدتي تفترش الأرض بين السريرين في حجرة نومنا.. كان أبي وأمي و(مجدي) نائمين، وضوء الصالة النيون مطفأ حينما عاد (مدحت) إلى البيت في وقت متأخر.. فتح باب حجرتنا فاردًا كفه بكيس بلاستيك تُطل منه قطة صغيرة.. قال مبتسمًا بفرح حماسي فور دخوله: (قطة).. صحت على الفور: (هيييييييه) سعيدًا بالمفاجأة.. قال إنه أحضرها من صديقه (هشام حامد) الذي تُربي أسرته قططًا كثيرة.. قفزت القطة من الكيس، واختبأت بسرعة تحت سرير (مدحت)، أو ربما كانت الكنبة

التي انتقلت فيما بعد إلى الصالة حيث كان سرير (مدحت) ما يزال يشارك (مجدي) غرفته.. حاولنا العثور عليها لكننا لم ننجح، وكان الوقت متأخرًا؛ فقررنا تركها حتى الصباح.. أتذكر أننا حرصنا على أن نترك لها طبقين تحت السرير ـ أو الكنبة ـ الذي اختفت تحته، أحدهما مملوء بالماء، والآخر يحوي بعض قطع الـ (لانشون).. طوال الليل بعد إطفاء جميع الأنوار، عدا ضوء المصباح الأصفر الصغير في الصالة (النوّاسة)، وبعد دخول كل شخص إلى سريره؛ ظللت مستيقظًا، محاولاً من تحت الأغطية رصد أي صوت للقطة، ولكنني لم أسمع شيئًا كأنها خرجت من البيت عبر ظلام ما تحت السرير، أو أن مجيئها إلى البيت كان حلمًا.. عندما استيقظت في صباح اليوم التالي وجدت القطة مستلقية على الكنبة، وبجوارها أخي (مجدي) يتحسس الاستكانة الناعمة لجسدها الضئيل برفق.. أسميتها (مشمش) بعدما عرفت أنها ذكر، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح (مشمش) مثار إعجاب الجميع، خاصة زوجة خالي التي كان يُطيّر عقلها جلوسه فوق فتحة المرحاض البلدي القديم تحت شباك الحمام؛ ليقضي حاجته بينما يراقب العصافير التي تُحلّق داخل المنوَر.. ذات يوم عاد (مدحت) إلى البيت عصرًا، وبعد أن بدّل ملابسه، أحضر طعام الغداء من المطبخ، ووضعه فوق الطاولة، ثم جلس على كرسي الصالة، تحت المرآة، بجوار باب حجرتنا.. كان ضوء الصالة مطفأً، وأختي تجلس أمام التليفزيون، وتشاهد فيلم (تاكسي الغرام).. انتبهت (ماجدة) بعد قليل إلى أن (مشمش) كان نائمًا فوق الكرسي الذي جلس عليه (مدحت).. أطلقت صرخة متقنة أخرجت أبي من الصلاة، وألقت به خارج حجرته، بينما اندفعت أمي من المطبخ، وجريت أنا من البلكونة فوجدنا الصالة مضاءة، و(مدحت) ـ الذي لم يشعر بوجود (مشمش) تحته ـ يقف مذعورًا، و(ماجدة) تبكي بفزع.. كانت الصرخة قد أيقظت (مشمش) ـ الذي لم يشعر بجلوس (مدحت) فوقه ـ فظل ينظر إلينا باستفهام ناعس.. أدرنا عيوننا جميعًا ناحية

(ماجدة)؛ فقالت إنها لم تكن تعرف أن (مشمش) لن يصيبه ضرر.. قرر أبي بغضبه الثائر المعتاد أن (مشمش) لن يبقى في البيت بعد الآن.. حاولت أمي استرضاءه، وتطييب خاطره؛ كي يتراجع عن قراره خاصة أن القط ليس له ذنب، لكن قسوة إصراره كانت أقوى.. في هذه اللحظة كانت (هدى سلطان) تغني في الفيلم (خلاص يا دنيا هتبقي حلوة)، وأنا أسمعها في حجرتي، وأبكي.. كان اللحن الساحر للأغنية يزيد من ألمي، وكان بكائي يتأجج أكثر كلما قالت: (خلاص يا دنيا يا دنيا، خلاص يا دنيا)، وبالطبع كان ذهني يطمس (هتبقي حلوة)؛ فالمقطع الأول وحده كان منسجمًا بالصدفة مع نهاية العالم التي قررها أبي عقابًا لي على صرخة أختي المتهورة.. لكن داخل البكاء كان هناك إحساس غريب ببهجة ما، مزيج باهت من السرور والامتنان يطفو ويختفي.. كأن الحدث التراجيدي جعلني بطلاً في الفيلم.. أكسبني السحر اللائق بدور مهزوم أسطوري سينتصر في النهاية.. كأن البكاء يُخبئ في مرارته تعويضًا منتظرًا عن خسارة (مشمش)، أو كأنه ـ حتى لو كان ذلك مستحيلاً ـ سيمحو الكابوس في النهاية، ويُبقي القط معي بأي شكل.. في اليوم التالي جاء صبي صغير إلى بيتنا مساءً.. وقف خارج الباب، وأعطته أمي (مشمش)، وحينما سألتها عن هذا الولد، قالت لي إن أسرة هذا الصبي الذي لا أعرفه صديقة لأقارب لنا، وإنه سيأخذ القط ليعتنوا به في قرية (برج النور).. تحاشيت النظر من البلكونة، ولم أعرف هل كان كلامها صحيحًا أم لا.. لم يكن هناك فرق بين الصدق والكذب بعد أن غادر (مشمش) حياتي فجأة بينما كنت آخذه في حضني، وألعب معه منذ ساعات قليلة بلا توقع للفراق.. تركت أمي دون أن أنطق بكلمة واحدة في حين كانت (هدى سلطان) تردد بداخلي: (خلاص يا دنيا يا دنيا، خلاص يا دنيا).

(غلاف عدد «سوبر ميكي» 18 يناير 1979 الذي يجمع معظم

شخصيات المجلة تحت المظلة الكبيرة التي يحملها "بندق".. "أبو بكر عزت" وهو يغني لـ "سهير البابلي": "صراحة الصراحة أقولهالك بقى ("سهير البابلي": "وأنا متشوقة").. أنا راجل فيلسوف، وعقلي كتير بيسرح بعيد حسب الظروف، يعني مثلاً كده ممكن أنسى التقلية يوم كامل فوق النار، واخاف م النار عليا لو أسرح تمسك فيا وأنا شغال في الخضار، يرضيكي أروح ضحية؟" في مسرحية "الدخول بالملابس الرسمية" 1979.. "عبد الرحمن أبو زهرة"، و"محمود الحديني" وهما يتحدثان داخل حجرة الأخير في "بيت الحلواني" عن البحث التاريخي الذي جاء من أجله الأول إلى درب "السنجق" في مسلسل "المشربية" 1978.. الرجل الأسود الذي يرتدي زي قط أبيض في إعلان "شيكولاتة جيرسي".. الكتكوت وهو يغني: "أشرب ميه، آكل لقمة وآكل توت، آكل نص رغيف ملتوت" في أغنية "أنا الفرخة واحنا الكتاكيت" لـ "صابرين".. المرأة وهي تتحسس صلعة سائق الحنطور وتغني بصوت "شافية أحمد": "الأسطى عاجبني يا محلى غناه، والدنيا يا روحي ماهيش سايعاه"، والرجل وهو يغني بصوت "كارم محمود": "إن شد السرعة بإيده اليمين يحودوا زي البني آدمين، وإن شد شمال ("سيد مصطفى": "برضك فاهمين") قايمين بواجبهم وشوية، سوق يا اسطى لحد الصبحية" ("سيد مصطفى": "خدامك أنا والعربية") في أغنية "نزهة".. الكنبة، ومفرشها، والمسندان في بيت "إبراهيم سعفان" بفيلم "أونكل زيزو حبيبي" 1977.. الطبلتان، والمشربية الصفراء في اللوحة الأولى لتتر برنامج "الموسيقى العربية" تقديم "رتيبة الحفني".. "شريهان" وهي تغني "شهر يكلم شهر يعلم شهر يسلم شهر، لما وصلنا لأجمل شهر" في تتر "ألف ليلة وليلة" رمضان 1985.. "بطوط" وهو جالس وراء المكتب مساءً في حجرته، يقرأ الفواتير الكثيرة تحت ضوء الأباجورة،

بينما الأولاد الثلاثة يلعبون في حجرتهم بقصة "بطوط في الأحلام" بعدد "سوبر ميكي" 15 فبراير 1979.. "فؤاد المهندس" وهو جالس مع ابنه "أحمد عبد الله" ويمصّان مصاصتين ثم يقول له: "كفاية.. ضعهم على المنضدة جنبك.. أيوه.. بعد العشا يبقى الواحد يحبس بيهم" في مسرحية "إنها حقا عائلة محترمة" 1979.. زينة عيد الميلاد المعلقة في السقف، والبالونات الملونة، والتورتة، والشموع، وطاقم الشاي، والأطباق، والسكاكين، والشوكات، والستائر المغلقة في أغنية "كل سنة وانتي طيبة يا مامتي" من مسلسل "أوراق الورد" 1979.. البنت التي ترتدي ملاءة لف سوداء في إعلان "محمود إيه دا يا محمود".. "Ana Anguita" وهي تحمل الكتكوت، وتعزف به، وتعلمه اللحن المدوّن في إحدى صفحات الدفتر الذي تمسك به مع رسم لدجاجة وزهرة بأغنية "كوكو واوا".. العازفون الذين يرتدون العباءات البيضاء خلف "سمير الإسكندراني" في أغنية "آه يا جميل ياللي ناسيني".. "إكرامي" وهو يحاول استدعاء الأصوات وتسجيلها من الفضاء، وصور لاعبي "الأهلي" على حائط غرفته مع "عادل إمام" في فيلم "رجل فقد عقله" 1980.. الفوانيس القديمة المرسومة على لوحة "القناة الأولى" مع موسيقى أغنية "رمضان جانا".. "نيللي" داخل "سيما في شبرا" في تتر نهاية فوازير الخاطبة 1981.. "أمين الهنيدي" و"المنتصر بالله" و"مصطفى حشيش" وهم يفترشون المراتب الصغيرة المتجاورة ليلاً في مسرحية "عائلة سعيدة جدًا" 1985.. المقهى الذي كان يجلس فيه "محمد عوض" مع صديقيه، والكازينو الذي كان يجلس فيه مع "صفاء أبو السعود" ـ مع موسيقى أغنية "Feelings" ـ وبيت "صفاء أبو السعود"، والصالون الذي قابله فيه "محمود المليجي"، والولاعة التي حاول أن يشعل بها السيجارة في مسلسل "برج الحظ" 1978).

المسودة الخامسة

بعد سنوات من هذا اليوم الأسود فتحت باب الشقة ذات مساء، فوجدت قطة صغيرة جدًا على السلم.. أخذتها إلى أمي فوضعتها بجوارها على الكنبة، وأخذت تملّس على جسمها الصغير، وتضمها إليها؛ فأغمضت القطة عينيها ونامت على الفور.. كأن في كف أمي غواية خارقة تدركها جيدًا المخلوقات الضعيفة.. في رائحة يدها وملمسها؛ لذا لم أستغرب أبدًا النوم السريع للقطة كأنها كانت تبحث عن هذه الكف منذ لحظتها الأولى في الحياة حتى تنام هكذا.. ما الذي يعنيه أن تحتضن كائنًا ما يريد الانكماش؟.. أتصوّر أن القطة لم تعتبر مشاعر أمي التي عبرت إليها بواسطة يدها مجرد أحاسيس شخص عطوف.. بل مشاعر أم.. كأنما كانت أمي قطة كبيرة في هذه اللحظة.. عرفنا أن هذه القطة الصغيرة هي ابنة قطة الجيران في الدور العلوي.. صعدت بها إليهم، وبالرغم من أن جارتنا أخبرتني أن بإمكاني الاحتفاظ بها، وبالرغم من أنني كنت أريد فعلاً قبول هذه الهدية الثمينة - فإنني لم أكن أرغب في تكرار تجربة (مشمش).. كنت خائفًا أن أعيش مرة أخرى قسوة آلام الفقد المفاجئ، أو ربما كنت أرفض في أعماقي ودون وعي أن تأخذ قطة أخرى مكان (مشمش)، وبالطبع ـ وقد يكون السبب

الأقوى ـ لأنني كنت متأكدًا من أن أبي لن يوافق على أن توجد هذه القطة في البيت بعد كل ما حدث.

في فترة الجامعة كانت (ماجدة) تسهر للمذاكرة.. كنت أحب السهر معها، ومراقبتها وهي تقرأ، بينما أتصفح مجلات (ميكي) و(سمير) بجوارها فوق السرير.. كأنني أذاكر مثلها.. كان أبي وقتها في (السعودية)، وكانت أمي تحاول منعي من السهر، وإجباري على النوم بجانبها.. كنت أرفض بقوة، وأصر على عدم انتزاعي خارج ما كنت أعتبره مغامرة يومية يخلقها السكون الليلي، والكتب، والمجلات، والأغطية الثقيلة في برد الشتاء.. كأننا نُجري بحثًا سريًا في قضية مثيرة، نجتمع من أجله كل ليلة فوق السرير، في مثل هذا الوقت.. ذات مرة بكيت بالدموع وأمي تحاول ـ كالمعتاد ـ أخذي إلى حجرتها للنوم.. قلت لها منتحبًا، ومستعينًا بذاكرتي التليفزيونية: (عايزة تحرميني من أختي ليه؟).. كأن موسيقى تصويرية مأساوية على وشك الانبعاث من مكان خفي، مع إبطاء الحركة قبل توقّف الصورة ونزول تتر النهاية.. ضحكت أمي، وتركتني أسهر مع (ماجدة) التي كانت تضحك هي الأخرى على التراجيديا الطفولية العابرة التي احتميت بها فجأة لتحقيق رغبتي.. كان الانزواء بين الكتب ـ حتى قبل دخولي المدرسة ـ يمنحني سعادة شيقة، خاصة أن أختي كانت تمتلك مكتبة كبيرة متخمة بالقصص الرومانسية والاجتماعية، والكتب الصحفية، والإسلامية، وروايات ما يُسمى بالأدب النسائي، فضلاً عن أجزاء من (ألف ليلة وليلة) طبعة دار (الهلال)، وأعداد كثيرة من سلسلة روائع الأدب العالمي للناشئين مثل: (دكتور جيكل ومستر هايد)، (جزيرة الكنز)، (ديفيد كوبر فيلد)، (الزنبقة السوداء)، (حول العالم في 80 يومًا)، (حكاية مدينتين)، (مذكرات بيكويك)، (إيفانهو)، (سجين زندا)، (الملك لير)، (حلم ليلة صيف)، وكذلك سلسلة (كتاب اليوم الطبي)، وكتب لـ (راجي عنايت) مثل: (لعنة الفراعنة)، و(الهرم وسر

قواه الخارقة)، ولـ (أنيس منصور): (أرواح وأشباح)، و(الذين هبطوا من السماء)، و(الذين عادوا إلى السماء)، بالإضافة إلى أعداد هائلة من مجلة (حواء).. كنت في أثناء فقرة التلاوة القرآنية في التليفزيون بعد انتهاء السهرة أستمتع بمتابعة معاني الكلمات المكتوبة تحت الآية التي تُقرأ على الشاشة.. كأنني أندمج مع عمل (ثقافي) يلائم السهرة (البحثية) التي ستُعقد بعد قليل مع (ماجدة) برفقة الكتب والمجلات، ولا سيما لو كان الشتاء سخيًا في ما سيعطيه لنا هذا الليل من البرد القارص، والمطر الغزير.. السهر بالنسبة لي كان أشبه بمهمة معرفية نخوضها أنا وأختي معًا بأُلفة لاكتشاف أسرار غامضة.. أتذكر أنني كنت أجلس ذات ليلة منكمشًا بسعادة فوق (الكوفرتة) التي تغطي (ماجدة) وهي جالسة على السرير، مستندة إلى المخدة، وتقرأ كتابًا.. قلت لها وأنا أفكر في مغامرات الليل البحرية لـ (بطوط) والأولاد الثلاثة وعم (دهب)، وكذلك في (جيم هوكنز) برواية (جزيرة الكنز) لـ (روبرت لويس ستفنسون)، وفي حكاية (حسن البصري) من مسلسل (ألف ليلة وليلة)؛ قلت لها منتشيًا: (أنا دلوقت فوق جزيرة).. نظرت إليّ مبتسمة، وداعبتني بالسؤال: (يعني أنا دلوقت متغطية بالجزيرة؟) ثم عادت لاستكمال القراءة، وأنا أتخيّل السفينة، والعواصف، والأمواج العالية، والمخلوقات الخرافية، والخرائط، والمطاردات، والانتصارات المؤكدة.

كان (مجدي) يمتلك في حجرته خزانة شرائط كاسيت زرقاء كبيرة معلقة على الحائط.. كان أحيانًا يضع الشرائط متراصة بعضها بجوار بعضٍ فوق السُفرة داخل الصالون في صفوف منتظمة تحت نور النجفة داخل المساء الثمانيني الشتوي البارد والممطر.. كنت أشعر بحجرات الصالون والمكاتب في بيوت الثمانينيات وقت المساء، والمضاءة بالنجف؛ كنت أشعر بها في طفولتي كأنها احتفالات صغيرة من السعادة البوليسية المشوّقة، التي تنتشر في العالم وتغطيه من داخل عزلتها.. كنت أرى

الانطواء الآمن للخيال في المسلسلات والأفلام ـ مع الضوء الأصفر والمطر والبرد ـ كأنه انسجام لأسرار لازمنية.. كأن كل الأحاديث التي تتم داخل هذه الحجرات هي في حقيقتها تجسيد للتحالفات الدافئة، غير المشغولة إلا بحل الألغاز الغريبة.. كانت اللغة تحت النجفة، وبين حوائط الصالون أو المكتب في ليل الشتاء متجاوزة بشكل فريد؛ حيث كان أي حوار بين أشخاص عن أمر حاضر لا بد أن يستدعي ذاكرة ما، ولا بد أن يفرد ظلاله على حالٍ عام برونق من الإثارة والتناغم.

وفرة من شرائط أخي كانت من النوعية الملصق عليها علم (أمريكا)، والتي كانت سائدة في الثمانينيات.. كان لديه شرائط (محمد منير)، وكنت أحب أغانيه جدًا: (شجر اللمون ـ الليلة يا سمرا ـ شبابيك ـ علموني عنيكي أسافر ـ أمانة يا بحر).. كنت أستمع إليها وأنا أنظر إلى الغيوم الكثيفة وراء شباك الصالون.. ربما كانت (الليلة يا سمرا) هي أول أغنية أسمعها في حياتي، وكنت متعلقًا للغاية بموسيقاها.. هذا الشريط تحديدًا (شبابيك) 1981 كنت آخذه خلسة وأنا بالبيجاما الكستور من فوق السفرة في أوقات غياب أخي، وأعطيه لـ (ميمي) ابن خالي حتى نستمع إليه في الـ (ستريو) الخاص بخالي.. ذات مرة قال لي (ميمي) فرحًا بحماس ممتن عندما أحضرت له الشريط: (برافو عليك).. كان (مجدي) في الجيش، وعاد فجأة فأرسلتني أمي سرًا لإرجاع الشريط قبل اكتشاف أخي عدم وجوده، لكنه رآه في يدي عند عودتي فقال لي: (مش عيب تاخد حاجة مش بتاعتك وتديها لحد تاني).

كان لدى (مجدي) سماعة بيضاء، أحيانًا كان يُوصّلها بالمُسجل الأسود القديم داخل حجرته ويضع طرفيها في أذنيه.. كنت أحيانًا أستمع للأغاني عبر هذه السماعة، واستمتعت من خلالها ـ فضلاً عن شريط (شبابيك) وأغاني محمد منير ـ بأغاني فرقة (المصريين) التي كان يعشقها أخي أيضًا (ماتحسبوش يا بنات إن الجواز راحة ـ بنات كتير

كده من سني ـ ماشية السنيورة)، وكذلك أغاني (فيروز): (حبيتك بالصيف ـ البوسطة ـ كان الزمان).. كان (مجدي) مهووسًا أيضا بـ (سمير الإسكندراني) وبأعضاء فريقه، وبملابسهم، وباستعراضات أغانيهم.. كان البعض يقول وقتها ـ ومن ضمنهم (ماجدة)، و(مجدي) ـ إن (سمير الإسكندراني) يقلّد المغني (ديميس روسوس).. من أجمل أغاني (سمير الإسكندراني) التي كنت أحبها أنا و(مجدي): (آه يا جميل ـ بت يا دوسة ـ قدك المياس ـ طالعة من بيت أبوها).. أحببني (مجدي) في (خوليو إجليسياس)، و(داليدا)، و(الفور إم) وبالطبع (عدوية).

في أحيان كثيرة كانت حجرة (مجدي) هي الوحيدة المضاءة وقت العصر، حيث الكل نائم تقريبًا بعد الغداء.. يستمع لأغانٍ مثل (مقفول عليا لوحدي الباب) لـ (حسن الأسمر) ـ (Live Is Life) لـ فريق (Opus) التي رقصنا أنا وهو على إيقاعاتها في أثناء نوم الجميع وقت العصر.. أمسكني فجأة في لحظة جنون وجذبني؛ لنندفع معًا ونجري في ظلام الصالة مع النغمات القوية للأغنية، كل منا يُصدّر جنبه الأيمن إلى الأمام بخطوات متلاحقة.. لكنه بعد ذلك بوقت طويل ظل فترة كبيرة لا يستمع سوى لأغنية واحدة هي (الحب إللي كان) لـ (ميادة الحناوي).. كان يعيد سماعها طوال اليوم داخل الصالون المغلق، وهو جالس بجوار الشباك المقفول إلا من فُرجة صغيرة، وينظر إلى الشارع.

أسير مع أمي في ردهة داخل المدرسة الابتدائية.. لم يكن يومًا دراسيًا ولا أتذكر السبب الذي جعل معلمة اللغة العربية تأخذ طفلها إلى المدرسة في ذلك اليوم.. وراءنا، وعلى بُعد ما يقرب من ثلاث خطوات فقط سقطت كتلة ثقيلة من سقف الردهة.. نظرنا إليها، وبالطبع فكرنا في أننا كان من الممكن أن نموت الآن.. ماذا لو كان هذا قد حدث بالفعل؟.. أحداث كثيرة كانت ستتغير دون شك، ولكن هذا التغير لن يكون له علاقة بالدنيا.. الدنيا لم تكن ستتغير.

معظم أفراد أسرتي كانوا ينامون عصرًا بعد الغداء خاصة أبي وأمي وأختي.. أحيانًا كنت أنام، وأحيانًا كنت أكتفي بالاستلقاء مستيقظًا، وأحيانًا كنت ألعب مصارعة مع (مدحت) في سريره.. كانت (ماجدة) تنام على السرير المجاور؛ لذا كان علينا أن نحرص على كتمان صوت العراك تمامًا اتقاءً لغضبها، وتفاديًا لزعيقها فينا لو أقلقنا منامها.. ذات مرة طلب مني (مدحت) في أثناء المصارعة الذهاب إلى الثلاجة، وإحضار بعض عناقيد العنب في طبق، وغسلها حتى نأكلها في السرير.. نزلت بحذر، وخرجت من الحجرة على أطراف أصابعي إلى ظلام الصالة كلص، وأحضرت العنب من الثلاجة، وغسلته، ثم عُدت به إلى السرير.. لم ننجح في كتم صوت المضغ؛ فتقلّبت (ماجدة) في سريرها فجأة، وقبل أن تزعق فينا انتفضت فزعًا، وقلبت طبق العنب فوق (مدحت)، وأغرقت صدره بما تبقى من ماء الغسيل وهو يحذرني دون فائدة: (المية.. المية).. نهرتنا (ماجدة) بشدة على الضوضاء التي أزعجتها، دون أن يمنعنا الفزع من الضحك أنا و(مدحت) الذي نهض لتجفيف نفسه.

في أوقات أخرى ـ وهي الأغلب ـ كنت أبقى في البلكونة من العصر إلى المغرب خلال وقت نومهم.. أجلس فوق كرسي حمّام خشبي صغير لأقرأ مجلات (ميكي) و(سمير) و(ماجد) و(مجلتي) و(العربي الصغير) وقصص (المغامرون الخمسة): (لغز الكوخ المحترق)، (لغز الشاويش فرقع)، (لغز ورقة الكوتشينة)، (لغز ملك الشطرنج).. (المغامرون الثلاثة): (لغز مباراة الكأس)، (لغز ساعة الصفر)، (لغز الأطباق الطائرة).. (الشياطين الـ 13): (القوة الخفية)، (كلمة السر طوكيو)، (مغامرة في بحر المرجان).. كنت أقرأ وراء ضلفتي الشيش المغلق.. استعملت هاتين الضلفتين أحيانًا كمرجيحة بالوقوف بمشطي قدميّ على الحافتين السفليتين، والإمساك بالشقوق العلوية ثم التأرجح مع

حركة الشيش للأمام والخلف.. كنت كثيرًا ما أظل أتأمل وجوه الناس في الشارع سواء كنت أعرفها أم لا، وأفكر في ما سيفعلونه بعد العودة إلى بيوتهم.. أتساءل دائمًا: أي حياة يعيشونها وهم بعيدون عن عينيّ؟ أي قصص ومواقف؟ وأي بشر تشاركهم مساكنهم..؟ في فترة ما من طفولتي كان لديّ اعتقاد راسخ كتبته في نص (براحة ضمير كاملة):

(وهو طفل صغير جدًا كان يعتقد أن الدنيا ـ لسبب مجهول ـ خلقت خصيصًا من أجله، وأن كافة البشر: أسرته، وعائلته، وجيرانه، وكذلك الناس الكثيرة جدًا، الذين يسكنون البيوت والمدن الأخرى، ويسيرون في الشوارع، ويتحركون داخل التليفزيون، ويسمع أصواتهم في الراديو، وتظهر صورهم في الصحف والمجلات، ويتظاهرون بأنهم لا يعرفونه، هم في حقيقة الأمر ينفذون مهمة سرية تجاهه، تم تكليفهم بها من الله لغرض خفي.. كان يعتقد أيضًا أن لهذه المهمة وقتًا محددًا حينما ينتهي سيتمكن حينئذ من أن يفهم الحكمة الغامضة التي تكمن وراءها. وهو كبير جدًا استغرب للغاية من نفسه؛ لكونه تمكن من التوصّل لهذه الحقيقة المؤكدة مبكرًا هكذا، ودون مساعدة من أحد، رغم أنه كان لا يزال طفلاً صغيرًا جدًا).

كنت أتأمل أيضًا الذين يمرون بعربات متهالكة، تجر الواحدة منها حصانًا أو حمارًا، ويُبادل راكبها الملابس القديمة بأطباق الغسيل البلاستيك الكبيرة.. كان منهم من يصعد إلى عتبة شقتنا حيث تعطيه أمي بعض من الملابس المستعملة مقابل طبق غسيل.. كان لدينا عدة أطباق بألوان حمراء وصفراء، وكان لدينا طشت بلاستيكي كبير ـ غير الطشت النحاسي ـ لونه أزرق مثل لون الجردل، وكان لدينا أيضًا جردل أحمر، شاهدت قرموطًا ذات نهار وهو يلعب في الماء بداخله عند دخولي الحمام.. أراقب الحناطير حيث كان الأطفال ينتهزون مرور أي حنطور؛ كي يتعلقوا بمؤخرته، ويجلسوا فوقها بسعادة لم

أفهمها أبدًا من مكاني داخل البلكونة.. كنت أرى في ذلك خطورة بالغة تهدد الطفل المتهوّر، الذي إن لم يسقط مجروحًا، فبالتأكيد ستصيبه لسعة سوط خلفية من سائق الحنطور، حين يشعر أو ينبهه أحد بوجود طفل في المؤخرة (كرباج ورا يا اسطى).. أنظر إلى الدخان المنبعث من أنابيب العوادم في السيارات (خاصة الموديلات العتيقة التي تظهر في أفلام الأبيض والأسود)، والأتوبيسات، والباصات الريفية القديمة، والجرارات، والموتوسيكلات.. كنت أظن أن هذه المركبات تحترق من الداخل، وأن سائقيها ذاهبون إلى المطافئ.

كنت أحتاج للخروج من البلكونة من أجل الذهاب إلى الحمّام، أو لإحضار مجلات أخرى، أو للمجيء بفاكهة من الثلاجة.. أفتح ضلفة واحدة بمنتهى الحذر، ثم أغلقها بسرعة بمجرد عبوري الخاطف؛ كيلا يوقظ الضوء (ماجدة) فينطلق صياحها.. في أغلب الأحيان كنت أُنهي عملية الذهاب والعودة بنجاح، ولكن في مرات قليلة كان الضوء يُقلق منام أختي، خاصة مع احتياجي للخروج من البلكونة والرجوع إليها أكثر من مرة في يوم واحد.. قرب المغرب.. تتحوّل السماء الممتدة باتساعٍ فوق سطح سينما (النصر) المواجه للبلكونة، الذي يأخذ هيئة سقف الكوخ إلى حقل للغيوم التي تشبه زهور ياسمين هائلة وبتنويعات لانهائية.. كانت حياتي كلها تتجمع في هذا الفراغ السماوي أمام البلكونة، وكان يمكن للغيوم التي تتبدل ألوانها تدريجيًا خلال هذه الساعات القليلة أن تكون خلفية لكل أحلام ومشاهد العالم الذي أعيش بداخله.. كان يمكن لعينيّ أن تستبدال الغيوم الشتائية بجميع الأشياء، وأن تكون تعريفًا قاطعًا للأيام المتعاقبة.. لم أكن أعرف ما الذي تعنيه كلمة (الدنيا) التي يرددها الجميع أكثر من كونها مكانًا واسعًا جدًا لا أول ولا آخر له، ويقع بعيدًا عن بيتنا.. كنت أظن أن (الدنيا) توجد وراء سطح سينما (النصر)، الذي لم أكن أدرك وقتها أنه (سطح

سينما النصر)، بل سقف منخفض لكوخ ضخم، يشبه أكواخ القصص الأسطورية.. كنت أنظر إلى السماء الشاسعة وراءه باعتبارها المظلة الهائلة التي تعلو (الدنيا)، والتي لا يمكن رؤيتها، بينما في الحقيقة لم تكن سوى سماء شارع البحر.. كنت أسرح في الغيوم الممتدة داخل هذه السماء، متمنيًا أن أطير إلى هناك.. إلى الدنيا كي أراها، وأعرف من يسكنها.. لكنني كنت أدرك في نفس الوقت أنها ليست غريبة عني كليًا، وأنني حين أصل إليها ـ لو استطعت ـ سأعثر على تجسيدات نابعة من خيالاتي، لم يكن لها أن تظهر وتعيش بين جدران حياتي العادية.. سأجد أمنيات متحققة في انتظاري.. ربما كانت الدنيا التي تقع هناك هي بديل الجنة في عقلي في أثناء ذلك الزمن الذي لم أكن أعرف خلاله حقائق مؤكدة عن الحياة والموت، والجنة والنار إلا بما يتناثر من كلمات متباعدة وملتبسة تثير التوهمات أكثر مما ترسّخ اليقين.. كأنها المرحلة الفردوسية الأخيرة التي ستنتهي عندها الحياة ذات يوم، وسيذهب إليها كل البشر بعد وجودهم في هذا العالم.. العالم الأقل جمالاً بالتأكيد مما يُنتظر وراء سطح سينما (النصر).

يبدأ المساء البارد والممطر مع الخفوت التدريجي لضوء السماء بالتزامن مع بداية انبعاث أنوار المحلات: محل حلويات (حامد): (مع اقتراب مولد النبي كان "عم حامد" يعُلّق العلب الكارتونية الفارغة، المغلّفة بالجلّاد، والمربوطة بشرائط الزينة الملونة تحت قطعة كبيرة عالية من قماش الخيام، ممتدة في الفراغ الفاصل بين المحل وجدار مدرسة (ميت حدر)، وفي نفس الوقت كانت الفتارين التي يجلس أمامها، والمضاءة بالنيون الأبيض تمتلئ بالحلويات، والأحصنة الحمراء.. صيدلية (العطار).. (النبوي الجندي) الترزي.. (غراب) للأجهزة الإلكترونية.. (حمدي السلاموني) لصيانة أجهزة الفيديو.. فرن (الشربيني).. دكان (الشيخ علي) النجار.. (بوتيك سحر).. موبليات (مطر).. مقهى

(البقري).. (أحمد طه) الترزي.. موبليات (سامح المكاوي).. دكان (الحاجة زنوبة).. محل حلويات (السيدة السمراء).
كانت من أجمل فترات الطفولة تلك التي قمت خلالها بتربية ديدان القز.. كانت تربيتها درسًا في مادة (العلوم) على ما أعتقد، ولا أتذكر الآن كيف حصلت، أو كيف حصلت أمي بتعبير أصح على هذا الكم من الديدان داخل علبة أحذية كارتونية، يتوزع في غطائها الكثير من الثقوب لتمرير الهواء.. كانت تأتينا كميات هائلة من ورق التوت الذي كنت أفرش به أرضية العلبة كل يوم صباحًا ومساءً بعد إزالة ما تبقى من الأوراق الجافة التي أكلت الديدان معظمها، وكذلك تنظيفها من الفضلات متناهية الضآلة.. كان لدينا مخزون وفير من أوراق التوت داخل كيس كبير، نحتفظ به في الثلاجة، وكانت علبة الأحذية، أو بيت الديدان يوضع فوق هذه الثلاجة.. أجلس كل يوم أمام العلبة المفتوحة، أراقب الديدان وهي تأكل أوراق التوت منتبهًا إلى نموها، وكانت من أكثر لحظات طفولتي إثارة حينما نسجت الديدان شرانق الحرير.. لكنني أتذكر أن العلبة في النهاية لم يتبق بداخلها سوى شرنقة واحدة، كما أتذكر جيدًا الفراشة الصفراء التي طارت من العلبة ذات صباح لتعلن نهاية الأمر.. كان هذا الوداع السريع مبهرًا، وبائسًا في الوقت ذاته، على نحو يفوق غرابة نسج الشرانق؛ إذ لم أكن أشعر وقتئذ بأنني أفارق الفراشة، فهي لم تكن بالنسبة لي ـ ربما بسبب لونها الأصفر ـ سوى مجرد ناموسة أكبر حجمًا من الناموس العادي.. كنت أفتقد ديدان القز نفسها التي كنت أضع لها أوراق التوت كل يوم، وأراقبها وهي تتحرك وتأكل وتنمو.. بدت الفراشة كأنها متسلل قبيح ظهر فجأة داخل العلبة الكارتونية، ثم غادرها تاركا فراغًا ختاميًا محبطًا.
كانت (ماجدة) تصنع لي كاميرات ورقية، وكنت أُلوّنها بأقلام الفلوماستر، وأقف في البلكونة ألتقط صورًا متخيلة للشارع: المارة، والسيارات،

والواقفين في طابور الفرن، والجالسين أمام المحلات، والذين ينظرون من النوافذ والبلكونات.. كنت ألتقط صورًا عشوائية بحذر، متخيلاً أن أحدًا من الذين يظهرون داخل عدستي الهوائية لو انتبه إلى ما أفعله سيتملكه الغضب، وربما سيلاحقني بصيحاته الساخطة حتى لو عرف أن كاميرتي من ورق.. كانت أختي تصنع لي أيضًا أراجوزًا ورقيًا، فأمسك بالخيط الموصول به، وأجري في الشقة، فيطير ويتلوى، ويرتفع ويسقط، أو أربطه في أحد حبال الغسيل المعدنية الصلبة، أو في البروز الحديدي الخارج من البلكونة، الذي تُلف في ثقوبه حبال الغسيل؛ فيدور حول نفسه مع الهواء، ويتواثب ذيله الطويل في الفراغ.. كان يمكنه أن يبقى هكذا لأيام كثيرة إلى أن يعلق ذيله الطويل في إحدى رقصاته مع نوبة هوائية عنيفة بسلك الكهرباء؛ فيتم استرداده ممزقًا، أو يُقص الخيط الواصل بين رأسه والبروز الحديدي، ويُترك لمصيره خارج البلكونة.. كانت تصنع لي أيضًا (فريرة) ورقية، أغرز في منتصفها سن القلم، وأجري في الصالة والحجرات؛ فتدور أجنحتها سريعًا كالمروحة.. أمي كانت هي من تصنع لي المراكب مستخدمة ورق الكراريس والكشاكيل، وأيضًا ورق نتيجة الحائط.. كانت تصمم نوعين من المراكب: واحدًا ذا شراع صغير ينتصب في منتصفه، والآخر ليس له شراع، وإنما عند كلٍ من طرفيه تجويف داخلي له ما يشبه السقف أو الحافة العلوية.. كانت (ماجدة) تصنع لي كذلك بندقية تعمل بنفس طريقة عمل (النبلة)؛ إذ كانت تدق مسمارًا صغيرًا في بداية قطعة خشبية طويلة، ثم تربط فيه بعد ثَنْيِه دائرةً متصلة من أستك الملابس، تُطوى عليها ورقة ضئيلة ـ التي تمثل الطلقة ـ ثم تُشد بواسطة الأستك إلى نهاية القطعة الخشبية، حيث تُوضع بين فكي مشبك غسيل مثبّت بإحكام.. كانت تعتمد فكرة هذه البندقية على ضغط ذراع المشبك العلوية؛ فتتحرر حينئذ الورقة المطوية على الأستك المشدود، وتندفع بقوة نحو الهدف.

كان لدى (ميمي) ابن خالي سيارة لعبة جميلة، لونها فضي، ولم يكن هذا ما يميزها بالنسبة لي، وإنما إمكانية فتح أبوابها وإغلاقها، وهو ما لم يكن متاحًا في سياراتي كلها.. كان لديه أيضًا مسدس ذهبي صغير كنت أستعيره منه، وكان يماثل الكثير من المسدسات التي تظهر في الأفلام.

كان لديّ ألعاب أخرى مثل الجمل القماشي البيج ذي الكسوة الحمراء.. نبلة سوداء.. مسدس لونه ذهبي، ومقدمة حمراء مدببة وشفافة، تُضاء لمبة بداخلها مع صوت هدير حاد يشبه صوت سرينة البوليس عند الضغط على الزناد.. مسدس آخر لونه أسود، وذو طلقات مدببة في بدايتها دوائر حمراء تلتصق بالأسطح الصلبة.. مسدس أسود أيضًا، ولكن له ساقية تخرج منه وتعود إليه بالإضافة لمقبضه الطويل، ولم يكن عندي طلقات له.. هارمونيكا بيضاء ذات حواف وخلفية خضراء، وتوضع داخل علبة كارتونية، حاولت كثيرًا أن أقلّد (جورج زامفير)، وأعزف عليها (الراعي الوحيد) دون جدوى.. تليفزيون ضئيل للغاية ذو علبة حمراء، وشاشة بيضاء لا تعرض شيئًا.. زُمارتان واحدة بمبي، والأخرى لبني.

عندما أستيقظ صباحًا ـ خاصة في أيام الصيف ـ وبمجرد أن أفتح عينيّ؛ كنت أسأل نفسي هذا السؤال الثابت: (أنا ليّا إيه؟).. سؤال تلقائي، يتكرر كل يوم، ولا يسبقه أي تفكير آخر قبل أن أغادر السرير.. هذا السؤال كان يعني (ما الذي أمتلكه، وسأستمتع به اليوم).. كان تذكيرًا صباحيًا ممتنًا ومتواصلاً لنفسي المنتشية بأشيائي الحميمية، سواء القديمة أم تلك التي أضيفت إليها منذ وقت قصير.. كتبت عن هذه الحالة في روايتي (سوبر ماريو):

(زمان مثلاً كنت حينما أفتح عينيّ في الصباح أفكر على الفور في صندوق ألعابي الذي ينام بداخله القرد البني الذي يرتدي سترة

حمراء، والأرنب السماوي، والقطار، وعربة المطافئ، والتليفون الأزرق بسماعته الحمراء، بالإضافة إلى الطائرة الهليكوبتر الصفراء، وعربات السباق، والحصّالة التي كانت عبارة عن كوخ أحمر يسكنه كلب صغير اسمه (Fido).. كنت أفكر كذلك في العدد الجديد من مجلة (ميكي) أو (سمير) أو (ماجد) الذي سيأتيني اليوم، والهدية الجميلة التي ستأتي معه كقناع (بطوط)، أو جدول حصص (ميكي)، وأيضًا في برامج الأطفال التي سأشاهدها بعد قليل، والتي تأتي قبل مسلسل الظهيرة.. أفكر في عصابة الأشرار المتخيلة التي سأحاربها عبر غرف البيت والبلكونة بمسدسي المكعبات، والتي سأنتصر عليها بالطبع في النهاية).

في يوم مولد النبي من كل عام كان عمي (بلبل) يرسل لي الحصان الأحمر مع (أحمد موسى)، وهو أحد الفرانين الذي يعملون عنده في المخبز.. أتذكر الحصان الأحمر ذا الفارس والسيف فوق الثلاجة القديمة في الصالة، وأستطيع أن أجزم أنني لم أتذوّق مطلقًا منحوتة السكر هذه رغم تأكدي من أنني رأيتها ذات مرة وهي تتحول إلى سائل يغلي فوق البوتوجاز.. كان كلما زارنا عمي في البيت يحضر لي (باكو) شوكولاتة (كورونا) ذات الغلاف الأخضر، والأحمر أحيانًا.. كنت أخجل من تقبيله حين يطلب مني أبي أو أمي ذلك.. كان يظن عمي أن هذا الامتناع دليل على القرف من رائحة العجين، وبقايا لطخات الدقيق الموزعة فوق ملابسه، ولكن هذا لم يكن صحيحًا.. كان يقول لهما: (مش عايز يوسّخ بقه)، وكانت هذه العبارة تستفزني لإثبات خطأها فأقبّله في خده المتهدل، ويقول سعيدًا بها: (الله).

أتذكر أنني كنت ذات صباح أجلس في فرن عمي، وكان يجلس بجواري الفرّان (أحمد موسى)، وكان في يده مسدس.. طلبت منه أن أحمله في يدي فرفض مبتسمًا، وأخبرني أنه خطر، ومن الممكن أن يتسبب في جرحي، ثم قال لي: (شوف) وفرد ذراعه العاري، فوجدت جرحًا

طويلاً يمتد من أسفل كفه حتى كوعه وسط بقعة طولية كبيرة من (الميكروكروم) الجاف.. عرفت بعدها أنه مسدس صوت، ولكنني لم أعرف هل هو ما تسبب فعلاً بهذا الجرح الهائل في ذراع (أحمد موسى)، أم أنه انتهز هذا الجرح الذي لا علاقة للمسدس به كحجة مهذبة للرفض.

كان عمي يستأجر السينمات، وكان (مدحت) يتولى أحيانًا مهمة بيع التذاكر في سينما (أوبرا)، ولهذا كان بيتنا لا يخلو من الإعلانات الكارتونية للأفلام التي تُعلّق وراء نوافذ زجاجية في مدخل السينما.. كانت هذه الإعلانات تحمل صورًا فوتوغرافية لمشاهد من الفيلم مع أسماء أبطاله والعاملين به، وكانت معظم هذه الصور بالأبيض والأسود.

كانت أمي و(ماجدة) تعدان (القُرَص) داخل الحلة الكهربائية فوق الطاولة ذات السيقان الطويلة داخل المطبخ.. كانت رائحتها رائعة، وطعمها شهيًا خاصة لو كانت محشوّة بالعجوة.. في العيد كانتا تعدان البسكويت والكحك والبوتيفور والغُرِيّبة والمُحوّجة.. كانت أمي و(ماجدة) وجدتي يجلسن على الأرض في الصالة حول الطبلية المثبّت على سطحها الخشبي ماكينة البسكويت المنزلية.. كان العجين يوضع في طشت نحاسي كبير، ويُغطى بملاءة أو مفرش كبير.. كنت أحيانًا أساعدهم بلف يد الماكينة التي تخرج منها قطع البسكويت المنقوشة، فتستقبلها يد أمي، وتضعها في الصينية الألومنيوم قبل دخولها الحلة الكهربائية.. كانت هناك أيضًا صاجات سوداء تذهب بالعجين المشكّل إلى فرن عمي، وتعود بالبسكويت والكحك.. يخرج البسكويت من الحلة ساخنًا ولذيذًا إلى طشت كبير آخر، أو إلى طشت بلاستيكي لونه أحمر، كانت له نسختان أصغر لونهما أزرق، وأصفر.. هذه الصاجات السوداء كنت أراها كذلك مغطاة فوق رؤوس الأولاد والبنات خلال المساء قبل أول أيام العيد في الشارع وهم يذهبون ويجيئون بها بين الأفران

وبيوتهم.
كانت أمي تُعد أيضًا البطاطا في حلة مخصصة لها، وكانت رائحتها تسبق طعمها وسخونتها الشهية في ليالي الشتاء الباردة مع المطر، والبيجاما الكستور، وكتب المدرسة، والبلكونة المغلقة، وألبوم (بم بم)، والكراسات، والكشاكيل، ومجلات (ميكي) و(سمير) و(ماجد)، ومسلسلات المساء.
كانت المسلسلات والسهرات الدرامية والبرامج التي تقدّم مواقف تمثيلية ـ كبرنامج (حياتي) مثلاً الذي كان يذاع يوم الجمعة في الخامسة مساءً ـ كانت هذه العروض تشبه حياتنا.. الناس، والشوارع، والمحلات، والسيارات، والبلكونات، ومداخل العمارات، والحجرات، والملابس، والأثاث، واللوحات فوق الحوائط، وأشكال الإضاءة، كل هذا كان يبدو كأنه امتداد لوجودنا.. كل هذا كان مطابقًا تمامًا لما كنا نمتلكه.. كأن التليفزيون كان مرآة تتنقل وهي ثابتة في مكانها بين تفاصيلنا.. كنت أنظر إلى أشياء البيت باعتبارها جزءًا من تلك الحكايات المصوّرة على الشاشة.. ربما يمكن الشعور بأن هناك نوعًا من الكتمان عند مشاهدة أحداث مسلسل من الثمانينيات.. إن جميع الأصوات تنبعث داخل حيز مغلق بإحكام.. هذا بالنسبة لي هو الدفء المشترك لذلك الزمن الذي كان يعيش داخل حجرات المنزل.. الانكماش داخل الهواء المقفول على أرواح متشابهة بطريقة أو بأخرى.. كان هذا التوحد بين الدراما والواقع في تلك الفترة يثبّت تعريفًا شخصيًا للطفولة: اللذة المستقرة الخالصة، التي تغلّف حتى المآسي بشتاء القصص المصورة.
أشياء البيت: باب قديم ذو نافذة صغيرة في المنتصف تُقفل بترباس، وهي جزء من شُراعة كبيرة تُفتح على شبكة معدنية خارجية تواجه الواقف على السلم (كنت دائمًا أكره هذا الباب، غير قادر على تضليل قبح اختلافه عن بقية أبواب شقق العمارة التي كانت أبواب شقق «عادية» مثل تلك التي توجد في بيوت أخرى، ومثل تلك التي

تظهر في المسلسلات والأفلام، أما باب شقتنا فكان يبدو لي طوال الوقت كباب سجن كئيب، ومقبض، يدفن الذين يعيشون وراءه أكثر مما يمنحهم الأمان).. لوحة كبيرة بجوار التليفزيون ذات خلفية سوداء وألوان باهتة، تحوي أنواعًا كثيرة من الفواكه والخضروات.. لوحة لامرأة ريفية ـ تشبه (الموناليزا) لو كانت فلاحة مصرية بيضاء ـ ذات وشم أخضر في ذقنها، تجلس مسندة خدها على كفّها حزنًا لسقوط سلة الفاكهة من فوق كتفها، وتبعثر محتوياتها على الأرض، بينما جلبابها الأسود منزاحًا لأعلى مع ركبتها المرفوعة؛ ليظهر جزء من فخذيها وقطعة زرقاء من سروالها الداخلي.. لوحة لزهور كثيفة يكثر بينها الورد الأحمر فوق سطح أسود قاتم.. لوحة ذات خلفية كحلي، وكتابة ذهبية (وبشّر الصابرين).. صورة للكعبة.

تابلوهات في الصالة (كما وصفتها في قصتي القصيرة «Xvideos“»):

التابلوه الأول كان لبنت جميلة تجلس حافية على مقعد دائري بلا مسند فوق مساحة عشبية ضئيلة، وترسم على اللوحة البيضاء لعلبة الرسم المفتوحة فوق فخذيها تكوينًا يبدو غير محسوم.. لكن بوجود ولد صغير يقف حافيًا هو الآخر وراءها؛ ليشاهد ما ترسمه دون أن تشعر، كنت أعرف أنها ترسمه هو.. كان الولد والبنت يبدوان كأنهما من أبناء الغجر؛ لذا كان باستطاعتي أن أرى كل المشاهد التي لم تظهر في اللوحة.. أُمّ البنت خارج المساحة العشبية تقرأ الودع للعابرين.. أبو الولد يجلس فوق عتبة كوخ متهالك، يعزف على الجيتار ويغني أغنية قديمة، سيختنق بالدموع عند كلمات معينة منها.. كان بمقدوري أن أرى الولد وهو يُطعم حصانه ويربت على ظهره قبل أن ينتبه إلى البنت التي ترسم، ليترك الحصان ويتسلل من ورائها؛ كي ينظر إلى لوحتها دون أن تدرك وجوده.

التابلوه الثاني كان لفتاة شقراء ذات عينين زرقاوين، ترتدي جاكيتًا

قصيرًا من الفرو منسوجًا من تلاحم مساحات طائشة من الأحمر والأزرق والأصفر كأنها رُقع مغوية، غير متطابقة، تناسب التوهج الناري لبنطلونها الجينز الأحمر الضيق، والعُقد الطويل الذي يتدلى من رقبتها وتحمل لآلئه نفس ألوان الجاكيت.. كانت الفتاة تمرر العقد بين إصبعين مرفوعين بالقرب من شفتيها اللتين تعطيان قبلة في الهواء.. رأيت هذه القبلة كامتداد منطقي للوضع الماكر المثبّت لخطوتها.. كان الليل خلفها يؤكد ظلامه بفضل الأضواء الساطعة الجانبية التي كُتبت بها لافتةpark (luna).. لافتة كبيرة، معلّقة وسط تشكيل منتظم أفقيًا من المصابيح البرّاقة، تعلوه دوائر متداخلة من اللمبات الباذخة بالنور الأبيض، حيث تتمركز لمبة واحدة في قلب هذا التداخل؛ فبدت الدوائر كأنها ترابط ناصع لفصوص جوهرة من الماس الأبيض فوق نسيج المساء الحالك.. لكن ما جعل الصورة درامية حقًا هو السيارة (فيات 132) الحمراء، التي تسير وراء البنت دون أن تُظهر زاوية المشهد أي ملامح لسائقها.. هذه السيارة بغموض انعزالها في ذلك المكان وهي تتحرك داخل الليل الذي يطغى سواده على الخلفية دون رفقة من عربات أخرى.. بانعكاس الأضواء اللامعة فوق حضورها المبهم، المتناغم مع خبث الظلام، والمغلق على قائد خفي.. برهبة اللون الأحمر لسطحها المصقول، المريب بتربصه الضبابي، الذي أضاءت نصفه الأمامي أنوار اللافتة، فيما لا يزال نصفه الخلفي داخل عتمة خفيفة كأنها الحواف الضعيفة للظلام.. هذه العلامات جعلتني أرى الصورة تتجاوز حواجز التفسير البديهية المتوقعة، التي تبقيها كمجرد تمثيل لفتاة جميلة، لعوب، تتسكع بمفردها، أو في طريقها لدخول (الملاهي)، أو أن معجبًا ما يتتبعها بسيارته الـ (فيات 132) الحمراء.. رأيت حكاية بوليسية على وشك الحدوث.. مغامرة تستحق أن توجد استجابة لحضور هذه الإشارات.. كأنه سيتبين أن سائق السيارة هو (آلان ديلون) أو (جان

بول بلمندو)، وأن هذا الوقت سيتحول إلى ليل فرنسي يسكر بالمعاطف الثقيلة، والقبعات، وكبائن التليفون الزجاجية، والتلصص من وراء الصحف المفتوحة، والنظارات ذات الأضلاع السميكة، وغرف الفنادق، والمطاردات، وإطلاق الرصاص، والقبلات التي تتدفق الموسيقى من رعشاتها.. كان خيالي يحرص تمامًا على ألا يتعرض أحد لأذى داخل تلك الحكاية.

التابلوه الثالث كان لطفلين يظهران كأبناء مزارعين من الريف الأوروبي في أواخر القرن التاسع عشر.. الطفلة تجلس فوق كرسي كبير مرتدية فستانًا أبيض كعروس صغيرة، والطفل يقف وراءها رافعًا قبعته بيده اليسرى بينما باقة ورد متعددة الألوان تستقر في يده اليمنى.. بدا الطفلان كأنهما يقضيان كل نهار في اللعب داخل الحقول التي رسمها (فان جوخ)، وأن هذه اللوحة كانت تجهيزًا لمشهد قادم سيحدث بعد سنوات.. لم أعرف حتى الآن هل سيكون هذا المشهد سببًا في سعادة الحقول، أم أنه سيكون مصدرًا لتعاستها حتى لو حصلت على أطفال جدد سيلعبون في نهاراتها.

ماكينة خياطة (سنجر مرسيدس) كانت تستعملها جدتي وأمي وأختي، وكانت توضع أمام الكنبة بجوار حجرة والديّ، وأحيانًا كانت تنتقل صباحًا إلى داخل هذه الحجرة؛ لتوضع بجوار البابين المغلقين للبلكونة ذات الشيش المفتوح.. كانت جدتي تجلس خلفها ـ حيث أبي في عمله خارج البيت ـ وتفصّل الملابس.. كانت الصالة وحجرة والديّ تمتلئان أحيانًا ـ عندما تعمل ماكينة الخياطة وقتًا طويلاً وأيامًا متواصلة ـ بالأقمشة، والقصاصات، وبكرات الخيوط، بالإضافة إلى (المازورة) الملونة في أحد وجهيها بالأصفر، وفي الوجه الآخر بالأبيض والأحمر والأخضر ـ كالتي كان يستعملها (يوسف شعبان) في مسلسل (عيلة الدوغري) ـ وكذلك المتر الخشبي القديم ذو اللون البني الفاتح.. لي

تجربة مروعة مع هذه الماكينة كتبتها في نص قديم اسمه (الحبل السُري):
(بينما كان صغيرًا
كان يراهم يضعون القطع القماشية الممزقة
أو المنفصلة عن بعضها البعض
أسفل إبرة ماكينة الخياطة
ثم يديرون المقود الدائري
لتتحرك الإبرة سريعًا فوق ثقوب القماش
والقطع المتباعدة
فتختفي الثقوب
وتتلاحم القطع المتباعدة
كان مبهورًا بما يراه
حتى أنه انتهز فرصة عدم انتباههم له
وابتعادهم عن ماكينة الخياطة
وقرر أن يمارس الأمر بنفسه
لم يبحث عن قماش ممزق ليرتقه
أو قطع متباعدة ليلحمها
فقط
وضع إصبعه الصغير أسفل الإبرة
وأدار المقود
بالطبع
كانت هناك دماء كثيرة
وصرخات كثيرة
وألم كبير

لكنه بعد أن انتهى من البكاء
وبعد أن صار إصبعه ملفوفًا بضمادة سميكة
لم يعرف لماذا فعل ذلك
لماذا وضع إصبعه بديلاً للقماش
حتى بعد سنوات كثيرة جدًا
لم يعرف
فقط
كان يشعر بضرورة ما فعله
حتى أنه إلى الآن
وكلما وقعت عيناه على ماكينة خياطة
يظل يتأملها طويلاً
ثم بشكل تلقائي جدًا
يجد نفسه متوجهًا في صمت
نحو أية مرآة قريبة).

أريد الآن أن أذكر شيئين أساسيين في هذا الحدث: الأول أن إبرة ماكينة الخياطة اخترقت إظفر إبهامي من المنتصف وخرجت من الناحية الأخرى.. الثاني أن أمي حينما رأت المشهد لم ترفع إبرة الماكينة بالمقود، وإنما بجزع ودون تفكير أسرعت بجذب يدي بقوة والإبرة واقفة بثبات داخل إبهامي؛ مما أدى لتعاظم المأساة.. الغريب جدًا أن ما حدث في هذا اليوم لم يترك أي أثر في إصبعي، وهو ما لا أستطيع استيعابه حتى الآن.

(دلسوار) عليه طبقان زجاجيان متماثلان لونهما أخضر.. مشمّع أخضر مفروش في أرضية الصالة بزخارف كبيرة متلاصقة ومتراصة كل منها على شكل وردة.. زجاجات (أبو فاس) الخضراء لفتح الأنف عند الزكام، وكانت توجد مع أدوية أخرى كـ (توسيفان) و(برونكستال)

والأسبرين في الأجزخانة الخشبية ذات اللون البني المعلقة في حجرة أبي.. خرطوم ماء أخضر مضلّع في الحمام.. مجسّم لثمرة أناناس ملتصقة بحائط المطبخ.. سخان كبير من الصاج الأبيض، ثم سخان جديد لونه رمادي.. غسالة قديمة لونها أبيض انتقلت إلى البلكونة بعد انتهاء خدمتها، ثم بمرور الوقت بدأت في وضع مجلاتي وقصصي فوقها لتصبح مكتبة حاضرة داخل مكاني المفضل للقراءة خاصة فيما بين العصر والمغرب.. عشة فراخ في البلكونة من دور واحد، مرفوعة على أربعة أرجل، ولها باب وحيد من الأسلاك المتقاطعة، وكانت تتراكم فوقها ألوح خشبية قديمة، أتذكر جيدًا الدجاج وهو ينظر لي من داخل العشة عبر الأسلاك، وأتذكر حركتهم السريعة، وروائحهم، وأصواتهم الصاخبة المتلاحقة، وإن كانت تربية الدجاج قد انتهت في فترة مبكرة من طفولتي.. غلاية داخل الحمام لونها رصاصي، كانت توضع فوق حمالة (الوابور)، ومعها عصا طويلة لتقليب الملابس البيضاء في أثناء غلي المياه، مع (البوتاس) ومسحوق الغسيل و(الصودا)، وكانت الملابس تُرفع بالعصا لتُنقل إلى الطشت.. سفينة كبيرة تُضاء مصابيحها الصغيرة والكثيرة بالكهرباء، وتتوهج بشكل أقوى في الظلام كما جربناها أول مرة في حجرة أبي، كانت (ماجدة) تحتفظ بها في دولابها (الإيديال).. عروسة تفتح وتغلق عينيها المضيئتين مع الموسيقى.. تمثال لأحصنة بنية مثبّتة على وضع الجموح فوق السطح الرخامي لطاولة الصالون.. صاعقا ناموس كهربائيان، في الأغلب كانا من ضمن الحصيلة التي أتى بها أبي من (السعودية)، أحدهما كان لونه أصفر، وهو الذي كان يُستعمل دائمًا، أما الآخر فكان لونه لبنيًا، وكان نادرًا ما يتم استخدامه (كان الضوء البنفسجي الساطع للصاعق في ظلام الصالة أشبه بحفل محدود، باذخ النور، يدور داخل ذلك الكيان الصغير الواقف في ركن من أرضية الصالة، يتحتم عليك أن تتركه، وتذهب للنوم مكتفيًا بسماع

الأصوات القوية والمفاجئة للصعق المتتابع، دون تفكير في أنها صادرة عن مذبحة متواصلة طوال الليل، وإنما عن كرنفال مضيء، أُرغِمت على عدم مشاهدته، والاكتفاء بالتحديق الشغوف صباحًا في الجثث الضئيلة التي خلّفها).. مطبقية كبيرة مطلية بالأبيض، معلّقة فوق حوض المطبخ، بها أنواع مختلفة من الأطباق: (أطباق حمراء غامقة صغيرة، وغويطة، منقوش عليها زخارف بارزة غالبًا على هيئة أوراق الشجر أو الورد.. أطباق حمراء فاتحة وصغيرة، أقل عمقًا من الأولى، وتخلو من الزخارف، وكان المكان الثابت لهاتين النوعيتين من الأطباق في مقدمة المطبقية على الجانب الأيمن، حيث كانت يتراص بعضها فوق بعضٍ بميلٍ على جانبها.. كنت أستعمل طبقين منهما في زراعة الفول والحلبة كما تعلّمت في المدرسة؛ إذ كنت أفرش القطن المبلل في أرضية كل طبق، وأثبّت حبات الفول والحلبة فوقه، ثم أضع الطبقين في البلكونة، وأحيانًا كنت أتركهما فوق الحافة العريضة لشباك المطبخ المفتوح، مثلما كنت أنقل البرطمان الزجاجي الذي وضعت فيه حبة البطاطا وسط الماء بجذورها البيضاء الكثيفة الملتفة حول بعضها، وأغصانها البنفسجية الطويلة ـ كان يجب لمّها بخيط أحيانًا وبرفق تام، وربط طرفه بمسمار لو أردنا الحفاظ على مسار نموها لأعلى ـ وبأوراقها الخضراء العريضة، من البلكونة إلى حافة شباك المطبخ أيضًا.. كذلك كان يوجد طبق لبني كبير، وذو دوائر مفرغة، تحيط بكامل استدارته العميقة.. جميع هذه الأطباق كنت أستعملها كـ (دركسيون)، وأدور وأجري بها بين الغرف وعبر الأبواب، وضلفات الشيش المفتوحة في الحجرتين، مقلدًا حركات أيدي سائقي السيارات التي كنت أتابعها في الشارع عبر البلكونة، أو في عربات التاكسي التي كنت أذهب وأعود بها مع أبي وأمي في الطريق الفاصل بين بيتنا ومنزل عمتي، أو في الأفلام والمسلسلات حيث تعلّمت بواسطة المراقبة والتركيز كيفية توجيه عجلة القيادة (الطبق) بالشكل

الصحيح في جميع الاتجاهات.. كنت أستعمل (فتيس) خياليًا، بتحريك يدي في الهواء في أثناء الجري، كأنه موجود فعلاً، وأحيانًا كنت أستعمل (بايب) لعبة لونه لبني مصنوع من البلاستيك السميك كناقل للحركة.. كان لهذا البابيب سلة صغيرة تثبّت في بدايته، وكرة بيضاء توضع بداخلها.. كانت هذه الكرة ترتفع في الهواء وتسقط ثانية داخل السلة مع النفخ في أنبوب (البايب).. اكتشفت إمكانية تثبيت طرف (البايب) ـ الذي يوضع بالفم ـ في إحدى فتحات الطبق اللبني الكبير، كما كان الطرف الآخر من (البايب) يقارب الجزء الدائري العلوي من (الفتيس) الذي تمسك به أيدي السائقين، وكان هذا الاكتشاف سببًا في سعادة كبيرة لي.. ظل الطبق اللبني الكبير ـ حتى بدون (البايب) ـ هو أفضل الأطباق التي استخدمتها في القيادة في أثناء المغامرات المتخيلة التي كنت أخترع أحداثها عبر أرجاء البيت عدا حجرة (مجدي).. قطع لبان كبيرة ملتصقة بالبلاط تتحول مع تعاقب الأيام من الأبيض إلى الأسود.. نتائج حائط من الكارتون، كنت أفرح بمجيئها في بداية كل عام؛ حيث الشهور والأيام ومواقيت الصلاة والحكم القصيرة ما تزال متوارية وراء غلاف ورقي أزرق في الغالب، لم يُنزع بعد.. مكوتان؛ الأقدم كانت صغيرة ولها مقبض أسود، أما الأحدث فكانت كبيرة وبيضاء وأكثر أناقة.. شباشب (زنوبة) خضراء وزقاء، وأتذكر امتلاكي وأنا طفل صغير لشبشب بلاستيك لونه عسلي أو بني، وكانت الحافة الداخلية لوجهه العريض تجرح قدمي أحيانًا، أو تترك علامة حمراء غائرة عند خلعه.. علبتان للحلوى: الأولى كبيرة لونها سُكري، ولغطائها زخارف وثقوب تجعله يبدو كقطعة دائرية صغيرة منتزعة من مشربية، وكانت توضع بداخل هذه العلبة الشوكولاتة والبونبون وأحيانًا البسكويت والكحك والحلويات الأخرى التي يتم إعدادها منزليًا قرب الأعياد.. العلبة الأخرى ذات لون ذهبي، وغطاؤها مزيّن باللون الكحلي مع أربع

سلال من الزهور، وكلمة (نادلر) باللون الأحمر في المنتصف.. أنبوبات صمغ بيضاء ذات أغطية زرقاء.. أنابيب صمغ أخرى (أمير)، و(أوهو).. بكرات (سوليتب)، و(شيكرتون).. زجاجة حبر ذات غطاء أزرق، داخل علبة بيضاء.

كان (مجدي) يسهر معنا أمام التليفزيون أحيانًا، خاصة حينما يعرض برنامج (نادي السينما) يوم السبت على القناة الأولى، أو برنامج (أوسكار) يوم الخميس على القناة الثانية - فيلمًا أجنبيًا جميلاً.. في إحدى الليالي، وحينما عرف أن السهرة ستكون مع فيلم (الطيب والشرس والقبيح) أرسلني لشراء اللب الأبيض، والأسمر، والفول المملح.. كانت أول مرة أشاهد هذا الفيلم، وانبهرت بشخصياته وأحداثه وبموسيقاه التي كانت مخيفة بالنسبة لي وأنا جالس بجوار (ماجدة)، و(مجدي)، و(مدحت).. لم يكن غريبًا بعد ذلك أن أُقلد حركات (كلينت إيستوود) ونظرة عينيه، وتعبيرات وجهه، وطريقة كلامه مستعيدًا مشاهد الفيلم من الذاكرة مع لحنه المرعب.

من أجمل الأفلام الأجنبية التي شاهدتها في برنامجي (نادي السينما) و(أوسكار): (الطيب والشرس والقبيح)، (سيدتي الجميلة)، (الرجل الفيل) ـ لا أنسى أبدًا بكاء (ماجدة) في نهاية هذا الفيلم، ولا الدموع التي كتمتها في حلقي، وأنا جالس بجوارها في ظلام الصالة.. (الهروب الكبير).. (كازبلانكا).. (ذهب مع الريح).. (غناء تحت المطر).. (صوت الموسيقى).. (الطيور).. (سايكو).. (النافذة الخلفية).. (ثلوج كليمنجارو).. (عمر المختار).. (زوربا اليوناني).. (إيرما لادوس).. (جيلدا).. (ثائر بلا سبب).. (الفك المفترس).. (أحدب نوتردام).. (كيلوباترا).

في سهرة يوم آخر وبينما كنا جميعًا جالسين أمام التليفزيون، حيث كان يُعرض فيلم (أنا وأنت وساعات السفر)، ورأى (مجدي) الرجل الذي كان يلعب مع (محمد الشرقاوي) الكوتشينة في القطار وهو

يقوم بحركات بهلوانية بأوراق اللعب، قال مندهشًا: (آآآآآآآآآآآآ)، كأنه لا يصدق أن هذه الحركات حقيقية، أو كأنه يخبرنا بطريقة غير مباشرة أنه ـ أي (مجدي) ـ كلاعب كوتشينة محترف يرى في هذا الأكروبات الورقي مبالغة غير منطقية وراءها خدعة ما.

كنا نحب ـ خاصة أنا و(ماجدة) و(مدحت) ـ حلقات (ماكجيفر) التي كان يعرضها برنامج (اخترنا لك) في سهرة يوم الأربعاء.. كنا نعشق أيضًا الأفلام البوليسية الفرنسية، التي كان أبطالها (آلان ديلون) و(جان بول بلموندو)، وكان يعرضها برنامج (بانوراما فرنسية) في سهرة يوم الثلاثاء مع أغنيات لـ (داليدا) و(شارل أزنافور) و(ميراي ماتيو).. هذه الأفلام تحديدًا كانت عندي تجسيدًا مبهرًا لما يمكن أن يعنيه الشتاء الليلي في الثمانينيات داخل حجرة مغلقة، يمكنك من خلالها إدارة العالم.. الاختزال البليغ للغموض القابع تحت الأغطية الثقيلة.. كنت أعيش دائمًا هناك، وفي هذا الوقت: أخطط داخل البرد، ومن تحت البطانيتين واللحاف للمعجزات التي تحدث في الخارج تحت المطر، حيث لا يتصل انكماشي بأبعد الأماكن فحسب، وإنما بأبعد الأزمنة أيضًا.

ذات يوم شاركني أبي لعب الكرة ـ شاركني مرة أيضًا رؤية المطر الغزير والإنصات لموسيقاه وهو ينهمر بشدة فوق شبابيك السنترال العالية بجوار سقف سينما (النصر) في صباح بارد، حيث كان يمكننا رؤية علم مصر وهو يرتجف بقوة مع عنف الهواء فوق مبنى (بنك مصر) عند النظر إلى أقصى اليسار بعد السنترال ـ كنت ألعب ذات صباح في حجرتي بالكرة البلاستيكية المقسّمة لخطوط متعرّجة باللونين الأبيض والأصفر حينما طلب مني أبي أن أقف كحارس مرمى أمام ضلفتي البلكونة المفتوحتين، والمتصلتين بالشنكل.. صوّب أبي الكرة على يميني بقوة، وكان بإمكاني صدها، لكنني تركتها تدخل المرمى مدعيًا بحركة

بهلوانية تعلمتها من حرّاس المرمى في التليفزيون أنني حاولت منعها لكنني فشلت.. أسهم هذا الادعاء في خروج الهدف بشكل رائع؛ مما جعل أبي يضحك بفرح قائلاً: (ده جون ابن كلب).. كأنني حينما تركته يحرز الهدف، وبهذه الطريقة الاستعراضية كنت أريد أن أشكره بشكل غير مباشر على مشاركته لي لعب الكرة لأول مرة، ودون أن أطلب منه؛ إذ كنت أعرف أنه سيرفض، وربما بغضب عنيف لو فعلت.. كنت أتمنى أيضًا أن يمنع الهدف الجميل من تسرّب الملل إليه، وأن يُحمّسه لمواصلة اللعب معي أطول وقت ممكن.. أن يؤجل عودته إلى طبيعته الصارمة.. سدد أبي ضربات جزاء كثيرة في هذا اليوم، تركتها جميعًا تدخل المرمى ـ عدا التي كانت تخطئ الطريق وحدها وتمر بجوار أحد بابي البلكونة، أو تصطدم في جسدي رغمًا عني.. كانت هذه أول وآخر مرة يلعب معي الكرة، لكنه في أحيان نادرة كان يلعب معي (رست)؛ حيث كنت أتصارع مع قبضته السمينة القوية بكفيّ الاثنتين ـ أحيانًا كنت أتصارع مع إبهام يده فقط ـ وكان يكسب دائمًا رغم محاولاتي المستميتة للفوز.. ذات مرة قال لي ضاحكًا وهو يراقب المجهود البشع، والفاشل الذي أبذله في الضغط على يده لإنزالها إلى أسفل: (هيجيلك فتاء!).

في أحيان نادرة أخرى كان يلعب معي لعبة (أي يد؟)، حيث كان كلما أراد أن يعطيني عملة معدنية: (شلن) أو (بريزة) يقبض عليها في كفه المضمومة، ويمدها بجوار كفه المضمومة الأخرى الفارغة، ويطلب مني تخمين أين توجد العملة.. كان يضحك كلما أخطأت في اختيار اليد، ولكنه عندما أنجح في تخمين اليد الصحيحة كان يتلكأ في فتحها محاولاً التخلص من ورطة مكسبي للعبة.. كنت حينئذ لا أتردد في الهجوم على يده التي اخترتها، باذلاً بيديّ الصغيرتين جهدًا كبيرًا في الإفراج عن العملة من وراء أصابعه القوية التي لا يريد فردها.. كان

في النهاية يستجيب لي ضاحكًا، ويتركني أفتح كفه؛ لآخذ العملة التي تتحوّل لحظتها إلى ما هو أكبر من ذلك.
كانت الدعابة التي تتكرر بيني وبين أبي ـ بعدما كبرت قليلاً ـ هي اللحظة التي أطلب فيها النقود منه.. يفتح الدولاب لإحضارها لي من أحد جيوب البِدّل المتراصة بداخله.. كان يُخرج رزمة مالية كبيرة، ويعد منها القدر الذي سآخذه، ثم آتي من ورائه دون أن يشعر، وأتابع إحصاءه العاجل للفلوس.. عندئذ كان ينتبه لي ويضحك ـ لم يكن يحب أن يرى أحد نقوده أو يشاهده وهو يعدّها ـ ثم يسألني بارتباك مبتسم وهو يُخفي الرزمة كأنني أنظر إليه وهو يقضي حاجته: (إنت بتبص على إيه؟).
من دعابات أبي معي أيضًا أنه كان يناديني في أحيانٍ كثيرة بـ (فتحي)، وكنت أظن أن (فتحي) هذا شخصية حقيقية من أقارب أبي، لكنني تأكدت بعد ذلك أنه مجرد اسم رجل كبير يناقض اسمي الأكثر طفولة وشبابًا، وهي المفارقة التي كان يروق له أن يمازحني بها.
لا يمكنني أن أنسى الضحك الذي تملكني حينما دخلت حجرته ذات يوم، ووجدته جالسًا على الأرض وحوله العديد من الأحذية؛ ليدهنها بالورنيش.. كان ينبغي أن أُحضر شيئًا لأمي من فوق التسريحة، وكان هذا يعني ضرورة تجاوزي للمساحة الضيقة التي يحتلها جسد أبي مع الأحذية المبعثرة، وعلب الورنيش، والفُرَش، والقطع القماشية الصغيرة الملوثة بالدهانين الأسود والبني.. لم أنجح في أثناء عبوري هذا الزحام في تفادي فردة أحد الأحذية؛ فطوحتها بقدمي تحت التسريحة.. النظرة التي كانت في عيني أبي لحظتها هي التي جعلتني أضحك بعد خروجي من حجرته بهذا الشكل؛ إذ كانت نظرة صامتة لطفل حانق، خائب الأمل، نفد صبره على تحمّل مضايقات الكبار، وتصرفاتهم اللامبالية، ومع ذلك لا يقوى على مواجهتهم بما في صدره من احتجاج.. كان

غريبًا أن تخرج هذه النظرة بالذات من عيني أبي؛ فقد كانت ـ لأبعد مدى ـ مضادة لطباعه ولتكوينه الجسماني، حتى أنني ظننت أنه يحاول تقليد انطباعات رآها في عينيّ أنا من قبل، أو في عيني أحد آخر.. لكنني بعد وقت طويل للغاية عرفت أنها نظرته الحقيقية، وكل ما كان نقيضًا لها هو محض ادعاء، أكل عمره كله.

أمي وأختي كانتا تذهبان دائمًا إلى (عمر أفندي)، و(صيدناوي)، و(بنزايون)، و(بيع المصنوعات) لشراء الأقمشة.. كانتا تأخذاني معهما وقت المغرب.. في أحد هذه المحلات رأيت ذات مرة ولدًا نحيلاً جدًا ذكّرني بإفيه (سمير غانم) عن الفرخة في مسرحية (المتزوجون): (هي المرحومة جالها السُل إمتى؟).. كنت أردد هذا الإفيه كثيرًا في تلك الفترة بشكل عام وفي أي مناسبة، لكنه بدا أكثر اتفاقًا مع الولد الصغير فسألته: (انت جالك السل قبل كده؟).. ربما انتهزت عدم انتباهي لأمه، أو لأي مرافق له بعدما رأيته يقف وحده في المحل.. نهرتني أمي، وأخبرتني (ماجدة) أن هذه عبارة سيئة لا يصح أن أرددها أو أن أقولها لأحد.. في مرة أخرى كنا عائدين من أحد هذه المحلات إلى البيت، وفي أثناء مرورنا عند سينما (عدن)، وبينما كانت يدي في كف أمي؛ احتك ذراعي المكشوف بذراعٍ عارٍ لشابة جميلة كانت تقارب عمر أختي كما بدا لي، وكانت تمر في الاتجاه المعاكس بجواري.. وجدت نفسي أقبّل ذراعي في مكان الاحتكاك، وأنظر للخلف نحوها بينما أكملت الشابة الجميلة سيرها دون التفات لي.

كنت أحب الصور الملونة التي تُنزع من الأوراق المثبّتة في ظهرها، ثم تُلصق على الكراسات والكشاكيل والكتب، سواء فوق الأغلفة أم في الصفحات الداخلية.. كانت الصور عبارة عن: ورد ـ عصافير ـ أشجار ـ قطط وكلاب ـ نجوم ـ وجوه مبتسمة لأولاد وبنات ـ شخصيات مجلة ميكي.. هذه الصور كانت موجودة على (التكت) الذي كان يُباع في هيئة

شرائط طويلة، ويُلصق على الكراسات والكشاكيل فوق (الجلّاد)، وكانت من أشهر صور (التكت) صورة لـ (دقدق) الأخ الأكبر للـ (الخنازير الثلاثة) من مجلة (ميكي).. كان هناك (جلّاد) أزرق، وأحمر، وأصفر، وأخضر، كما كان يوجد منه الأبيض أو الرمادي الفاتح بزهور حمراء وزرقاء صغيرة.. كذلك كان هناك نوع من (الجلّاد) عبارة عن ملصق على شكل ألواح خشبية يُغلّف الكراسة أو الكشكول أو الكتاب؛ بحيث يوحي أنه جزء من حائط أو طاولة (ذات مرة داعبتني زميلتي "أميرة المصري" بأن طرقت بعقلة إصبعها الوسطى على أحد كتبي المغلّفة بـ "الجلّاد الخشبي" كأنها تطرق بابًا).

كانت حقائب أبي التي عاد بها من (السعودية) نائمة فوق دولابه وتحت سريره.. كان يوجد بها أقمشة وملابس لم تُستعمل، أو استُعملت لمرات قليلة، وكذلك الملابس التي ما زالت قابلة للاستخدام.. حينما يأتي وقت استبدال ملابس الصيف بملابس الشتاء أو العكس كانت أمي تطلب مني الجلوس على الحقيبة المكتظة حتى تتمكن من غلقها.. كانت هناك حقائب جلدية ألوانها بيج ولبني وأسود، وحقيبة قماشية لونها نبيتي على هيئة مربعات صغيرة.. كان للحقائب أيضًا مفاتيح، أحدها كان معلقًا في ميدالية مستطيلة لونها بني، وعليها زهور حمراء صغيرة جدًا.

عمل (مجدي) فترة في شركة (إفريدي) للبطاريات.. كان ميكروباص صغير مخصص للعاملين يأتي، يحمل اسم و(لوجو) الشركة، ويقف تحت البيت كل يوم في ساعة محددة من العصر ليقل أخي إلى العمل.. ألصق أخي على زجاج الشباك الفاصل بين حجرته وحجرة أبي وأمي صورة دعائية يطغى على فراغها اللون السماوي، ومكتوب عليها بخط أسود كبير (حقق أحلامك مع يانصيب إفريدي)، تحت هذه العبارة صورة الممثل (أحمد نبيل) وسط الجوائز: (سيارة 126 بيضاء ـ كاسيت ـ راديو ـ آلة حاسبة ـ ساعة رقمية ـ تليفزيون ملوّن ـ موتوسيكل جاوا)..

في نهاية الإعلان كان مكتوبًا الشعار الشهير للشركة (إفريدي حجر حياته أطول).

لا أتذكر جيدًا أي حدث أو مناسبة تسببت في صنع فتحة في جدار حجرة أبي.. ربما كان بسبب أعمال بناء في عمارة (المكاوي) الملاصقة لبيتنا.. كانت فتحة صغيرة في الجدار الذي ينبغي أن يكون فاصلاً بين حجرة أبي وعيادة الدكتور (صبري المكاوي) طبيب الأسنان.. كان غريبًا للغاية أن أنظر من هذه الفتحة فأجد الخرابة الكبيرة التي تقع خلف المنزل، وتحديدًا في شارع (صيام).. كنت أفكر في أن هذه الفتحة تطل على المكان الخاطئ؛ فطالما أنها موجودة في هذا الجدار بالذات، فينبغي لمن ينظر خلالها أن يشاهد حجرة الكشف في عيادة (صبري المكاوي) وليس هذه الخرابة.. بدا لي أن حجرة أبي تتحرك عندما أنظر من هذه الفتحة، أو أن الخرابة هي التي تنزاح عن مكانها.. لكن عمومًا كان هذا الثقب في الجدار باعثًا للفرح بالنسبة لي.. كأنها كوة مفاجئة فُتحت على كون آخر، وليس شارعًا مختلفًا.. كأنها كانت ممرًا أستطيع الطيران من خلاله سرًا، أو نافذة سحرية يمكنني أن أراقب منها مشاهد عجيبة لأسطورة ستحدث خلسة في الليل.. كأن أسرتي كلها مُنحت حياة أخرى بواسطة هذه الفتحة.. عرفت بعد ذلك أن ما كنت أراه كان طبيعيًا؛ لأن جدار العيادة الذي يفصل بين حجرة أبي والخرابة لم يكن قد تم بناؤه بعد.

حينما أحضر أبي أكثر من راديو صغير بحجم اليد من (السعودية) احتفظت بواحد خلق عندي من الطفولة إدمان الاستماع إلى الإذاعة.. كنت أستمع إلى برامج (قال الفيلسوف) و(مسرح المنوعات)، و(قطوف الأدب من كلام العرب) و(لغتنا الجميلة) و(شاهد على العصر)، (بابا شارو)، (أبلة فضيلة). وكنت أسمع هذين البرنامجين أيضًا من راديو المسجّل الخاص بأبي المستند إلى الحائط فوق سريره في الصباح.. كان

الراديو ذا واجهة فضية بها دائرتان صغيرتان في أعلى الجانب الأيسر؛ الدائرة الكبرى السوداء تحتوي الصغرى ذات الحافة البيضاء، والقلب الأسود المكتمل الذي يبدو مع الدائرتين كعينٍ واحدة للراديو.. تحت هذه العين مستطيل شفاف صغير له إطار أزرق، أرضيته سوداء يتنقل بداخله المؤشر بين المحطات المرقمة باللون الأبيض مع تحريك الإصبع للدائرة البارزة من فتحتين في أعلى الراديو، وفي جانبه الأيمن.. تحت مستطيل المحطات تنتظم رأسيًا خطوط سوداء رفيعة، بنفس المساحة العرضية للمستطيل تتوزع في منتصفها ثقوب السماعة المستقرة داخل الراديو مُشكّلة دائرة من الفراغات الضئيلة.. كان للراديو أيضًا مصباح صغير للغاية يضيء من ثقب في الأعلى بجانب دائرة الفتح والإغلاق، والتحكم في مستوى الصوت، التي تبرز من فتحة مجاورة لدائرة تحريك المؤشر.. كان زر إضاءة المصباح وإطفائه يوجد في ظهر الراديو على هيئة قرص أبيض صغير، على جانبه الأيمن علامة منقوشة فوق المعدن الأسود لخلفية الراديو، تشير بالخطوط الثلاثة للأشعة المنبعثة من نصف دائرة كأنها المصباح إلى أنه يجب الضغط على الطرف الأيمن من القرص الأبيض لإضاءة المصباح، كما يشير غياب خطوط الأشعة في نفس العلامة المنقوشة على الجانب الأيسر إلى أنه يجب الضغط على الطرف الأيسر من القرص الأبيض لإطفاء المصباح.. تحت زر الإضاءة يوجد الباب العريض المقفول على تجويف منقسم جزئين، حيث توضع بطاريتا التشغيل.. كنت أستعمل المصباح الصغير ـ حتى في أثناء غلق الراديو ـ في إضاءة العالم المظلم أسفل أغطية الشتاء آخر الليل في أثناء نوم الجميع.. أراقب بواسطة النور الضعيف، والذي يصبح أقوى مع حضوره داخل مساحة محدودة ومغلقة من العتمة كتلك التي تحت البطانيتين واللحاف، أراقب التعرجات الداخلية للأغطية، ومساراتها الملتوية والمتقاطعة، والثنيات متفاوتة العمق، التي

تكوّن جبالاً ووديانًا وكهوفًا.. أتخيل جسدي الصغير المنكمش داخل هذه العزلة المسحورة، يتحرك بين مغامرات سرية يُعزز ابتكاراتها البرد، وصوت المطر وراء شيش البلكونة المغلق، وبابيها المصكوكين بإحكام مع الملاءة العريضة الملفوفة دائريًا حول نفسها لتصنع حاجزًا طوليًا سميكًا يصد الهواء الثلجي المتسرّب من عتبة بابي البلكونة، وكذلك الظلال الساكنة على الحائط لأثاث الحجرة المظلمة مع انعكاس النور الباهت فوقها، القادم من الصالة عبر الباب الموارب.. كأنه في تلك اللحظات تُشيّد جسور خفية بين سريري، ومجلات القصص المصورة، والروايات البوليسية المستيقظة مثلي على بُعد خطوات فوق الكوميدينو أو الطاولة الصغيرة.. كنت أحيانًا أتسلل دون صوت لإحضار مجلة أو رواية، ثم أعود لقراءتها تحت الأغطية على ضوء مصباح الراديو؛ كي أحصل على صلة أقوى بالمغامرة التي تدور في الخفاء.. كأنني كنت أعطي للأحداث المرسومة والمقروءة أبعادًا مكانية وزمانية جديدة تخصني، وكأنني أيضًا أمنح الحجرة والبرد وأصوات المطر والانطواء الدافئ تحت البطانيتين واللحاف الإثارة التي يستحقونها، ويتوقون إليها.. أتذكر أنني ذات مرة كنت أجلس وحدي في غرفتي أنا و(ماجدة) و(مدحت) أقلّب في محطات الراديو، بينما كانوا يشاهدون التليفزيون وقت السهرة، وبعدما فشلت في العثور على الدراما قررت الإبقاء على أغنية (ألف ليلة) لأم كلثوم؛ أملاً في إذاعة مسلسل بعد انتهائها.. كانت أول مرة أستمع فيها إلى هذه الأغنية، وأحببتها جدًا؛ فتحوّل الانتظار إلى انسجام.. وصلت الأغنية إلى آذانهم في الصالة؛ فاستغربوا من استماع طفل لـ (أم كلثوم)، وكان هذا الاستغراب محفزًا لشعوري بالتباهي الذي ظل صامتًا.. نعم أنا لا أستمع لـ (أم كلثوم) وحسب، بل ومستمتع بأغنيتها أيضًا.. أنا لم أعد صغيرًا.

كنت آخذ الراديو معي في الفراش، وأستمع إليه بأخفض مستوى ممكن

من الصوت.. وقتئذ كنت أنام بجوار (مدحت)، بينما (ماجدة) على السرير الآخر، وجدتي تنام على الأرض بين السريرين.. سمعت في أحد الليالي قبل النوم عبر هذا الراديو أغنية (حطة يا بطة يا فلفل شطة) من فيلم (بائعة الجرائد).. ذات يوم كانت السهرة مع مسرحية (المتزوجون)، وحاولت بقدر ما أستطيع كتمان ضحكاتي، لكنني لم أنجح؛ الأمر الذي أيقظ أخي الذي لم يكن يعرف أن معي راديو أصلاً في السرير.. ظللت أضحك، وأهز السرير في الظلام بضحكاتي المكتومة، و(مدحت) يسألني بغيظ: (بتضحك على إيه؟)؛ فتزيد غفلته من ضحكي.. لم أخبره بأمر الراديو؛ حتى لا يصر على أخذه مني ليتمكن من النوم، وتركته يظن أنني تذكرت أشياءَ كوميدية، هي التي دفعتني للضحك.. بعد عودة (مدحت) للنوم قررت استخدام طريقة السُعال لإخماد الضحك، بحيث تتحوّل الضحكة إلى كحة مصطنعة فورًا تشبه تلك التي يمكن أن يتعرّض لها أي إنسان وهو نائم دون أن تثير غضب من يشاركونه الحجرة.. لكنني اكتشفت أن في هذه الطريقة قتلاً لاستمتاعي بالمسرحية.. أطفأت الراديو، وبدأت في استدعاء النوم.

من ضمن التصرفات الغريبة التي قمت بها دون مبرر أكثر من الرغبة في فعل شيء لم أجربه من قبل هو أنني في إحدى حصص الألعاب، وبعد وقت قصير من بداية المباراة التي نظّمها (أستاذ عزت) توجهت إليه وسألته: (فيه تبديل؟).. لم أكن أشعر بتعب، ولم يكن هناك أي سبب يجبرني على ترك المباراة، بالعكس كانت عندي رغبة في استكمالها، لكن خطرت ببالي الفكرة فجأة، وقررت تنفيذها؛ كي أختبر لحظة تبديل اللاعبين التي أشاهدها في كل مباريات التليفزيون.. لم يكن هناك تلاميذ احتياطيون؛ إذ كانوا جميعهم مشتركين في اللعب؛ فأخبرني (أستاذ عزت) أنه لا يوجد تبديل، ولكن إذا لم تكن عندي الرغبة في استكمال المباراة يمكنني الخروج ببساطة، والجلوس خارج

الخط.. كان هذا تمزيقًا غير متوقع للصورة التي أردت لها أن تكتمل.. شعرت بالخجل من الخروج والجلوس وحدي بينما كل زملائي يلعبون المباراة.. صحيح أنني كنت أريد مغادرة الملعب فعلاً، ولكن بطريقة مختلفة: مصافحة لاعب آخر يقوم بعمليات الإحماء على الخط، ثم تقبيله واحتضانه ثم خروجي ودخوله.. قررت العودة إلى الملعب، لكنه كان رجوعًا بلا روح.

كان لكل فصل لون فانلة مميز في حصص الألعاب يختلف عن ألوان الفصول الأخرى، وكان لون فانلة فصلي في إحدى السنوات هو اللبني أو الأزرق.. لم يكن عندي (تي شيرت) رياضي بهذا اللون، ولا بأي لون آخر، ولم توافق أسرتي على شراء فانلة ألعاب كالتي يرتديها زملائي في الفصل، والتي تشبه فانلات اللاعبين في مباريات التليفزيون، وتحمل ظهورها أرقامًا مثلها.. قرروا في البيت أن أستعمل (تي شيرت) خروج لونه لبني، نصف كُم، وبإسورتين وياقة عريضة باللون الكحلي.. لم يكن باستطاعتي أن أفعل شيئًا سوى الرضوخ للأمر الواقع، وإمعانًا في الإذلال، وبسبب رغبتي التي لم أتمكن من التخلي عنها في أن يكون لفانلتي رقم مثل الآخرين - كتبت بالقلم الفلوماستر الأزرق رقم (4) على ظهرها.. لماذا؟.. كان رقم (10) تقليديًا، مهيمنًا على أغلب الفانلات عشقًا لـ (محمود الخطيب)؛ لذا قررت أن أحمل رقمًا مختلفًا.. الحقيقة أنني ما كنت أتصور أنني جدير بهذا الرقم، وكنت أريد أن أتفادى سخرية زملائي لو ارتديت فانلة تحمل الرقم (10) وهم يعرفون تمامًا ـ مثلما أعرف ـ أن مستواي في لعب الكرة يجعلني أستحق ارتداء فانلة لها رقم بالسالب، لو كان من الممكن أن توجد هذه النوعية من الفانلات.. من اللاعب الذي أحبه في (الأهلي) بعد (محمود الخطيب)؟.. (علاء ميهوب).. قررت أن أكتب إذن رقم (14) الذي يحمله (علاء ميهوب).. لكن الرقم بدا لي كبيرًا، أي أنه لا

يتناسب مع عدد اللاعبين في الفصل الذي يخوضون المباريات عادة، كما أن الرقم (14) عند كتابته بالفلوماستر على ظهر الفانلة سيزيد من بؤس الحالة: ألا يكفي أنك تكتب الرقم بيدك، وبشكل رديء، ومع ذلك تختار رقمًا كبيرًا!.. قررت أن أكتفي بالرقم (4)، وساعد في ذلك أنني أحب التشكيل الهندسي الذي يُكتب به.. في الفناء، وبعدما خلعت المريلة والبنطلون، وظهر (التي شيرت)، والشورت الأبيض من أسفلهما، وبعد أن خلعت الحذاء، وارتديت (كوتش باتا) الأبيض الذي كنت أحمله في كيس داخل الحقيبة ـ كان رباطه يُقطع أحيانًا، ونقوم بعقد الجزء المقطوع من جديد، أو نستعمل ما تبقى منه بصعوبة فيصير الرباط قصيرًا، ويزداد ضغطه على وجه القدم ـ شعرت وسط زملائي الذين يرتدون الفانلات (الطبيعية) أنني دخيل.. متطفل.. ولد مدّعٍ، جاء من مكان غريب، ويريد أن يشارك في شيء ليس له علاقة به.. ربما أول (تي شيرت) رياضي حقيقي أحصل عليه كان الأبيض (لون فانلة الفصل في تلك السنة)، وكان له خط أحمر على كل ذراع، وكان متناسقًا مع شورت (ميمي) الأبيض الأنيق ذي الخطوط الحمراء، الذي يحمل اسم وشعار (Puma) باللون الأحمر أيضًا.

بكيفية مجهولة تكوّنت في ذهني صياغة سؤال ظللت أوجهه لـ (ماجدة) دائمًا دون أن أعرف معناه: (إنتي بتحبي إيه في النوع الخاص بيكي؟).. في كل مكان، وفي كل وقت، وفي وسط أي حوار بيننا أعيد عليها هذا السؤال الذي أعجبتني تركيبته بدون فهمها.. كانت تسألني: (يعني إيه؟) أحيانًا باستغراب، وأحيانًا بضجر، وكثيرًا بغضب، وأنا لم أكن أعرف بماذا أرد عليها.. ربما كنت أسعى بهذا السؤال لتقليد (شكل اللغة)، الذي يماثل أسئلة المذيعين ومقدمي البرامج في الحوارات التليفزيونية والإذاعية.. كانت في بعض الأحيان لا تهتم بالتعليق على سؤالي المتكرر الذي أُلاحقها به، حتى أنه امتد لسنوات؛ فصار بصمة صوتية لا تُمحى

في علاقتي بأختي.. بعد زمن طويل استوعبت أن معنى السؤال: (ما الذي تحبينه في كونك أنثى؟)؛ حينئذ فقدت اهتمامي به، وتوقفت تمامًا عن توجيهه لـ (ماجدة).. في فترة أخرى امتنعت عن منادتها بـ (ماجدة)، وبدأت في تسميتها بـ (مجيدة)، وأيضًا لا أعرف لماذا.. هي الوحيدة في الأسرة التي قررت أن أُبدّل اسمها؛ ربما لتفادي أن أناديها بـ (أبلة ماجدة) كما كانت تُصر، وهو ما كنت أرفضه؛ فلجأت للتحايل بتغيير اسمها إلى آخر كأنه دلع أو دعابة.. أو ربما ـ لأسباب غير مدركة ـ رأيت أن (مجيدة) يليق بها أكثر من (ماجدة).. ذات ليلة كان (مجدي) يريد دخول الحمام، فوجد بابه مغلقًا على أحدٍ بالداخل؛ فسألني مستفسرًا عن الذي يستعمله، أجبته بتلقائية جادة: (مجيدة).. لم يكن يعرف بالأمر؛ فسألني باستغراب شديد: (مين؟).. ربما ظن للحظة واحدة مرعبة أن امرأة غريبة اسمها (مجيدة) جاءت إلى البيت دون أن يعرف؛ لتستخدم حمامنا في هذا الوقت المتأخر من الليل، وأنها بالتأكيد ـ طالما الأمر كذلك ـ ليست إلا جنّية لم يرها أحد غيري.. أخبرته بأن (ماجدة) هي التي داخل الحمام قبل أن يسألني مجددًا: (مجيدة مين؟).

شهر رمضان: فانوس أحمر ذو لمبة صغيرة بحجري بطارية.. فانوس زجاجي أحمر ذو شريط يشتعل بالجاز.. فانوس صغير ذو لمبة، وحامل معدني.. هدايا مجلتي (ميكي)، و(سمير) الكارتونية: فانوس ملوّن.. مدفع.. هلال ونجوم تُعلق بالخيوط على حائط، أو مقبض باب، أو حافة مكتبة.. حبال غزيرة متراصة بعضها وراء بعضٍ، تتدلى منها شرائط قصيرة ملونة داخل الحارات والشوارع الصغيرة.. فوازير (عمو فؤاد).. أطفال على أقدامهم وفوق الدراجات يحملون أكياس الخروب وعصير الليمون.. طائرات ورقية تحلق في السماء الممتدة وراء الأسطح الشاهقة.. كراسٍ وطاولات خارج المطاعم، وباعة الفوانيس والتمر

والكنافة والقطائف والمخلل المعبّأ بمياهه في أكياس صغيرة، وزحام البشر تحت أغطية عالية من أقمشة الخيام.. أغاني (رمضان جانا.. وحوي يا وحوي.. أهو جه يا ولاد).. رائحة إشعال قوالح الذرة أمام المقهى قبل الإفطار.. تلاوة (عبد الباسط عبد الصمد) من الراديو القديم فوق الرف.. دورق زجاجي على طاولة دائرية صغيرة ذات أرجل طويلة، منقوع بداخله البلح والتين.. آذان المغرب بصوت (محمد رفعت).. ابتهالات (النقشبندي).. الفوازيرالإذاعية بصوت (آمال فهمي)، وموسيقى البداية والنهاية.. ما تبقى في كوب البلح والتمر، والملعقة الصغيرة في البلكونة، والتطلع وسط السكون إلى الفانوس الكبير المضيء بأمان، المصنوع من الجلاد الأحمر أحيانًا والأصفر أحيانًا أخرى في أعلى بلكونة للبيت المقابل فوق فرن (الشربيني).. فوازير (فطوطة.. نيللي.. شريهان).. ألف ليلة وليلة.. ورقة حل الفوازير والقلم الرصاص على الرف الواسع تحت التليفزيون.. أكل الكنافة والقطائف.. (دوري النجوم) تقديم (طارق حبيب).. مسلسلات.. (يا تليفزيون يا) لـ (رمسيس).. المسحراتي في الشارع (أجري مع سماع صوت طبلته إلى البلكونة).. طعم ورائحة الخبز الساخن، والفول المدمّس، والبيض المسلوق، والخيار، والزبادي.. أراقب في أثناء السحور الجانب العلوي من رأس أبي وهو يتحرّك مع مضغ الطعام.. أريد رغيفًا يبعد عن متناول يدي؛ فأقلّد لهجة (نجاح الموجي) الريفية في مسلسل (سفر الأحلام): (ماتجيبوا عيش).. ينظر لي أبي بغضب، ويأمرني بحدة: (اتكلّم عِدل).. المسحراتي (سيد مكاوي).. الخروج مع الأب إلى جامع (السنجق) بالسكة القديمة لصلاة الفجر.. قطعة أرض واسعة أمام الجامع عبارة عن حفرة ضخمة ترقد بداخلها سيارة محطمة من طراز عتيق.. وجوه المصلين ونظرات عيونهم، وأشكال أقدامهم الحافية، وهمسات بعضهم مع بعضٍ قبل الآذان، وحركات شفاههم المتباينة وهي

تتمتم بالصلاة.. صوت إذاعة القرآن الكريم في ميكروفون الجامع.. مؤذنان: واحد صوته جميل وهادئ، والآخر يصرخ في الميكروفون بخشونة ثقيلة؛ (ربما عقابًا للذين لم ينزلوا من بيوتهم للصلاة، ولإثبات مدى إيمانه للجالسين وراءه).. إمامان: واحد يدعو في الركعة الثانية دعاءً تقليديًا، والآخر يدعو لنفسه: (اللهم اغفر "لي" واعفُ "عني")، ونحن نردد خلفه (آمييين)!.. مرة غلبني النوم قبل السحور ولم أستيقظ إلا بعد صلاة الفجر؛ فأسرعت إلى البلكونة، ورأيت المصلين عائدين من الجامع.. بكيت بمرارة على ضياع تلك الليلة التي خسرت فيها عَيش هذه (الحالة) الرمضانية اليومية.

(مصطفى المنزلاوي): نقطته المركزية كشك ضيق لملأ مواقد الغاز.. بجوار الأنبوبة المقلوبة لأسفل تسجيل يتبادل الغناء داخله (عدوية)، و(التونسي)، و(أوفا)، و(رمضان البرنس)، و(شفيقة)، و(طارق الشيخ)، و(مجدي الشربيني)، و(حمدي باتشان)، و(كتكوت الأمير).. هناك أيضًا أغنيات: (الحب إللي كان) لـ (ميادة الحناوي).. (عجيب الحب) لـ (عماد عبد الحليم).. (وننسى) لـ (مدحت صالح).. (يا عم يا بتاع المواويل) لمطرب شعبي قد يكون (التونسي).. (عزيزة)، و(كنتي بنت تلات سنين)، و(جايلك يا مدينة)، و(إللي تعبنا سنين في هواه) لـ (أسامة الصغير).. (كتاب حياتي يا عين)، و(مش حسيبك)، و(توهان)، و(كله يدلع نفسه)، و(تمثيلية)، و(حلويات)، و(محدش شاف حبيبي)، و(الليلة ليلة هنا وسرور) لـ (حسن الأسمر).. (يابنت يام المريلة الكحلي) لـ (محمد منير).. (يا بومرعي) لـ (وديع الصافي) و(جورجيت صايغ).. (قال جاني بعد يومين)، و(وحشني بصحيح)، و(مش هتنازل عنك أبدًا) لـ (سميرة سعيد).. (تسلملي عيونه الحلوين) لـ (هاني شاكر).

كنت أسمع كل هذه الأغاني المتعاقبة من داخل كشك (مصطفى)، وأنا بين النوم واليقظة عصرًا مع أصوات الناس والسيارات، بينما (ماجدة)،

و(مدحت)، و(جدتي) نائمون في نفس الحجرة.. أحيانًا أراقب مع أصوات الأغاني والبشر حركة ظلال مرور السيارات فوق السقف.. أحاول بواسطتها تخيّل نوع السيارة، ولونها، وشكل قائدها.. أحاول تخيّل ملامح الناس الذين أسمع أصواتهم المتداخلة والصاخبة.. ألوان ملابسهم، وحركات أيديهم، وطريقة وقوفهم أو مشيهم.. ألبوم (بم بم) تحت المرتبة، وبجواري على السرير أحد أعداد مجلة (ميكي)، أو (سمير) مع غيوم وبرد.. بمناسبة ألبوم (بم بم)؛ كنا نتبادل الصور المكررة في الفصل، حيث كان كل مشترك في المسابقة يحتفظ بكمية لا بأس بها من الصور التي يمكن له أن يبادلها بما يحتاجه من صور أخرى لدى زميل له.. بعض زملائي كانوا يمتلكون كمية مهولة، وكان منهم من يلعب ملك وكتابة بالـ (شلن) أو (البريزة) على هذه الصور، لكنني لم أشترك في هذه اللعبة أبدًا تحت سلطة التحذير الأسري التي اعتبرتها (قمارًا)؛ لذا كنت أكتفي بتبادل صور الألبومات التي لم أُكمل أي منها أبدًا.

وراء الكشك خرابة ضخمة، لا يعرف أكبر كهلٍ بالمدينة أي ماضٍ تكفلت بطمسه، لكن الكل يعرف أن الحرائق تُمثّل حقيقة جوهرية في تاريخها.. الحرائق التي تبدأ صغيرة ثم تتسع وترتفع فتأتي سريعًا عربة المطافئ بسرينتها المفزعة، وهيئتها العملاقة المقبضة، ومصابيحها المخيفة، وبخرطومها الطويل الذي تتدافع المياه منه بغزارة وعنف؛ لتتحول النيران إلى مساحة كبيرة من القمامة السوداء تنبعث منها الأدخنة.. كنت أقف في البلكونة أحدّق في هذا المنظر المتكرر كأنني أشاهد فيلم رعب تليفزيونيًا أكثر واقعية من الأفلام الأخرى، وكان هذا كفيلاً في كل مرة بالحصول على نسبة أعلى من اللذة المدموجة بالفزع.. مشهد الحريق يرضخ تطوره للخيال أكثر من التزامه بالعوامل الواقعية التي يمكن أن تصل به لمرحلة أبعد مما هو عليه؛ إذ لا ترى العينان ما

يحدث فعلاً بقدر ما ترى مستقبله الأكثر سوءً.. أن تمتد النار لتلتهم الخرابة كلها، ثم تتقدم نحو كشك الغاز (حيث يمكن للكارثة أن تكتمل بسهولة)؛ فينفجر هذا الجزء من الشارع بأشخاصه وبيوته ومحلاته، ويتحوّل كل شيء إلى رماد فورًا.. ترى العينان أيضًا النجاة ـ المؤكدة ـ من هذا التطور، وذلك هو الجانب المسلي في الموضوع، حيث تحصل على الأمان اللازم للاستمتاع بخطر قريب للغاية، لكنه لن يؤذيك بأي حال من الأحوال.

كشك متراجع للوراء عن الورشة القديمة للنجار العجوز على يساره، والجراح المخصص لسيارة واحدة على يمينه.. شكّلت تلك الخطوات بين الكشك، والخط الوهمي الذي يضبط استقامة صف المحلات فضاءً معقولاً، ارتفع عن أرض الشارع سنتيمترات قليلة، وكان مناسبًا تمامًا لاحتواء بعض الكراسي، وتليفزيون صغير لمشاهدة مباريات (الأهلي)، أو فيلم، أو مسلسل من الثمانينيات.. عند نقطة التقاء تلك المساحة بورشة النجار العجوز وضع (مصطفى) عربة التنشين حيث تتراص كرات البمب، مربوطة، ومعلقة في أسلاك اللوحة التي تعلو مسندًا فوقه علبة الطلقات، بينما ثلاثة بنادق خردق على الأرض تقف مستندة على الدعائم الخشبية للعربة.. ذات مرة كان يقف تلميذ أمي (صبري شعبان) ممسكًا بالبندقية محاولاً إصابة البمب، لكنه حينما رآني واقفًا في البلكونة أراد مداعبتي بتصويب البندقية نحوي كأنه سيطلق الخردق باتجاهي.. أمسكت بمجموعة من المشابك الخشبية وأنا أتمتم بحروف عشوائية الغرض منها أن يرى حركة شفتيّ؛ فيفهم أنني أحذره بقذف المشابك عليه لو استمر في توجيه البندقية ناحيتي.. في النهاية أنزل البندقية بعدما فشل في إخافتي.. عند نقطة التقاء المساحة بالجراج المخصص لسيارة واحدة تُرِكت عربة يد كبيرة مفروشة بملاءة، وتغطيها من أعلى شمسية بحر هائلة، أحيانًا تتلاصق داخل متانة نسيجها ألوان

الأحمر، والأزرق، والأخضر، وأحيانًا تكتفي بلون واحد من الثلاثة مع إعلان (كوكا كولا)، أو (بيبسي).. لا تلمح أي قطع، ولو ضئيلاً، في قماش الشمسية رغم الجرأة المتزايدة لبهتانه.. كأن انطفاء الألوان شأن مستقل لا علاقة لحتميته بصلابة وجودها، وبقدرتها على الاستمرار في الحياة.. انطفاء الألوان ممر سهل للولوج إلى ذاكرة الظلال، التي لم تترك أثرًا يمكن استعادته داخل الأماكن التي تنقلت بينها الشمسية طوال عمرها.. فوق عربة اليد ازدحمت لعب أطفال بأغلفة شفافة، مزينة برسومات كارتونية، وكلمات أجنبية متراقصة: ساعات يد بلاستيك، نظارات ذات عدسات باغة، مسدسات بطلقات كاوتش، سيارات، وطائرات بالريموت، حيوانات مطاطية، وقطنية، وفرو، تُصدِر تنويعات صوتية من المزمار، وأخرى بالزمبلك تلعب إيقاعات صاخبة بالطبول، والدفوف.. أتذكر أنه في إحدى المرات التي كنت أقف خلالها في البلكونة مع أمي و(ماجدة) لمشاهدة المتجمعين حول عربة التنشين رأينا مجموعة من الرجال والشباب يرتدون جلاليب واسعة جدًا من النوع الذي غالبًا ما يلبسه الريفيون والصعايدة.. لاحظنا أنهم جميعًا يتناوبون على اللعب ما عدا واحدًا فقط بدا كأنه بلا ذراعين.. سمعت حوارًا بين أمي وأختي متخم بالشفقة على ذلك الرجل المعوّق الذي لا يستطيع مشاركة أقرانه في التنشين.. فجأة رأينا الرجل يتحرك مُغيّرًا من وضعية وقوفه الثابتة، التي استمرت وقتًا طويلاً بما يشبه التجمّد؛ فكشف عن وجود ذراع يسرى كان مختبئًا داخل الكُم الطويل الفضفاض للجلباب.. سمعت أمي وأختي يتشاركان في تعديل الأسف؛ إذ تحوّل إلى الإشفاق على فقدان ذراع واحد فقط سيمنعه أيضًا من اللعب.. فجأة رأينا الرجل يتحرك مرة أخرى مُغيّرًا وضعية وقوفه من جديد فكشف عن وجود ذراع يمنى كان مختبئًا مثل الأيسر.. كان من المنطقي أن تتصافح ضحكتي أمي و(ماجدة) على الفور خجلاً من

خيبتهما البصرية، وما نتج عنها من مشاعر خاطئة.. وجدت نفسي أمد يدي لأنزع النظارة من وجه أمي، وأرميها في الشارع بحركة واحدة مباغتة.. تحوّلت ضحكة أمي وأختي إلى شهقة فزع جعلتهما يغادران البلكونة فورًا؛ حيث أسرعت أمي بالنداء سريعًا على (رانيا) في شقة خالي، أو ربما أرسلتني لإحضارها، ثم طلبت منها أن تنزل لاسترداد النظارة من الشارع.. لا أعرف سببًا لعدم تكليفي أنا بهذه المهمة أكثر من أن الشارع كان مزدحمًا بما يمثل تهديدًا لطفل صغير، فضلاً عن وجود احتمال باختفاء النظارة؛ مما يعني الحاجة إلى شخص أكبر سنًا للبحث عنها.. كأنه كان لديّ في تلك اللحظة دافع بديهي بعد موقف الرجل الذي اتضح أنه ليس معاقًا لتخليص أمي من النظارة التي يبدو أنها تمنع عنها الرؤية الصحيحة أكثر مما تعطيها.. لكنني لا أتذكر أن هذا التبرير كان ملموسًا ولو بقدرٍ طفيف وقتئذ بداخلي، بل إنني أتذكر أن هذا التصرف سبقه تفكير في أثناء وجودنا في البلكونة يكرر نفس التساؤل دون انقطاع في ذهني: (ماذا لو ألقيت بنظارة أمي من البلكونة؟).. قد يكون هذا التساؤل منتميًا للوعي التجريبي لدى الطفل، الذي تعتمد قرارته في هذه المرحلة على اختبار الأشياء والأحداث وفقًا لغفلته، أو بالأدق وفقًا لنقائه من المحاذير.. لكن على جانب آخر هل كان انتباهي للعدائية الطافحة من هذا الفعل منعدمًا، أم كان لديّ نسبة ولو بسيطة من استيعاب وجودها؟.. هل كان في الأمر نوع من الانتقام ليس نابعًا إطلاقًا من مشهد الرجل صاحب الذراعين السليمين، وإنما كان استغلالاً له؟

على الجانب المقابل، وأمام بابين كبيرين من الصاج، مغلقين دائمًا لمخزن أخشاب فارغ يملكه الحاج (صديق) فرد (مصطفى) عدة بطانيات، وكوفرتات؛ كي يُشيّد فوقها تلالاً شاهقة من البطيخ الذي أحيانًا ما يكون مستطيلاً.. منذ بداية النهار، حتى آخر الليل لا يتوقف

(مصطفى) عن التحرّك في المنتصف بضحكاته القوية، وصوته العالي، وبجسمه القصير، البدين، النشط، الذي تحتضن رأسه قبعة كارتونًا ملوّنة كالتي كان يرتديها أحد الأولاد الذين يشاهدون مباريات الشوارع في فيلم (الحريف).. لا يتوقف عن التحرّك في المنتصف بين كشك الغاز (الممتلئة حوائطه بصور لاعبي الأهلي)، والأغاني الشعبية، والتليفزيون، وعربة التنشين، والشمسية، ولعب الأطفال، والبطيخ.. يقود أداءاتها، وينظّم تناغمها، لا ليحافظ على الانسجام، بل ليخلق من التناسق ابتكارات غير متوقعة يشاركه فيها أصدقاؤه، وأبناء الحي، والزبائن، والعابرون، والواقفون في البلكونات.. يتدلى كلوب ساطع في الليل داخل الفضاء الذي يمثل عتبة واسعة أمام الكشك ليبقى الصباح ممتدًا، وغامرًا.. في شهر رمضان يأخذ الكلوب عطلة؛ ليحل مكانه فانوس كبير من ورق التجليد الملوّن، المغلق على مصباح قادم من الحكايات الخيالية.. القصص، والمشاهد، والدعابات اليومية، التي يبدو كأنها نتيجة اتفاق غير معلن تضامن فيه مع الآخرين للحرص على ألا تتكرر.. أن تظل مفاجئة، لا تشبه أي منها الأخرى.. القصص، والمشاهد، والدعابات اليومية على عكس ما يبدو ظاهريًا لا يُقصَد من ضوضائها الاتصال، والاندماج بضوضاء العالم.. ربما أراد (مصطفى) أن يعيّن حدودًا لذلك الحيز الذي تلعب داخله أشياؤه كوطن مستقل، منفصل عن حياة شاسعة، لانهائية، غامضة، لا تخصه.. ما الذي يمكن أن يعطيه دليلاً على نجاحه؟.. أن يشير له بالتحية عبر الشباك في المساء واحد من شلة أصدقاء يجلسون داخل حجرة أحدهم في بيته في أثناء أغنية أو مباراة أو مسلسل.. أن يصافحه أب عائد إلى أسرته بالعشاء، قبل أن يدخل من البوابة المسلّط عليها ضوء الكلوب الساطع.

حجرة (مجدي): قلب مرسوم بـ (الكوريكتور) يخترقه سهم.. كلمات (بين الأطلال) بخط اليد على الحائط: (وأنتِ.. أنتِ يا توأم الروح.. يا

منية النفس الدائمة الخالدة.. يا أنشودة القلب في كل زمان ومكان.. مهما هجرتِ.. ومهما نأيتِ.. عندما يوشك القرص الأحمر الدامي على الاختفاء ارقبيه جيدًا.. فإذا ما رأيتِ مغيبه وراء الأفق.. فاذكريني.. اذكريني).. دولاب صغير من المشمّع عليه نقوش خضراء بسوستة من النوع المستخدم في الرحلات، حيث كان يمكن فكّه وطَيّه.. علب كريم (بريلكريم الأحمر)، و(تمارا البني)، و(نيفيا الكحلي).. بنطلونات جينز زرقاء.. نظارة شمس بنية من نوع (فيراري) أخذتها منه فيما بعد.. أباجورة مكتب خضراء نحيفة كالتي تأتي في الأفلام والمسلسلات، وتحتاج دائمًا للخبط على غطائها حتى تضيء.

كان أطفال الشارع يلعبون البلي دائمًا تحت بلكونتي.. لم يكن مسموحًا لي بالطبع أن أنزل من البيت وألعب معهم.. كنت أظل أراقبهم منذ اللحظة التي يبدأون فيها اللعب، حتى انصرافهم من تحت البلكونة.. كنت أشتري البلي من (أبو كمال) وأجمعه، وألعب به وحدي في الحجرة.. ذات يوم سمحت لي أمي أن أنزل بالحصيلة التي جمعتها؛ كي ألعب بها مع أطفال الشارع الذين لا أعرفهم.. كانوا يلعبون في مدخل حارة (العطافي) أمام المطعم تمامًا.. لم يستغرق غيابي عن البيت أكثر من دقائق معدودة، ويمكن تفسير ذلك في جزءٍ من نص قديم لي اسمه (قلت لها إن هذه لم تعد وردة):

(السماء تعتبرني لقيطًا

فهمت هذا حين رأيتها تعامل الأطفال في الشارع كأبناء

وتتركهم يلعبون (البلي) بحرية تحت شرفة طفل

أجبرته أمه على الاكتفاء بالفرجة عليهم

وتقليد ضوضائهم المرحة بينما يتخيلهم يشاركونه اللعب داخل حجرته المغلقة

السماء تسخر من اللقطاء

تترك أحدهم يفرح بسماح أمه له باللعب مع الأطفال لمرة وحيدة ثم ترسل ابتسامة ساخرة إلى وجه الأم لتستقبل بها سعادته المطفأة وحسرته على خسارة كل (البلي) الذي ظل يجمعه طويلاً).

علمتني (ماجدة) لعبة (أول حرف)، وكانت تقتضي أن يمسك كل لاعب ورقة مقسّمة لخانات (مذكر.. مؤنث.. حيوان.. جماد.. صفة)، ويتم اختيار أحد الحروف ليملأ كل لاعب ـ دون أن يكشف ورقته للآخر ـ هذه الخانات ملتزمًا بأن تبدأ الكلمة بالحرف الذي تم الاتفاق عليه خلال وقت محدد، ثم يتم إعطاء عشر درجات لكل إجابة صحيحة، على أن يتم جمع كل الدرجات في النهاية.. قضيت أنا و(ماجدة) أوقاتًا كثيرة في هذه اللعبة، وأتذكر أنني لعبتها في الفصل أيضًا مع زملائي.

كان (أستاذ سمير) هو مدرس مادة (المجال الصناعي).. أتذكر أنه أخرجنا من الفصل ذات يوم إلى حجرة أخرى.. وقف الأولاد طابورًا أمام قطعة عريضة من الخشب بحيث ينشر كل تلميذ بالدور هذه القطعة عند خط مرسوم بالقلم الرصاص لزمن معين يحدده (أستاذ سمير)، ثم يعطي المنشار للولد الذي يليه وهكذا.. جاء الدور عليّ، وبدأت أنشر مثل زملائي حينما وجدت أبي يقف عند عتبة الحجرة.. صافح (أستاذ سمير)، وأخبره أنه سيأخذني إلى البيت.. كنا في نهاية اليوم الدراسي وتجاهلت نداء أبي، واستمررت في النشر بقوة.. سمعت (أستاذ سمير) يثني على حماسي بينما أبي يقول لي: (كفاية انت مفطرطش)، ثم سمعت أحد التلاميذ يهمس بتنبيه للمعلم أنني تجاوزت الوقت المخصص لكل ولد.. كانت عيناي مثبتتين على الشق الذي يكبر تحت أسنان المنشار، وليس في ذهني سوى أنني يجب أن أبدو قويًا أمام أبي و(أستاذ سمير) وبقية الأولاد.. من أجمل لحظات طفولتي هي اللحظة التي انقسمت فيها قطعة الخشب نصفين مع أمر (أستاذ سمير) للتلاميذ أن يصفقوا لي، وابتسامة أبي الراضية.. تركت المنشار

مع التصفيق كأنني قتلت وحشًا، ثم عدت إلى البيت، وحكيت ملحمتي البطولية لأمي وأختي مراقبًا أبي وهو يتوجه إلى غرفته.. كنت أرجو ألا يتلاشى هذا المشهد من ذاكرته أبدًا.

كان (أستاذ سمير) يسوق تاكسيًا أيضًا، وكان يأتي به إلى المدرسة ويتركه بجوار البوابة.. أتذكر أنه كان ماركة (تويوتا).. ذات يوم خرجنا من المدرسة، ووجدنا زجاج السيارة مهشمًا تمامًا ومتناثرًا حولها على أرض الشارع.. الزجاج الأمامي، والخلفي، وزجاج النوافذ.. عرفنا أن مطلقته هي من فعلت به ذلك.. تعاطفت مع (أستاذ سمير) فقد كان بصوته الغليظ، وأسلوبه القريب من السوقية، وشراهته في التدخين، بالإضافة لكونه مدرّس (المجال الصناعي) ـ أي أنه يكاد أن يكون عاملاً أكثر منه معلمًا ـ ولأنه سائق تاكسي أيضًا ومطلّق؛ كان بسبب كل هذه العوامل الشخصية مؤهلاً بكفاءة لأن أضعه ـ مثل مجرمي الأفلام ـ في فئة الهامشيين والمتصعلكين، المتمردين على الوجاهة الأخلاقية الصارمة التي يتحصّن بصلابتها النظيفة بقية المعلمين والمعلمات.

أجمل المسلسلات التي شاهدتها في فترة الظهيرة: (الحرملك).. (وتوالت الأحداث عاصفة).. (الرجل والحصان).. (هند والدكتور نعمان).. (برج الحظ).. (عيلة الدوغري).. (كوكي كاك).. (مبروك جالك ولد).. (هو وهي).. (غوايش).. (ولسه بحلم بيوم).. (الزوجة أول من يعلم).. (أبنائي الأعزاء شكرًا).. (لا يا ابنتي العزيزة).. (أحلام الفتي الطائر).. (البخيل وأنا).. (رحلة السيد أبو العلا البشري).. (هي والمستحيل).. (سفر الأحلام).. (الحب وأشياء أخرى).. (الأيام).. (البشاير).. (الرجل والحصان).. (الزوجة أول من يعلم).. (الغربة).. (علي الزيبق).

أجمل المسلسلات التي شاهدتها في فترة المساء: (عيون).. (الأفيال).. (دموع في عيون وقحة).. (زينب والعرش).. (الشهد والدموع).. (حكاية ميزو).. (يوميات نائب في الأرياف).. (رحلة المليون).. (سنبل بعد

المليون).. (حسن ونعيمة).. (أهلا بالسكان).. (نهاية العالم ليست غدًا).. (حكاية وراء كل باب).. (بكيزة وزغلول).. (رأفت الهجان).. (ليالي الحلمية).. (برديس).. (أبرياء في قفص الاتهام).. (كابتن جودة).
كما كنت أشاهد في التليفزيون كثيرًا (شارلي شابلن)، و(لوريل وهاردي).
كنت أجلس في الدكة الأولى من الصف الأوسط للفصل، وكان متاحًا لي رؤية البلكونات والشبابيك التي تطل على فناء المدرسة عبر الباب من ناحية اليمين، وعلى البلكونات والشبابيك المواجهة لنوافذ الفصل من جهة الشارع على اليسار.. كانت هناك بلكونة تطل على فناء المدرسة، رأيت وأنا جالس في أثناء الحصة شقيقتين في مثل عمري تقريبًا تقفان فيها وتشيران لي بمرح.. كنت أعرف هاتين الأختين ـ شكلاً ـ وأعرف أنهما تلميذتان في المدرسة.. خطر في بالي أنهما تغيبتا اليوم عن الدراسة، أو أن فصلهما قد غادر المدرسة مبكرًا اليوم بما أنني كنت ساعتها في الحصة الأخيرة.. انتبه باقي التلاميذ ـ الذين أتيحت لهم مشاهدة الفتاتين في البلكونة ـ إلى إشاراتهما وحركاتهما المجنونة.. كانت إحداهما تُخرج لسانها، والأخرى تستلقي على أرض البلكونة، وترفع ساقيها إلى السور؛ فتطل قدماها الحافيتان منه.. لم تكن استجاباتي الذهنية ـ التي لم يظهر أي أثر خارجي لها أكثر من مجرد ابتسامة ـ تتعلق بكونهما تمارسان أفعالاً خرقاء، وإن ما فكرت فيه لحظتها هو أن تصرفاتهما تدل على حب خاص لي.. كيف؟.. هل لأنني كنت أول من لمحتهما، وبالتالي أعطيت لنفسي حقًا سريًا في امتلاك اليقين بأنني المقصود برسائلهما البهلوانية الطائشة؟، أم لأنني كنت أرى نفسي قادرًا على رؤية ما لم يتمكن زملائي من الانتباه إليه ـ وهو ما لم يكن محل شك على الإطلاق ـ في إشارات البنتين؟.. على الفور أصبحت لديّ حقيقة: هاتان الشقيقتان تعرفاني منذ زمن،

وإحداهما ـ على الأقل ـ تحبني، وتريد إثارة اهتمامي، واليوم جاءت الفرصة كي تضع حدًا لعجزها عن إظهار عواطفها، وقررت ـ بمساعدة أختها ـ انتهاز هذه الفرصة؛ لتبلغني بكل ما في قلبها تجاهي.. على مدار الأيام التالية ـ وربما الأسابيع ـ ظلت عيناي تطيران من الفصل بين لحظة وأخرى عبر الباب ـ بحرص قدر الإمكان على ألا يفطن لغيابهما أحد ـ وتتجاوزان الفناء إلى البلكونة التي بقيت خالية.. كنت أكتم خليط الغضب والغيظ والحسرة إذا ما قررت (أبلة) أو (أستاذ) غلق الباب، متأكدًا من أن الفتاتين ستظهران في هذا الوقت بالذات، وستغادران البلكونة قبل انتهاء الحصة بثانية واحدة، وقبل فتح الباب مرة أخرى.. الغريب أني لم أرَ الشقيقتين بعد ذلك ليس في البلكونة فحسب بل في المدرسة، أو في الشارع، كأن إشاراتهما المرحة كانت رسالة حب ووداع في نفس الوقت.

كان يمكن رؤية المطر بوضوح لطيف أمام البلكونات والشبابيك التي تطل على الفناء، وكذلك التي تطل على نوافذ الفصل من جهة الشارع.. كان يمكن الشعور ببرد أقوى مما يوجد فعليًا بين حوائط الفصل عند النظر إلى الشتاء من هذه النوافذ، خاصة حينما تبصر أحدًا يقف في أي من البلكونات والشبابيك تحت الغيوم الكثيفة في اللحظة التي تنفخ خلالها في كفيك لتدفئتهما.. عندما كان يظهر شخص ما في هذه البلكونات ـ أي شخص ـ خاصة في تلك التي تطل على نوافذ الفصل من جهة الشارع كنت أدقق في ملامحه كأنني أتأمل مخلوقًا من كوكب آخر.. لمجرد أنني في المدرسة، وجالس في الفصل مرتديًا المريلة، ولا يمكنني الانفلات من ذلك الحصار إلا حينما يجيء موعد ليس لي دخل في تحديده.. كانت حرية الآخرين في الوجود داخل البلكونات والشبابيك، وارتداء الملابس التي يريدونها، والذهاب إلى أي مكان في أي وقت بحسب رغبتهم - كانت حرية خارقة.. غامضة.. رفاهية

استثنائية لا يمكن لسجين مثلي ـ حتى تنتهي فترة اعتقاله مع رن الجرس ـ استيعاب معجزاتها.

باقتراح من (ميمي) ابن خالي تم تأسيس فرقة (الأصدقاء) الغنائية اقتداءً بفرقة (المصريين)، وبالفعل كانت أول أغنية تسجّلها الفرقة هي (بنات كتير كده من سني) لـ (إيمان يونس)، وتلحين (هاني شنودة).. كان (ميمي) يمتلك أورجًا كهربائيًا، وقبل موعد التسجيل استعار جيتارًا من (هشام شعلان) ابن (الحاجة نعمات) الذي يسكن في الدور الثالث، حيث كان عازفًا في إحدى الفرق الموسيقية بـ (المنصورة).. (كان "ميمي" يستعمل أحيانًا في العزف على هذا الجيتار إحدى إشارات المرور، التي جاءت في كيس صغير مع أحد القطارين اللذين أحضرهما أبي لي من "السعودية"، وكانت بيضاء ذات طرف مدبب على هيئة مثلث بملصق أخضر له حروف بيضاء صغيرة، وفي نهايتها قاعدة دائرية للوقوف، وأتذكر إشارة أخرى كانت بيضاء أيضًا، ولها طرف على شكل دائرة سداسية ذات ملصق أصفر بحروف سوداء صغيرة).. أعطى (ميمي) الجيتار لأخته (رشا)، ثم أعطى شوكتين لأخته الأخرى (رانيا)، أما أنا فكان معي الرق الصغير الأبيض المطبوع عليه صورة لكتكوت ملوّن ومبتسم، والذي أحضره أبي لي من (السعودية).. ثم جاءت (نهلة).. كانت (نهلة) في نفس عمر (ميمي)، وكانت تسكن في شارع (سينما أوبرا)، لكنها كانت موجودة أغلب الوقت عندنا في العمارة، حيث كان جداها يسكنان في الدور الثالث، وكانت تلعب كثيرًا مع أبناء خالي في الفناء وعلى السلالم.. اختارها (ميمي) لتكون مطربة فريق (الأصدقاء)، وفي يوم التسجيل حضرت مساءً إلى شقة خالي حيث كنت موجودًا في حجرة أبنائه، وتحت ضوء المصباح الأصفر جلست أنا فوق السرير ممسكًا بالرق الصغير، وعلى يميني (رانيا) ومعها الشوكتان، وعلى يساري (رشا) وبين يديها الجيتار.. مر (ميمي)

على كل منا؛ ليعرّفه بالدور الموكل إليه، ولم يكن ذلك يعني سوى تنبيه واحد: أن نحرص جميعًا على أن يكون الصوت الصادر من الآلة التي يستعملها كل عضو خافتًا، وقد أدركنا فيما بعد سر هذا التنبيه.. وضع (ميمي) الأورج فوق منضدة كبيرة أمام السرير، وانتهى من ضبط التوصيلات الخاصة به، وبجهاز التسجيل والميكروفون الذي ستغني فيه (نهلة).. بالتأكيد كنت قد سمعت الأغنية كثيرًا في البيت، سواء في غرفة (مجدي) أم في حجرة الصالون، لكنني خلال لحظات ما قبل تسجيل الأغنية لم يكن لديّ تصور حول حقيقة ما سأفعله أكثر من أنني سأشترك في لعبة لا ينبغي بأي حال من الأحوال أن أكون خارجها؛ لذا يجب أن يتسم دوري فيها بالإتقان والبراعة؛ نظرًا لأنها موضوع جاد ـ هذا ما تثبته على الأقل ملامح (ميمي) وطريقته في التحضير لتسجيل الأغنية ـ وعليّ أن أكون عند حسن ظنه مثلما يقال؛ حتى لا أخسر مكاني في الفرقة، وبصرف النظر عن كونها لعبة.. جلست (نهلة) على كرسي بجوار الأورج ثم بدأ التسجيل.. كان (ميمي) يجيد عزف الأغنية بالفعل، أما (نهلة) فكان صوتها جميلاً، ولم يكن أداؤها يشير إلى حفظها التام للأغنية فحسب، بل كان يؤكد أن بينها وهذه الأغنية حياة خاصة جدًا، جاءت فرصة لأن تُظهر دليلاً على عمقها.. كانت تغني بتلقائية كأنها سبق أن غنت هذه الأغنية آلاف المرات، أو كأن الأغنية صارت جزءًا من تكوينها يحتفل بسعادته في عينيها وملامحها عند استدعائه دون أن يبذل صوتها مجهودًا.. كانت (نهلة) تُبعد الميكروفون عن فمها، وتقرّبه من الأورج في اللحظات الموسيقية الخالية من الغناء، أما (رشا) فكانت تلعب بطريقة عشوائية على أوتار الجيتار بمشرط أمبولات الحقن الصغير؛ إذ لم تكن تجيد عزف اللحن بالطبع، وبالنسبة لـ (رانيا) فكانت تحاول أن تتوصل إلى إيقاع متناغم لدقات الشوكتين في يديها مع عزف أخيها وغناء (نهلة).. بالنسبة لي

كنت أحاول ـ فضلاً عن الحرص على تنسيق ضربات أصابعي الصغيرة مع الأغنية ـ الارتفاع بصوت الرق؛ كي أثبت قوة وجودي بعدما شعرت أن صوت الأورج يطغى على جميع الآلات الموسيقية الأخرى.. لا أتذكر هل ما كنت أفعله بالرق كان صحيحًا أم لا، لكنني أتذكر جيدًا أن (ميمي) حينما أوقف المسجل أكثر من مرة لمراجعة ما تم حفظه، ثم إعادة تسجيل أجزاء معينة من الأغنية لم يكن ذلك راجعًا لخطأ ارتكبته، بل إنني أتذكر أن ذلك لم يكن راجعًا لخطأ ارتكبه أي أحد.. ربما كانت الإعادة ناجمة عن رغبة (ميمي) في الوصول بالتسجيل إلى أعلى المستويات الممكنة من قوة الصوت ونقائه خاصة مع الإمكانيات البدائية للتسجيل.. لاحظت أنا و(رشا) و(رانيا) أنه لا دليل على وجودنا في جميع مرات الاستماع للشريط، حتى أن (رشا) تحدثت عن نفسها، وسألت (ميمي) مشيرة إلى الجيتار الذي تلعب عليه: (البتاع ده مش طالع له صوت في الشريط ليه؟).. لم يرد (ميمي) على استفسارها، وأكملنا التسجيل حتى حصلنا على النسخة النهائية من الأغنية، التي أدركنا حين استمعنا إليها أنني وابنتي خالي كنا مجرد أعضاء بالاسم فقط حتى يكون هناك (شكل) للفرقة؛ أما في الحقيقة فالأغنية لم تكن سوى نغمات الأورج وصوت (نهلة).. هكذا يمكن تفسير التنبيه الذي مر به (ميمي) علينا قبل التسجيل بأن نحرص على جعل أصوات آلاتنا خافتة تمامًا، وهذا ما تحقق بالفعل حتى أن محاولاتي للارتفاع بنبرة الرق الصغير لم يظهر لها أي أثر في الشريط.. كان ذلك محبطًا على الأقل بالنسبة لي، ولكن كان النجاح في تسجيل الأغنية، وفي وجود فرقة من الأساس طاغيًا بما لا يسمح بتحوّل هذا الإحباط إلى غضب، خاصة حينما قام (ميمي) بتدوين أسمائنا بعد التسجيل كقائمة لأعضاء فرقة (الأصدقاء) التي كان هذا المساء هو بدايتها ونهايتها أيضًا.

صوتك وسط أصوات التلاميذ بينما ترددون ما تنطق به المعلمة يختلف

تمامًا عن سماع أصوات نفس التلاميذ وهم يرددون ما تنطق به المعلمة وأنت واقف في البلكونة نهارًا في يوم من أيام غيابك عن المدرسة.. ليس لأن صوتك ليس موجودًا هناك، بل لأن أصوات التلاميذ نفسها ستختلف.. في أثناء وجودك بينهم سيكون الترديد فعلاً تقليديًا.. مملاً في أغلب الأحوال.. لكن عند سماعه من البلكونة سيتحوّل إلى كرنفال خسرت الحصول على بهجته ببقائك في البيت.. نفس الأمر ينطبق على صوت الجرس.. في الفصل لا يمثّل صوت الجرس أكثر من بداية الحبس اليومي، أو خلاص طال انتظاره من الاحتجاز داخل حصة، وبداية احتجاز جديد داخل حصة أخرى ـ عدا جرسي الفسحة والانصراف ـ لكن وأنت واقف في بلكونة بيتك المجاورة للمدرسة سيصبح صوت الجرس الفاصل بين الحصص كأنه ممر موسيقي للانتقال من فقرة إلى فقرة أخرى داخل الحفل الذي لم تحضره.. سيصبح جرس الانصراف كأنه إعلان عن نهاية الكرنفال.. سيستولي على نفسك ذلك الهاجس الخبيث بأنه ربما حدث في هذا اليوم بالذات الذي تغيبت فيه عن المدرسة شيء بديع استثنائي ـ رغم يقينك من أن ذلك لم يحدث بالفعل ـ ليؤكد أن خسارتك صارت نهائية، لا أمل لك في تعويضها بعدما أخفقت في اللحاق بأي جزء من المرح.. ذلك الشعور كان يفسد استمتاعي بالانعتاق ولو ليوم واحد من السلطة المدرسية الثقيلة الممتدة دون انقطاع على مدار شهور طويلة.. هل كان ذلك راجعًا للتعاسة المهينة التي كانت تصيبني نتيجة اشتراك زملائي في أمر ما بعيدًا عني، حتى لو لم تكن لديّ رغبة فيه، أو حتى لو كان مُضجرًا أو مؤذيًا لنفسي؟.

النهار.. سيارة (بولونيز) بيضاء تقف كثيرًا تحت البلكونة، وفيها تليفون يظهر عبر الزجاج الأمامي.. ذلك ما كان يثير استغرابي دائمًا، ويدفعني للتحديق في تلك السيارة من أعلى.. كيف يكون هناك تليفون داخل سيارة!.. فترة الظهيرة.. البلكونة مفتوحة عن آخرها بينما ملاءات

جيران الدور العلوي ذات الزهور الكثيرة والكبيرة متعددة الألوان تتدلى نحو فراغ البلكونة.. الشمس تسطع من وراء الملاءات؛ فتشرق الزهور الملونة كربيع معلّق.. في أحد نصوصي وكان اسمه (مشكلات صغيرة في فهم العالم) كتبت هذا المقطع بعنوان (1983):

(الملاءة الصفراء.. الصفراء.. هي صفراء وكبيرة.. عريضة وطويلة.. صفراء.. منسدلة من فوق لأسفل إلى شرفتنا.. قدمان صغيرتان تجريان.. خفيفتان جدًا.. كأنهما تطيران.. باب حجرة مفتوح.. ضلفتان خشبيتان خضراوتان مفتوحتان للزهرة الحمراء الكبيرة في الملاءة الصفراء العريضة المنسدلة.. مغسولة منذ قليل، ومعلّقة على حبال الغسيل.. الزهرة الحمراء كبيرة وحولها زهور حمراء صغيرة.. الشمس وراء الملاءة.. الجسد صغير ويجري.. كأنه يطير.. نحو الألوان الصفراء والحمراء والزرقاء.. السماء زرقاء وهادئة.. الجسد صغير ويجري نحو الملاءة الصفراء العريضة المنسدلة ذات الزهرة الحمراء الكبيرة التي وراءها ضوء الشمس الأصفر القوي.. الحجرة هادئة وواسعة.. الشارع هادئ.. من شرفة الجيران العلوية ينسدل قماش الربيع.. قماش الربيع المعلّق بالضوء الهادئ والقوي للاصفرار.. الشمس والملاءة الصفراء والزهرة الحمراء والشرفة المفتوحة.. الزهرة والضوء والملاءة على جدارن الحجرة.. الربيع في حجرة الصغير.. على السجادة والسرير والدولاب والسقف.. على ملابسه.. الربيع هنا).

كنت أجري بالفعل داخل الصالة والحجرة، ثم أقفز في الهواء مفتونًا بزهور الملاءات.. لم أكن مأخوذًا بأشكال وألوان الورد المحلّق مع ضوء الشمس فحسب، وإنما أيضًا من تآلف تلك الحديقة القماشية المبهرة مع ما كان يعرضه التليفزيون في نفس الوقت.. كان التليفزيون حينئذ في حجرة نومي أنا و(مدحت) و(ماجدة)، ووجد بجوار البلكونة مقابلاً لسرير (مدحت)، أي أن زهور الملاءات كانت تقريبًا تُشكّل خلفية

لبرامج الأطفال الصباحية ومسلسلات التيلفزيون التي كانت تُعرض ظهرًا، وكذلك استعراضات الفنون الشعبية مثل (البمبوطية)، برقص (مشيرة إسماعيل) و(عايدة رياض)، و(جرحوني عيونه يابا)، بغناء (محمد رؤوف).

(شفتا بطلة إعلان زبدة «شهية».. الأرنب والزرافة والفيل في أغنية «هم النم» لـ «عفاف راضي».. زملاء «حِميده» الأفندية الذين ضحكوا على «حَميدة» في أغنية «يا حضرة العمدة» لـ «إلهام بديع».. عائلة «عم أحمد» وهم يشاهدون مباراة «الأهلي والزمالك» في فيلم «قضية عم أحمد» 1985.. الشمس البرتقالية التي تمد أشعتها، والحيوانات متشابكة الأيدي التي تدور حول الشجرة، والبطة الصغيرة وهي تمد قدمها بحذر في البحيرة بأغنية "ياللا بينا" لـ "عفاف راضي".. "بوجي" وهو يمسك بالفانوس ويغني "وحوي يا وحوي" في "بوجي وطمطم في رمضان".. الكلب الصغير "لاكي" حينما سُرقت عظمته في قصة "عصابة الكلاب" بعدد "ميكي" 22 فبراير 1979.. ترنج "سمير غانم" الأزرق، ولمبة الجاز في بيت "سعاد نصر"، والطفل "سعدون" حينما استيقظ مفزوعًا من النوم واندفع لإيقاظ "سمير غانم"؛ فطرحه من على السرير في مسلسل "الكابتن جودة" 1986.. "طارق نور" وهو يغني "أما البلدي، وعدي يا وعدي، بيفي من بلدي، ولدي يا ولدي" في إعلان "سوسيس بيفي".. البنت التي تخرج من بيت برداء النوم الأبيض، وبيد ملفوفة في نهاية تتر برنامج "نادي السينما".. تابلوه الزهور ذو الخلفية السوداء في حجرة "محمود عبد العزيز" فوق السطح، وكذلك "يوسف شعبان" و"يوسف داود" والضوء الأصفر للمبة الأباجورة الكبيرة المدلاة من السقف وسط غطاء أخضر في الليل، وبراد الشاي والملفات المكدسة على الرفوف وفوق المكتب داخل مصلحة الجوازات والجنسية، وبيت

اليهود في "الضاهر" حيث يتجمعون داخل الصالون مساءً والصالة مطفأة الأنوار، وجلوسهم في مقهى "استامبيلوس" بمسلسل "رأفت الهجان" 1987.. الديك وهو يجلس فوق كرة القدم أمام "ميكي" و"بندق" اللذين يرتديان الزي الرياضي داخل الملعب على غلاف عدد مجلة "ميكي" 11 يناير 1979.. البندقية الخردق على كتف "عهدي صادق" في مسلسل "كوكي كاك" 1987.. السلسلة في رقبة بطل إعلان كريم حلاقة "بالموليف" وهو يقول: "أربع أسباب".. حجرة "محمود الجندي" و"علي الحجار" مساءً، والبيجامة الخضراء الصيفية التي كان يرتديها "محمد العربي"، وسيارة "وائل نور"، والمقهى، ونادي الفيديو الذي يمتلكه "سيد عزمي"، وذراع "الأتاري" بين يدي ابن "وحيد سيف" و"ماجدة زكي"، والفرخة المحمرة التي قطعتها "كريمة مختار" بيديها في عزومة العشاء وأصوات الأكل في مسلسل "رحلة السيد أبو العلا البشري" 1986.. صندوق بريد "ميكي" المكتوب عليه اسمه في قصة "قراصنة أعماق البحار" بعدد مجلة "ميكي" أول مارس 1979.. "عبد الرحمن أبو زهرة" و"حسن عابدين" وهما يجلسان مع "توفيق الدقن" في حجرته على السطح مساءً في حارة "المناديلي"، ويتحدثون عن المخلوقات الفضائية في الكواكب الأخرى بمسلسل "نهاية العالم ليست غدًا" 1983.. "شيرين رضا" حينما تفتح درج المصاصات في إعلان "لولي بوب ولولي موم".. الجلّاد الذي كان يُغلّف هدية "سمية الألفي" لـ "محمد صبحي" وهو على سرير المستشفى في مسلسل "رحلة المليون" 1984.. "تعلوب" وهو ممدد في السرير بقدم مكسورة ويتحدث مع "دقدق" عبر نافذة حجرته في قصة "مقلب في الثعلب المكار" بعدد مجلة "ميكي" 22 مارس 1979.. أعضاء عصابة المافيا الدولية وهم يتحدثون في التليفونات، وسيارات الشرطة وهي تتجمع في الليل أمام المخزن، واللص وهو

يصرخ في "مصطفى الكواوي": (كوجاك.. هو عرف ازاااي؟.. هو عرف ازاااي؟) في إعلان "بونبون سيما".. اللاعب الذي ركل حذاءه بدلاً من الكرة، وظهرت أصابعه من الجورب المقطوع في تتر مسلسل "عيلة الدوغري" 1980).

المسودة السادسة

لم أحصل في يوم من الأيام على دراجة، ولم أتمكن أبدًا من قيادة دراجة أحد آخر.. كنت أراقب كل يوم عصرًا فتاة سمراء اسمها (سحر)، وكانت ابنة (حلمي) صاحب (البوتيك) المواجه للبيت وهي تلعب بدراجتها الكبيرة ذات المسند الأحمر وشرائط الزينة الملونة، المدلاة من طرفي المقود.. كان لها شقيقة أخرى أصغر اسمها (سماح) وأخان (أحمد) و(خالد).. كان لـ (خالد) دراجة صغيرة زرقاء، وكانت نسخة من الدراجة المرسومة في اللافتة العريضة لـ (بوتيك) أبيه بجوار سيارة وتليفزيون وموتوسيكل، والتي كانت تُضاء بالنيون الأبيض.. أسفل هذه اللافتة كانت هناك سبوتات إضاءة حمراء وخضراء وصفراء موجهة لعتبة (البوتيك).. كل ما حصلت عليه هو الجرس المعدني ذو اللون الفضي الذي ينبعث رنينه مع تحريك يده الصغيرة، ولم أعرف أبدًا أي عجلة كان يخصها هذا الجرس.. لكنني ركبت الدراجة كثيرًا، وتحديدًا دراجة (عم فوزي) التي كانت من أجمل لحظات حياتي هي الجلوس على الكرسي الصغير أمامه فاتحًا رجليّ بينما قدماي على المسندين الصغيرين اللذين يفتحان ويُغلقان، وكنت أشعر ساعتها بأنني أطير في الشوارع، وكان (عم فوزي) يأخذني من بيتي إلى بيت عمتي أو العكس،

وكان أحيانًا يتجوّل بي في (المنصورة).
كان هناك نوع آخر من أجراس الدراجات يشبه جرس الباب، وكان عبارة عن قطعة مستطيلة مقسّمة إلى علبة عريضة وبارزة من الزجاج الأحمر، بداخلها لمبة تضيء مع الضغط على الزر الموجود في الجزء الآخر من الجرس، مع انبعاث صوت يشبه تمامًا جرس استدعاء المديرين للسكرتيرات في أفلام ودراما الثمانينيات.. كان هناك لونان لهذا الجرس: الأخضر والأصفر.
اليوم الأحد 29 يوليو 1984، وطالما أنك غير قادر على الطيران إلى هناك، فعلى الأقل يمكنك أن تربط تلك القطعة الصغيرة من القماش القطيفة الأحمر في طرف عصا، وتحتضنها بين يديك، وأنت جالس أمام التليفزيون.. أنت لست واحدًا من هؤلاء الخارقين، الذين بوسعهم المرور إلى النعيم، وملامسة أيقوناتك، وهي تستعرض معجزاتها دون شاشة وسيطة.. لن يمكن لبصرك أن يضم أكثر تلك الأيقونات لمعانًا إلى عينيك، وليس مجرد الاستسلام لصورتها المرسلة من بعيد مثلما يفعل مع البشر العاديين الذين يحاصرونك في البيت، والشارع، والمدرسة.. ملكها الساحر، الذي يتباهى الرقم 10 بالالتصاق بظهره، ولا ينقص علاقته بالكرة حقًا سوى أن يكلّمها، وترد عليه مثلما قال (ميمي الشربيني) ذات مرة.. لكن من يجروء على الشك في أنهما يتبادلان الكلام فعلاً بلغة سرية لا تعيش إلا في قواميس السحرة.. حتى الخجل الثقيل الذي أشعله في دمائك ذلك المزيج من الصرامة، والسخرية في نظرة أبيك، وهو يكتشف العلم الأحمر بين يديك قبل أن يجلس بجوارك، لا بأس؛ الحرقة المهينة للخجل هي الثمن الذي ينبغي دفعه إذن.. كان يجب أن تؤدّي ما عليك مهما كان العقاب.
انتهى الشوط الأول، ثم اقترب الشوط الثاني من نهايته دون أن يتحقق حلم مرمى الذين يرتدون الأبيض بالرقص احتفالاً بـ (الشياطين

الحمر).. مرور الوقت لا يعني التزايد التدريجي لخيبة الأمل فحسب، بل يعني أيضًا الحرص البالغ على كتمانها في روحك؛ حتى لا يدهسك غضب أبيك المتصاعد، والذي وصل ذروة ثورته حينما أحرز (المصري) هدفه الأول.. تحوّل العلم الأحمر البدائي في يديك من صيحة فرح مرجأة، تنتظر لحظة انفجارها المحسومة إلى دليل إدانة موصوم بجلب الحظ السيئ.. لكنك في نفس الوقت كنت تعرف أن الأمر لا يمكن أن ينتهي هكذا.. إن اللحظات الأخيرة الباقية ستعيد العالم إلى وضعه الصحيح، وتعتذر عن خطأ عابر لم يكن مقصودًا.. حينما أحرز (علاء ميهوب) هدف التعادل قبل النهاية بقليل ظل العلم الأحمر منكمشًا بين يديّ رغم السعادة الطاغية.. ليس لأن موعده الحقيقي لم يأت بعد، أي لحظة رفع الكأس، ولا لأن الأهلوية يُزرع تلقائيًا في أعماقهم الإيمان منذ الصغر بأن الفرح بالتعادل رغم حتميته ليس فرحًا حقيقيًا، بل مجرد تخفيف بسيط لألم غائر في الكرامة لن يمحوه سوى الفوز.. ظل العلم الأحمر منكمشًا بين يديّ نتيجة الانشغال أيضًا بالإدراك الذي بدأ يتكوّن في ذاكرتي بأن الفرح بالمكسب يزيد مع صعوبة تحقيقه.. كان قدر كبير من سعادتي يدين بالفضل لسعادة أبي نفسه.. كان نادرًا جدًا أن أراه فرحًا، ولهذا كان يجب أن أشكر الحياة سرًا في تلك اللحظة.. تحوّل الشكر إلى امتنان عظيم بعدما أحرز (علاء ميهوب) الهدف الثاني في الوقت الإضافي، حيث اندمجت صيحتي الفرح من الأب، وابنه في صيحة واحدة هائلة اهتزت معها نشوة العلم الأحمر للمرة الأولى.. لم يكن هناك وجود للسعادة حينما أحرز (خالد جاد الله) الهدف الثالث.. كان هناك شيء أكبر، وأكثر روعة، ولا يمكن وصفه.. أخذ أبي العلم الأحمر من يدي، وخرج ليرقص به في البلكونة وأنا أهتف معه: (أهلي.. أهلي).

كنت أكره رجلاً صعيديًا عيّنته عائلة (المكاوي) التي تمتلك العمارة

الملاصقة لبيتنا كغفير على محل (سامح المكاوي) الذي سيتحوّل بعد ذلك إلى معرض للموبيليات.. كانت ملامحه غليظة وطباعه عنيفة، وكثيرًا ما تشاجر مع أهل الشارع نتيجة سلوكه العدائي.. بالرغم من عدم احتكاكي به فإنني قررت الانتقام منه بأي طريقة.. كان يجلس دائمًا داخل المحل المفتوح الذي لا يزال تحت التجهيز وراء العتبة بالضبط.. كنت أقف في جانب البلكونة، وأنتزع من قشور البصل الحمراء التي كانت أمي تحتفظ بها هناك، وأرميها باتجاه الغفير، فيأخذها الهواء إلى داخل المحل.. ظللت أفعل ذلك مراقبًا قدمي الرجل ـ الجزء الوحيد الذي كان يظهر منه ـ وهو يُهزها بقلق وقشر البصل يتوالى نحوه.. فجأة وجدت رأسه تخرج باندفاع من باب المحل ووجهه المخيف ينظر لأعلى مباشرة نحوي.. تراجعت بسرعة إلى الخلف، ثم تركت البلكونة كلها بخوف شديد، ولم أفكر بعدها في معاودة الانتقام منه.

في الصيف كنت أرتدي العديد من البيجامات: بيجاما لونها لبني، وذات أزرار بيضاء مع خط دائري لونه كحلي حول كل كُم.. بيجاما أخرى بنفس المواصفات لونها أخضر، وكان لون الخط الدائري حول كل كُم أخضر غامق.. كانت هذه النوعية من البيجامات تبدو كأنها تستجلب الهواء المنعش في عصر اليوم الصيفي ومسائه حتى دون الوقوف في البلكونة أو تشغيل المراوح.. كنت أرتدي عند الخروج في الصباحات الصيفية المشمسة كاسكيت أزرق بلاستيكيًا بلا رأس، وله أستك مربوط بين طرفيه، يلف حول الدماغ.. كان بشكل ما نسخة مصغرة من الكاسكيت الكبير المضحك الذي كان يرتديه (سمير غانم) في الحلقة الأولى من مسلسل (كابتن جودة).. أحيانًا كنت أخرج به عصرًا رغم اختفاء الشمس متعللاً باحتمال سطوعها في أي وقت، ولكنني في الحقيقة كنت أتمنى ارتداءه بالشارع حتى في الليل مثلما كنت أرتديه دائمًا في البيت.

كنت ألعب مع (رشا) و(رانيا) ابنتي خالي لعبة (السلم والثعبان)، التي جاءت هديةً مع أحد أعداد مجلة (سمير).. كان معها (قشاطان) واحد أصفر والثاني أخضر بالإضافة إلى زهر صغير.. كانت اللوحة الكارتونية تحمل كل شخصيات مجلة (سمير) وهم يلعبون بالسلالم والثعابين، وكنا نسجّل النتائج في ظهر اللوحة بالقلم الرصاص.. كنا نلعب في بيتي وأحيانًا في بيتهم، وكانت (رانيا) أحيانًا تتركني لتأكل ملعقة كشري من المطبخ ثم تعود لتواصل اللعب.

كانت هناك حصص للتدبير المنزلي في المدرسة.. أحيانًا كانت تلميذات فصلي تشتركن فيها بعد الاتفاق على أن تُحضر كل واحدة ما تقدر عليه من مكونات الطهي من بيتها.. كان بعضهن أحيانًا يقمن بالطبخ في الفسحة دون انتظار لحصة التدبير المنزلي، لكنني كنت أرى اللاتي يحصلن على هذه الحصة أكبر عمرًا من تلميذات فصلي.. كانت طالبات من فصل أمي ـ ومن ضمنهن ساكنات في الشارع الذي يجمع بين المدرسة وبيتي ـ هن أكثر الموجودات في الحجرة الكبيرة التي كان يضيئها نهار يخفت سطوعه عبر الشبابيك عند تكاثف الغيوم وتدفق المطر.. حينئذ كان يأتي وقت المصباح الأصفر الذي يُكمل متعة الغيوم والمطر والبرد الفائضة بزرقتها البيضاء من النوافذ.. كانت التلميذات داخل هذه الحجرة، وبالذات في هذه اللحظات الشتائية يبدون في أثناء الطبخ بمرايلهن ذات الأحزمة المعقودة من الخلف كأنهن طاهيات من عصر قديم، يعملن داخل قصر مشيّد على أرض قصة أسطورية، ويتبادلن أسرارها من وراء الكلمات الواضحة، وعبر أيديهن وهي تتناقل المكونات والأدوات، وتُنضِج الطعام.

كانت واحدة من هؤلاء التلميذات اسمها (فتحية) نشطة جدًا في مجال التدبير المنزلي كأنها ربة منزل صغيرة.. لكن الحقيقة أنها لم تكن تبدو شكلاً وطباعًا كطالبة في ابتدائي.. كانت تلميذة عند أمي، وتُشعرك في

بعض الأحيان أنها تتعامل مع المدرسة كبيت يجب تنظيفه وترتيبه وطهي الطعام بداخله أكثر من كونها مكانًا للدراسة أو اللعب.. كانت تسكن في شارع (سينما أوبرا) بالبيت المواجه لمنزلي، أو ما كان يُسمّى بـ (بيت العسكري)؛ نسبة إلى شرطي المرور البدين العجوز الذي يسكنه، والذي كان يعلو محلّي (غراب) و(السلاموني)، حيث كان هناك طفلان ـ ولد وبنت ربما كانا شقيقين ـ يُطيّران الطائرات الورقية الملونة إلى ارتفاعات عالية من فوق سطحه.. كانت الطائرات تطير عصرًا، وقبل المغرب في رمضان، وأحيانًا كثيرة كنت أستلقي على سرير (مدحت)، وأتابعها عبر البلكونة المفتوحة.. كانت هناك أعشاش حمام أيضًا فوق هذا السطح، وكان هناك من يُطلِق صفيرًا متعاقبًا ولمدة طويلة؛ كي يعيد الحمام كل يوم إلى الأعشاش قبل المغرب.. كان هذا يحدث وأنا داخل البلكونة المغلقة بينما الكل نائم، وظللت طوال فترة الطفولة أتصوّر أن هذا الصفير الذي كنت أسمعه لسنوات هو صوت أحد الطيور التي تحلّق في هذا الموعد عبر السماء المنبسطة فوق سطح سينما (النصر)... هذا الصفير كان يُشعرني بفرح غريب، كأنه مُلاعبة قادمة من الغيوم، أو رغبة من قلبها الأبيض تناديني؛ حتى أشارك في الطيران بأي طريقة.. كان يمكن لي ولأمي ولـ (ماجدة) رؤية تلاميذ الابتدائي الذين يسكنون هذا البيت في شارع (سينما أوبرا) وهم واقفون فوق السطح، بينما نشاهد نحن زبائن التنشين أمام لوحة البمب الخاصة بـ (مصطفى المنزلاوي) تحت البلكونة.

في الثمانينيات كانت هناك صور تمثل جواهر نراها دون أن نلمسها.. مشاهد من الغرب تعبر إلينا عبر وسائط مختلفة مثل ورق الحائط، وكروت المعايدة، وأغلفة الكشاكيل، والمجلات، والكتالوجات، والملصقات الدعائية لدول أوروبية (قبرص واليونان مثلاً): (رجل وامرأة على شاطئ بحر.. أب وأم وأطفال في رحلة داخل حديقة.. بحور وجبال

وغيوم).. لكن الحياة التي أردتها بشدة ولم أتمكن سوى من النظر إليها هي مدينة (نيويورك) في الليل.. المنظر الذي كان سائدًا وقتئذ كورق حائط، وكان تقريبًا هو الخلفية الجدارية في مكتب (أسامة عباس) بمسلسل (أبنائي الأعزاء شكرًا)، وكان من أجمل أحلامي أن أتجوّل مع أسرتي في سيارة (أحمد بكر) داخل هذا المنظر.

في أحد أيام 1985 كنت جالسًا على مكتب عمي في بداية الفرن، أشرب (ميراندا) مرتديًا فانلة بيضاء صيفية، منقسمة لجزء علوي أبيض وتحته جزء لبني، وكان التليفزيون الأبيض والأسود يعرض مباراة الزمالك والهلال السوداني حيث سقطت كمية كبيرة من (الميراندا) على الجزء العلوي (الأبيض) من الفانلة.. ذات مرة ذهبت مع أبي في سيارة (أحمد بكر) ذات الوجه الأصفر المبتسم الصغير على زجاجها الخلفي إلى فرن عمي (بلبل) بالسكة الجديدة ـ كان أبي يجلس وراء المكتب في بداية الفرن ـ في أثناء العودة بسيارة (أحمد بكر) خرجنا من شارع (بورسعيد) إلى شارع البحر، ومررنا تحت لافتة (توشيبا) الشاهقة والمهيبة بأضوائها الحمراء القوية في المساء، ثم اتجهنا إلى شارع (بنك مصر) وأنا جالس في المسافة الضيقة بين المقعدين الأماميين شاعرًا بضغط قوي لذراعيهما عليّ من الجانبين.. طلبت من أبي الجلوس على قدميه؛ فشعرت براحة شديدة بعد التخلّص من الحصار في تلك البقعة الضئيلة، وما زاد من شعوري بالراحة هو تطلعي للمكان الذي خرجت منه بين ذراعي أبي و(أحمد بكر) الذي أصبح فارغًا، ومراقبة إلى أي مدى كان غاية في الضيق؛ حيث كان ذراعاهما يتلامسان، ويحتكان ببعضهما بعدما أصبحت المسافة بينهما خالية.

كنت أحب ركوب السيارات، ومن ضمن أسباب فرحي بالعيد الصغير أو العيد الكبير هو أننا سنركب تاكسيًا لزيارة عمتي.. كان (عم فوزي) زوج عمتي يأخذنا؛ لنتجول في الجنينة الجميلة التي زرعها بجوار

بيتهم، حيث تنتشر رائحة الريحان مع المطر والبرد والنباتات الخضراء كجنة صغيرة.. أحيانًا كنا نعود مشيًا من بيت عمتي آخر المساء، وكان (عم فوزي) يسير معنا حتى منتصف شارع (بورسعيد).. نمر على سور (نادي الشعب) الذي تبدو المساحات الخالية من حوله مع المداخل الصامتة والمظلمة للبيوت ونوافذها، والسكون الليلي، والأضواء القليلة كأنها فضاء ماكر يُخبّئ تجهيزًا لمفاجآت عجيبة.. كأن مجموعة من المغامرين على بُعد خطوات قليلة من أجسادنا يجتمعون حول طاولة داخل حجرة بنور أصفر خافت، ويبحثون في أسرار مثيرة، وألغاز مشوّقة لها علاقة بتاريخ (المنصورة)، وإن للراديو حضورًا أساسيًا في اجتماعاتهم، التي لا بد أن يهطل المطر حين تُعقد.. لا زالت هذه المنطقة تأتيني في الحلم أحيانًا، وفي هذا التوقيت بالذات.. عند خزان المياه الضخم العالي نقف جميعًا، يتكلم أبي وأمي مع (عم فوزي)، وأنا أنظر لأعلى، ثم أهرب بعينيّ بعيدًا على الفور، وبمنتهى الرعب بسبب شكل الخزّان المظلم المخيف، المرتفع كثيرًا بغموض ورهبة عن الأرض، ويظهر كأن اتساعه مقر للعفاريت.. أتذكر أنني سمعت بعض الناس يقولون هذا فعلاً.. أنظر إليه ثانية؛ لأنني أريد هذا، ثم أهرب بعينيّ من جديد، متسائلاً في داخلي: من الذي يسكن حقًا هذا الوحش الهائل، المعتم، والصامت؟.. كنت دائمًا كلما دخلت الحمام بمنزل عمتى أقف متطلعًا عبر شباكه الصغير إلى نوافذ بيوت (المساكن الشعبية) العالية، والمضاءة بالنيون الأبيض في المساء، وأفكر: (من الذي يسكن هناك وراء كل هذه النوافذ؟)

ذات مساء كان (مدحت) في الصالون مع بعض أصدقائه، وكنت في الصالة أمام التليفزيون مع أمي و(ماجدة) وجدتي وابنتي خالي.. فتح أخي باب الصالون وأطل برأسه قائلاً بإثارة بالغة: (حملة على "حلمي").. أسرعنا إلى البلكونة؛ فوجدنا عربات الشرطة أمام (بوتيك

سحر) ورجال البوليس يُفتشون المكان.. كانوا يبحثون عن (الحشيش) في اللحظة التي هرب فيها (الجنزوري) ـ وكان رجلاً عجوزًا ـ إلى بيتنا، وصعد السلالم ثم جلس بجوار باب الشقة مختبئًا.. أصابنا جميعًا فزع هائل من وجود رجل مثله بالقرب منا، ويبدو أن الارتباك جعل الجميع يعطي احتمالاً بإمكانية حدوث شر منه لو تطورت الأمور في الشارع، أو حاول مثلاً أحد رجال الشرطة البحث عنه في العمارة.. كي تتعرف أمي على نواياه فتحت باب الشقة، وأخرجت (رانيا) وهي تقول لها بصوت عالٍ: (روحي اندهي "رامي" من هناك).. كأنها تُبلغ هذا المختبئ الجالس على السلم بشكل غير مباشر أنها لا يعنيها وجوده، ولن تمثّل تهديدًا له.. هي فقط تطلب من ابنة أخيها أن تذهب إلى شقتهم؛ كي تُحضر شقيقها الصغير.. كنت أراقب الموقف من وراء ظهر أمي، فرأيت عند فتح باب الشقة (الجنزوري) وهو يرفع يده ويشير بالسلام ناحيتنا مصحوبًا بابتسامة قلقة، كأنه يُطمئنهم وفي نفس الوقت يطلب منهم ـ دون كلمة واحدة ـ ألا يكشفوا عن وجوده.. تم القبض على (حلمي) وأخيه (عطا) في هذه الليلة، وخرج الرجل العجوز من العمارة بعد انصراف الشرطة، ولم أعرف أين كان (محمد) ساعتها، وإلى أي مكان ذهب، لكنني على أي حال لم أرَ أيًا منهم بعد ذلك أبدًا، وظل (بوتيك سحر) مغلقًا لسنوات طويلة.

البلكونة مفتوحة في المساء.. الضوء الأصفر القوي لعمود الإنارة المواجه للبلكونة المفتوحة يضيء السريرين قليلاً مع نور النيون القادم من الصالة داخل ظلام الحجرة.. في الشتاء كل لحاف مطبّق في آخر كل سرير، وفوقه بطانيتين مطويتين.. في الصيف تحل الكوفرتة المطبّقة مكان اللحاف والبطانيتين.. ربما سيمر بائع الزبادي البدين الذي يرتدي جلبابًا أسودَ، ويحمل فوق رأسه حاملاً خشبيًا واسعًا فوقه طواجن الزبادي الفخارية، دائرية الشكل، وينادي بلهجته الريفية

الدافئة: (لبن حليييييب).. كانت أمي تستوقفه من البلكونة، وتُنزل له النقود في (السَبَت)، فيضع مكانها طاجنًا أو اثنين أتأملهما طويلاً وأنا أتحسس ملمس الفخار البني مع صوت بائع الزبادي في الشارع الذي يواصل نداءه المعتاد.. لم أكن أحب الزبادي، ولا آكله إلا في رمضان بعد إذابة قدر كبير من السكر بداخله، لكن هذا الفخار كان يُشعرني بالطمأنينة.. كأن القرية التي جاء منها بائع الزبادي قد امتدت فجأة إثر ندائه، حتى وصلت إلى الشارع والبيت.. حتى ضمت حجرتي إليها؛ فأصبحت جزءًا من ذلك العالم البعيد الذي يضم الحقول، والأشجار، وندى الصباح الباكر، والبحيرات الصافية، وحيوانات الغيطان، وأصوات الطيور تحت أشعة الشمس الخفيفة، والسماء اللانهائية.. القرية التي تعيش فيها (الجدة بطة)، والتي زارها (عمر) و(أمل) في كتاب القراءة.. أتذكر الآن طبق فخار الزبادي في يد (نجيب الريحاني) بفيلم (لعبة الست).. نبرة صوت (نجيب الريحاني) الدافئة، التي تبدو آتية من زمن أبعد عبر ممر عميق، وهو ينظر إلى الطبق، مع حركة شفتيه اللتين تستطعمان الزبادي داخل الفخار قبل أكله.. أفكر في العلاقة بين هذا الطبق وحياة الأبيض والأسود وحجرة قديمة على السطح داخل حي شعبي بأشيائها البسيطة والمحدودة، ورجل طيب يُكافئ انكماشه داخل هذه الدنيا الصغيرة المنزوية بطاجن الزبادي الفخار الريفي اللائق به.. كأن العوالم المتشابهة تُشيّد جسورًا خاصة بين كائناتها، وبكيفية تناسب الروح المشتركة التي تمتد في أعماقها.. كذلك الرائحة.. رائحة الفخار.. كأنه نسيم نقي يجمع كافة روائح القرية التي جاء منها.. لم يكن غريبًا إذن أن يستخدم (مجدي) طواجن الفخار هذه في زرع العديد من النباتات.. صحيح أن أعمار تلك النباتات كانت قصيرة للغاية، ولكن ما كان مهمًا بالنسبة لي هو وجود تلك الأوعية في البلكونة، وبقاء الطين بداخلها حتى لو يسفر ذلك عن زرع ينمو ويعيش طويلاً.. كان يهمني

أن أرى طواجن الفخار تُستخدم بالشكل اللائق بجوهرها، حيث كان يعني ذلك أن البلكونة ستقترب بدرجة أو بأخرى من أن تصير حقلاً صغيرًا، رغم أنني كنت أشعر أيضًا بحزن ناجم عن خيبة أمل أخي وهو يجلس أمامها في البلكونة، ويسقيها، وينتظر، ويُعشّم نفسه بنباتات وفيرة وقوية لكن ذلك لم يحدث أبدًا.. كيف لا يعيش الزرع في أوعية فخارية تحمل مثل هذا اللون، والملمس، ومثل هذه الرائحة؟!.. كان الأمر يتعلق بحياة (مجدي) أكثر مما كان يتعلق بالطواجن الفخارية أو النباتات.

كنت عاشقًا للسيارات.. أقف في البلكونة والشباك لفترات طويلة أتابع مرورها، وأتأمل وقوفها، وأدقق في تصميماتها وألوانها.. أتعامل معها كشخصيات بشرية لكل منها حياته الخاصة، وتدور فيما بينها عند الوقوف في الشارع حوارات سرية، بلغة صامتة، لا يفهمها أحد سواها.. كانت عيونها هي المصابيح، وكل عينين كانتا تعطيان انطباعًا مختلفًا عن كل سيارة.. كنت أتفحص الأشكال المتغيرة لفتحات التهوية الصغيرة، وأماكنها المتبدلة.. وجود شبكة معدنية فوق السقف من عدمه.. الإطارات.. المرايات.. الحقائب.. إضاءة المصابيح الخلفية.. العلامات سواء الملتصقة أم البارزة، وأين توجد.. كان كل ذلك جزءًا من شخصية السيارة: البيجو 504 والـ 404.. المازدا الزرقاء.. الـ 132 الحمراء والصفراء والبيضاء والزرقاء.. السيارات الجيب خصوصًا السوداء.. الـ 127 فيورا (كانت من ضمن جوائز مسابقة ألبوم "بم بم").. الريتمو خاصة ذات اللون الأسود (كان يملكها أحد أصدقاء "سامح المكاوي" الذين كانوا يزورونه، ويجلسون معه في معرض الموبيليا ساعة المغرب، وكانت تنبعث من داخلها أضواءُ وأغانٍ ذات صوت عالٍ ومُبهج).. البي إم دبليو الكحلي.. المرسيدس الكحلي والحمراء والبيضاء.. بي إم دبليو أخرى سوداء قديمة ومكشوفة، كانت تدور في شوارع (المنصورة)

بكلاكس مشهور يشبه موسيقى (Love Story).
كنت أحيانًا عند ذهابي مع أبي إلى فرن عمي (بلبل) بالسكة الجديدة مساءً أجلس على كرسي فوق الرصيف، أتأمل المارة وواجهات البيوت والمحلات (كازانوفا ـ مكتبة الخولي ـ البرنس ـ القناوي)، كان يجلس بجواري ابن عمي (إبراهيم) عند وجوده في الفرن، وأيضًا صديقه (حسام) الذي كان يعاكس معه البنات والنساء العابرات أمامنا.. كنت أضحك على تلك المعاكسات، وأتذكر أنني رأيت امرأة جميلة تقف مع زوجها أمام الفرن، وأن (حسامًا) ظل يتفحص جسمها، ثم ابتسم حينما وجدني أراقبه؛ فقلت له هامسًا: (مينفعش تعاكس دي عشان جوزها معاها)، ضحك وقال لي: (أيوه.. أحسن يضربنا يا عم).. ذات مرة أخذني (إبراهيم) وصديقه بالسيارة الـ 128 البني إلى شارع (سينما أوبرا)، ثم تركها هناك لندخل سينما (النصر).. كانت المرة الأولى التي أدخل فيها السينما، وأعتقد أننا كنا عام 1985 حينها.. كان كل شيء غريبًا ومبهرًا بالنسبة لي: الظلام.. الشاشة الكبيرة.. الأصوات الضخمة.. كان يُعرض وقت دخولنا فيلم أجنبي أكشن لا أتذكر قصته أو أبطاله، ولكنني أتذكر جيدًا تصفيقي مع الجمهور عند اللحظات المثيرة؛ الأمر الذي جعل (إبراهيم) يبتسم وهو يسألني مداعبًا: (بتصقّف؟!).. كنا قد دخلنا في منتصف الفيلم الأجنبي الذي أعقبه فيلم (من فينا الحرامي) لـ (عادل إمام).. في بداية الفيلم مال (إبراهيم) على أذني هامسًا: (أجيبلك ساندوتشات كبده وسجق؟).. قلت له بنبرة الموافقة العادية، التي تغطي سرورًا داخليًا (هات).. كان (إبراهيم) من ضمن جميع (الكبار) خارج أسرتي الذين أشعر بالارتباك عند التحدث معهم، وهو ما كان يرغمني أحيانًا على الاندفاع بكلمات حمقاء مضحكة للتغلب على الشعور بالخجل فيتطور البؤس.. لكن إحساسي بالارتباك كان أقل مع (إبراهيم)؛ إذ كان شابًا صغيرًا، ودودًا وغير متكلّف، وكنت معجبًا بنمط حياته المُرفّه

والمتحرر.. كان إحضاره لساندوتشات الكبده والسجق لي مع ركوب سيارته ودخول السينما يعني أنه سيشركني ولو لزمن قصير في هذا النمط من الحياة.. أعطى (إبراهيم) نقودًا لصديقه (حسام) ـ كنت أجلس بينهما ـ الذي خرج من السينما، وعاد بالساندوتشات سريعًا.. أعتقد أنه اشتراها من مطعم (شتا) في شارع (سينما أوبرا).. أكلت الساندوتشات بتلذذ عظيم مع المخلل، ومع رشفات متتابعة من الـ (كوكا كولا)، التي اشتراها لي (إبراهيم) من أحد البائعين داخل السينما.. حينما رقصت (زيزي مصطفى) في الفيلم على أغنية (أبو سمرة المعجباني) لمطرب يرتدي جلبابًا وطاقية؛ سأل (إبراهيم) صديقه عن اسم هذا المطرب، فأجابه (مجدي الشربيني).. انتهي (مين فينا الحرامي)، وبدأ فيلم لـ (جاكي شان) أظن أنه (الأفعى والنسر الشرس)، لكن (إبراهيم) قرر أن نغادر السينما، وحينما سأله (حسام) عن السبب أخبره بأنني تأخرت، ويجب أن أعود إلى البيت لألحق بسهرة التليفزيون.. لم أكن أرغب في الخروج من السينما.. كانت الـ 128 البني واقفة بالاستبن الخارجي الملتصق بحقيبتها تحت الضوء الأصفر لعمود إنارة بشارع (سينما أوبرا).. جلست في المقعد الأمامي كالعادة، وجلس (حسام) في الخلف، وكالعادة أيضًا ظللت أراقب (الدركسيون) البديع (طارة سبور أسود في فضي)، الذي لا يشبه (دركسيون) أي سيارة أخرى رأيتها.. كانت لهذه السيارة شخصية مميزة بفضل مكوناتها النادرة بالنسبة لي: (اللون البني الفاتح.. الدركسيون.. الاستبن الخارجي الملتصق بالحقيبة).. كنت أبحث عن هذا (الدركسيون) داخل السيارات الأخرى التي تمر في الشارع تحت البلكونة، وأشعر بسعادة كبيرة حينما أراه صدفة.. صعد (إبراهيم) بي إلى الشقة، ولم يدخل معي، وانصرف بعد تبادل تحيات تقليدية مع أبي وأمي.. كانت سهرة التليفزيون قد انتهت، وأظن أنه كان يُعرض على الشاشة عند عودتي برنامج (أوتار الليل).. كالمعتاد

سألتني أمي عن تفاصيل ذهابي إلى السينما مع (إبراهيم)، وكالمعتاد حكيت لها كل شيء.. فوجئت بها تسألني باستنكار: (وهو لما يسألك أجيبلك ساندوتشات تقوله "هات".. مش تقوله: "شكرًا").. ثم نادت (ماجدة) وحكت لها الموقف بنفس نبرة الاستنكار؛ فعاتبتني أختي، وأعادت ما قالته أمي.. شعرت بالحزن والغضب.. كأنني أفسدت حفلة رائعة بتصرف غير مقصود، ولم أنتبه لهذا الخطأ إلا بعد انتهائها.. هل تضايق (إبراهيم) مني؟.. هل اعتبرني ولدًا غير مؤدب؟.. هل قرر في داخله ـ نتيجة لما حدث ـ ألا يأخذني ثانية إلى السينما، أو في أي نزهة أخرى؟.. كان استنكار أمي وعتاب أختي بمثابة إفاقة عنيفة لغفلتي؛ كي أواجه ما ينقصني حقًا.. نعم.. أنا لست ذلك الطفل اللبق، المتحدث الماهر، الذي يجيد انتقاء الكلمات الصحيحة، ويضعها تلقائيًا داخل الأماكن المناسبة.. لكنني لا أستطيع أن أكون كائنًا آخر.. أمي وأختي أيضًا لا يليق بهما تلك النظرة المصدومة، ولا تلك اللهجة اللائمة وهما تقفان أمامي بثقة.. كأن ما حدث كان مفاجأة حقيقية لهما.. كأنهما لا تعرفاني، ولا تعرفان أنني غير قادر على تغيير نفسي.. كأنهما لا تعرفان أنهما غير قادرتين على مساعدتي في هذا التغيير.. كانت جميع محاولاتي تثبّت الحقيقة التعسة التي يدركها الآخرون، وأعتقد بالتالي أنها تحولت بمرور الزمن إلى واقع بديهي لم يعد ملفتًا.. قضيت ليلتي أحلم بالسيارة الـ 128.. ليس بالأفلام ولا بالساندوتشات ولا باستنكار أمي وعتاب أختي.. قضيت ليلتي أحلم باللون البني الفاتح، وبالاستبن الخارجي الملتصق بالحقيبة، وبالـ (دركسيون).. قررت قبل النوم ما سأشغل صباحي التالي به.. أمضيت النهار كله ألعب بسيارة السباق الحمراء الصغيرة فوق جميع أسرّة البيت ـ عدا سرير (مجدي) ـ وفوق كنبة الصالة، وسور البلكونة، محاولاً دون جدوى التغاضي عن كونها لا تشبه مطلقًا سيارة (إبراهيم).

أمام شباك الصالون بيت قديم من دورين.. يسكن الدور الأول (الحاج عبد الجواد) وزوجته وأبناؤه.. كانت لديه ابنة جميلة بيضاء ذات شعر قصير أسود.. في الدور الثاني تسكن أسرة الدكتور (سمير أبو الحسن).. كان له ابن يقف في البلكونة، ويشير لي بحركات تشبه الملاكمة فأرد عليه.. ذات مرة اشتركنا في لعبة الظهور والاختفاء دون اتفاق، وفي سكوت تام.. كنت في الشباك وهو في البلكونة.. نزل لأسفل بجسده الصغير مختبئًا وراء السور، ثم بعد لحظات ارتفع بسرعة؛ ليكشف عن نفسه وهو يضحك لي.. بدأت أبادله اللعب، وأفعل مثله: أنزل بقدمي لأختفي وراء سور الشباك، ثم أفرد جسدي بعد لحظات بسرعة؛ لأنظر مبتسمًا.. استغرق الأمر لحظات قليلة شهدت انسجامًا ودقة بيننا، حيث اختبئنا وظهرنا معًا أكثر من مرة ونحن نضحك باستمتاع.. كان يجمعني بهذا الولد شيء آخر، وهو خوفنا المشترك من الطيور السوداء الكثيرة التي تطير بغزارة وعنف وعلى ارتفاعات منخفضة.. كنت أظن أن تلك الطيور هي الخفافيش التي سمعت وقرأت عنها، وكان ذلك يسبب لي الرعب خاصة حينما تنشط فترة العصر، أي فترة وجودي في البلكونة.. كنت أهرب بسرعة، وأدخل فورًا إلى الحجرة إذا ما رأيت وفرة مفزعة من هذه الطيور تحوم باندفاع وعلى مسافة قريبة جدًا.. أمي كانت تحذرني دائمًا من الاستمرار في البقاء داخل البلكونة مع هياج هذه الطيور، مستشهدة بالولد الصغير ابن دكتور (سمير أبو الحسن) الذي كان يتبخر من بلكونته فور طيرانها داخل فضاء الشارع.. كان يُقال إن هذه الطيور لا تُرى نهارًا، وأنها ترسل طوال الوقت ذبذبات ترتد إليها عند الاصطدام بعائق قبل بلوغه فتتفاداه، وكان هذا يفسر لي لماذا لم يحدث أبدًا أن لمس طائر ما من هذه الطيور أي شيء مهما وصلت درجة اقترابه منه.. كان يبدو أنها تنحرف عما يقابلها في آخر لحظة، وكان هذا مخيفًا حقًا.

في 28 سبتمبر 1981 كان يتحدثون في البيت عن زيارة (السادات) للمنصورة.. قبل هذا اليوم بفترة قليلة كان (السادات) يُلقي خطابًا، فأشار أبي إلى التليفزيون وسألني مداعبًا: (مين ده؟).. كنت في هذا الوقت أتصوّر أن أي رجل يلبس نظارة سوداء قاتمة ويظهر على الشاشة هو (طه حسين)، لكن أبي لم يصحح معلومتي بشكل مباشر بل قال لي: (ده مش "طه حسين".. ده أحسن واحد).. كان الجو مشمسًا، وكان أبي يستمع في حجرته لـ (محمد الكحلاوي): (حب الرسول)، و(لاجل النبي).. كان الكل يتساءل: هل سيمر موكب (السادات) من شارعنا؟.. قضيت أغلب اليوم في البلكونة منتظرًا هذا المشهد، وأحيانًا كان يشاركني الوقوف أبي وأمي و(ماجدة).. كنا نسمع أصواتًا هادرة لما يبدو أنها تجمعات شعبية كبيرة، ولكننا لم نكن قادرين على رؤيتها؛ إذ يبدو أنها كانت تحتشد احتفالاً داخل شارع البحر وراء بيتنا.. أتذكر أن جدتي ذات مساء كانت تقلّد تهتهة (السادات) بسخرية وهي جالسة القرفصاء بجواري على سريري أنا و(ماجدة) أمام التليفزيون، الذي كان وقتئذ في حجرتنا، حيث كان (السادات) يُلقي خطابًا بفواصل من تردده الكلامي المعروف.. بعد مرور وقت طويل جدًا من الانتظار سمعنا الأصوات ترتفع فجأة، والصيحات الجماهيرية تحتدم فيما بدا كأنه عبور للموكب من شارع البحر.. بعد مرور ما يقرب من أسبوع على هذا اليوم الذي لم نستطع فيه رؤية (السادات)، وتحديدًا يوم 6 أكتوبر 1981 بعد الثانية عشر ظهرًا بقليل؛ كان (مدحت) يجلس مرتديًا الفانلة الداخلية الحمّالات أمام التليفزيون، وكان مجاورًا حينئذ لباب الشقة.. خلفه قليلاً، على اليمين كنت أجلس فوق أحد الكرسيين المتلاصقين تحت المرآة.. كنت أحتضن (مشمش)، وأتابع مع (مدحت) العروض العسكرية الاحتفالية، وبينما كان (السادات) يجلس بين (أبو غزالة)، و(مبارك) ويهز رأسه رأيت فوضى مفاجئة مع صوت إطلاق

النار، ثم انقطع الإرسال على الفور؛ لتظهر اللوحة الملوّنة المكتوب عليها (القناة الأولى).. أصابني الفزع، وبحركة لا إرادية قذفت (مشمش) على (مدحت) الذي نهض من مكانه مصدومًا.. طار (مشمش) في المسافة القصيرة التي تفصل بيننا شاهرًا مخالبه بشكل تلقائي؛ ليصطدم بصدر (مدحت) العاري، ويغرز مخالبه في لحمه، وهو يسقط على الأرض كأنما يتشبث به.. أسرع (مدحت) إلى الحمام؛ ليجفف الجروح التي نزفت بعض الدماء في صدره، وخرجت أمي من المطبخ، وأختي من الحجرة، وعيونهما الجزعة تتنقل بين التليفزيون و(مدحت) و(مشمش)، بينما ظللت واقفًا في مكاني مرتعشًا لا أفهم ماذا حدث.

عمل في فرن عمي فترة طويلة صبي أكبر مني قليلاً اسمه (محمد).. كان أعرجَ، وله كافة سمات الأولاد العاملين في ورش الميكانيكا الذين كنت أراقبهم من البلكونة وهم يعبرون من (ميت حدر) إلى شارع (بنك مصر) أو العكس، أو الذين يقفون في طابور الرجال بفرن (الشربيني)، أو يشترون أكياس الخروب والليمون من بائع الخروب في (ميت حدر) قبل موعد الإفطار في رمضان بوقت قصير.. لكن اتساخ شعره المجعّد، ووجهه الأسمر، وملابسه البالية كان أقل.. كان يأتي بصاجات الخبز الفينو يوميًا من فرن عمي إلينا، وكانت أمي تبقيه قليلاً ليأكل شيئًا، وكثيرًا ما كان يلعب معي.. كنا نخرج إلى البلكونة ونسيّر السيارات الصغيرة، والمشابك الخشبية، والبلاستيكية الصفراء واللبني التي كنت أستعملها كسيارات أيضًا فوق السور، ونخترع مطاردات ونضحك.. غاب (محمد) لسبب لا أتذكره مدة كبيرة لم يذهب خلالها إلى الفرن.. لكنه بعد عودته وعندما أحضر صاج الخبز الفينو إلى بيتنا احتضنا بعضنا، وربما حكي لي بعد ذلك أنه كان مريضًا.. ذهبنا إلى البلكونة، ولعبنا بالسيارات زمنًا طويلاً، ثم عاد إلى فرن عمي.. كان أبي نائمًا لكنه بعدما استيقظ فوجئت به يصفعني بقوة على وجهي؛ لأنني لعبت كل

هذه الفترة مع (محمد) في البلكونة.. قال أبي شيئًا يشبه أنه من غير اللائق أن ألعب مع ولد مثله يعمل فرانًا عند عمي.. الصفعة لم تكن غريبة بالتأكيد، حتى لو لم يكن هناك سبب واضح لها.. ما كان غريبًا هو كلمات أبي، ومن جهات عديدة.. ليست هذه المرة الأولى التي ألعب فيها مع (محمد)، وبالتأكيد لا تمثّل زيادة وقت اللعب هذا اليوم ـ الناجمة عن غيابه مدة كبيرة ـ كارثة تستدعي كل هذا الغضب.. ثم إن أمي كانت تُعامل (محمد) كابن لها، وكانت تهتم به، ولم تنظر له أبدًا كمجرد عامل في فرن (بلبل).. كان اللعب مع (محمد) بديهيًا بالنسبة لي؛ لأنه لم يكن سيئ الخُلق أو الطباع.. كان ولدًا مؤدبًا، مسالمًا، فكاهيًا، ولم يكن لمظهره أو لمهنته أي أهمية عندي، باستثناء روائح الفرن التي كانت تأتي مع جسده الصغير إلى البيت، وعدا شعوري لوهلة أن بيجامتي النظيفة قد اتسخت بعدما احتضنته في ذلك اليوم.. أتذكر أنني كنت أحس طوال الوقت بأنها متسخة بالفعل؛ نتيجة هذا الاحتضان رغم أنني تأكدت أكثر من مرة أنه لم يصبها أي شيء من ملابس العمل التي كان يرتديها (محمد).. اكتشفت مجددًا أنني قريب من أمي أكثر من أبي.. في علاقتنا بالآخرين الذين يبدون في الظاهر الاجتماعي أنهم أقل حظًا منا.. بالتأكيد أخذت طباعًا كثيرة من أبي.. ليست مجرد طباع بل أساسيات جوهرية، ولكن ليس من بينها الجفاء الحاد مع الغرباء، وهو ما كان يمتد إلى الأقارب بالتأكيد.. أخذت من أمي ـ وبشكل مطابق تمامًا ـ ذلك التزاوج المربك بين الخجل الخائف، والتعاطف النقي.. لم ألعب مع (محمد) بعد ذلك، ثم توقف هو عن المجيء إلى البيت بعدما ترك العمل في الفرن، وعاد إلى قريته مع بداية العام الدراسي الجديد.

كان أبي دائمًا ما يقضي أوقاتًا كثيرة مستلقيًا في سريره.. في أي ساعة من اليوم.. يضع ظهر يده على رأسه أو على فمه، ويحدّق في السقف

شاردًا.. إلى حدٍ ما بنوع من الخوف الذي يحتاج رصده إلى تركيز طويل.. كانت وضعية جلوسه المفضلة هي نصف القرفصاء حيث فخذ نائم، وفخذ واقف فوق كنبة الصالة.. ذراعه مسنود من عند المعصم على ركبة ساقه المثنية لأعلى، وكفه تتدلى أمامها.
كان يأتي إلى بيتنا (عم سامي) الحلّاق، وفضلاً عن أنه كان يقص شعر أبي؛ كان يُعطيه حقنة كل أسبوع تقريبًا في العضل.. كنت أقف كل مرة لمراقبة نفس المشهد: السن المغروز، والسائل الأحمر وهو ينسحب تدريجيًا مع ضغط الإبهام الكبير لـ (عم سامي)، والقطنة البيضاء المبتلة بكولونيا (5 خمسات) أو (3 خمسات)، التي تُدعك بتلاحق فوري مكان الغرز بعد نزع السن.. كان رجلاً طويلاً، هادئًا، ولوجهه ملامح صارمة، وكان يركب (فيسبا)، ويحمل حقيبة صغيرة أقرب إلى صندوق بقفلين، توجد بداخلها أدوات الحلاقة، والكولونيا، والقطن.. أتذكر أنني كنت معجبًا بمحتويات هذه الحقيبة، أو بشكل أدق بطريقة تنظيمها (المقصّات، والأمشاط، والفُرَش، والماكينات الصغيرة، والأمواس، والزجاجات، والفوطة البيضاء).. كل شيء داخل هذه الحقيبة بالنسبة لي كان غريبًا، ومثيرًا.. الكيفية السلسة، والمنضبطة التي كان يستخدم بها (عم سامي) هذه الأدوات كانت مشوّقة أيضًا.. كان يبدو لي أنها كائنات حية صغيرة يرعاها داخل هذه الحقيبة، وأنها لا تتطلب منه تركيزًا خاصًا، أو انتباهًا استثنائيًا عند التعامل معها، بل كان الانسجام الحميمي بينه وبين هذه الأغراض كفيلاً بتثبيت مهارة عفوية دائمة، لا تختل، تحكم استعماله لها.. كانت أكبر من كونها حقيبة؛ إذ كنت أتأملها كتجسيم لإحدى أفكاري عن الانطواء.. أن تمتلك مخبأً صغيرًا مقفلاً على جميع أشيائك الثمينة، وأن تكون قادرًا على الانتقال به من مكان إلى آخر، دون أن يفارقك أبدًا.. أن تضمن حمايتهم كأصدقاء سريين، طالما ظلوا على استقرارهم في الداخل، وألا تحتاج إلى مساعدة من

العالم أكثر من أن يبقى بعيدًا.. كان في اهتراء حقيبة (عم سامي) وانطفاء لونها دافعًا أقوى لأن أعتبرها تجسيدًا حقيقيًا للانكماش.. الاهتراء والانطفاء صفتان تكشفان عن أن العلاقة بين (عم سامي) وحقيبته قديمة جدًا.. تدلان على مدى الترابط بينه وبين الكائنات الحية التي تعيش بداخلها.. هذا الانتماء المتبادل ممتد إذن في ماضٍ عميق؛ بما يعني جدارة الحقيبة للاستمرار في مرافقته طوال هذه السنوات كسكنٍ عزيزٍ، وآمن، محمولاً في اليد.. ربما فكرت في الأشياء الثمينة التي يمكن أنْ تُقفل عليها حقيبة كهذه لو امتلكت مثلها يومًا.. قد لا تقتصر على قصصي ومجلاتي وألعابي فقط، بل ربما مخبأ مقفل كهذا من الممكن أيضًا أن تعيش بداخله الخيالات والتوهمات والأحلام.. من الممكن أن أنتقل بها ـ ككائنات حية ـ من مكان إلى آخر دون أن تفارقني أبدًا.. لم يكن أبي مريضًا، وإنما كانت هذه الحقنة نوعًا من الفيتامينات التي كان يحرص على أخذها.

زمن طويل جدًا من طفولتي قضيته في البلكونة.. يكاد يكون أغلب الطفولة.. زمن طويل جدًا من فترة وقوفي في البلكونة قضيته في مشاهدة الأخوين (حمدي كمال)، و(محمد كمال) وهما يلعبان الكرة الشراب في الشارع.. كانا يسكنان حارة (الحشيش) المقابلة لبيتنا، المجاورة لـ (بوتيك سحر)، وكانا يخوضان مباريات في أي وقت من اليوم ضد بعضهما، وكانا يخصصان جراج (الحاج صديق) كمرمى مشترك.. كانا من فئة (الأولاد غير المؤدبين)، الذين لا ينبغي أن يكون لي أدنى صلة بهم.. لكن في إحدى المرات التي كنت أتابع فيها مباراة بينهما ابتعدت الكرة كثيرًا إلى نهاية الشارع؛ لدرجة أنها اختفت.. جرى (حمدي) الأخ الأكبر ليحضرها، وتركه أخوه (محمد)؛ باعتبار أن اللعبة لم تعد تمثل خطورة تستحق معها أن يطارده.. كان الشارع خاليًا تمامًا في عصر هذا اليوم، ووجدت (محمدًا) يصعد فوق إحدى

السيارات الواقفة تحت البلكونة ثم يتمدد فوقها آخذًا ربما قسط من الراحة حتى يعود (حمدي) بالكرة.. مع استلقاء (محمد) فوق السيارة كان من المنطقي أن يتقابل وجه كلٍ منا مع الآخر.. بعد لحظات من الصمت فوجئت بـ (محمد) يسألني: (جه؟.. جه؟).. كان بالطبع يقصد هل أحضر (حمدي) الكرة، وعاد بها مقتربًا من المرمى؟.. نظرت فورًا إلى الجهة التي ذهب إليها أخوه، وبالفعل وجدته يجري بالكرة مندفعًا بها ناحية مساحة اللعب.. أسرعت بهز رأسي لـ (محمد) بقوة؛ كي أحذره بأن (حمدي) قد عاد بالفعل.. انتفض الولد من فوق السيارة، ثم جرى نحو أخيه؛ ليحاول أخذ الكرة منه قبل أن يحرز هدفًا.. كانت لحظات مُحيّرة تمامًا، تضامن فيها الخوف مع الفرح مع الشعور بالمسؤلية.. كان الخوف نابعًا من اتجاهين مختلفين: اتجاه قادم من خلفي حيث يستقر الانضباط الأسري الصارم، الذي سيؤدي عند رصد أي اتصال بيني وبين أحد أبناء الشارع إلى عقاب فوري أقل مستوى منه هو التوبيخ، وأعلاه الصفع على الوجه.. الاتجاه الآخر للخوف كان قادمًا من أسفل؛ حيث لم أكن مع ثقل الارتياب الناجم عن مفاجأة المرة الأولى واثقًا مما سيقود إليه الإمساك بالطرف الآخر للحوار المباغت الذي مده إليّ ولد أعرف جيدًا أن سوء أخلاقه سيُسهّل له توجيه الضرر لي طالما فُتِح باب ولو صغيرًا بيننا.. كان الفرح نابعًا من التحرر.. كأن هذا الاتصال المقتضب مع (محمد كمال) جعلني أتقدم خطوة واحدة خارج حصار الأوامر والنواهي نحو غموض القاع، الذي يعلن سطحه دائمًا عن إشارات قوية لغرابته الفاتنة، وأسراره الواعدة باللذة.. كأن أحد سكان مملكة مسحورة مد لي يدًا غير متوقعة حتى يساعدني على الولوج إليها.. من هنا كان الشعور بالمسؤلية، إذ كان يجب أن أثبت جدارتي بهذا الانفلات العابر عن طريق الاستجابة المتفانية لطلب الولد، وأن أحذره في الوقت المناسب من عودة أخيه بالكرة.. كانت

خطوة واحدة تراجعت إلى الداخل فورًا.
ذات مرة كان (حمدي)، و(محمد) يلعبان الكرة في نفس المكان، وكنت كالعادة أقف في البلكونة لمشاهدتهما.. لا أعرف ما الذي جعل (عطا) أخو (حلمي) صاحب (بوتيك سحر) ينهض من مكانه الدائم عند ناصية الحارة، ويأخذ منهما الكرة، ثم يخلع الفردة اليمنى لشبشبه الجلدي الذي يرتديه على اللحم، ويضرب الكرة بمنتهى القوة لأعلى.. لم أشاهد في حياتي مثل هذا الارتفاع العجيب الذي وصلت إليه الكرة بقوة قدم (عطا)؛ إذ رأيت الكرة تتخطاني وتتعدى البلكونة العلوية لمسافة بعيدة؛ حتى ظننت لوهلة أنها ستغيب وسط السحاب مع صيحة الاندهاش من (حمدي)، والذهول مكتوم الأنفاس في وجه أخيه (محمد) قبل أن تعود في خط مستقيم ـ وكان في ذلك سحر إضافي ـ نحو النقطة التي يقف فيه (عطا) أي المركز التي انطلقت منه.. لم تتنازل الملامح الحادة لـ (عطا) في أثناء تنفيذ هذه الركلة الخارقة عن تجهمها، مثلما لم تتخل نظرته عن عدائيتها، وهو يعود صامتًا كما ظل خلال هذا المشهد الاستثنائي إلى كرسيه، ليرفع قدمه اليمنى، ويسندها على فخذه الأيسر، ويتحسسها بهدوء.. لم تبدُ لي حركة يد (عطا) فوق قدمه في تلك اللحظة محاولة لتخفيف ألم محتمل نتيجة الضربة العنيفة، وإنما بدت كثناء أو استحسان لما قامت به.. كان يبدو كأب يربت على كتف ابن موثوق في مهارته، ولم يُخيّب ظنه.
ميدالية زجاجية حمراء قانية ذات شكل دائري، ولها سلسلة ذهبية، وإطار ذهبي، وخلفية معدنية.. محفظة ذات لون كحلي من الخارج، وأحمر فاتح من الداخل، ولها (كبسون) متصل بظهرها تُغلق به عند طويها مع سوستة عريضة، وأكثر من جراب صغير.. ترتبط الميدالية الدائرية الأخرى التي تشبه قرص الشمس المعلّق في سلسلة صغيرة بذكرى محاولتي لتقليد ذهاب أختي إلى الجامعة، وهي تحمل كشكول

المحاضرات المطبوع على غلافه قبة جامعة القاهرة وكتب أخرى.. كنت ما زلت في الأجازة الصيفية حينما قررت ذات مساء أن أستيقظ في الصباح الباكر مع أختي، وأن أرتدي ملابس الخروج (قميصًا أصفر كاروهات بمربعات صغيرة مع خيوط بيضاء رفيعة، وبنطلونًا قماشًا بُنيًا)، وعندما تخرج هي من البيت أخرج أنا إلى البلكونة، وفي يدي كتاب التربية الدينية الذي سأدرسه خلال العام القادم، وممسكًا بالميدالية الدائرية الصفراء، التي تشبه قرص الشمس المعلّق في سلسلة صغيرة.. كانت البلكونة هي المكان الذي يُعادل المدرسة أو (الجامعة) بالنسبة لأختي؛ لذا ظللت جالسًا تحت الشمس طوال النهار أقرأ في كتاب التربية الدينية دون اهتمام بالدروس نفسها، وإنما بانضباط شكلي يماثل تمامًا الالتزام الصارم الذي كان سيتسم به وجودي في الفصل أو في (الجامعة).. لم يكن في البيت سواي وأمي التي لم تسألني عما وراء بقائي في البلكونة كل هذا الوقت، وبملابس الخروج.. لم أغادر البلكونة حتى عادت أختي من الجامعة بعد الظهر، وكانت النتيجة صداعًا رهيبًا ظل يمزق رأسي طوال المساء بسبب الشمس التي أحرقتها.

ذات مساء ذهبت مع أبي إلى طبيب الأسنان.. في أثناء جلوسنا في صالة العيادة انتظارًا لدورنا في الكشف، كان هناك رجل عجوز جدًا، شعره أبيض تمامًا، ولا توجد في رأسه شعرة سوداء واحدة.. ربما كانت المرة الأولى التي أرى فيها شعرًا أبيض بالكامل؛ مما دفعني للتفكير وأنا أتأمل رأس الرجل في أن هذا الشعر ليس طبيعيًا، وأنه مسحور.. استخدمت لحظتها في ذهني صفة (ظاهر) لوصفه، باعتبار أنه كان ذا لون أسود بشكل عادي، ثم تسبب حدث غامض ومفاجئ، تقف وراءه قوة مجهولة في إخفاء الشعر الأسود، و(ظهور) الشعر الأبيض غير الطبيعي.

كنت أخرج مع أبي وأمي أحيانًا للتمشية بعد المغرب.. نتجه نحو شارع البحر، ثم نمر أمام المحلات الضيقة، المهجورة، والمظلمة، المصفوفة بجوار شريط السكة الحديد في سكون مُقبض، كأن أشباحًا غير مرئية تعيش بداخلها، ولا تحتاج لتسيير حياتها أكثر من مصباح أصفر قديم، وباهت هنا أو هناك، لتُزيد من حدة الرهبة في قلب العابر أمام فراغها المفتوح دون أبواب.. نسير فوق كوبري القطار حيث كنت أشعر بالخوف من امتداد النيل تحت أقدامنا، وأتحاشى النظر إليه.. كأن الكوبري ينتظر مرورنا حتى ينهار، أو تتسع ثقوبه الصغيرة فجأة، أو تُفتح في أرضه ثقوب جديدة لنسقط منها.. كنت أعتقد ـ وما زلت ـ أن النظر طويلاً إلى النهر عند المشي فوقه ـ خاصة في الليل ـ سيدفعني لإلقاء جسدي فيه من هذا الارتفاع.. كأن في أعماقه سحرًا غامضًا ومرعبًا، سينتهز توجّه عينيّ نحوه حتى يقبض على بصري، ويجذبني إليه.. كأن النيل حينئذ سيحقق رغبة سرية، مبهمة، أقاومها بصعوبة في رمي جسدي إليه كلما عبرت الكوبري.. كنت أخاف أيضًا من احتمالية مرور القطار بجوارنا بصوته المفزع في أي لحظة، كأن الصوت له عجلات وحشية تماثل عجلات القطار ستأكل أجسادنا، أو ستسحبنا نحو القضبان لحظة عبوره.. كنا نمشي بعد الخروج من كوبري القطار بمحاذاة نوادي (طلخا) المتتابعة على النيل حتى نصل إلى كوبري السيارات.. أشعر مجددًا بالخوف في أثناء اجتيازه، ولكن بدرجة أقل؛ حيث الآن لا يوجد قطار، كما أن هذا الكوبري أكثر إضاءة، وصخبًا، وامتلاءً بالبشر من الكوبري الآخر.. تستقبلنا عند الخروج من الكوبري لافتة (توشيبا) الضخمة العالية ذات الأضواء الحمراء الساطعة، ثم نعود إلى البيت.

ذات مساء أثار ظهور (بريصة) في المطبخ فزع أختي؛ فأسرعت للاختباء في حجرتنا تاركة أبي يحاول قتلها ومعه أمي.. بعد خروج أبي

إلى الصالة معلنًا التخلّص من (البريصة)، ونتيجة تأكدها من أن ذيل (البريصة) يبقى حيًا بعد موتها، وإذا لم يتم القضاء عليه ستنبت منه (بريصة) أخرى؛ سألت (ماجدة) أبي وهي لا تزال مختبأة برعب في الحجرة: (قتلتها كلها؟).. نظر إليها أبي بضجرٍ مُستغرِب وغاضب، ثم رد عليها وهو عائد إلى غرفته، مشيحًا بوجهه عنها: (لأَ.. قتلت ربعها).

أشياء أبي: ساعة رقمية ذات أُستيك معدني ماركة (كاسيو) تقريبًا.. سبحة خضراء.. طاقية شبيكة بيضاء.. حقائب سفر جلدية، على كل منها مُلصق أبيض يحمل شعار (المملكة العربية السعودية) تحت اسمه بالكامل، وموضوعة تحت السرير وفوق الدولاب.. حقائب أخرى (سامسونيت) ذات ألوان بني وفضي ونبيتي بأرقام سرية، وبداخلها أوراق، وأظرف صفراء قديمة، وملابس خفيفة، وموضوعة داخل الدولاب أسفل الشماعات الخشبية التي تتدلى منها البِدَل والكرافتات.. كوب أبيض ذو خامة طفولية تؤكدها الزهور الصغيرة الملونة المنقوشة على سطحه، وكان مخصصًا للمحلول المنظِّف الذي يضع فيه طقم أسنانه، ودائمًا ما كان يوجد فوق تسريحة حجرة نومه هو وأمي.

كان يأتي إلى البيت حلاق اسمه (أُسطى أحمد) ليقص شعري.. ربما كان هذا قبل ظهور (عم سامي) في حياتنا.. أتذكر أنه كان نحيفًا وقصيرًا، ويرتدي جلبابًا أبيض طوال الوقت.. كانت الحلاقة تجربة مرعبة بالنسبة لي، اضطرتني كثيرًا للاختباء تحت السرير في موعد وصوله، وهو تصرف لم يكن مجديًا بالطبع.. كنت أبكي، وأحيانًا يرتفع صوتي بالصراخ، ومقص الحلاق يروح ويجيء في رأسي، رغم أنني لم أكن أشعر بأي ألم، حتى الإحساس البسيط النادر به لم يكن يبرر المشهد المأساوي المتكرر الذي كنت أؤديه كل مرة.. لكنني عرفت فيما بعد أن بكاء الطفل وصراخه عند قص الشعر لا علاقة له بالألم، وإنما مرتبط بفكرة الاعتداء على جسده ولو بمجرد اللمس خاصة من الغرباء،

ولا سيّما لو كان ذلك سيؤدي لانتزاع أجزاء منه.. محاولة الاختباء الساذجة تلك كانت إذن هروبًا من عنف متوقّع سيرتكبه غريب تجاه جزء من جسمي المسكون بهاجس البتر، المدعوم بأدوات الحلاق: المشط، والمقص، والمريلة، والكولونيا.

كنت أذهب للحلاقة في أحد أيام (الجمعة) الذي يشهد صباحه الباكر عبور (الأهرام) من تحت عتبة باب الشقة قادمةً من يد بائع الجرائد العجوز (عم أحمد)، أو صعودها عبر البلكونة بواسطة (السَبَت) بعد النداء التقليدي (أهرام ـ أخبار ـ جمهورية).. كنت أذهب لصالون الحلاقة الصغير في شارع (سينما أوبرا)، الذي لا يفصله عن السينما سوى خطوات قليلة بعد الانتهاء من صلاة الجمعة مع أبي في جامع (السنجق)، أو جامع (عمر أفندي)، حيث كان يلحق بنا إلى المسجد صديقه (أمين جبر) ليصلي بجوارنا.. كان يمكن في أثناء الجلوس في جامع (السنجق) رؤية الورد الأحمر الكثيف المزروع على ضفة النيل في (طلخا).. كان الأسطى (محمد) صاحب الصالون يقص شعري، ويغسله، ويرش كولونيا خمس خمسات على وجهي، ومؤخرة رأسي، وكان أخوه الأصغر (سعد) يتولى أحيانًا حلاقة ذقن أحد الزبائن على الكرسي الآخر بجانبي.. كنت في أثناء الحلاقة أستمع إلى برنامج (على الناصية) في الراديو الأحمر، الذي يجاور الأدوات المتراصة أمام المرآة الكبيرة.. أتذكر أنه في عام 1989 وبالتأكيد بعد 17 نوفمبر استمعت وأنا جالس بين يدي (الأسطى محمد) لحلقة البرنامج التي استضافت فيها (آمال فهمي) اللاعب (حسام حسن)، حيث قالت له إن أحد المستمعين طلب منها أن تقبّل رأسه التي أحرزت هدف صعود مصر إلى كأس العالم في مرمى الجزائر.. كانت الحلاقة متعة خاصة مع الهواء البارد، والمطر، والغيوم الكثيفة، والتفكير في أن هناك مباراة ستبدأ في الثالثة عصرًا بعد رجوعك إلى البيت.

ذات يوم ذهبت إلى دكان (أبو كمال) بشارع (سينما أوبرا) لشراء شيء لا أتذكره.. وجدت زميلي في الفصل (محمد العدوي) هناك يتحدث مع (أم كمال).. كان (محمد العدوي) من نوعية الأولاد المشاغبين.. سلّمت عليه، ثم وقفت منتظرًا انتهاء حواره مع (أم كمال)، حيث كان من الواضح أنهما يعرفان بعضهما جيدًا.. سمعته يسألها: (عندك رز فلبيني؟)؛ فأجابته: (عندي وباطبخ منه كل يوم).. كانت لهجته شعبية، وكانت (أم كمال) تجيبه بلهجتها الريفية، وبدا حوارهما القصير الذي تمتزج فيه هاتان اللهجتان كأنه يوقظني على حقيقة أن الأكل متعة عظيمة.. متعة يدرك قيمتها، ويعيشها أكثر من أي بشر آخرين الشعبيون والريفيون الذين أنا لست منهم.. كان طعام الغداء على وشك التجهيز حينما خرجت للذهاب إلى دكان (أبو كمال)، وعندما سمعت سؤال (محمد العدوي) لـ (أم كمال) وإجابتها له بهذا الشكل الفاتن، الذي أخرج الحروف من بين شفاههما كأنما يتذوقان جمال الأرز نفسه؛ عاهدت نفسي بأنني سأستمتع بالوجبة التي تنتظرني في البيت كما يليق بهذا الانتباه غير المتوقع للذة الأكل.. ظللت بالفعل أستعيد كلمات (محمد العدوي) و(أم كمال) وأنا أتناول الغداء بعد عودتي.. أسترجع صوتيهما في أثناء المضغ كأنما أستعير شفاههما التي كانت تستطعم الحروف قبل قليل.. لأول مرة وجدت نفسي أُخرج صوت التشدق بالأكل.. تمامًا مثل أبي، وأحياناً أمي.. الصوت الذي لا أطيق سماعه من أحد.. كان شعورًا ممتعًا حقًا، ولكنني لم أكرره ثانية.. لم أنجح مطلقًا في التعوّد على المضغ بهذه الطريقة، مثلما فشلت في الحرص على استدعاء ما حدث بين (محمد العدوي) و(أم كمال) كلما تناولت طعامًا بعد ذلك.

لم أكن من الأطفال المسموح لهم بلعب الكرة في المدرسة بعد انتهاء اليوم الدراسي، أو اللعب في الشارع بأي حال من الأحوال.. كنت

ممنوعًا من الخروج بمفردي مهما كان قرب المكان الذي سأذهب إليه إلا للضرورة القصوى كإحضار غرض لوجبة العشاء من المحلات القريبة للغاية على سبيل المثال.. كان محظورًا عليّ مصادقة أحد من الشارع، أو التحدّث مع الغرباء، أو ترك يد أمي لأي سبب وأنا سائر برفقتها، بل كان ممنوعًا ـ بأمر صارم من أبي ـ أن تتركني أمشي على قدميّ وأنا معها في مشوار لمكان بعيد عن البيت كبيت جدتي، أو (عمر أفندي)، أو (صيدناوي) مثلاً، بل كان لزامًا عليها أن تحملني طوال الوقت ـ وهي المهمة التي كانت تتولاها (ماجدة) أحيانًا تخفيفًا عن أمي ـ حتى كبرت، ووصل جسدي إلى المرحلة التي لا يمكن معها تنفيذ هذا القرار.. ذات مساء، وبعد مباحثات طويلة قررت أمي بالاتفاق مع أختي إرسالي لشراء (كوكا كولا) من دكان (الحاجة زنوبة) المجاور للبيت.. كان دكانًا قديمًا تجلس (الحاجة زنوبة) القرفصاء على عتبته بجسدها القصير والنحيف، مرتدية نظارة، بجوار ثلاجة المشروبات الغازية الحمراء الكبيرة، بينما تتكدس بضاعتها من الموز في الداخل.. لم يكن التردد الذي سيطر زمنًا هائلاً على مناقشات أمي وأختي متعلقًا بخروجي من البيت، وإنما بشراء الـ (كوكا كولا)، حيث كان دائمًا ما يُسهم عدم التعوّد على شراء المشروبات الغازية في حدوث ارتباك عند اتخاذ مثل هذا القرار في الأحيان النادرة.. أخذت الفلوس، وشنطة الخضار الخضراء، ونزلت إلى الشارع.. بعد خروجي من البوابة بخطوات قليلة، وفي منتصف المسافة القصيرة بين البيت ودكان (الحاجة زنوبة) أوقفني شاب ـ لم يكن عمره صغيرًا جدًا ـ كان مستندًا إلى إحدى السيارات.. وقفت أمامه دون أي إحساس بالاستغراب أو بالخوف، وإنما بالفضول المصحوب بقدر بسيط من التوجس.. وضع الشاب يده في جيبه، وأخرج نقودًا ثم مد يده بها إليّ، وطلب مني أن أشتري له ساندوتش فول من مطعم (العطافي) الذي يفصله عن دكان

(الحاجة زنوبة) دكان (السيدة السمراء) فقط.. على الفور، وقبل أن أفكر في أي رد فعل سمعت زعيقًا مفزوعًا، ونداءات متلاحقة بصوتي أمي، و(ماجدة).. التفت لأعلى فوجدت نصفي جسديهما تقريبًا خارج البلكونة، ويمدان أربعة أذرع بأقصى ما تسمح به أطوالهم، وأيديهم تشير لي بالرجوع كأنني على وشك الولوج داخل حقل ألغام، أو التوغل في بحر عاصف.. اضطررت للكذب، وقلت للشاب الذي كان ما زال يمد يده بالنقود إنني لا أعرف أين يقع مطعم (العطافي).. قلت له هذا، وأنا أتحرك باتجاه دكان (الحاجة زنوبة) متجاهلاً التحذيرات الصارخة التي ارتفعت حدتها من البلكونة، تطالبني بالرجوع.. في اللحظة التي ارتفعت فيها يد الشاب الأخرى؛ لتشير لي نحو مطعم (العطافي)؛ كي يُعرّفني بمكانه، وصل الزعيق المفزوع لأمي وأختي إلى درجة أجبرتني على العودة إلى البيت.. بعد استجوابي حول ما كان يريده مني هذا الشاب قررت أمي و(ماجدة) عدم نزولي مجددًا، والتخلي دون جدال عن فكرة شراء (الكوكا كولا) بعدما أظهرت التجربة أنها مغامرة غير مأمونة.. لم تكن مشاعر الضيق من أمي وأختي هي التي تسيطر وحدها على نفسي بعد رجوعي إلى الروتين المنزلي الممل، وإنما كنت أتساءل بدهشة مكتومة: لماذا لم يذهب هذا الشاب لشراء الساندوتش بنفسه؟.. هل يوجد خصام بينه وبين صاحب المطعم، أو سبق أن تشاجرا مع بعضهما مثلاً؟.. لو كان الأمر كذلك لماذا لا يذهب إلى مطعم آخر إذن؟.. كانت ساندوتشات فول (العطافي) أيقونة مميزة في (المنصورة)، وقد يكون هذا جوابًا ملائمًا للتساؤل السابق.. لماذا لم يتراجع الشاب عن طلبه لي بعدما سمع تحذيرات أمي و(ماجدة) المنهمرة فوق رأسينا من البلكونة، بل استمر فيه كأنه لا يسمعهما؟.. لم يكن بعينيه، أو في نبرة صوته أي قدر من سوء النية، بل على العكس كانت نظرته عادية للغاية مثل لهجته الهادئة: مجرد شاب يطلب من طفل شراء ساندوتش..

لكن المشهد بالنسبة لأمي و(ماجدة) لم يكن كذلك.. كان حربًا مفاجئة تسببتا فيها بتهور، ولكنني عدت منها بسلام.
كانت كنبة الصالة ملاصقة للحائط، وكان لها مسندان كبيران، وكان ما يغطيها، ويغطي الكرسيين المتلاصقين تحت المرآة أمام باب الشقة قماش (كريتون) بنقوش خضراء.. كنت أباعد بين المسندين لسنتيمترات قليلة؛ فيتكوّن بفضل حافتيهما الداخليتين والحائط مخبأ من نوع ما.. بيت صغير كنت أحاول الانكماش والدخول إليه رغم أن مساحة اتساعه كانت أقل من حجم قدمي الواحدة بكثير، وبالطبع كان طوله لا يتجاوز ركبتي.. كنت أضم جسدي بذراعيّ في وضع الجنين بجوار مدخل هذا المسكن الضئيل فاركًا قدميّ بلذة، ومتخيلاً قدرتي على الولوج إليه، والاستكانة بداخله.. كنت أسير بعرباتي الصغيرة فوق المسندين، وأصنع جسورًا من القضبان الزرقاء لأحد القطارات؛ كي تمر فوقه هذه العربات حينما أباعد بينهما، وأخلق مغامرات ومطاردات، وأنظّم السقوط في الهاوية السحيقة التي تقع بين المسندين عند انهيار الجسر.. أحيانًا كنت أستعمل أحد المسندين كمخدة عند الاستلقاء أمام التليفزيون، خاصة أمام فيلم السهرة في الشتاء، وكان هذا يستدعي إحضار بطانية أو اثنتين من حجرة النوم، وكنت أُريح إحدى ساقيّ فوق المسند الآخر الذي ظل مستندًا إلى الحائط في مكانه.. كانت أغلب هذه الليالي تنتهي بالنوم، أو على الأقل بالوصول إلى درجة عميقة من النعاس قبل مغادرة الكنبة.
كانت (ماجدة) تشتري لي ألعابًا كثيرة: كيس مكعبات (كنا نكوّن بها، ووفقًا للرسومات المصاحبة لها: «سفينة ـ مسدس ـ طائرة»).. حصّالة على شكل كوخ، سقفه أحمر، وحوائطه خضراء، وكان هناك كلب نحيل أبيض بنقاط سوداء، يجلس تحت لافتة عليها اسمه (Fido)، وأمامه دائرة صفراء يبرز في منتصفها طرف ذراع متصل بجسمه، حينما تضغط

عليه بـ (الشلن) أو (البريزة) يتقدّم لأخذ العملة بقدميه الأماميتين إلى داخل الكوخ مع صوت المحرّك الخفيف.. كان عندي حصّالة أخرى قديمة لونها أصفر في شكل علبة مربعة، وكان مطبوعًا عليها بحروف سوداء صغيرة وباهتة (بنك الإسكندرية)، وكان لها شق علوي لتمرير العملات المدّخرة إلى داخلها، كما كان لها باب سفلي بمفتاح صغير جدًا، وكنت أحتفظ بنسختين من هذا المفتاح في الميدالية الصفراء الدائرية، التي تشبه قرص الشمس المعلّق في سلسلة صغيرة.. هذه الحصّالة مرتبطة عندي بأغنية (البوسطة) لـ (فيروز) التي كان يسمعها (مجدي) كثيرًا.. كنت أتمنى أن أمتلك أيضًا حصّالة تقليدية كالتي كانت تبدو شائعة بين الناس، وفي الأفلام والمسلسلات، وتشبه علبة الصلصة الصفيح، ولكنها خالية من الألوان أو الملصقات.. فقط علبة معدنية لها شكل أسطواني، وفيها شق علوي لوضع النقود، لكنني لم أمتلك هذا النوع من الحصّالات أبدًا.. كان هناك كلب آخر أبيض صغير، متصل بخرطوم أخضر ضئيل الحجم، في نهايته بالونة مضلّعة، يتم الضغط عليها لتمرير الهواء إلى جسد الكلب فيحرّك أقدامه، ويمشي للأمام.. كان يوجد كذلك بومة معدنية صغيرة ملوّنة، تُحدث صوتًا يشبه النقر المتتابع مع الضغط على ظهرها.. أختي اشترت لي كذلك تليفونًا لبنيًا، سماعته حمراء، وله قرص أبيض عليه رسم لعصافير، ويُصدر الصوت المعروف لطلب الأرقام، مدموجًا بصوت الجرس المتواري بداخله.. عدّاد ذو برواز برتقالي، وسبورة خضراء، بطباشير ملون (بنفسجي وبرتقالي)، وأرقام إنجليزية صفراء بمغناطيس خلفي، وحروف إنجليزية خضراء، وكانت به حلقات ملوّنة، متراصة ومضمومة، يمر في منتصفها حامل أفقي من أجل تعليم الحساب، وكذلك ساعة صغيرة يتوسّطها وجه طفل مبتسم، وعقربان لونهما أسود.. لعبة (بازل) في إطار بلاستيكي، تكوّن في نهايتها مربعات متناسقة باللونين الأحمر والأبيض مع أرقام ذهبية،

وصورة لكلب صغير.. شطرنج مكوّن من رقعة كبيرة، وعلبة منقسمة جزأين: واحدًا للقطع السوداء والآخر للقطع البني.. كان هناك شطرنج آخر يمتلكه (ميمي) ابن خالي، وكان عبارة عن صندوق صغير بداخله لعبة الطاولة، وفي ظهره رقعة الشطرنج.. كانت (ماجدة) تعلمني كيف تتحرك كل قطعة، وكيف يتحقق الفوز، وما خطة (نابليون).. كوتشينة أوراقها ذات خلفية حمراء وزخارف متشابكة، تزداد توهجًا في ورق (الأولاد).. دومينو ذات قطع حجمها صغير للغاية، ثم دومينو آخر في علبة خشبية مستطيلة، ذات قطع حجمها كبير.. أكورديون أزرق بلاستيكي، يُصدر صوت المزمار.

ما أتذكره عن طهوري هو أن الوقت كان مساءً.. حضر إلى البيت (أمين جبر) طبيب الأسنان وصديق أبي، ومعه دكتور آخر كان يبدو أنه صديق لـ (أمين جبر)، ولكنني لا أتذكر اسمه أو ملامحه، كما كانت هناك ممرضة برفقته.. أتذكر الألم العظيم، وصرخاتي الهائلة، وتوسلاتي وأنا مستلق بينهم فوق السطح الرخامي لطاولة حجرة الصالون عاريًا من أسفل.. يبدو لي الآن أنه تم اختيار هذا المكان تحديدًا لإجراء العملية بسبب قوة الإضاءة في هذه الحجرة التي تجمع بين لمبة النيون الأبيض فوق الباب، ومصابيح النجفة الساطعة في منتصف السقف.. أتذكر جيدًا أنني قلت لهم منتحبًا، ومغمض العينين: (خلاص كفاية بقى.. الساعة بقت سبعة).. كأنني أخبرهم بأن الوقت قد تأخر، وأن وجودهم قد طال أكثر من اللازم؛ لذا ينبغي عليهم الانصراف الآن.. حملني أبي وأنا أبكي وخرج بي من حجرة الصالون يتبعه (أمين جبر) والدكتور الذي أجرى لي العملية، وتحت ضوء النيون الأضعف للصالة، وخلال المسافة القصيرة التي تفصل بين حجرة الصالون وحجرتي أنا و(مدحت) و(ماجدة) رأيت الممرضة.. كانت بيضاء وقصيرة، وذات جسد نحيف، كما كانت محجبة، وعلى وجهها مكياج خفيف.. كانت

تبتسم لي، وتقول بصوت رقيق يحاول تهدئتي: (خلاص يا حبيبي إحنا بس هنشيل القطنة).. لا أتذكر أين تم الجزء الثاني من العملية، والأقل ألمًا من مرحلتها الأولى؛ هل كان سريري أنا و(ماجدة)، أم سرير (مدحت)، لكنني أتذكر جيدًا أن الجميع كان مبتسمًا طوال الوقت.. أبي وأمي و(أمين جبر) والطبيب والممرضة.. أنا الوحيد الذي كنت أتعذب ـ أو هكذا كان يبدو لي ـ في حين أن ما حدث كان يبدو على الوجوه، وبشكل مناقض تمامًا كأنه نوع من الاحتفال، أو على الأقل مجرد إجراء تقليدي يتسم بالبهجة.

كان أبناء خالي يشترون لي الصور التي يتم لصقها فوق أسطح الأشياء بواسطة تظليل مساحتها الخلفية بالقلم الرصاص فوق المكان الذي ستُلصق به.. أتذكر أنني ألصقت فوق المسند الخشبي لسريري أنا وأختي صورًا لقطة بيضاء تجلس على قدميها الخلفيتين، فرسان يركبون أحصنة جامحة ويشهرون رماحًا، (بطوط) وهو يرفع بالشوكة كومة من العشب، ويجد تحتها سنجابًا.. ألصقت أيضًا فوق هذا المسند البني الداكن بعض الصور المكررة لألبوم (بم بم) الخاص بقواعد المرور.

كانت هناك طبيبة ـ غالبًا الدكتورة (هانم الطحان) التي تقع عيادتها في منطقة (ميت حدر) على بُعد خطوات قليلة من المدرسة ـ كانت تأتي للكشف على أجسادنا خلال فترات متباعدة للغاية ـ ربما مرة واحدة كل عام ـ وكانت تجلس بعد دخولها الفصل على كرسي المعلمة أمام الصف الثالث الملاصق للنوافذ المطلة على الشارع، وتضع حقيبتها الكبيرة فوق الدكة التي تواجه تلاميذ الصف.. كان الأولاد يذهبون إليها أولاً بالدور؛ كي يقفوا أمامها، ويرفع كل منهم المريلة والملابس التي يرتديها تحتها إلى الرقبة معريًا صدره، ثم تتولى الطبيبة الكشف بالسمّاعة لمدة لا تستغرق ثوانيَ قليلة.. حينما يأتي دور البنات كان جميع الأولاد بأمر

من المعلمة التي يتصادف حضور الطبيبة إلى حصتها يصعدون للجلوس فوق الدكك في مواجهة وسائل الإيضاح المثبتة في آخر الفصل (الأرنب داخل القمر ـ زراعة الفول والحلبة والبطاطا ـ الجهاز الهضمي).. كنا نعطي ظهورنا لمقدمة الفصل؛ حيث ستكشف كل فتاة عن صدرها أمام الطبيبة بينما نضحك دون أن أن يحاول أي منا ـ حتى من كانوا يُطلق عليهم المشاغبون ـ الالتفات لاختلاس نظرة خاطفة مما كان يبدو لنا استعراضًا خارقًا لأعاجيب محرمة، لا يفصلنا عنه غير سنتيمترات قليلة، ومع ذلك لن تسمح المعلمة التي تراقبنا من ظهورنا بعيني قناص أن نستغل الفرصة النادرة.

كان يُعرض في التليفزيون إعلان قديم لكريم حلاقة ـ ربما كان (إنجرام) ـ أو ربما كان إعلان لأمواس حلاقة، في نهايته طفل يُقَبل أباه على خده، ويتحسس بيده نعومة الخد الآخر لأبيه بعد انتهائه من الحلاقة.. كنت أصعد إلى الكنبة حيث يجلس أبي، وأُقبّله في خده، وأتحسس خده الآخر بنفس الطريقة محاولاً استدعاء السعادة التي كانت على وجه الطفل في الإعلان.

كان يأتي إلى بيتنا بعد العصر معلم أسمر، ضخم البنية، ذو أصل ريفي؛ ليساعدني في دراسة اللغة العربية.. كان أستاذ (سيد) يجلس في الصالون ويشرب شاي (البراد الأزرق) برائحته الدافئة، وكان يرتشف نكهته باستمتاع ويبتلعها بصوت واضح، قبل أن تعاود سخونتها الخروج مع أنفاسه وهو يشرح الدرس بفمه القريب من وجهي.. كان يعطيني الحصة على السفرة تحت ضوء النجفة الساطع حتى قرب المغرب، بينما الصوت الخافت لأغنية (شعوري ناحيتك) لـ (وردة) التي يستمع إليها أبي في تلك اللحظة ينبعث من حجرته.. أرى من نافذة الصالون غيومًا كثيفة، وأشعر ببرودة الهواء الذي يحمل رائحة الشتاء، خصوصًا عندما تبتل الحافة الخشبية للشباك بماء المطر.. أحيانًا كانت السماء تُمطر،

بينما حقيبة المدرسة الصغيرة بلونها البني، وبرائحتها الجلدية نائمة فوق السفرة، وبداخلها كتاب اللغة العربية (عمر وأمل).. (محمد ثروت) يغني (يا طيور النورس) في الكاسيت المستند إلى الحائط فوق سرير أبي.. كان هذا الشريط يخص أبناء خالي، وكانت ابنتاه متعلقتين جدًا به؛ لأن أغنيتين منه كانتا تحملان اسميهما: (رشا)، و(رانيا).. كنت أستعيره منهما من أجل (طيور النورس)، و(جدو علي) اللتين كانتا تغنَيان عصرًا في حجرة أبي في أثناء تصفّحي لكتاب (عمر وأمل)، أو في أثناء خروجي إلى الصالة وعودتي إلى هذه الحجرة معلقًا على ظهري الحقيبة المدرسية الصغيرة المغلقة على كتاب القراءة، التي كنت أرتديها فوق البيجاما أحيانًا فرحًا بدخولي المدرسة.

أسراب الطيور تحلق عاليًا، وتروح وتجيء بتلازم منتظم فوق بيت (العسكري)، وفوق سطح سينما (النصر)، وفي كل السماء.

كفي الصغيرة داخل كف أمي الكبيرة، القوية، الحنونة، العميقة، المحكمة كحارس أمين، يدرك تمامًا يد من تلك التي يحتضنها، مثلما يثق في قدرته على حماية صاحب هذه اليد.. كان يُشعرني بأنه لا يحتوي كفي وحسب بل جسدي كله.. كنت أحس بأن روحي مُركزة الآن داخل كفي المستقرة في أمان داخل كفها وأنا أسير بجسدي الضئيل بصحبتها إلى المدرسة في الصباح الباكر.. أسير بغضب أحيانًا كثيرة بسبب الاستيقاظ المبكر، ومغادرة دفء السرير، ولذة الانكماش تحت البطانيتين واللحاف إلى غسيل الوجه بالماء المثلّج ـ حينما يقل أو ينعدم الماء داخل السخان الكهربائي ـ وتبديل الملابس مرتعشًا، وحمل الحقيبة، والخروج إلى الشارع في البرد القارص.. كان الهواء يصفع وجهي فأرتجف، وتصطك أسناني ببعضها، وتتجمد أنفي.. أمي تحمل حقيبة قماشية كبيرة وواسعة، فيها ساندوتشات، وتُرمس شاي، ودفتر تحضير الدروس.. كفي الصغيرة داخل كفها وأنا أسير برفقتها إلى السوق، أو ما كان

يُسمى بـ (الساحة) ظهرًا لنمر على الفلاحات اللاتي يفترشن الأرض، وتشتري أمي منهن الجرجير، والشبت، والبقدونس، والفِجل، والكزبرة، والطماطم، والفلفل، والباذنجان، والكرنب، واللفت، والقلقاس، والجزر، والبسلة (كنت آخذ بعض الحبّات في أثناء تفصيص أمي لها، وأرميها من بعيد في الطبق كأنني ألعب كرة سلة، وكانت تغضب بسبب الحبّات التي تخطئ هدفها، وتسقط على الأرض)، وكذلك الملوخية، والبامية، والبصل، والثوم، والفاصوليا، واللوبيا، والخيار، والخس، والبطاطس.. لم آكل في حياتي طعامًا مثل الذي كانت تطهوه أمي، خصوصًا الفراخ المحمّرة برائحتها الشهية، وبالطبع (البصارة).. كنت أحمل الشنطة الخضراء المصنوعة على شكل شبكة كبيرة لها يدان مستديرتان، وواسعتان.. أيضًا كنت أذهب معها إلى دكان مُصلح الأحذية الذي يقع وراء محل (أبو حليمة) للحلويات في (ميت حدر).. كفي الصغيرة داخل كفها وهي تأخذني ساعة المغرب إلى بيت جدتي بدءً من شارع (بنك مصر)، مرورًا بمدرسة (ثمرة الحياة) ثم مقام (سيدي عبد القادر)، حتى حارة جانبية على اليمين حيث يواجه مدخلها بيت قديم متهدّم، وسلالم متكسرة.. كفي الصغيرة داخل كف أمي وهي تمسك يدي بقوة ونحن نصعد سلالم جدتي التي تُشعرني بالخوف.. كان يبدو لي بيتها كأنه انهار من قبل أكثر من مرة، وأن جدتي كانت تُعيد دائمًا بيديها الواهنتين ذات الجلد الهزيل المكرمش، والعروق الخضراء النافرة رص أنقاضه؛ لتحصل على أي مكان مقفل يمكنها أن تعيش بداخله.. أمام هذا البيت كان هناك منزل قديم يسكنه أقارب جدتي.. كان لهذا المنزل سلالم خشبية، وكانت جميع أبواب الشقق مفتوحة طوال الوقت كأنها غرف متصلة لبيت واحد.

رسمت لي (ماجدة) لوحة (عيد الطفولة)، وعُرضت في قصر الثقافة مع أعمال التلاميذ في حفل مسائي حضره محافظ الدقهلية (سعد

الشربيني).. كان هناك زحام وكاميرات، وكنت أقف بجوار اللوحة عندما أخبروني أن المحافظ سيأتي ويصافحني، ويسألني عما رسمته.. لم أستطع أن أقول للمحافظ عندما سألني سوى (ده عيد الطفولة).. أعطاني جائزة، وكانت عبارة عن مقلمة لها رائحة الأشجار والزهور الملوّنة، التي تجلس بينها الطفلة الجميلة المرسومة على غطائها البلاستيكي فوق العشب الأخضر لحديقة الناعمة.. كانت السماء في هذا المشهد تمتد من الأمام إلى ظهر المقلمة، وكنت أشعر كلما مررت على غطائها الرقيق أنني أُلامس هذه السماء، وأتحسس شعر البنت الجميلة، وخديها، وألوان الزهور، وأوراق الشجر الخضراء.. كان بداخل المقلمة خانات من البلاستيك الأبيض توضع فيها الأستيكة البيضاء الكبيرة ذات الغلاف الكارتوني الكحلي، وقلم أزرق يكتب خطًا أنيقًا، يبدو كأنه يجمع بين الحبر الجاف والسائل.. كان بداخلها أيضًا قلم رصاص أسنان، وبراية دائرية ذات المرآة في خلفيتها، وكذلك مسطرة صغيرة 10 سم رمادية شفافة، ومنقلة صغيرة، ومثلث صغير، وكان هناك مكان أيضًا لبرجل صغير.

كان عندي مقلمة أخرى جلدية لونها أحمر، ومرسوم عليها زهور قليلة.. كانت تُفرد، وتُطوى، وتُغلق بـ (كبسون).. كانت بيضاء من الداخل، وبها حلقات ملتصقة تُوضع فيها الأقلام.. كانت هذه المقلمة شبه مخصصة للامتحانات، حيث كنت أضعها داخل أحد الأكياس البلاستيكية الكبيرة التي تحمل غالبًا اسم أحد محلات الملابس أو الأحذية في (السكة الجديدة) مع كراسة الرسم التي ستستند فوقها أوراق الإجابة في أثناء الكتابة فيها، بالإضافة إلى المسطرة الطويلة 30 سم.

كانت هناك مقلمة أخرى معدنية داخل علبة كرتونية مستطيلة، ومرسوم عليهما خريطة الوطن العربي وأعلام الدول، وتحوي برجلين، وأستيكة، وبراية، ومسطرتين، ومنقلة، ومثلثين، وقلمًا رصاصًا، وعلبة أسنان،

وقطعة قماش صفراء صغيرة.
في إحدى السنوات كان اليوم الدراسي في الفترة المسائية، أي أنه كان يبدأ بعد الظهر.. في الفسحة أو في الحصة التي تعقبها كانت أمي تناديني، أو تبعث ولدًا أو بنتًا من تلاميذها ليأتي بي من فصلي.. أجد في انتظاري حلة من الأرز بالفول مثلاً، وملعقة، وزجاجة (كوكا كولا) فوق طاولة صغيرة مواجهة للدكك.. أجلس أمام تلاميذ أمي آكل وأشرب، ولا أصدق الآن كيف كان يمكنني أن أفعل هذا أمام عيون التلاميذ المحدقة في صمت دون الشعور بالحرج.. ربما كنت أحس بخجل طفيف وقتها، ولكنه لم يكن كافيًا لإفساد وجبتي التي كنت أتناولها بينما أمي تفرد السجادة، وتصلي في نهاية الفصل.. دائمًا ما كانت تُعيّن خلال هذه الدقائق ولدًا أو بنتًا للوقوف أمام السبورة، ومراقبة التلاميذ لكتابة اسم الطالب الذي يتكلم مع زميله.. أحيانًا كانت أختي (ماجدة) تُرسل ابنة خالي (رانيا) بالغداء إلينا في أثناء الغيوم والبرد والمطر.. أحيانًا تكون الوجبة (كشري) أو (بصارة) أيضًا.. مرة كنت في الفناء ألعب أنا و(هشام) لعبة الحصان، حيث كان يُمسك بحزام مريلتي من الخلف، ونجري كأنني أنا الحصان وهو الفارس.. كان هناك مطر خفيف عندما رأيت (رانيا) تغادر الفناء بعد تسليم الطعام لأمي؛ فابتسمت لها وواصلت اللعب كحصان جامح.. لا أعرف لماذا كنت أريدها أن تراني متقمصًا الطبيعة المألوفة لجواد ثائر إلى هذه الدرجة.. لم أكن أفعل شيئًا خارقًا.. ربما كنت أريدها أن ترى طفلاً آخر غير ذلك الوديع المسالم الذي لا ينتج عن وجوده في الشقة المقابلة لها أي ضوضاء.
لم أكن قد دخلت المدرسة بعد حينما أُصبت بـ (الحمونيل).. طلبت أمي من أخي (مجدي) أن يرش مؤخرتي ببودرة (تَلْك خمس خمسات).. حينما بدأ أخي في رش البودرة أطلقت ضراطًا متعمدًا في وجهه..

لم ينطق.. ألقى بعلبة البودرة فوق السرير بهدوء، ثم انسحب ملطخًا بالصدمة، تودعه ضحكات أمي.
من أجمل الأوقات الممتعة تلك التي كنت أقضيها أنا وأخي (مدحت) في لعب كرة القدم داخل الصالة.. كنت أدخل إليه الصالون بعد الظهر وهو جالس بجوار الشباك ـ حيث كان يقضي معظم وقته داخل البيت ـ وأطلب منه أن يخرج إلى الصالة ليلعب معي ـ أحيانًا كان يطلب مني الانتظار قليلاً.. يقول: (لما توصل الساعة لـ "كذا" بالظبط هخرج والعب معاك).. كنت أتابع ساعة الحائط ذات اللون الذهبي، وأعد الدقائق والثواني متعجلاً أن نبدأ المباراة.. كان باب الشقة هو المرمى.. مرة أحرزت هدفًا وهو يجذبني من الخلف، أردت احتساب الهدف، لكنه أصر أن ألعب ضربة جزاء.. وقف ليحرس المرمى، وسددت الكرة فأحرزت الهدف.. أحيانًا كنت أرمي الكرة على الحائط المواجه للساعة، ثم أحوّلها إلى المرمى مباشرة بعد ارتدادها إليّ، وأضحك لأنني نجحت في التغلب عليه رغم كونه أكبر مني بسنوات كثيرة.. كنا أحيانًا نُقلد أسلوب (سقراط) لاعب البرازيل في تنفيذ ضربة الجزاء؛ حيث كان معروفًا بعدم ابتعاده عن الكرة، وتصويبها بقوة وجمال.. كنت أحيانًا أهتف لنفسي في أثناء اللعب ـ وهو ما كان يتسبب في ضحك (مدحت) ـ مستعيرًا غناء جمهور الإسماعيلي للاعب (محمد حازم): ("محمد حازم" صح النايم، حط الكورة جوه الجون)، وبالطبع كنت أضع اسمي مكان (محمد حازم) الذي قرأت في الجريدة خبر مصرعه بحادث سيارة في نوفمبر 1986، وهو الحادث الذي توفى على إثره أيضًا حارس المرمى (علي أغا).. كنا نلعب أنا و(مدحت) بكرة قدم كالتي تُلعب بها مباريات التليفزيون ولكنها أصغر، وكانت لها رائحة مميزة تعبّر عن ملمسها الجلدي، وعن الرنين الذي يُحدثه ارتطامها في الأرض، أو في الحائط، أو في باب الشقة (المرمى) بقوة.. كانت هذه الكرة تضيع كثيرًا

تحت الأسرّة، وفوق الدواليب، ويستمر فقدانها فترات طويلة جدًا ثم يصبح لاستردادها بهجة خاصة عند العثور عليها بالصدفة في أثناء إخراج الحقائب الكبيرة من تحت الأسرّة، أو عند البحث عن شيء ما فوق الدواليب.. كان للعب بهذه الكرة تحديدًا متعة تفوق التي كنت أشعر بها عند اللعب بكرة أخرى؛ إذ كانت كرة قدم حقيقية؛ ولهذا كانت تعطي للعب سحره الحقيقي.. كنت أحيانًا ألعب مع (مدحت) بالكرات المكوّنة من الجوارب، وأحيانًا بكرات خيوط الصوف الكبيرة (لبني ـ زيتي ـ كحلي)، وكنا نلعب أحيانًا بكرة البلاستيكية المقسّمة لخطوط متعرّجة باللونين الأبيض والأصفر، وأحيانًا بكرة زرقاء بلاستيكية صغيرة وخفيفة للغاية، وأحيانًا بكرة (الراكيت) البيج المتآكلة، والثقيلة.

تلاميذ أمي:

ـ وحيد صدقي (الشقيق الأكبر للأخوين "شوقي" و"يوسف"، وكان يلاعبني كلما جئت إلى فصل أمي).

ـ صبري شعبان.

ـ أحمد ابن (أبلة وداد) ناظرة المدرسة.

ـ حمدية.

ـ مدحت (كان قصيرًا، ونحيفًا، وله شعر ناعم، وممشط بالعرض، وكانت هيئته بشكل عام تجعله يشبه مقدمي نشرة الأخبار).

ـ التوأمان اللذان كان لديهما سيارتا سباق يلعبان بهما، في إحدى المرات التي ذهبت خلالها لفصل أمي بعد انتهاء يومي الدراسي؛ كي أنتظر انتهاءها من حصتها، ونعود إلى البيت معًا؛ جلست بينهما في آخر الفصل، وطلبا مني أن أحكم: سيارة من الأجمل؛ فقلت لهما بحرصي التقليدي أن أرضي الجميع: (الاتنين أحلى من بعض).

ـ نفيسة عزت (كانت تسكن في "حارة الحشيش"، ومرة رأيتها بينما كانت جالسة في الدكة الأولى للصف المجاور لباب الفصل وهي تُخرج

من حقيبتها رغيفًا، وقطعة جبنة بيضاء، وبرتقالة ثم تفرد بأصابعها الجبنة على الرغيف، وتتكلم مع أمي التي كانت تجلس فوق الكرسي عند عتبة الباب تحت شمس الشتاء، وأنا أقف في الردهة بجوارها مندهشًا: لماذا لم تعد ساندوتش الجبنة في بيتها، وكيف أحضرت "برتقالة" إلى المدرسة؟.. أكلت الساندوتش الذي أعدته بيديها، ثم أكلت البرتقالة التي فصّصتها بيديها أيضًا دون حاجة لسكين؛ الأمر الذي اعتبرته تصرفًا بسيطًا، وتلقائيًا بغرابة طيبة جدًا، كأن المدرسة والبيت، وربما الشارع أيضًا بالنسبة لها ليس إلا مساحات مختلفة لمكان واحد، وهو ما لم يكن كذلك ـ طبعًا ـ بالنسبة لي).

ـ حنان عزت (الأخت الأكبر لـ "نفيسة").

ـ وائل (كان أبوه يمتلك فرنًا لشوي السمك في "ميت حدر"، وسبق له الفوز بساعة رقمية ذات وجه أخضر في مسابقة ألبوم "بم بم").

ـ وائل (كان ولدًا مسالمًا جدًا، ويسكن في حارة "العطافي").

ـ فتحية.

ـ جلال (كان يسكن في "ميت حدر" أيضًا).

ـ فاطمة (كانت بيضاء وبدينة، ومشهورة بـ "بطة").

ـ آمال (كانت جميلة ورقيقة للغاية، ولملامحها سحر الممثلات الفرنسيات، وكانت ذات شعر أسود قصير ناعم، كما كانت جادة أيضًا، ولا تبتسم إلا قليلاً، ولها نظرة شاردة يستقر بداخلها شيء من الحدة).

ـ جيهان (كانت ابنة بائع "الزلابية" في شارع "بنك مصر"، ولا أعرف أحدًا لم يحب هذه "الزلابية").

ـ أمل (كان لها أخ أصغر مني اسمه "أحمد"، وكانت تسكن في بداية حارة "العطافي"، ذات مرة وجدتها تدخل فصلي، وعلى وجهها ابتسامة واسعة ثم قالت لأبلة "خلود": "إزيك يا أبلة، أبلة "أمينة" بتسلّم على حضرتك، وبتقولك إن أبلة "نرجس" ماتت"، صرخت أبلة "خلود" في

وجهها: "بتقولي إيه يخرب بيتك"؛ فتبخرت البنت من الفصل الذي هرعت خارجه أبلة "خلود" والدموع تتدافع من عينيها؛ حتى تتأكد من الخبر الذي كان صحيحًا فعلاً.

بعدما أنهى هؤلاء التلاميذ المرحلة الابتدائية، بدأت أمي في التدريس لتلاميذ أصغر من عمري مثل: الأخوين (هيثم)، و(تامر)، وكانا يسكنان في حارة (العطافي) الملاصقة للمدرسة.. (رانيا)، وكانت تسكن في حارة (الخياري) بجوار مقهى (البقري).. (نيرفانا)، وكانت تسكن في حارة (الخياري) أيضًا.. حارة (الخياري) كان يسكنها أيضًا الممثل (حسن العدل)، وكان كثيرًا ما يجلس مع أصدقائه على مقهى (البقري) الملاصق للحارة.. (سماح)، وكانت تسكن في شارع (السكة القديمة) المتفرّع من شارع (بنك مصر).. (ريهام) ابنة أخت (أبلة خلود).. (عمرو)، وكان يسكن في (ميت حدر).. (فاطمة)، وكانت تسكن بجوار مطعم (آخر ساعة) في (ميت حدر).

(سيارة خال «عمر» و«أمل» التي جرت وسط الحقول، وعادوا بها إلى البيت بعد فسحة في الريف في كتاب القراءة.. السيارات الصغيرة في إعلان مسابقة «افسي ونوريف» من مؤسسة «آي. سي» بعدد مجلة «ميكي» 7 يوليو 1983.. "حسن عابدين" وهو يقول: "افصحي لي عن سر شويبس يا مارجريت، إنني أتوسل إليكِ" في إعلان "شويبس".. حجرة المكتب في بيت "فؤاد المهندس" و"سناء جميل"، وشريط "ترافولتا" في يد "شيرين"، والطريق في الليل الذي توجه منه "فؤاد المهندس" بسيارته إلى بيت "يونس شلبي"؛ ليضربه بالرصاص في مسلسل "عيون" 1980.. "عمر" و"أمل" وهما يقفان أمام المكتبة ويشتريان الكراسة والحلوى في كتاب القراءة الثاني.. غراب الساحرة "سونيا" وهو يقرأ مكونات التركيبة التي وجدتها في كهف السيرك بينما تجهزها كي ترش وجه "عم دهب" بها؛ حتى يتغير على صورة

أي وجه يقابله، وتتمكن من سرقة "قرش الحظ" في قصة "سونيا ذات الألف وجه" بعدد مجلة "ميكي" 29 مارس 1979.. صورة الأم وهي تحمل طفلها على علب الحفاضات في إعلان "كدليز".. كتاب القراءة والمحفوظات التي كانت تقرأ منه "فريال"، والبيجامتان اللتان كانتا يرتديهما "فريد" و"فاروق"، والحقيبة التي كانت تحمل "سميرة أحمد" بداخلها ترمس الشاي والقهوة، والبرّاد وفناجا الشاي وطبق الكيك، والسيارة الحمراء "زوبة" التي كان يقودها "محمود ياسين" في مسلسل "غدًا تتفتح الزهور" 1984.. "أسامة" وأخته "أماني" على غلاف قصة "عقلة الإصبع في مدينة الشمع" للصف الخامس الابتدائي.. "بطوط" وهو يختار الراية السوداء؛ ليرفعها فوق برج المراقبة في أثناء عمله كحارس للشاطئ في قصة "تعال معنا وصيّف" بعدد مجلة "ميكي" 9 يونيو 1983.. الرجل الذي يتلقى اللكمات في إعلان ورنيش "بانش".. حجرة مكتب "كمال الشناوي"، "سلوى خطاب" وهي تقول: "آبيه"، والشاحنة الخضراء الصغيرة التي وضع فيها "حسني عبد الجليل" جثة "قتيلة المعادي" في مسلسل "هند والدكتور نعمان" 1984.. "ميكي" وهو يركل الكرة باتجاه "فوفو"، و"تيتي" أمام المرمى على غلاف عدد مجلة "ميكي" 10 نوفمبر 1983.. صوت "صفاء أبو السعود" مع موسيقى "جمال سلامة" في تتر النهاية لمسلسل "هي والمستحيل" 1979.. صورة "أحمد" و"زينب" وهما يلعبان مع الكلب والأرنب، وصورة القطة "نميرة" وهي تلعب بكرة الخيوط، وصور درس "ال القمرية" في كتاب "معلم القراءة" لـ "عطية محمد" (كنت أتصفحه تحت الضوء الأصفر للمصباح الكبير في سقف حجرتي داخل برد الشتاء؛ حيث كانت كنبة الصالة ما تزال في هذه الحجرة، ولم يكن معي في البيت هذا المساء سوى أمي وجدتي الجالستين القرفصاء فوق السرير

المقابل للكنبة التي أتمدد عليها بالبيجامة الكستور، ووراءهما على الحائط صورة فريق "الأهلي" التي ألصقتها في الصباح).. "بطوط" وهو يشتري معزة وجدي، ويثبّت حظيرة دجاج في حديقته، ويزرع فاكهة وخضراوات في قصة "بطوط حب يوفر" بعدد مجلة "ميكي" 31 مايو 1984.. مخبأ العصابة، وشاشات المراقبة، وأزرار التحكم في الأبواب، والتليفونات، والشموع داخل الشمعدانات، وطاولة الاجتماعات، والكراسي في مسلسل "وتوالت الأحداث عاصفة" 1982.. الألبوم التذكاري "أحب الأهلي" بعدد مجلة "كابتن سمير" 10 يونيو 1984.. "ميكي" وهو يمسك بصورة لـ "بطوط"، و"بطوط" وهو يرفع صورة لولد يحمل قناعه على غلاف عدد مجلة "ميكي" 28 يونيو 1984.. طبق البيض الملوّن في أغنية "الشاطر عمرو" بمسلسل "أبنائي الأعزاء شكرًا" 1979.. "بطوط" وهو يصرخ في "زيزي": "لن أذهب مرة أخرى إلى المكتبة" قبل سقوط الثلج فوقه بقصة "بطوط لا يحافظ على كتبه" في عدد مجلة "ميكي" 5 سبتمبر 1985).

المسودة السابعة

كانت (ماجدة) تشتري لي مجلة (ميكي) يوم الخميس، (سمير) يوم السبت، (ماجد) يوم الأربعاء، وكانت صديقتها (آمال) تشتري لي مجلة (مجلتي) العراقية.. كنت أحيانًا أقرأ هذه المجلات بطريقة ممتعة، طالما حذرتني أمي منها، حيث كانت تعتقد أنها ستتسبب في ضعف بصري: أنام على صدري فوق السرير عند حافته واضعًا المجلة مفتوحة على الأرض.. كان من الصعب قراءة الكتب بهذا الشكل خاصة صغيرة الحجم.

هدايا مجلة (ميكي): قناع (بطوط) ـ الليدو ـ كوتشينة (ميكي) ـ مفكرة (ميكي)، وكانت على شكل سمكة علقتها على مقبض باب حجرتي من الداخل ـ مدفع رمضان ـ هلال ونجوم رمضان ـ جدول حصص (ميكي) - سباق الأميرة والأقزام السبعة - السيجة.

هدايا مجلة (سمير): السيجة ـ بيت جحا ـ كاسكيت (سمير) ـ جاروف بلاستيك ـ السلم والثعبان ـ تاج (سمير) ـ شطرنج للجيب ـ (بازل)، وكان عبارة عن صورة لـ (تهته) وهو يرسم لوحة داخل حديقة، ووراءه الكلب (سكر).. كتاب (مغامرات توم سوير) لـ (مارك توين) ـ كتاب (مغامرات جاليفر) لـ (جونثان سويفت).

أبلوات وأساتذة وموظفي مدرسة (ميت حدر) الابتدائية:
نثرية (ماما) ـ خلود ـ فتحية ـ سيدة ـ نوال ـ أمينة الرفاعي ـ أمينة صالح ـ علية (ابنها «تامر بهجت» زميلي في الفصل، وكان عندها أيضًا ولدان أكبر في المدرسة هما «رامي» و«وليد») ـ نرجس ـ عواطف ـ سعد (مدرس الرياضيات، كانت له لهجة ريفية، وكان عصبيًا وصارمًا، ويضرب بعصا طويلة ورفيعة كسلك الكهرباء، ولا يتقيّد بضرب اليدين، بل كان يوزّع اللسعات النارية فوق أجساد التلاميذ ـ عدا الوجه ـ لكنه لم يضربني أبدًا؛ لأنني كنت متفوقًا ومؤدبًا، وكان دائمًا ما يمازحني بدعابة «إسماعيل ياسين» الشهيرة في فيلم «إسماعيل ياسين في مستشفى المجانين»؛ إذ كان يقول لي: «إفتح الكراسة، واكتب (ركبت الحمار، وقلت له...)» ثم يطلق بفمه ذلك الصوت المعروف الذي سيجعلني كل مرة أنضم إلى الخواجة «بيجو» و«إسماعيل ياسين» و«عبد الفتاح القصري» الذين عجزوا منذ عشرات السنوات عن كتابته) ـ سمير ـ عزت ـ إيمان ـ أفكار ـ حميدة (كانت مسؤولة المكتبة، وكانت توزّع علينا في حصتها قصص «المكتبة الزرقاء للأطفال» لـ «محمد عطية الإبراشي» والتي كنا نكتب ملخصات لها في كراريس مخصصة لهذا الغرض، كما كنا نقوم بتلوين الرسومات الداخلية لهذه القصص، وكان بإمكاننا أحيانًا استعارتها، وإبقاؤها معنا في البيوت بضعة أيام» ـ فاطمة ـ تحية ـ فادية ـ وداد (الناظرة) ـ فتحية (الناظرة التالية) ـ حسن ـ ماجدة أنطون (السكرتيرة، وقد قمنا ذات مساء بزيارتها أنا وأمي وأختي، وكان بيتها أنيقًا، ومزينًا باللوحات المسيحية والصلبان، واستمتعنا بالجلوس في بلكونتها الجميلة الهادئة، الممتلئة بالنباتات) ـ هدى (الحكيمة) ـ سكينة ـ هانم (والدة «وليد بدير» زميلي في الفصل، وقد درّست لي مادة «التربية الدينية» في أحد الأعوام).
كان لأمي صديقة اسمها (الحاجة عزيزة) قمنا ذات يوم بزيارتها

في المساء، وأتذكر الخلاء الهائل حول بيتها في منطقة (قولنجيل)، والسيارات القليلة التي كانت تقف أسفل شرفتها مع الأضواء الضعيفة لعواميد الإنارة.

في إحدى الحصص التي درّست لي أمي خلالها مادة (المشاهدة) شرحت لنا لماذا يمكن أحيانًا أن نرى القمر في النهار.. كانت تطلب منا أن نرسم الشمس، والقمر، والنجوم، وكانت زميلتي (أسماء) ترسم بالقلم الرصاص نجومًا صغيرة مرحة وساحرة، كأنها تنتمي لـ قصص (ألف ليلة وليلة).

كانت أمي أيضًا مشرفة جماعة (الشرطة المدرسية)، وكانت ترفض دائمًا أن أنضم إليها.. ربما ـ وهو السبب الأقرب للصواب ـ أنها كانت تخشى عليّ من الاحتكاك بالطلاب الآخرين، خاصة أن عمل عضو الشرطة المدرسية يقتضي منه على سبيل المثال منع التلاميذ من الوجود أمام الفصول أحيانًا، أو اعتراض صعودهم أو نزولهم من سلالم المعلمين والموظفين، وتوجيههم للصعود أو النزول من سلالم الطلاب.. كانت رغبتي في الالتحاق بالشرطة المدرسية قوية؛ مما أدى إلى أكثر من صدام مع أمي.. طلبت من (محمد روّاش) زميلي في الفصل أن يشتري لي الشارة القماشية الحمراء المكتوب عليها بخط أبيض (الشرطة المدرسية)، التي كانت تُثبّت فوق الذراع بأستك.. كنت أرتديها في البيت فوق البيجاما، وآخذها معي في الحقيبة إلى المدرسة، حتى سمحت أمي بعد إلحاح عنيف ـ ليوم واحد فقط ـ أن أنضم إلى هذه الجماعة.. علّقت الشارة الحمراء بمنتهى السعادة والامتنان، ثم حانت اللحظة التي حلّقت خلالها بأجنحة كبيرة من التباهي في فراغ المدرسة عندما طلبت مني أمي قبل نهاية الفسحة بثوانٍ قليلة إخلاء الردهة من التلاميذ، ومنع الطلاب الصاعدين عبر سلالم الإدارة من المرور.. كان عدد التلاميذ قليلاً، وكانوا أصغر سنًا؛ مما أنجح مهمتي

القصيرة التي لم تتكرر بعد ذلك.
كانت الموضوعات التي يُطلب منا رسمها في الكراسات العريضة ذات الغلاف الكارتوني: عيد الطفولة (كنت أرسم أولادًا وبناتًا يلعبون بملابس أنيقة، وزاهية داخل الحدائق، أحيانًا كنت ألوّن الزهور بالأسود، وكانت «أسماء» تسألني متعجبة: «فيه ورد لونه إسود؟»).. شم النسيم (أشجار، وزهور، وشمس، وعشب، وطيور، وبالونات ملونة في أيدي الأطفال).. الشارع (بيوت، ونوافذ، وأرصفة، ومحلات، وسيارات، ورجال، ونساء، وأطفال).. حرب أكتوبر (دبابات، وطائرات، وجنود، وبنادق، وعلم مصر).
كانت هناك عدة أنواع لعلب الألوان الفلوماستر: علبة كحلي، كارتونية 6 ألوان (أحمرـ أخضر ـ أزرق ـ أصفر ـ بني ـ أسود).. علبة بلاستيكية، شفافة 6 ألوان.. علبة بلاستيكية شفافة 12 لون.
لم أكن أنا و(مدحت) نلعب كرة قدم فقط.. كنا نلعب ملاكمة في السرير أيضًا.. بمعنى أدق كان يتركني أضربه بقبضتي الصغيرة، وكان يحاول حماية نفسه بالبطانية.. كنت أبحث عن أي جزء مكشوف من وجهه كي أضربه فيه، وأحيانًا كنت أتعمّد ضرب رأسه بعقلتي الإصبعين السبابة والوسطى المضمومين؛ حتى يوجعه الضرب أكثر.. كان يقول: (آي) مع كل لكمة، ويتركني أواصل الضرب.
في (شم النسيم) كانت أمي تشتري الملانة الخضراء، وتلوّن البيض صباحًا قبل استيقاظ الجميع بالبنفسجي، والأخضر، والأزرق، والأحمر، والبرتقالي.. كنت أصحو وأخرج من حجرتي فأجد مصابيح الصالة والحجرات مطفأة.. ضوء رقيق قادم من الشمس عبر شباكي المطبخ، والحمام مع غناء العصافير.. أتخطى الظلام الخفيف للصالة حين أسمع صوت أمي؛ فأراها تضع الطبق فوق حافة شباك المطبخ، وبداخله البيض الملوّن.. في الثلاجة كان يوجد الترمس، والحلبة حيث سأتسلى

بأكلهما في أثناء مراقبة الأطفال من البلكونة، وأمام الفيلم العربي في التليفزيون.

مرة أخذني (مجدي) للفسحة في صباح (شم النسيم).. تمشّينا على كوبري (طلخا) ذهابًا وإيابًا، ثم قابلنا أحد أصدقاء أبي اسمه (حسن الشوربجي) فانضم إلينا، وشاركنا التمشية.. مر قطار سريع بصوت مفزع، ونحن نسير فوق الكوبري، والنيل تحتنا؛ فشعرت برعب بالغ، اختفى على الفور مع غياب القطار.. وصلنا إلى (الهابي لاند) فتركنا صديق أبي، ودخلت أنا و(مجدي) الذي اقترح أن أركب المرجيحة.. كانت من نوع المراجيح التي تحمل أكثر من طفل، ولم أعرف أنها سترتفع إلى درجة مخيفة إلا بعد أن ركبتها؛ فصرخت في أخي بعد مرة أو مرتين فقط من الصعود لأعلى: (نزلني يا مجدي).. أنزلني وهو يضحك، بينما شعرت بغضب ناجم عن فساد متعتي، وظهوري كجبان أمام نفسي، وأمام أخي، وأمام باقي الأطفال ومرافقيهم.. عدنا إلى البيت وأنا في قمة الغيظ بسبب المرجيحة الشريرة، ثقيلة الدم التي خدعتني وأنا واقف على الأرض، وأعطتني فكرة مضللة عن براءتها.

أتذكر وأنا طفل صغير جدًا وبالطبع قبل دخول المدرسة جلوسي فوق القصرية الحمراء في الصالة، وتحديدًا أمام الكرسيين المتلاصقين تحت المرآة.. كانت مسارات رفيعة من السائل الأصفر تتسرب من شقوق صغيرة في قاع القصرية، وتنساب فوق السجادة أمامي، وتتفرع لتكوّن أشكالاً درامية ممزقة.. كانت هوايتي الممتعة في ذلك الوقت هي مراقبة هذه التكوينات، وإكمال نقصانها، وتخيّل الصراعات المبهمة التي ترسمها خطوط البول فوق شاشة الصوف الرمادية.. كانت تبدو أحيانًا كأنها مشاهد لحريق، أو خصام بين ولدين، أو تلصص شخص على آخرين، أو شجار بين أم وطفلتها، أو احتضان رجل لشجرة، أو امرأة عجوز تصرخ بجنون، أو قطة تقف على حافة جبل.. كأنني كنت

أشكّل ـ دون استيعاب لما يعنيه ذلك ـ صورًا مشابهة للوحات والصور التي لا أفهمها كليًا، ولكنني أحاول استنتاج معناها بطريقتي الطفولية الخاصة، التي كانت تتعاقب في تترات المسلسلات، وداخل مجلات القصص المصورة.

كان هناك جدول حصص كارتوني يُباع في المكتبات، يُطوى أو يُترك مفرودًا، ولكن أحيانًا كنت أستعمل الجداول التي أخططها بنفسي بواسطة الأقلام الزرقاء، والحمراء، والخضراء فوق صفحتين منتزعتين من منتصف كشكول أو كراسة، وكنت ألصق هذا الجدول على حائط الحجرة، أو أحتفظ به داخل حقيبة المدرسة.. أما شهادات النتائج الشهرية فكانت إما عبارة عن دفتر صغير أبيض ذي غلاف كارتوني أحمر، أو ورقة كارتونية كبيرة مقسّمة إلى أسماء الشهور، وأسماء المواد مع خانات فارغة لأرقام النتائج مع مساحة خالية صغيرة لتوقيع ولي الأمر.. كان أبي يمضي شهادتي كل شهر آخر المساء وهو جالس فوق كنبة الصالة، ويرتدي نظارته ذات اللون الأسود، والعدستين الداكنتين.. كان أحيانًا يرتدي طاقيته البيضاء، أو إحدى الطاقيتين الصوفيتين سواء ذات اللون البيج، أم الأخرى ذات اللون الرمادي.. فوق نفس الكنبة كانت جدتي تجلس القرفصاء في الليل أمام التليفزيون بينما أسند رأسي فوق فخذها؛ لتلعب يدها النحيفة في شعر رأسي؛ فأشعر بنعاس يثقل تدريجيًا حتى أنام.. كان التليفزيون يعرض أحيانًا سهرات درامية شيقة مثل (جمعية الرفق بالإنسان)، و(زائر الليل).

عصير (بست) تفاح، ومانجو، وجوافة، وبرتقال.. الفول الحريتي.. كيمو ستيك.. التوت (عربة يد تقف أمام صيدلية "العطار").. كيمو كونو.. العجوة.. الخبز الفينو.

الأقلام الزرقاء: قلم جاف لونه أبيض وبغطاء لبني، وكان يوجد منه الأحمر والأخضر والأسود.. قلم (بيك) شفاف تظهر أنبوبته، ذو غطاء

كحلي، وكان يوجد منه أيضًا الأحمر والأخضر والأسود، وكان خطه ثقيلاً.. قلم لونه أزرق كليًا، وكان نسخة أحدث من القلم الجاف ذو اللون الأبيض.. قلم مقسّم بالطول لخطوط زرقاء وبيضاء رفيعة، وفي أقلام أخرى كانت الخطوط البيضاء تختفي؛ لتتسع مساحة الأزرق والرمادي.. قلم لونه أبيض تقسّمه بالطول خطوط سوداء رفيعة جدًا وله غطاء أزرق.. أقلام (باركر) الأنيقة ذات الألوان المختلفة مثل الأسود والبني والأخضر والأزرق مع الأغطية الذهبية، كنت أحب جدًا أحد هذه الأقلام، وكان لونه نبيتي وذو طرف ذهبي يخرج سن الكتابة من دائرته، اشتراه لي ابن عمي من مكتبة (الخولي) في (السكة الجديدة).. أقلام ذات ساعات رقمية في أطرافها العلوية.. أقلام فضية بلا أي زخارف.. قلم ينقسم سطحه الخارجي إلى لونين: العلوي أبيض، والسفلي لبني، وكان يحتوي على جميع أنابيب الألوان (الأزرق والأحمر والأسود والأخضر)، حيث يتم اختيار اللون بوسطة الضغط على طرف الأنبوبة الخاصة به، البارز من الفتحة العلوية للقلم.. كان هناك أيضًا أقلام على شكل عصا (شارلي شابلن)، وكان يزين كل قلم خط بلون مختلف، يلتف حول بياضه بالطول مثل الأحمر والأخضر والأزرق والبرتقالي والموف.

كان (مجدي) هو الزملكاوي الوحيد في الأسرة.. كان يجلس أمام التليفزيون لمتابعة مباريات الزمالك في الثمانينيات، وكان عاشقًا لـ (كوارشي).. كان أحيانًا يُقلده في طريقة الاحتفال بعد إحراز الأهداف.. تابعت معه أكثر من مباراة إفريقية للزمالك مثل مبارياته مع (نكانا ريد ديفلز) الزامبي، و(جيت أوزو) الجزائري، و(شوتنج ستارز) النيجيري في بطولة أفريقيا عام 1984.

الأقلام الرصاص: قلم رصاص بأسنان بيضاء، لونه لبني وعليه رسوم لقطط وعصافير ودببة صغيرة.. قلم بأسنان رفيعة جدًا، وكان لهذه

الأسنان علبة ضئيلة وشفافة.. قلم مقسّم بالطول لمساحات صغيرة من الأسود والنبيتي، وفي أقلام أخرى يُستبدل اللون الأصفر بالنبيتي مع الأستيكة العلوية.. قلم لونه بني بالكامل، ويحيط بالأستيكة التي تعلوه دائرة ذهبية.. قلم طويل ورفيع جدًا، له أستيكة كبيرة تشبه القبعة، تخرج حوافها المربعة عن قمته المستديرة، وكان لهذا القلم ثلاثة ألوان: الأحمر والأزرق والأخضر.. قلم أبيض مرسوم عليه زهور حمراء صغيرة، وسُحب رمادية، وعصافير زرقاء.

من الألعاب التي أخذت وقتًا طويلاً في طفولتي مباريات كرة القدم فوق السرير بواسطة أقلام (الفلوماستر).. كنت أحضر خمسة أقلام: (أزرق ـ أحمر ـ أخضر ـ أصفر ـ أسود).. يتم تقسيم الفريقين إلى: النادي (الأهلي): اللون الأحمر (أنا) مهاجم، واللون الأزرق (مجدي عبد الغني) مدافع وصانع ألعاب.. الفريق المنافس: نادي (الزمالك): اللون الأخضر (جمال عبد الحميد) مهاجم، واللون الأصفر (إسماعيل يوسف) مدافع وصانع ألعاب.. أما اللون الأسود فكان (دريد) حارس مرمى المنتخب الجزائري ـ بعد انبهاري به في كأس العالم 1986 ـ ثم استبدلته بـ (محمد يونس) حارس مرمى (المقاولون العرب) كحارس محايد، يقف ضد الجميع بعدما جاء في بالي أن (دريد) من الصعب أو من المستحيل أن يأتي من الجزائر إلى المنصورة.. كانت الكرة عبارة عن بلية بيضاء غير شفافة تحمل لطشات لونية متعددة صغيرة.. اختيار هذه البلية كان نتيجة قربها من لون كرة القدم.. المرمى كان عبارة عن قلمين فلوماستر (دون ألوان محددة، ولكن بحرص على اختلافها عن ألوان اللاعبين)؛ يتم إيقافهما كقائمين على خط واحد، وبينهما مسافة تقديرية تلائم مساحة المرمى، ويسندا حافة الوسادة العلوية التي تم تحريكها للأمام سنتيمترات قليلة فوق وسادة أخرى لتُشكّل العارضة.. أحيانًا كنت أستخدم قطع من الشباك الحمراء التي كانت يُباع البلح

داخلها في شهر رمضان كشبكة للمرمى، وذلك بواسطة ربط أطرافها المثقوبة بين المخدة العلوية والمخدة السفلية والقلمين الفلوماستر لتغطية الفراغات.. لم يكن أحد في البيت يستوعب ما أفعله؛ لدرجة أن أمي مثلاً كانت تُجيب على من يسألها عني سواء كان أبي، أم أي أحد آخر قائلة له: (بيمشّي إقلام على السرير).. بالطبع كان (الأهلي) يهزم (الزمالك) كل مباراة، وبالطبع أيضًا كنت أحرز جميع الأهداف.

برايات دائرية بمرآة خلفية، وألوان متعددة مثل الأحمر والأزرق والأخضر والأصفر، كما كانت هناك برايات مستطيلة صغيرة جدًا بنفس الألوان، ولكن دون مرايات، وكان يوجد منها على شكل قلوب أيضًا.. أحيانًا كان يُستخدم موس الحلاقة بدلاً من البراية.

الأساتيك: الصلبة المنقسمة إلى لونين أحمر وأزرق، وأحيانًا أحمر وأخضر.. البرتقالي الناعمة التي على شكل قلب، وكانت لها رائحة البرتقال، وكانت هناك واحدة أخرى حمراء لها رائحة الفراولة، بالإضافة لأنواع أخرى بألوان مختلفة، وكان بعض التلاميذ يأكلونها أحيانًا.. كانت هناك نوعية أخرى من هذه الأساتيك بنفس الألوان، ولكن في هيئة قطع صغيرة مضلّعة، وأحيانًا مستوية، وكانت لها أغلفة شفافة، مرسوم عليها حيوانات (كلبًا ـ دبًا ـ دجاجة).. الأستيكة البيضاء تمامًا، التي تشبه قطعة الجبن الضئيلة، ولها غلاف كارتوني باللونين الكحلي والأبيض، وكانت توجد غالبًا داخل المقلمات.

كان هناك (تِكِت) تقليدي، وكان يوجد منه المُزيّن بشخصيات مجلة (ميكي)، وكان (دقدق) الأكثر انتشارًا، كما كانت توجد ملصقات لتزيين صفحات الكتب والكراسات والكشاكيل: عرائس.. شخصيات كارتونية.. آلات موسيقية.. حيوانات.. عصافير.. أشجار.. زهور.

المساطر: مسطرة شفافة صلبة 15 سم عليها حيوانات (أسد ـ زرافة ـ غزال ـ فيل ـ خرتيت)، وحولهم زهور حمراء.. مسطرة طويلة 30 سم

بيضاء، سنتيمتراتها باللون الأسود الثقيل.. مسطرة صلبة 20 سم بيضاء، سنتيمتراتها ذهبية.. مسطرة خشبية 30 سم ذات لون بني متآكل.. مسطرة معدنية 15 سم لونها رصاصي، بأرقام سوداء كبيرة، وفي نهايتها دائرة صغيرة.. مسطرة شفافة مرنة 20 سم ذات سنتيمترات حمراء.. مساطر (فن) ذات المثلثات، والدوائر، والنجوم، وكانت هناك مساطر أكبر من هذه النوعية بها أيضًا مربعات، ومستطيلات، وشبه المنحرف، والشكل الخماسي.. مسطرة رسم الدوائر بأشكالها المختلفة حيث كان يوضع سن القلم في أي من ثقوب الأقراص متفاوتة الأحجام والألوان التي تأتي معها، ثم يتم تحريكها دائريًا فوق الورقة بواسطة هذا السن داخل الدائرة المفرغة للمسطرة.

ذات يوم قرر أبي أنه لم يعد يصح أن أستمر في الاعتماد على الآخرين من أجل ربط حذائي.. بعد العشاء جلس بجواري على كنبة الصالة، ووضع فردة الحذاء فوق الطاولة ذات السيقان الطويلة، وبدأ يشرح لي كيفية عقد رباط الحذاء.. انتهت جميع محاولاتي بالفشل؛ مما أصاب والدي باستياء ظل يتصاعد حتى انتهت الليلة بإخفاق تام ممتزج بالغضب.. الغريب أنني في اليوم التالي، وقبل نزولي إلى المدرسة، وبعدما ارتديت حذائي قمت بعقد رباطه وحدي بمنتهى السهولة، ومن أول مرة.. كأنني ظللت أستذكر شرح أبي في أثناء النوم حتى استوعبته تمامًا.

هناك شيء مرتبط للغاية بظلام الصالة الخفيف، وبضوء الصباح المنبعث من شباكي المطبخ والحمام مع غناء العصافير.. إنها صلصة (فاين فودز).. علب الصفيح الدائرية الحمراء، التي كانت تحمل صورة الطماطم.. في المطبخ أيضًا كانت توجد علب الكبريت العادية الحمراء، والأخرى ذات اللون الأزرق، وكانت هناك أمشاط الكبريت الزرقاء، أما علب الكبريت الأخرى التي كنت أحب تصميماتها وألوانها فكانت:

(الشعلة)، و(الساعة)، و(الهلب)، و(ثري ستارز).. كل هذه العلب كانت تأتي في عبوات ورقية مغلقة لونها بيج، كما كانت هناك أيضًا ولاعة بوتاجاز كبيرة ذات لون برتقالي.. كانت أمي تقوم أحيانًا بشوي السمك على صاج الوابور أو البوتاجاز.

كان (مجدي) يمتلك كوتشًا أبيض في لبني برباط طويل.. كان ينظفه يوميًا، ويتركه ليجف في البلكونة، كما كان يلبس في معصمه (حظاظة) سوداء ذات دوائر مربوطة ببعضها، وسلسلة فضة مطفأة ذات دوائر كبيرة ومتعانقة.

كنت أستخدم علبة الجبنة الـ (كيري) الكبيرة المستطيلة في عمل سرير لدب بلاستيكي صغير يحمل (تشيللو)، ويُصدر صوت الزمارة عند الضغط على بطنه.. كان لونه بيجًا فاتحًا برتوش حمراء، وكنت أشبك الأطراف الأربعة لعلبة الجبنة بأربع مشابك بلاستيكية لونها أصفر أحيانًا، ولبني أحيانًا أخرى كأرجل يستند عليها السرير، ثم أضع الدب لينام على ظهره داخل العلبة المرفوعة.

بالنسبة لعلبة جبنة (لا فاش كيري) المستديرة ـ ذات الخيط الأحمر الرفيع، الذي يدور مع استدارتها، ويفتحها لتحصل مع رائحتها على صورة هدية ـ كنت أنزع الطبقة الداخلية التي تشبه الطبق الكارتوني، وألعب بها لعبة الطبق الطائر.

كانت (ماجدة) تحاول دائمًا أن تعلمني كيفية إصدار صوت جري الحصان بواسطة أصابع اليد.. ظللت فترة طويلة عاجزًا عن تقليد الحركات الموجية، المتعاقبة والسريعة لأصابعها فوق الطاولة، والتي كانت تُحدث صوت أقدام الحصان وهو يجري فعلاً.. ذات صباح، وبينما كانت (ماجدة) تعطيني هذا الدرس مجددًا، انضم إلينا (مجدي) ليتابع المشهد، ثم أخبرنا بأن هذا ليس صوت الحصان.. حينما سألناه ما صوت الحصان وجدناه يُصدر إيقاعًا متمهلاً، ومتناغمًا، يتوزّع ما بين

فمه، وضرب كفيه لفخذيه.. كان أسهل بكثير ـ بالنسبة لي ـ من أسلوب (ماجدة) التي نظرت إليه باستخفاف وغيظ.. كان الصوت الصادر من (مجدي) هو صوت (مشي) الحصان ببطء، حتى أن النظرة التي كانت في عيني أخي لحظتها كانت نظرة متراخية للغاية تأكيدًا لمدى بطء الحصان.

من أجمل اللحظات، والأهداف التي أحببتها لـ (محمود الخطيب): في مرمى (دراجونز) بطل بنين 1985.. في مرمى (المرسى) بطل تونس 1985.. في مرمى (المقاولون) 1984.. في مرمى (كوتوكو) بطل غانا 1987.. في مرمى (أسيك) بطل كوت ديفوار 1984.. في مرمى (كوتوكو) بطل غانا 1982.. في مرمى (سيمبا) بطل تنزانيا 1985.. الربع ساعة الأخيرة من مباراة (الهلال) السوداني 1987.. الجماهير وهي تهتف له: (لأ يا بيبو لأ.. لأ ملكش حق) في مباراة اعتزاله 1988.

أبي كان يشتري لنا الفواكه: العنب، والتين، والجوافة، والكمثرى، والمشمش، والبرقوق، والبطيخ ـ كانت البطيخة توضع أحيانًا تحت السرير ـ والبرتقال، واليوسفي، والرمّان، والمانجو، والموز، والتفاح، والفراولة، والخوخ، والشمام، والأناناس.. قبل التلذذ بالطعم كانت للرائحة حينئذ ـ وهو ما ينطبق على الخضار الذي كانت تشتريه أمي أيضًا ـ متعة بديهية.. كذلك الملمس.. كان الأكل في الطفولة احتفالاً للحواس.

في عام 1982 قبل انتقال التليفزيون من حجرتنا إلى الصالة، حيث وُضِع مواجهًا لسرير (مدحت) بجوار البلكونة، شاهدت بعضًا من مباريات كأس العالم بـ (إسبانيا) مع صوت (علي زيوار) الذي كنت أحب تعليقه جدًا، ولا يمكنني نسيان الأهداف البرازيلية في هذه البطولة التي لم تفز بها البرازيل.

في يونيو من عام 1986 كنا نسهر لوقت متأخر أنا و(مدحت) و(مجدي)

لمشاهدة مباريات كأس العالم بالمكسيك.. (ميمي الشربيني) كان رفيقنا الرابع بعد إطفاء لمبة الصالة النيون، والجلوس أمام التليفزيون للاستمتاع بصوته الحميمي المميز، وتعليقه الجذّاب.. كان يوجد (ترانس كهربائي) له يد جلدية، ويشبه حقيبة صغيرة، وثقيلة للغاية، لا يغادر موقعه أبدًا فوق كرسي خشبي وراء التليفزيون، ومتصل به.. كانت له أيضًا لمبة خضراء يتنامى ضوؤها في الظلام، وكان يجب الضغط على جانب (الفتح) في الزر الخاص به قبل تشغيل التليفزيون حيث تُنير اللمبة، والضغط على جانب (الغلق) بعد إغلاق التليفزيون.. من أكثر اللحظات المبهجة، التي كنت أنتظرها بشغف هي لحظة العودة من الاستراحة وبداية الشوط الثاني؛ حيث كان (ميمي الشربيني) يقول دائمًا بما يشبه الغناء: ("ميمي الشربيني" يحييكم من "مكسيكو سيتي" حيث نتابع معًا أحداث الشوط الثاني من لقاء...).. كنت أشجّع في هذه البطولة فريقين: (الأرجنتين) ولعًا بـ (مارادونا)، و(ألمانيا) تضامنًا مع (مدحت) الذي سألته عن المنتخب الذي سيشجعه قبل بداية البطولة، وحينما استفسرت منه عن سبب تشجيعه لـ (ألمانيا) ـ لم تكن لي أي دراية بالمنتخبات العالمية حينئذ إلا مجرد إعجاب ضبابي بفريق (البرازيل) في بطولة 1982 بـ (إسبانيا) ـ اكتفى بالقول: (ألمانيا حلوة).. ظننت أن (الاتحاد السوفيتي) سيفوز بالبطولة بعد اكتساحه (المجر): 6 ـ صفر، قبل أن تُخرجه (بلجيكا) من دور الـ 16 بنتيجة (4 ـ 3).. مما لا يمكن نسيانه في هذه البطولة هدف (مارادونا) في (انجلترا)، وهو أجمل هدف رأيته في حياتي حتى الآن، وكذلك الأداء المذهل لـ (مارادونا) في مباراة الدور قبل النهائي أمام (بلجيكا)، والتي أحرز فيها هدفي الفوز.. كانت هناك لقطة مبهرة التقطها أحد الصحفيين خلال المباراة ـ أعتقد أنها فازت بأفضل صورة في البطولة ـ تُظهر مواجهة ستة من لاعبي (بلجيكا) لـ (مارادونا) وحده، والفزع يكسو

وجوههم.. كذلك ركلة الجزاء الثالثة في مباراة الدور ربع النهائي بين (البرازيل) و(فرنسا) التي سددها الفرنسي (بيلون) وارتطمت بالقائم لتضرب في (قفا) الحارس البرازيلي (كارلوس) وتدخل المرمى، انتهت هذه المباراة بفوز (فرنسا).. في مباراة الدور ربع النهائي بين (ألمانيا) و(المكسيك) سخر (مدحت) من حارس (المكسيك) في أثناء ركلات الترجيح قائلاً: (هو جون "المكسيك" حمار كده ليه!).. في المباراة النهائية كان فرحي يتأرجح مع كل هدف يُسجّل سواء كان من (الأرجنتين) أم من (ألمانيا)، وبعد انتهائها كنت في قمة السعادة، وأنا أشاهد (مارادونا) يحمل كأس العالم، وفي نفس الوقت كنت غاضبًا من خسارة (ألمانيا) التي تسببت في حزن (مدحت).. كنت معجبًا بأكثر من لاعب في هذه البطولة: الإسباني (بوتراجينيو) ـ الروسي (داساييف) ـ الألماني (فولر) ـ الجزائري (دريد) ـ المغربي (كريمو) ـ الإسباني (زوبيزاريتا) ـ الفرنسي (جان بيير بابان)، لكن سيبقى دائمًا، ومثلما قال (ميمي الشربيني) بأناقته الحاسمة: (مارادونا يا جماعة!).

خلال كأس العالم كانت تُباع ملصقات عبارة عن كروت تحمل صور لاعبي المنتخبات المشاركة، وتحت كل صورة اسم اللاعب، ودولته مع علم هذه الدولة، وعمره، ومركزه في الملعب.. من اللاعبين الذين اقتنيت صورهم (كونتي)، (مانشيني)، (دونادوني)، (شيلتون).. كانت الكروت بلاستيكية، وفي ظهر كل كارت ورقة تُنزع لتُلصق الصورة على الكراسات، والكشاكيل، والكتب، والحوائط، والطاولات، ومساند الأسرّة، وزجاج النوافذ.

في نفس العام (1986) شاهدت أنا و(مدحت) مباريات بطولة الأمم الأفريقية التي نظمتها (مصر).. كان (مجدي) يشاهد معنا مباراة (مصر) و(ساحل العاج)، وكان يجب أن تفوز (مصر) حتى لا تخرج من البطولة بعد هزيمتها في المباراة الأولى من (السنغال).. كان المنتخب

المصري عاجزًا عن إحراز الأهداف، ثم أصاب (مدحت) و(مجدي) مزيج من الحسرة والسخرية المريرة عند رؤيتهما لـ (شوقي غريب) وهو يقوم بتمارين الإحماء تمهيدًا لنزوله في الشوط الثاني.. تبادلا الضحكات اليائسة، وهما يؤكدان لبعضهما المعلومة التي ربما كانت معروفة حينئذ أن المباراة لا ينقصها لاعب تعوّد أن (يتحرك ويجري دائمًا في الاتجاهات الخاطئة دون مبرر).. لكن (شوقي غريب) أحرز الهدف الأول، ثم أحرز (جمال عبد الحميد) الهدف الثاني.. أنا و(مدحت) شاهدنا معًا مباراة (مصر) و(المغرب)، ولا أنسى الفرحة الهستيرية لـ (مدحت) بعد هدف (طاهر أبو زيد) في مرمى (الزاكي)، حيث ظل يقفز كالمجنون؛ ربما لأن المنتخب المغربي كان قويًا جدًا أيامها، وكان (الزاكي) من أبرع حراس المرمى الذين جاءوا في تاريخ (أفريقيا).. الأسرة جميعها شاهدت المباراة النهائية بين (مصر) و(الكاميرون) التي انتهت بفوز (مصر) بركلات الترجيح، وكان الكل فخورًا بالحارس العظيم (ثابت البطل).

أتذكر أنني شاهدت في إحدى السهرات ـ ربما من خلال برنامج (نادي السينما) ـ فيلمًا عن الزلازل.. ظللت فترة طويلة أعتقد أن (الزلزال) هو وحش خرافي يعيش تحت الأرض، وتتسبب ثورته المفاجئة في تشقق الطرق، وانهيار المباني، وقتل البشر.. كنت أظنه شيئًا خياليًا لا يمكنه الحدوث حتى بدأت أقرأ عنه في الصحف، وأتعرّف على حقيقته التي اعتبرتها أقل جمالاً من تعريفي الطفولي له.

كان التلفزيون يعرض مساءً مباريات الدورة الصيفية التي أتذكر أن بعض أندية الوسط في تلك الحقبة كانت تشترك بها مثل (الاتحاد السكندري)، و(المقاولون)، كما كانت تُعرض أيضًا مباريات من دوري أبطال أوروبا، بالإضافة لمباريات كرة السلة التي تعرّفت من خلالها على لاعبي الجيل الذهبي مثل (السلعوة)، و(مدحت وردة)، و(آلان

عطالله).. كنت أشاهد أيضًا مباريات التنس بتعليق (عادل شريف) حيث تعرّفت على (أندريه أجاسي)، (بوريس بيكر)، (شتيفي جراف)، (مارتينا نيفارتيلوفا)، (إيفان لندل)، (جابريلا ساباتيني)، (ستيفان ادبرج) وغيرهم، لكن يظل الأفضل دائمًا بالنسبة لي (أندريه أجاسي) و(بوريس بيكر).

قبل بطولة كأس العالم عام 1990 بـ (إيطاليا) كان هناك ألبوم يُباع في الأسواق به مربعات فارغة لجميع لاعبي المنتخبات المشاركة، وكانت الصور تأتي في علب لبان تشبه علب الكبريت، وعلى كل علبة صورة من مباراة في أحد الدوريات الأوربية.

صنعت (ماجدة) مفارش ولوحات الـ (كروشيه) والـ (إيتامين) والـ (كنفا) والـ (لاسيه) بألوان، وأحجام، وتصميمات مختلفة للصالون، كما كانت تقتني باترونات مجلة (حواء)، التي جاء مع أحد أعدادها بمناسبة العام الجديد هدية عبارة عن نتيجة حائط، تحوي صفحاتها وصفات، وصور ملونة لمأكولات، لا أظن أن أي منها قد انتقل من فوق الحائط إلى طاولة طعامنا.

مما أتذكر استمتاعي به هو دورة الألعاب الأوليمبية بـ (سيول) عام 1988.. لم يقتصر هذا الاستمتاع على منافسات ألعاب القوى، وكرة السلة، وكرة القدم، والجمباز، ورفع الأثقال، وكرة اليد، والسباحة فحسب، وإنما كنت أحب التمعّن في تصميمات وألوان أعلام الدول، ولحظات التتويج بالميداليات، وانفعالات الفائزين في أثناء عزف السلام الوطني لبلادهم.

كانت أسرتي أو (أبي وأمي وأختي) على وجه الخصوص من أولئك البشر الذين لا يفضلون الطعام غير التقليدي، ولا شك أن (السجق) كان من ضمن هذه النوعية.. ذات مرة عاد (مدحت) آخر المساء بأصابع (سجق)، وقام بطهيها بنفسه.. كنت نائمًا، واستيقظت على

الرائحة الجميلة.. (مشمش) أيضًا أيقظته الرائحة؛ فتوجّه إلى المطبخ ورائي لمشاهدة هذا الحدث النادر، الذي لن يقع مرة أخرى في بيتنا.. لم يكن أجمل (سجق) أكلته أو شممت رائحته فقط، بل كان أجمل سجق رأيته، ولا أدري ما الاختلاف ـ الذي يبدو معدومًا ـ بين شكل (سجق) أخي، وشكل (السجق) العادي، ولكن ربما كان التأثير مرتبطًا بكونها المرة الأولى التي أرى فيها (السجق) وأنا طفل صغير؛ مما أكسبها رونقًا جماليًا ـ عاطفيًا بشكل أساسي ـ لا يمكن أن يتكرر.. كان (مدحت) لا يزال وقتها طالبًا في كلية العلوم، وكان عنده كشكول محاضرات صغير له غلاف بني، مرسوم في إحدى صفحاته ضفدعة كبيرة بالقلم الأزرق الجاف.

من الموضات التي ظهرت في الابتدائي طريقة مبتكرة لرسم الفأر بسهولة عن طريق تخطيط شكل معين لدوائر مختلفة الأحجام.. كانت (ماجدة) تُجيد هذه اللعبة، وحاولت كثيرًا أن تُعلمني أداءها، لكنني أعترف بأنني فشلت تمامًا في تقليد مهارتها.

كان أبي يسافر أحيانًا إلى (القاهرة) كل أسبوع، من أجل اختبار الموجهين في وزارة التربية والتعليم قبل الإعارة، وكان يبيت فيها عدة أيام.. حينما كان يأتي موعد سفره، كنت أجلس في البلكونة منزويًا وحزينًا.. مرة رآني (مدحت) هكذا فقال مبتسمًا: (يا حول الله يا رب).. لم يكن يعرف أنني أجرّب ـ وهذا لا ينفي حزني بالفعل ـ الشكل الخارجي للألم الذي يبدو عليه الممثلون في التليفزيون عند لحظات الفراق التعيسة.. كأنني هكذا سأحزن بالطريقة الصحيحة التي حددها أولئك الذين يجيدون التعبير عن كافة العواطف والانفعالات.

كانت لي لعبة أثيرة في أوقات العصر التي أستبدل خلالها التمددَ في السرير بجوار (ماجدة) أو (أمي) منتظرًا النوم بالبقاء داخل البلكونة.. لم تكن لعبة بقدر ما كانت دراما صغيرة اخترعتها، وقضيت طفولتي

كلها أمثّلها بأصابعي.. كنت أرفع ذراعيّ وأنا مستلق داخل النسيم البارد للحجرة التي يسبح ظلامها الناتج عن إغلاق الشيش وبابي البلكونة داخل زرقة العصر الناعمة، والوفرة الهامسة لأصوات الشارع.. أطبق يديّ أمام بعضهما.. قبضتان مضمومتان، ومتقابلتان لأعلى، تبدوان مع خفوت الضوء كشبحين متأهبين تحت السقف الضبابي.. أمد سبابة كل يد في نفس الوقت، وأحرّك كل إصبع في مواجهة الآخر بالكيفية ذاتها، كأن كلاً منهما يقف أمام مرآة.. حركة صامتة تُظهِر أن كل سبابة يقول لمثيله: (بقى انت تقدر تجيلي هنا.. لا.. أبدًا.. خد دي)، ثم يتمددان للأمام كأنهما ماسورتا بندقيتين، ويندفعان بتحدٍ، كل منهما في اتجاه الآخر حتى يتقابلا، ويلتصقا، وينضغطا بعنف.. يتراجع أحد الإصبعين في أثناء الالتصاق تحت قوة الضغط، ثم يعود لدفع الإصبع الآخر الذي يتراجع بدوره أيضًا، ويستمر النزاع بهذا الشكل، حيث كل منهما يريد إخضاع غريمه وهزيمته.. ثم فجأة يحدث تراخٍ للإصبعين.. كأنها مصالحة.. يتحوّل الالتصاق إلى ما يشبه الاحتضان الذي تمتد على إثره بقية الأصابع في كل يد تدريجيًا لتلتحم بأصابع اليد الأخرى بمودة، وتنتهي الدراما.

وصل شريط كاسيت من أبي قادمًا من (الرياض).. كان أبي قد سافر إعارةً إلى (السعودية) سنة 1979، وعاد سنة 1982.. أسمعتني أمي ذات مساء في حجرتها الجزء الذي يخصني.. لأول مرة ـ ولآخر مرة ـ أسمع صوت أبي وهو غائب.. كان يوصيني أن أسمع كلام ماما، وألا أنسى غسل أسناني بالمعجون يوميًا قبل النوم.. كان يناديني بـ (الباشا).

الملابس التي أحضرها أبي لي من السعودية: بدلتا ضابط، إحداهما بيج، والأخرى لبني.. أتذكر أن ابن عمي (إبراهيم بلبل) أخذني للتصوير بالبدلة البيج في أستوديو (جميل)، الذي يقع بشارع (بنك مصر) في صباح اليوم الذي أعقب الليلة الوحيدة التي بيّت فيها عند عمي.. كانت

الشقة تعلو الفرن، ومن الغريب أنني لا أتذكر وجود سلم للصعود إليها سوى ذلك السلم الخشبي الذي يشبه سلالم المطافئ، والموجود داخل الفرن بعد تجاوز المدخل الذي يقع مكتب عمي في بدايته، ثم المشي للأمام بجوار السطح الرخامي الذي تتراص طاولات الخبز فوقه، ثم الانحراف لليسار قبل الوصول إلى الطابونة.. أتذكر أن (إبراهيم) حملني، وصعد بي هذا السلم الخشبي في تلك الليلة، ولا أدري كيف حدث هذا، وهل كنت أشعر برغبة قوية في النوم، أم أنني كنت نائمًا بالفعل، ولكن بما لم يمنع شعوري بهذا الصعود.. لا أعرف أيضًا هل تقرر مبيتي عند عمي في هذا اليوم بسبب رغبتي في النوم، أم بسبب نومي الفعلي، أم أنه كان هناك سبب آخر كاقتراح من (إبراهيم) لأبي أن أبقى معه في هذا المساء.. لكنني أظن أن هناك سلمًا آخر (طبيعيًا) للشقة في شارع (ثمرة الحياة) وراء الفرن.. أتذكر أن (إبراهيم) مشّط شعري في صباح ذلك اليوم للأمام؛ فانسدلت نعومته فوق جبهتي حتى عينيّ، ثم ذهبنا إلى أستوديو(جميل) قبل أن يعيدني إلى البيت.

أحضر لي أبي أيضًا من (السعودية) ساعد يد ماركة (ألبا)، وكانت ذات سوار معدني فضي، وقرص له إطار ذهبي مع مفتاح يمتد للخارج عند الضبط، وأرقام باللون الذهبي أيضًا مستقرة فوق خلفية تقترب من البني الفاتح مع مستطيل أبيض صغير، تتعاقب الأيام والشهور داخله بأرقام حمراء.

كنا نشتري هدايا عيد الأم من محلين شهيرين في (السكة الجديدة) هما (أماني)، و(ألف صنف).. كانت الهدايا عبارة عن: علب كارتونية لمناديل قماش مطرزة بالورد.. كروت لشموع مختلفة الأشكال، وذات ألوان عديدة، ولكن كان الأحمر مهيمنًا بالتأكيد، وكانت هذه الشموع مضاءة بلمعان رومانسي، وتحاوطها نجوم براقة متفاوتة الأحجام.. كروت لزهور في باقات متنوعة.. كروت لأطفال (أجانب) سعداء برفقة

أمهاتهم، وآبائهم داخل بيوت، وحدائق أنيقة.. كروت تتبدل صورة المنظر الطبيعي بداخلها إلى صورة منظر آخر عند تحريكها في الضوء.. كروت لآيات قرآنية.. كانت المعايدة تُكتب في ظهر الكارت قبل دخوله إلى ظرف الخطابات الأبيض.. زجاجات (كولونيا) صغيرة ـ (ياسمين) أو (لافندر) غالبًا ـ من نوع (الشبراويشي).. علبة بلاستيك زرقاء شفافة تُوضع بداخلها علبة المناديل، والكارت، وزجاجة الكولونيا، ثم تُزيّن بشريط ملوّن يُلَف حول جوانبها، ويُعقد في شكل فيونكة أعلى العلبة.. كنت أعطي هذه الهدايا لمعلماتي في الفصل، بينما تعود أمي إلى البيت بهدايا مشابهة من تلاميذها.

(«عبد المنعم مدبولي» وهو يخرج بقطار البنات الصغيرات من حجرتهن إلى الصالة ويغنون «توت توت» من مسلسل «لا يا ابنتي العزيزة» 1979.. "سمير" و"تهته" وهما يشتريان الكراريس والأقلام الرصاص والورق الملون في قصة "أحدث أجهزة التليفزيون" بعدد مجلة "سمير" 2 مارس 1986.. "بطوط" وهو ممدد في صالة بيته على الكنبة المجاورة للأباجورة الموضوعة فوق طاولة صغيرة، بينما يوجد كتاب مفتوح ومقلوب فوق الأرض أمامه، ومنضدة عليها طبق وفنجان بداخله ملعقة، وصورته معلقة على الحائط بجانب النافذة ذات الستارة المفتوحة على إحدى أشجار الحديقة، ويقول بعينين ناعستين: "ما أحلى وقت العصرية الهادئ، سأنام قليلاً" في قصة "يا له من يوم ممل" بعدد مجلة "ميكي" 12 سبتمبر 1985).

كتابة هذه المذكرات لم تكن بريئة تمامًا من الرغبة في الانتقام من الذكريات.. حقيقةً ربما كانت هذه الرغبة هي التي هيمنت كليًا على الكتابة في مواجهة الطغيان المذل للتشويش على مشاهد الماضي.. الضوضاء التعذيبية الثقيلة، والمتراكمة التي حرمتني من الحضور الحاسم لتفاصيل تلك المشاهد في ذهني، أو التي مرت كومضات برق ضعيفة وخافتة، تعمّدت بخبث أن تترك أثرًا شاحبًا سرعان ما تبدد كل مرة بتشفٍ سادي.. كأنني كنت محكومًا بالثأر من الصور المختبئة في النسيان، أو التي رفضت المرور إلى يقظتي، وأنا أعرف تمامًا أنها مستقرة داخل ظلام لا أستطيع اختراقه.. الانتقام من اللحظات المراوغة التي تهرب وتضيع، ومن الأحلام المشكوك في واقعيتها، وقبل كل شيء من تلك الأضواء البيضاء الضعيفة التي تسطع تدريجيًا بداخلي، كأنها تتهيّأ للاستجابة لاستغاثاتي، بينما أحاول كممسوس تفارقه الروح جذبها نحو الوضوح الكامل فتتبخر فجأة.

كتبت هذه المذكرات مقررًا المضي قدمًا دونما انشغال هل ستطاوعني الذكريات أم لا.. هل ستساعدني على استردادها أم ستواصل قهري.. كأنه في حقيقة الأمر ليس انتقامًا، بل على العكس كان خضوعًا بديهيًا لسحرها، الذي يقودني بالضرورة للرقص مع أشباحها بالخطوات اللائقة.. الرضوخ لحكمة الفردوس القديم، الذي يأبى التنازل عن غموضه؛ كي يبقى خارج العالم.. في قصة (رسم الهواء) من مجموعتي القصصية (مكان جيد لسلحفاة محنطة) كتبت هذه السطور:

(انتبهت إلى أنني ـ رغم حبي له ـ لا أشرب عصير القصب إلا نادرًا.. هل كنت سأحصل على هذا السفر الاستثنائي المنسّم إلى الماضي لو كنت أشرب عصير القصب يوميًا أو على فترات متقاربة؟.. ربما كنت سأتذكرك، وسأتذكر نفسي، وسأفكر في الأيام التي مضت، ولكنني لن أفوز بذلك الصفاء النادر للرجوع إلى الوراء.. لن أتمكن من استبدال

الواقع كأنه لم يكن والعيش ثانية داخل الدنيا الطفولية المندثرة بدلاً منه كأنه لم يكن هناك أبدًا سواها.. هنا تكمن مشكلة الذكريات الأزلية بالنسبة لي.. أنها تفقد جمالها الجوهري كلما زادت لحظات استعادتها.. كلما طالت إقامتها داخل الوحشة الباطنية للسجن المسمى بالراهن؛ لأنه يحولها تدريجيًا إلى جزء منه، وهذا ما يجعل النسيان التام ـ للأسف ـ العامل الأساسي للتذكّر المقتضب غير العادي.. التذكّر الذي يجعل فراغًا ورديًا يمر داخل صدرك، ويختفي فورًا؛ ليتركك عاريًا بين أسنان حسرة ثقيلة معتمة.. حسرة أنه لا يمكنك سوى القتال من أجل التذكّر فحسب.. القتال للحصول على مجرد جزء من ثانية لا ينتمي إلى الوقت).

الأيام التقليدية المتعاقبة التي تشكّل أغلب الماضي حيث لا توجد أشياء مهمة، أو أحداث بارزة تنتقيها الذاكرة، أو هكذا يبدو الأمر من الخارج.. اللحظات المتتابعة التي ربما كان يُنظر لها أحيانًا في وقتها كملل ثقيل لا ينتهي هي التي تصبح عصيّة على التذكر، وهي التي كان يجب استعادتها أكثر من المواقف اللافتة التي تصعد بها الذاكرة إلى ظاهر الوعي.. كأن تلك الأيام هي التي تشكّل حقيقتي، وجوهر الزمن الذي عشته حيث تتشابك جميع الأحلام في باطنها بشكل خفي، وتتحالف كافة التفاصيل في مشاهد موحدة، وتُفتح ممرات يصبح خلالها كل شيء طريقًا لكل شيء آخر.. ما يتم تذكره في الأساس هو سطح الذكرى، وليس عمقها.. قشورها الظاهرية.. ليست قشورها حتى بل مجرد وصف ضبابي يأتي عبر مسافات بعيدة، لا علاقة له بالواقع المفقود لأنه ليس حاضرًا الآن في حقيقته النقية، المتخلّصة من الأزمنة الأخرى التي تراكمت، ونجحت في دفن الماضي تحت تلال هائلة من الأحجار السوداء.. باطن الذكرى شيء مختلف تمامًا؛ لأن الصورة المستعادة عندما يتم استرجاعها تتحوّل إلى صورة مغايرة، في حين أنها

لم تكن في حدوثها الأصلي مجرد صورة، وإنما كيان تحتشد في وجوده وقائع، وأشياء، وعناصر سابقة، ومحيطة بظلاله، قد يبدو أن بعضها لا يرتبط بصلات أو بانتماءات مباشرة لطبيعته الخاصة، ولكنها مؤثرة بكيفية مبهمة في تحققه.

يظل ما كتبته لا علاقة له حتى بالتذكّر.. المذكرات هي (محاولة فاشلة للتذكر أصلاً) مثلما أنهيت شهادتي في جريدة (النهار) الكويتية عن ذكرياتي في (رمضان الثمانينيات).. استحالة عودة الوعي.. الحواس.. التفكير في الحياة.. تعشّم نفسك التي كوّنها الموت بأنك قادر على هذا الاسترداد، خاصة كلما أرسل إليك الماضي في أوقات متباعدة تلك الإشارات الذهنية الخاطفة، التي تمحو العالم بشكل مباغت، وتعيدك بدهاء إلى طفولتك للحظة غير مكتملة، تتلاشى على الفور.. الموت نفسه هو الذي يرسل تلك الإشارات.. تريد أن تعيش هذه الحياة القديمة كما حدثت بالضبط، وهذا هو الدافع للانتقام والخضوع.. الذكرى تخبرك طوال الوقت بأن ما تكتبه مجرد كلمات لا تمثّلها.. كأنك تحفر بأظافر لا تمتلكها في جدران صخرية قاتمة، منتصبة وراء بعضها، تقف بينك والماضي.. لماذا لا تفكّر في أنك أنت الذي تفعل هذا دون أن تدرك الحقيقة؟.. ربما أنت الذي تريد قتل تلك الذكريات.. ربما أنت الذي تريد أن تنساها، وأن تقمع ظهورها بمجرد أن تطفو؛ لأنها ليست ذكريات، بل غيومًا شتائية لا تشبهها غيوم أخرى.. الغيوم التي تكتنز كافة الوعود التي لم تمطر.. الغيوم التي خانتك.

كأن كل استعادة هي محو للذاكرة.. كل استرجاع هو فقدان للماضي كما كان بالضبط.. كأن كتابة هذه المذكرات كانت محاولة لعدم التذكر.. لعدم ترويض الذكريات.

لغز كاتب المسرح

يجلس مساءً أمام التليفزيون.. تتحول الشاشة مع فيلم الأبيض والأسود إلى حقيقة أصيلة لظلام الصالة.. العتمة القديمة التي لا يهددها الضوء الأصفر الحذر للأباجورة المستقرة بجوار الكنبة التي يجلس عليها.. ينظر إلى (إسماعيل ياسين) والخواجة (بيجو)، ويفكر بجدية: كيف يمكن حقًّا كتابة هذه الكلمة؟.. منذ ثلاثين سنة يجلس كل مساء أمام التليفزيون داخل ظلام الصالة، ويفكر في هذه المعضلة، رغم أنه ـ بالطبع ـ لا يشاهد (إسماعيل ياسين في مستشفى المجانين) كل يوم.. لكنه الآن ينظر إلى الفيلم، ويُضحكه السؤال المنطقي لـ (عبد الفتاح القصري): (هي دي تتكتب ولا تترسم يا سي «حسونة»؟).. ما يضحكه ليس السؤال تحديدًا، وإنما يعرف أن الكوميديا تكمن في السبب المبهم للخوف المختبئ داخل هذا السؤال.. فجأة يسمع خطوات تدنو من الباب.. يسمع صوت عدم رغبتها في الاقتراب وهي تتقدم نحوه.. الخطوات التي تدنو من الباب كل مساء في مثل هذا الموعد تقريبًا.. يشعر بالتلاحق السريع للدقات القوية في صدره.. كأن القدمين اللتين تقتربان في الخارج تسيران واقعيًا ببطء فوق قلبه.. يسمع صوت الخطوات وهي تتوقف.. المفتاح وهو يدخل في ثقب الباب.. التكة التي

تفتحه للأمام.. يشعر اليوم أن الباب يُفتح داخل الفيلم، وليس خارجه، وهو ما يجعل شخصياته تبدو كأنها تتعجل ما سيفعله الآن حتمًا.. أن يمد يده إلى الريموت، ويكتم أفواههم.. أن يفصل وجودهم عن هذه اللحظة التي دخلت فيها زوجته عبر الباب المفتوح.. عن هذا الجزء الخاطف من الثانية الذي تصادمت خلاله عيونهما وهي تحاول تفادي المواجهة.. يشعر أن الممثلين يريدون استكمال أدوارهم داخل تلك العزلة الصامتة، التي تتيح لهم أيضًا التلصص عليهما من داخل الشاشة.. رأى في عيني زوجته البكاء الذي تم تجفيف دموعه منذ زمن قصير.. الذي لا يزال متأججًا دون صوت في روحها وهي تقفل الباب.. الذي ستعاود دموعه التفجّر بعد قليل حينما تغلق على نفسها باب الحجرة، وتلقي جسدها فوق السرير.. وضعت حقيبتها على الطاولة أمامه، ثم فتحتها وهي تحاول كتمان الرجفة العنيدة التي تتدفق في أصابعها.. نظر إلى الفراغ الداكن عبر الشق العرضي لحقيبتها كأنه يترقب خروج السكين الذي سيُذبح به مثل بطة منزلية عاشت أطول مما يجب.. أخذت كيسًا بلاستيكيًا أبيض من داخل الحقيبة، ووضعته فوق الطاولة، ثم أخرجت (فلاشة)، وتركتها فوق الكيس.. دون أن تنظر إليه، قالت بنبرة أقرب إلى النحيب المتجمّد، وهي تعيد إغلاق حقيبتها:

(دي الصور إللي كنت عايز تطبعها).

ليس هذا ما كان يجب أن تقوله.. كلاهما يعرف ذلك.. كأنها قررت أن تخبره أولاً بهذه المعلومة الأقل أهمية؛ كي تمنح عذابه وقتًا أطول فتتساوى آلامهما.. كانت تمُهّد كجلاد خبير، يعيش داخل جسد ضحية.. فجأة، نظرت في وجهه كما توقّع.. كأن عدًا تنازليًا لقنبلة متوارية في صوتها يتتابع داخل عينيها:

(جبت التحليل من المعمل.. العدد مليون، ونسبة التشوهات تسعين في المية.. عديت على الدكتور قالي خليه يستمر على «السيلينيوم»

و»الجيرميز» ويجيلي بعد 3 شهور).
أخذت حقيبتها ثم تحركت من أمامه نحو الردهة المؤدية إلى حجرة النوم.. كانت العتمة في تلك المسافة القصيرة أكثر ثقلاً من ظلام الصالة؛ لدرجة أن جسد زوجته الذي مر من خلالها بخطوات سريعة منتفضة كان يبدو أنه القطعة الأخيرة التي تنقص هذه العتمة لتكتمل.. أغلقت الباب وراءها قبل أن تضيء نور النيون الأبيض لحجرة النوم.. كأنها تحافظ على عدم خدش الظلام المثالي للردهة حتى النهاية.. تابع غيابها دون أن ينظر مباشرة إلى يساره.. كان يشعر أنها لا تريد أن تخسر تلك العتمة التي تبدو فائضة من يأسها العميق وهي تعبر داخلها.

أخذ الكيس البلاستيكي والفلاشة من فوق الطاولة ثم دخل إلى حجرة المكتب، وأغلق الباب.. أضاء مصباح النيون الأبيض ثم أخرج الصمغ من الدرج، وصعد فوق السرير متأملاً الصور القديمة الملتصقة على الحائط؛ ليحدد ترتيب الصور الجديدة التي ستنضم إليها:

("كلينت إستوود" في مشهد المبارزة الأخيرة من فيلم "الطيب والشرس والقبيح".. "وردة" وهي تغني "في يوم وليلة" على المسرح.. غلاف عدد مجلة "ميكي" 10 نوفمبر 1983.. فرقة المصريين وهم جالسون في نهاية أغنية "ماتحسبوش يا بنات إن الجواز راحة".. "الخطيب" وهو يحرز هدفه في مرمى "المرسى" التونسي.. "Ana Anguita" وهي تحمل الكتكوت في أغنية "كوكو واوا".. "محمود مرسي" وبقية الجالسين على السُفرة حول عزومة العشاء في مسلسل "رحلة السيد أبو العلا البشري").

ينزل من فوق السرير، ثم يقف للحظات قصيرة؛ ليطمئن بتمعّن نهائي على التناغم الكلي للصور فوق الحائط بعد إضافة حصيلة اليوم.. يعيد الصمغ إلى درج المكتب ثم يمد يده ليفتح الخزانة التي أسفله، ويخرج

حقيبة الأوراق الجلدية السوداء.. يعود إلى السرير ليستند إلى حائط الصور ثم يفتح الحقيبة، ويخرج محتوياتها: (قصاصة من جريدة.. صور فوتوغرافية قديمة.. أوراق فلوسكاب ذات سطور باهتة، وأوراق أخرى منتزعة من مفكرات صغيرة فقدت بياض لونها وتحوّلت إلى الأصفر الخفيف).. يبدأ مجددًا في تفحص ذاكرة اللغز الذي لا يمكن حلّه.

يوم الأربعاء الموافق 4 يناير عام 1984 نشرت صحيفة (الأهرام) خبرًا صغيرًا عن (الحادث الأليم) الذي قتل كاتب المسرح أمس في مدينة (المنصورة).. كان قد ترك قبل هذا الحادث العديد من الأوراق التي دوّن خلالها ما جرى له يوم الاثنين 2 يناير 1984.. كان موجودًا في المساء داخل المسرح القومي بـ (المنصورة)؛ حيث العرض الأول لمسرحيته (دفة المركب الصغيرة)، وهي ميلودراما من فصل واحد تقوم على تحليل لوحة (إلحاح الذاكرة) من خلال علاقة (سلفادور دالي) بوالديه، مدموجًا بتجسيد لصراع فصامي متخيل مع (هاملت)، وشخصية الكاتب نفسه.. اعتمدت سينوغرافيا المسرحية بشكل أساسي على خلفية متحركة، مكوّنة من تداخل الشذرات المماثل للعبة (بازل) بين زوايا وقطع مجتزأة من لوحة (دالي)، ومن صور لممثلين عالميين على مسارح مختلفة في أثناء تأديتهم لدور (هاملت)، وأيضًا من لقطات فوتوغرافية لطفولة الكاتب، والتي تم أخذها داخل صالون بيته في أحد أعياد الميلاد، أو مع أسرته في اليوم التالي.. كانت هذه الخلفية تتبدل أحيانًا؛ ليحل مكانها جثث وأشلاء صور كاملة للمصوّر (جويل بيتر ويتكن) بالأبيض والأسود، تحت تركيز راقص لمزيج ضوئي من الدوّامات الذهبية، والحمراء، والزرقاء، تقترن بانبعاث الدخان في الفراغ السفلي للمسرح بما يقارب التشكيل البصري لأغنية (Leila The Queen of Sheiba) لفريق (Dolly Dots) عام 1981 ولكن مع

السيمفونية السادسة لـ (تشايكوفسكي)، وقصائد (ديلان توماس).
كان يجلس في الصف الأول سعيدًا، وإن لم تمنعه السعادة من هز قدميه طوال وقت العرض.. قبل بداية المسرحية كان قد تعثّر في أحد الثنيات السخيفة للسجادة الحمراء المفرودة في ممر المسرح وسط الصفوف، ورغم عدم وقوعه فإنه سمع ضحكة لاذعة تضربه في ظهره، لم يلتفت لمعرفة مصدرها.. لكنه في الخطوة التالية التي أعقبت هذه العرقلة البسيطة، وتحت تأثير ربكتها المفاجئة اصطدم بالمخرج الذي كان قادمًا من الاتجاه العكسي بخطوات عصبية سريعة، تتسق مع حرصه المتوتر ـ اللائق بالمخرجين ـ على إحكام السيطرة الضرورية في اللحظات الأخيرة قبل فتح الستارة.. سقطت السيجارة (الكليوباترا) من يد المخرج بفعل الاصطدام، فالتقطها سريعًا قبل أن تحرق نارها السجادة، ثم اعتدل ليرمق الكاتب المسرحي بضيق، ويقول له بصوت مرتفع، أخرجته اللهجة نافذة الصبر قليلاً عن حدود الدعابة: (ما تقعد في حتة يا عم).. ابتسم مؤلف العرض بإحراج مهين، محاولاً ـ كالمعتاد ـ أن يبدو ما حدث على ملامحه كأنه مزاح تقليدي، وهو يتابع بأذنيه الضحكة الأولى وقد تناثرت إلى ضحكات عديدة أكثر قوة، آتية من مسارات مختلفة وسط كراسي المتفرجين.
نهض من كرسيه، وصعد إلى المسرح لتحية الجمهور مع بطل المسرحية ومخرجها، وبالطبع كان قلبه يدق بعنف مع التصفيق قبل غلق الستارة، وهو يفكر في تعثره بالسجادة، واصطدامه بالمخرج.. كان يتساءل بعينيه التي تدقق في الوجوه المحدّقة باتجاهه من أسفل: هل يصفق الآن أولئك الذين سمع ضحكاتهم الساخرة قبل العرض؟.. عاد ليقف في ركن قريب من الممر؛ ليراقب انطباعات وتعليقات المتفرجين الأخيرة التي يتبادلونها في أثناء مغادرة المسرح حينما وجد ثلاثة أشخاص يقتربون منه.. كانوا شابين وفتاة بأعمار متقاربة في منتصف العشرينيات.. الشاب الأول

له شعر قصير جدًا، يمشطه للخلف، ووجه هزيل بشارب رفيع، وكان يرتدي بنطلونًا جينز أزرق فاتحًا، وجاكيتًا صوفًا رماديًا، مغلقًا بسوستة حتى منتصف الصدر، فوق قميص أبيض، كما لمح (حظاظة) سوداء في يده اليمنى.. الشاب الثاني كان ذا شعر ناعم، ممشط بالعرض مع فرق جانبي، واضح ومتقن، وكان يضع نظارة طبية، وله شارب أكثر ثقلاً مما لدى الشاب الأول، كما كان يرتدي بلوفر تريكو أخضر، تُظهر رقبته المستديرة ياقة القميص البيج خلفه، مع بنطلون أسود من القماش العادي الخفيف.. الفتاة كانت ذات شعر فاحم قصير، وتضع مكياجًا بسيطًا، ولها أنف أفطس إلى حد ما، وكانت ترتدي فستانًا لبنياً بذراعين واسعتين، تنتهي كلتاهما بإسورتين لونهما أبيض، وينزل إلى ما أسفل ركبتيها.. صافحوه بابتسامات كبيرة مهنّئة، وهم يبدون إعجابهم الشديد بالعرض ثم قدموا أنفسهم له.. كانوا مجموعة من دارسي الفلسفة المهتمين بتاريخ الفن، ويجمعهم شغف التأويل الفلسفي للفن التشكيلي، وقد كانت مفاجأة غريبة جدًا، وسعيدة لهم في نفس الوقت ـ بحسب ما أخبروه ـ اكتشافهم التطابق العجيب بين التحليل الذي جسّده في المسرحية للوحة (إلحاح الذاكرة)، وتفسيرهم الخاص لهذه اللوحة وفقًا لأفكار (إيمانويل كانط) عن (العقل التأملي)، و(بنية الإدراك)، و(نقد الميتافيزيقا)، ثم طلبوا منه ـ لو لم يكن وقته مشغولاً ـ أن يخرج معهم من المسرح للتمشية في شوارع (المنصورة)؛ لشرح هذا التطابق بشكل تفصيلي.. كان فرحًا وممتنًا أكثر من أي لحظة مضت على وجوده داخل المسرح القومي الذي تجاوز عتبته عصر اليوم.. كان قد لاحظ بألم مألوف انتباههم لاحمرار وجهه، واللجلجة المضطربة في كلماته.. الانتباه الذي مر داخل ملامحهم كطيف شاحب لابتسامة جماعية متهكمة، تبدد لؤمها الخافت على الفور حتى لا يجذب بصره، ولكنه لم ينجح في ذلك.. كان ماهرًا في اصطياد الانطباعات الهازئة

مهما كان ضعفها أو سرعة اختفائها؛ لأنه ببساطة كان يتوقعها دائمًا، ويترقبها طوال الوقت.. شاهد وراءهم امرأة جميلة، ذات شعر أسود طويل، وجسد فاتن تحتضن بطل العرض، وتقبّله، ثم تمد أصابعها البيضاء بمنديل ورقي لتمسح (الروج) من خدّه؛ فتذكّر كيس المناديل في جيب بنطلونه، الذي اشتراه من دكان (أبو كمال) في شارع (سينما أوبرا) قبل مجيئه إلى المسرح، ولم يفتحه بعد.

خرج مع الباحثين الثلاثة إلى الشارع.. كان المطر خفيفًا، وقبل خروجهم إلى شارع (البحر) وجد نفسه يقف فجأة، ويسألهم باللهجة الحاسمة لمن يعرف الإجابة: (إنتو إخوات؟).

كانوا يشبهون بعضهم فعلاً، ولكن ليس بالكيفية التي تدفعه نحو هذه الثقة التامة في صواب اعتقاده.. كانت الفتاة والشاب الذي يرتدي الجاكيت الرمادي يحملان بشرة سمراء بدرجة ما في حين كان للشاب الآخر لون قمحي فاتح، وقسمات أقل شبهًا من تلك التي تجمعهما، ومع ذلك كان في وجهه ـ خاصة جبهته وعينيه ـ شيء مقارب لملامحهما.. تبادلوا نظرات مستغربة، لم يصدقها رغم كل ما امتلأت به من سخرية مباغتة.. قالت الفتاة مبتسمة، وبصوت هادئ كأنها تحاول أن تمنح الاطمئنان لطفل خائف: (لأ.. ليه؟).

لا بأس.. هم يكذبون لسبب ما، ويحرصون على السلوك المهذب لغرض خفي، يبدو أن ما أخبروني به حتى الآن ليس إلا تجهيزًا مدبّرًا للوصول إليه.. هكذا كان يفكر بإصرار، ولهذا قرر أن يكذب هو الآخر: (لا مفيش، بس تخيلت كده).

خرجوا إلى شارع البحر، وساروا بمحاذاة النيل، حتى وصلوا إلى شارع (بنك مصر)؛ فدخلوا إليه، وقطعوه ثم اجتازوا تقاطع هذا الشارع مع (السكة الجديدة) نحو شارع (حسين بيه).. كان يستمع إليهم طوال تلك المسافة، ويتناقش معهم بإعجاب، وببهجة مأخوذة بالتوافقات الساحرة

بين مسرحيته، وأفكارهم حول الموت كأصل حسي عند (سلفادور دالي).. جذور الحدس السريالي مع حمل اسم الأخ الميت.. الثورة على الأب المسكون بالحب المستحيل للصبي الذي فارق الحياة كبداية لتدنيس التوافق بين العقل والحواس.. الانتقام بحيل الطفولة من ذلك الذي يعتبر الطفل غير الميت مجرد نصف إنسان، وهي الخطوات الأولى لتخريب التجانس.. الانتهاك البدائي في مواجهة اللامبالاة.. الإعجاب بقوة الأب، وعنفه، وسلطته، وحبه القاهر لـ (سلفادور) الأول كمعادل لرفض التوافق الضمني بين المفاهيم العقلية، والصور الملموسة للزمان والمكان.. موت الأم (عسل الأسرة)، الملاك المرتبط صورته بالقرنفل المزروع على يديها في الشرفة، وهو اليأس أو الشبق الذي سيضمن توحيد الكثرة الذهنية للغرائبي في نسق ماجن.. لكن كاتب المسرح لم يسألهم أبدًا لماذا اتخذوا هذا المسار للمشي.. هم أيضًا لم يسألوه عن الطريق.. كانوا يسيرون بخطوات عفوية، بديهية، كأن ثمة اتفاقًا سريًا يربط بينهم على التحرك في هذه الاتجاهات المتعاقبة.. لكنهم بعد تخطي شارع (حسين بيه)، والوصول إلى سور (نادي الشعب) وقف ثلاثتهم فجأة؛ ليشير الشاب الذي يرتدي البلوفر الأخضر إلى شارع جانبي، ويقول له:

(إحنا مكتبنا هنا، يا ريت تتفضل معانا تشرب كوباية شاي).

سأله مندهشًا:

(انتو عندكو مكتب).

تبادلوا نظرة رصينة مبتسمة، كأنهم يستعدون لإرشاد مخلوق غافل إلى حكمة غيبية، يعلمونها وحدهم.. قالت الفتاة:

(أيوه.. اتفضل).

في الأحوال العادية ـ خصوصًا الليلية ـ كان سيرفض حتمًا.. كان سيعتذر متحججًا بأي مانع، ثم يتركهم حالاً.. لم يكن يمتلك الشجاعة، أو لنقل

التهور اللازم لمرافقتهم.. نعم، كانت الشجاعة بالنسبة له تهورًا مرعبًا، يخشى التورط في غموضه المخيف، بل وكان يتحاشى في معظم الأحيان مجرد التفكير في المآسي الواقعية التي يمكن أن تنجم عن الاستجابة لإغرائه المفزع.. كان يفضّل أن يتخيل المغامرة التي تبقيه آمنًا.. الإثارة التي لا تهدد ضعفه.. كان يجيد التخيل.. التخيل فقط.. هم إخوة دون شك، ولا بد أنهم يكذبون، وبالتأكيد هناك لعبة خبيثة يحاولون إيقاعه في شرها بهذه الدعوة المبهمة للذهاب معهم.. لكنه وافق على طلبهم دون تردد.. هكذا فحسب، وجد نفسه يقبل مطاوعتهم، والتحرّك بصحبتهم إلى ذلك المكتب.. لم يكن في روحه أي شعور بالإجبار، بل على العكس كان راغبًا بشدة في هذا، والأكثر أنه كان ينظر ببصيرته نحو القدر الذي أعطاه هذه الفرصة بامتنان هائل.. لم يكن راضيًا فقط بل دخل معهم الشارع الصغير، الضيّق، وشبه المظلم كأن أمنية قديمة نائمة منذ زمن طويل في أحلامه تحققت الآن.. صعدوا بيتًا متهدمًا في نهاية الشارع ذي البيوت القديمة، والنوافذ، والشرفات المغلقة في صمت، وهو يتبعهم فوق سلالمه المتكسرة، التي لا يضيئها كليًا المصباح الأصفر الصغير، المترب، الذي يعلو الباب المغلق للشقة الوحيدة في الطابق الثاني.. وصلوا إلى شقة الطابق الثالث حيث لم يكن مصباحها مضيئًا.. ابتسم الشاب الذي يرتدي الجاكيت الرمادي وهو يخرج المفتاح من جيبه، ويفتح الباب قائلاً:

(معلش اللمبة محروقة، بكره نغيرها).

دخل الشقة وراءهم، ولم يستمر الظلام طويلاً؛ إذ مد الشاب الذي فتح الباب يده على الفور، وأضاء مصباح الصالة الذي كان ضوؤه أصفر مثل مصباح السلم في الدور الثاني، ولكنه كان أكبر، ونظيفًا من الغبار، وبالتالي كان أكثر سطوعًا.. كانت الشقة عبارة عن حجرة مغلقة بباب خشبي في واجهة صالة ضيقة جدًا، لا يوجد بها سوى أنتريه

جلدي عتيق لونه زيتي، مكوّن من كنبة، وثلاثة كراسٍ تحاوط الطاولة الدائرية الصغيرة في المنتصف، والتي يعلوها مفرش بلاستيك لونه بيج باهت، ومتخم بالبقع الداكنة، تحت مطفأة سجائر خزفية زرقاء، ضئيلة الحجم أمام المكتب، وكرسيه الخشبي.. يسارًا على التوالي يوجد المطبخ الذي يبدو أنه لا يتسع إلا لشخص واحد، وتنسدل فوق مدخله ستارة من الستان اللبني الكالح.. حمام ضيق، بابه مغلق، ويظهر ظلامه الداخلي عبر اللوح الزجاجي المغبش في بداية نصفه العلوي.. رف صغير لونه نبيتي قاتم، يعلوه راديو أثري، وتحت الرف توجد مرآة مربعة ذات إطار ذهبي خامد، وخدوش متعرّجة خفيفة في طرفها الأيمن العلوي.
أغلقت الفتاة باب الشقة، وانتظرت حتى جلس الكاتب المسرحي فوق أحد كراسي الأنتريه، ثم قالت بابتسامتها الثابتة تقريبًا، التي شعر الآن وهو ينظر إليها أنها تحوّلت إلى نموذج للسكينة بعد دخول البيت:
(لحظة واحدة أعمل لحضرتك الشاي).
هل سيجازف ويشرب الشاي؟.. هذه مقامرة على الحياة نفسها دون كلمة أزيد.. هل سيشربون الشاي معه؟.. حسنًا.. لن يشرب لو أعدت الفتاة الشاي له وحده.. سيقول إن بطنه تؤلمه، وسيصر على الرفض منتبهًا لمستوى إلحاحهم.. أما لو خرجت من وراء هذا الستار بأكواب لهم جميعًا فسيراقب ترتيبها فوق الصينية حينما تضعها فوق الطاولة، وسينتظر ليعرف هل سيتركونه يأخذ الكوب الذي يختاره، أم أن أحدهم سيبادر بتعمّد لأن يناوله كوبًا معينًا، أو أي كوب غير محدد حيث يوجد الموت في جميع الأكواب.. هل سيأخذ كل منهم كوبًا من الشاي ويرتشف منه، أم أنهم سيحتفظون بالأكواب في أيديهم كأنهم يعطون فرصة لسخونتها حتى تهدأ قليلاً بينما ينتظرون أن يبدأ هو في الشرب.. لو أرادوا إلحاق الأذى به الآن، هل يحتاجون إلى تذويبه في الشاي؟.. ما الشيء الذي يمكن أن يريدوه منه؟ وإلى أي مدي يمكن أن تصل

أهميته حتى يدفعهم لإصابته بضرر ما؟.. لم يكن يريد لأي هاجس أن يفسد الليلة.. كان يرجوهم في قلبه ألا يفسدوا الليلة.. سمع المطر يشتد مع صوت (وردة) تغني (شعوري ناحيتك) من مكان قريب داخل الشارع عبر أحد النوافذ التي لا يراها.. قرر أن يشرب الشاي.

تأمل الفتاة وهي تختفي وراء ستارة المطبخ، وشاهد نور أصفر لمصباح آخر يضيء خلفها، ثم راقب ظلها القصير وهي تأخذ البرّاد من فوق ما يبدو أنه بوتاجاز بجانب الحائط على اليمين، ثم تتحرك به نحو الحوض يسارًا ليسمع صوت الماء وهو ينهمر من الحنفية إلى داخله.. جلس الشابان أمامه فوق كرسيي الأنتريه، وكان في عدم جلوس أحدهما على المكتب إمعان في التهذيب، وإثبات عملي لتقديرهم له.. أخرج الشاب الذي يرتدي البلوفر الأخضر علبة سجائر (كليوباترا) من جيب بنطلونه، وجذب من فتحتها الصغيرة طرفي سيجارتين، ثم مد العلبة إليه فاعتذر لأنه غير مدخّن.. سحب الشاب الذي يرتدي الجاكيت الرمادي سيجارة من علبة الشاب الآخر، وأشعلها بعود من مشط كبريت كان في جيب الجاكيت الداخلي، في حين أخذ صاحب العلبة سيجارة، وأشعلها بولاعة حمراء شفافة، أظهرت وصول كمية الوقود السائل بداخلها إلى المنتصف تقريبًا.. فجأة تحرك الشاب الذي يرتدي البلوفر الأخضر في جلسته إلى الأمام، وعلى وجهه ابتسامة تحمل قدرًا من الغموض، وإن كانت نقية من المكر ثم قال له بهمس حميمي:

(إحنا عرفناك بنفسنا، وكل حاجة قلنهالك صدق، بس لسه فيه حاجة واحدة متعرفهاش).

(خير؟)

(إحنا كوّنا من فترة جماعة سرية هدفها فك الرموز الغامضة، وتفسير الرسائل المشفّرة في الأعمال الأدبية والفنية.. حضرتك بالتأكيد عارف

إن دي حاجة أزلية ومش هتنتهي أبدًا، زي كل الوثائق إللي اتكتبت، ولسه هتتكتب عن قصص (آلن بو)، وأشعار (بودلير)، ولوحات (دا فينشي) وغيرها.. إحنا بنستخدم استراتيجيات فلسفية ونفسية مختلفة، ومش تقليدية في إعادة قراية واكتشاف الأعمال إللي زي دي، وإنتاجها بشكل تاني.. يعني تقدر تقول إننا قادرين باستخدام إللي بنسميه (التناص الوحشي) إننا نحوّل الأعمال الأدبية والفنية إلى نوع من الأحجية الزمنية، مرتبطة بشخصياتنا زي ما هي متعلقة بغيرنا، واحنا فعلاً يشرفنا إنك تنضم لينا).

هذه ليلة السعادة الكاملة إذن.. عرض أول ناجح لمسرحيته.. لقاء قدري، أقرب إلى الصدفة الكونية مع باحثين يقدمون له غنيمة من التفاهمات المغوية بين الميلودراما التي كتبها، ودراساتهم الخاصة عن (سلفادور دالي) و(إيمانويل كانط)، ثم الاكتشاف الأعظم بأنهم مجموعة من المغامرين في الفن والتاريخ.. انتظر حتى خرجت الفتاة من المطبخ وهي تحمل صينية الشاي، ثم تضعها فوق الطاولة المستديرة في المنتصف بعد أن أبعد الشاب الذي يرتدي الجاكيت الرمادي المطفأة الخزف إلى المكتب وهو يطفئ سيجارته بداخلها قبل أن ينهض الشاب الثاني ليطفئ سيجارته هو الآخر، ويعود إلى كرسيه.. نظر إليهم مبتسمًا بعرفان حقيقي ثم قال:

(أنا موافق طبعًا).

فجأة انقطعت الكهرباء.. كل ما حوله أصبح ظلامًا تامًا.. لكن ليس هذا ما أيقظ الرعب في دمائه، وإنما لأن الشبان الثلاثة لم يتصرفوا كما يفعل البشر دائماً عند انقطاع الكهرباء.. لم يُخرِج الشاب الذي يرتدي البلوفر الأخضر ولاعته الحمراء على الفور كما هي العادة، وكذلك لم يفعل الشاب الآخر الذي يرتدي الجاكيت الرمادي بمشط الكبريت الذي في جيبه، ولم تتحرك الفتاة نحو المطبخ لتحضر شمعة مثلاً، بل

لم يصدر من أفواههم أي تعليق أو انطباع تجاه تلك العتمة الكاملة والمباغتة، كأنهم لم يشعروا بها، ومازالوا قادرين على الرؤية.. استمروا في الكلام دون أن يظهر أي أثر للظلام في أصواتهم، في حين أصابه الفزع بخرس ثقيل، أغلق جسده بصلابة على دوار حاد، وضيق في التنفس، شعر به مصحوبًا بضربات قلب قوية وسريعة.. سمع صوت الشاب الذي يرتدي الجاكيت الرمادي يقول له بنبرة منتشية:

(إحنا متشكرين جدًا ومبسوطين أوي إنك وافقت تنضملنا).

لم يستطع أن يقول شيئًا.. كأن وسيلة النطق تحوّلت من لسانه إلى عينيه المعميتين فظل صامتًا.. أدرك أن هذه العتمة لا تشبه أي عتمة أخرى جرّبها من قبل.. فكّر في أنه ظلام غريب حقًا ذلك الذي لا يسمح ولو بثقب صغير، أو ثغرة ضئيلة يمر منها ظل ضعيف لضوءٍ في مكان ما.. أحس أن في داخله قبضة من الفولاذ تجذب أمعاءه لأعلى بعنف.. سمع الشاب الذي يرتدي البلوفر الأخضر يقول بلهجة مُداعِبة، تبدو كأنها تعبر أنقاض حائط هُدم توًا بينه وبين ثلاثتهم:

(وتعبيرًا عن الامتنان لحضرتك هنقدملك هدية بسيطة.. أكيد حضرتك سمعت عن الساعات المجهولة في زيارة «أجاثا كريستي» لمصر).

شعر بأنفاس قريبة من وجهه.. قريبة أكثر من اللازم.. أنفاس ساخنة تواصل الاقتراب.. لم يقدر على الرد.. لكنه سمع بالفعل عن هذه الساعات المجهولة.. لماذا لا تتكلم الفتاة؟.. أين ذهبت؟.. أحس بسخونة الأنفاس الغريبة تلفح وجهه، ثم شعر بجسد يصعد فوق ساقيه.. جسد ليّن ودافئ للغاية كغيمة شتوية ممطرة وقت الغروب، حيث ينصهر البرد الرمادي الأبيض بتدرّج برتقالي.. لم يستطع تحريك أي جزء من جسمه؛ فأدرك أن العمى امتد إلى كل كيانه، وأنه أصبح مشلولاً بشكل كامل باستثناء عقله، والسهم السفلي الذي أخرجته اليدان الممتلئتان، والطريّتان؛ لتجعلاه بحرارتهما المقفلة يشير بثبات إلى الاتجاه الصحيح

لأعلى.. نعم، يتذكر جيدًا مقال الناقد الأدبي الإنجليزي (توم كلاين) في جريدة (نيويورك تايمز)، الذي ترجمه دكتور (إبراهيم القويسي) بعنوان (أشباح أجاثا كريستي)، ونُشر في مجلة (الكتابة العربية) بعدد شهر ديسمبر عام 1981 الذي ناقش خلاله الأصول الواقعية للشخصيات، والأماكن، والأحداث الروائية في تاريخ (أجاثا كريستي) مشيرًا بشكل عابر، ومقتضب لهذه المعلومة التي تدّعي أن الروائية الشهيرة اختفت ساعات طويلة في أثناء زيارتها لمصر، وأن هذا الحدث ظل غامضًا، ولم يعرف أحد إلى أين ذهبت، ولماذا، وما أسباب تكتّمها على ملابسات هذا الاختفاء.. جسم الفتاة هو الذي يصعد فوقه.. أدرك ذلك من صمتها.. من رائحة شهوتها التي أحس أنها تتلائم بشكلٍ ما مع ملامحها التي لم يعد يراها.. سمع الشاب الذي يرتدي الجاكيت الرمادي يقول بنبرة تشبه التي تحدث بها الآخر:

(إحنا قدرنا نعرف بالدلائل القاطعة إنها كانت في «المنصورة»).

الفتاة تجلس فوقه.. بدأ رعبه يتبدد قليلاً.. كأن الفتاة تمتص شياطينه مع صعوده داخلها.. أصبح متعوّدًا ـ بلذة ـ على الظلام مثلهم.. هل يشعر الشابان بما تفعله الفتاة الآن؟.. لماذا لا يثير صمتها شكوكهما؟.. أم أنهما يدركان ـ يشاهدان بتعبير أدق ـ ما هو مرغم على الاكتفاء بالإحساس به فقط؟.. هل هم أشقاء حقًا بحسب ما يظن؟.. ماذا لو فكّر أحدهما في إشعال سيجارة أخرى؟.. كان هذا الهاجس من الخطورة المحتملة يزيد استمتاعه بالفزع الذي يتلاشى تدريجيًا مع ارتفاع الفتاة، وهبوطها برفق.. تذكّر أيضًا المقابلة الإذاعية لراديو (B B C) مع المؤرخ الأمريكي (كايل مويس) في 21 فبراير عام 1983 بإحدى حلقات برنامج (أضواء من الماضي)*، وكانت عن حياة (أجاثا كريستي)، وتحدث خلالها عن الإشاعات غير المثبتة التي حاولت تأكيد أن الروائية الشهيرة أبلغت بعض المقربين لها بعد العودة من مصر أنها

عاشت ما أطلقت عليه (ساعات خارقة) في إحدى مدن الدلتا دون أن تُفصح عن اسم هذه المدينة، أو ما الذي تقصده بهذا الوصف.. كانت أنفاسه تتخلص من التحجّر مع امتداده داخل الفتاة، وإن كان ما زال غير قادر على تحريك يديه ليلمسها مثلما ظل عاجزًا عن الكلام.. لم يكن جسده متخشّبًا بقدر ما كان يعيش راحة منسجمة مع العتمة، ومع الحضن التحتي الناعم والمحكم للفتاة، وأيضًا مع الانسحاب المتواصل للدوار من رأسه.. سمع الشاب الذي يرتدي البلوفر الأخضر يقول:

("أجاثا كريستي" زارت مُحضِّر أرواح، سمعت حكاياته الأسطورية من أحد أصدقائها المصريين المجهولين، وجاتله مخصوص، وقابلته في بيته بمنطقة (ميت حدر) وهي متخفية، ومن غير ما حد يعرف غير صديقها المصري إللي كان معاها، وإن كان محضرش الجلسة السرية إللى تمت بين "أجاثا" والمُحضِّر ده).

(ميت حدر)؟!.. لقد أتت (أجاثا كريستي) حيث يسكن كاتب المسرح إذن.. لكن في أي شارع من هذه المنطقة؟.. في أي بيت؟.. من محضِّر الأرواح هذا الذي لم يسمع عنه رغم (حكاياته الأسطورية)؟.. أسرعت الفتاة من حركتها فوقه، عندما سمع الشاب الذي يرتدي الجاكيت الرمادي يقول:

("أجاثا كريستي" كتبت إللي حصل في اليوم ده في قصة قصيرة، منشرتهاش أبدًا، وإنما ممكن يكون فيه إشارات ليها في روايات وقصص تانية، أما مُحضِّر الأرواح فأصر إنه يحتفظ بنسخة منها كتذكار، فسمحتله بده بعد ما أخدت منه عهد إنه ما يكشفش عنها أبدًا فوافق، والتزم بالعهد، ولكن قبل ما يموت خبّى القصة جوّه مكان سري في "المنصورة"، بس إحنا دوّرنا، وبحثنا كتير في تاريخه، وعلاقاته، وفتشنا في كل المعلومات المهمة إللي عند الشخصيات القريبة منه، والناس إللي سمعت عنه، لغاية ما قدرنا نعرف فين المكان ده.. عارف مُحضِّر

الأرواح ده اسمه إيه؟).
عاد النور فجأة.. كان الأثاث كما هو، وأكواب الشاي التي لم تنقص رشفة منها فوق الصينية كما هي، وكان الشابان يجلسان على كرسيهما مثلما كانا قبل انقطاع الكهرباء.. هل كان انقطاع للكهرباء حقًا أم عماءً طارئًا أصابه وحده وتبدد من عينيه، بل من جسده الآن؟.. كانت الفتاة تجلس أيضًا فوق فخذيه.. لكن جسدها لم يكن كما كان.. رأى إحدى الساعات الذائبة في لوحة (إلحاح الذاكرة) مرتخية فوق كتفيها بدلاً من رأسها الذي لم يعد موجودًا.. انتفض مرعوبًا، وهو يصرخ بقوة كأن رجوع الكهرباء قد أعاد إليه القدرة على الحركة والنطق بطاقة مضاعفة.. دفع جسد الفتاة من فوقه فسقطت بساقين عاريتين، وتحطّمت الساعة البديلة لرأسها بعد ارتطامها بالبلاط، وتناثرت إلى شظايا صغيرة بين أقدام الشابين الجالسين، اللذين لم ينظرا إليها، ولا للدماء السوداء التي تدفقت غزارتها لتملأ الأرض، بل كانت عيونهما مصوّبة إلى ما تحت بطنه، بينما كان يجري بفزع مرتجف نحو الباب، ويفتحه.. كان يتقيّأ الأورجازم بقطرات صغيرة، كثيرة ومتلاحقة، سالت فوق بنطلونه أيضًا، واختلطت بالدماء السوداء فوق البلاط.. ظلا يراقبانه بابتسامتين متطابقتين فيما بين السخرية والتعاطف، ولم يحاولا منعه، ولم يناديا عليه وهو يغلق البنطلون في أثناء اندفاعه في الخروج، وتعثره فوق الدرجات المتكسّرة، وارتطامه المتعاقب بالجدران الضيقة للسلالم.. ظل يجري، ويقع، ويعاود الوقوف والجري تحت غزارة المطر بقلب يكاد يسقط من فمه مع الصرخات التي يجاهد لمنعها من التفجّر، مع اجتيازه المسافة القصيرة من الشارع الجانبي إلى سور (نادي الشعب)، ولكنه بدلاً من دخول شارع (حسين بيه) مثلما جاء إلى هذا المكان؛ وجد قدميه تجريان للعودة من شارع (بورسعيد) رغم أن هذا التغيير سيزيد من طول الطريق إلى بيته، ومع ذلك ظل

يعدو داخل شارع (بورسعيد)، ثم تأمل خزان المياه الضخم العالي دون أن يتوقف لحظة مروره أمامه، قبل أن ينحرف يمينًا بالقرب من لافتة (توشيبا) الضخمة العالية ذات الأضواء الحمراء الساطعة عند كوبري (طلخا) التي تمعّن فيها وهو يدخل شارع البحر، ومنه إلى شارع (بنك مصر) قبل التوجّه يسارًا إلى (ميت حدر) حيث وصل إلى بيته.
كان يبكي عبر تلك الشوارع بتشنجات عنيفة، وينتحب مع شهقات متواصلة، تتدافع أحيانًا من فمه في هيئة كلمات مضطربة، غير مفهومة، وأصوات أنين مكتوم، تشبه التأوهات المنبعثة من قاع هائل حيث تُنتزع الأشلاء من جسم مستيقظ.. لم يسأله أحد عن أي شيء، ولم يتبعه كائن ما في صمت، ولم ينظر إليه أي شخص ولو بنظرة عابرة.. بعكس الكلمات المضطربة، غير المفهومة التي تتدافع من فمه، كانت عبارات أخرى، مدركة، تفور في رأسه، ثم تخترقه من الداخل، وتخرج في الفراغ الليلي المضاء بالنور الأصفر للعواميد المتتابعة ثم تطير، وتتبخر.. كانت تخرج من دماغه، وتتلاشى في سماء (المنصورة) عبارات مثل:
(أسرار محاولة اغتيال أبو باشا، سيناريو الجريمة، التقرير الطبي، تطورات التحقيق.. مأساة داليدا ولماذا انتحرت؟.. بعد اغتيال كرامي: لبنان على حافة التقسيم.. الخطيب يفتح قلبه: قرار الاعتزال بإرادتي.. هل هناك قصة حب بين ميادة الحناوي وفنان كبير.. وعاد ناكاسوني بلا حل مع ريجان.. وفاة المطرب عمر فتحي إثر أزمة قلبية).
كتب في نهاية هذه الليلة ما جرى له.. كان يعرف أنه رغم كل شيء لا بد أن يكتب ما حدث هذا المساء دون إبطاء.. في اليوم التالي أي الثلاثاء الموافق 3 يناير عام 1984 وقع (الحادث الأليم) الذي قتله، ولم يصادف أحد من الذين قرأوا أوراقه أي من الشابين والفتاة بعد ذلك أبدًا، كما لم يفكر أحد في البحث عن البيت الذي يوجد فيه

مكتبهم بحسب ما ذكر الكاتب المسرحي، فضلاً عن أن كافة تفاصيل هذا اليوم تم نسيانها تمامًا.
أصبح ما حدث في تلك الليلة هو اللغز الذي لا يمكن حلّه.

---

*الشكر للصديق الكاتب والمترجم (هشام صلاح) الذي تكرّم بترجمة هذه المقابلة من موقع (يوتيوب).
https://www.youtube.comwatchagathachristie=rYAVgrLSzVM

فهرس

ممدوح رزق

كاتب وناقد مصري

صدر له:

ـ دون أن يصل إلى الأورجازم الأخير / قصص قصيرة ـ مؤسسة المعبر للثقافة والإعلام 2015.

ـ بعد صراع طويل مع المرض / شعر ـ عرب للنشر والتوزيع 2015.

ـ فأر يحتفل بخطاب الحقيقة / مسرحية ـ عرب للنشر والتوزيع 2015.

ـ الفشل في النوم مع السيدة نون/ رواية ـ الحضارة للنشر 2014.

ـ مكان جيد لسلحفاة محنطة / مجموعة قصصية ـ سلسلة حروف (الهيئة العامة لقصور الثقافة) 2013.

ـ الخبراء في الحياة / مسرحية من فصل واحد ـ ميتا للنشر والتوزيع 2013.

ـ عداء النص / مقالات نقدية ـ دار حروف منثورة للنشر الالكتروني 2013.

ـ صندوق الذكريات / مجموعة قصصية للأطفال ـ دار عرب للنشر والتوزيع 2013.

ـ خلق الموتى / رواية ـ سلسلة إبداع الحرية 2012.

ـ قبل القيامة بقليل / مجموعة قصصية ـ دارعرب للنشروالتوزيع 2011.

ـ سوبرماريو / رواية ـ دارميتا للنشروالتوزيع 2010.

ـ بعد كل إغماءة ناقصة / نصوص ـ دارالمحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات 2009.

ـ السيئ في الأمر / نصوص ـ دارأكتب للنشر والتوزيع 2008.

ـ رعشة أصابعه.. روح دعابة لم تكن كافية لتصديق مزحة / نصوص ـ مكتبة معابر الإلكترونية 2004.

ـ جسد باتجاه نافذة مغلقة / مجموعة قصصية ـ سلسلة أدب الجماهير

.2001

ـ احتقان / مجموعة قصصية ـ سلسلة إبداعات (الهيئة العامة لقصور الثقافة) 2001.

ـ انفلات مصاحب لأشياء بعيدة / مجموعة قصصية ـ مطبوعات إقليم شرق الدلتا (الهيئة العامة لقصور الثقافة) 1998.

كتب مشتركة:

ـ يوم واحد من العزلة / مجموعة قصص قصيرة جدا مع كتّاب عرب ـ دار فراديس للنشر والتوزيع 2013.

ـ الكاتب وتحديات اللحظة الراهنة / دراسات مؤتمر اليوم الواحد لاتحاد الكتّاب مع نقاد مصريين 2012.

ـ النمو بطريقة طبيعية / مجموعة قصصية مع كتّاب مصريين ـ دار ملامح للنشر 2009.

ـ العامية كنز الإبداع / دراسات الملتقى الثاني للمّة بيت العامية المصرية مع نقاد مصريين 2009.

ـ ملامح وعرة / ديوان شعر مع الشاعرين السوري (عبدالوهاب عزاوي)، والعراقي (صلاح حسن) ـ اتحاد كتّاب الإنترنت العرب 2005.

حصل على عدة جوائز منها:

ـ جائزة المسابقة المركزية للهيئة العامة لقصور الثقافة عن المقال النقدي (خيانة الأثر) 2016.

ـ جائزة اتحاد كتّاب مصر عن قصة (دخول المرآة) 2014.

ـ جائزة نادي القصة عن قصة (إنقاذ جيروم) 2013.

ـ جائزة رابطة الأدباء العرب عن قصة (التخلص من الذباب) 2013.

ـ جائزة (أحمد بوزفور) المغربية في القصة القصيرة عن قصة (إنقاذ جيروم) 2013.

له نشاط في كتابة السيناريو والإخراج السينمائي في مجال السينما المستقلة.

إثر حادث أليم

عبر بناء سردي يعد تمثيلاً للمضمون الذي يحمله، قَدَّم الكاتب "ممدوح رزق" روايته الرابعة "إثر حادث أليم"، التي تُجسِّد رؤيةً حميمية لذكريات السارد (المتكلم) حول فترة طفولته التي قضاها بمدينة (المنصورة) خلال حقبة الثمانينيات، ودارت أحداثها ما بين منزل الأسرة والمدرسة الابتدائية، وما كان للسارد من مواقف قد تتشابه مع ما مَرَّ به أكثرنا، لكنِ الرؤية الفلسفية والتحليل العميق منح هذه المواقف بعداً إنسانيًا خاصًا. نجحت الرواية أن تعيد قارئها إلى عالم "الثمانينيات" عبر عين الطفل (المسرود عنه)، الذي استغرقَه وقتنذ عالمان: "قصص الأطفال" بشخصياتها وأحداثها المثيرة، و"دنيا التليفزيون" بمادته متنوعة الأشكال، ورغم تميُّز الرواية في تسجيل تلك الذكريات رأى السارد أن "كتابة هذه المذكرات كانت محاولة لعدم التذكر.. لعدم ترويض الذكريات".

د. إكرامي فتحي

تصميم الغلاف: د. هند سمير